الطبعة الثالثة

المغرب في عهد الدولة السعدية

دراسة تحليلية
لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية

للدكتور عبد الكريم كريم

منشورات
جمعية المؤرخين المغاربة
الرباط . المملكة المغربية

المغرب في عهد الدولة السعدية

دراسة تحليلية
لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية

للدكتور عبد الكريم كريم

منشورات
جمعية المؤرخين المغاربة
الرباط . المملكة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثالثة 1427 - 2006

المحتويات

مــــدخـــــــــــــــــل 1

الفصل الاول : الاحتلال الاجنبى للسواحل المغربية 5

الفصل الثانى : اوضاع المغــرب الداخليــة 13

الفصل الثالث : رد الفعل المغربى ضد الاحتلال الاجنبى 25

الفصل الرابع : بدء الدعوة السعدية بالجنوب المغربى 33

الفصل الخامس : القيادة السعدية بسوس والاصطدام مع الوطاسيين 45

الفصل السادس : السعديون وتوحيد المغرب 51

الفصل السابع : القضاء على الحكم الوطاسى فى فــاس 65

الفصل الثامن : السعديون والقــوى المجاورة 75

الفصل التاسع : التقارب السعدي ــ البرتغالى ــ الاسبانــى 83

الفصل العاشر : معركة وادي المخازن وبيعة المولى احمد المنصور 97

الفصل الحادي عشر : المنصور والنزاع الانجليزي ــ الاسبانى 123

الفصل الثانى عشر : فتح السودان وتأسيس الامبراطورية المغربية 145

الفصل الثالث عشر : تطور العلاقات الخارجية للامبراطورية المغربية . .. 174

الفصل الرابع عشر : ثورة الناصر وملابساتها الدولية 191

الفصل الخامس عشر : المنصور بين التحالف مع الانجليز و التفاهم مع الاسبان 205

الفصل السادس عشر : مظاهر الحضارة المغربية أيام السعديين 227

نظم الحكم وبناء القوات العسكرية 228

الفصل السابع عشر : المظهر الاقتصادي 253

الفصل الثامن عشر : الاحوال الاجتماعية 277

الفصل التاسع عشر : الناحية الثقافية 307

الفصل العشرون : المغرب بعد المنصور 328

المصادر والمراجع 338

الجدول التاريخي لوثائق الدولة السعدية في القرن (10 هـ / 16 م) 349

نصوص بعض الوثائق التاريخية الهامة 353

بسم الله الرحمن الرحيم　　　　وصلى الله على سيدنا محمد وآله

مدخل

اثر اكتشاف طريق الهند البحرية عبر جنوبى افريقية ، تاثيرا كبيرا علــــى اوضاع حوض البحر المتوسط ، فقد اخذت اهمية هذا البحر تضعف منذ مطلــع القرن السادس عشر ، فى حين ان مكانة المحيط الاطلسى قد ازدادت باعتبار انه اصبح الطريق التجارية الجديدة الموصلة الى بلاد التوابل فى الهند والشـــــرق الاقصــــى .

وقد كان من المتوقع ان يشارك المغرب بلدان حوض المتوسط التى دخلت نتيجة لذلك فى مراحل جديدة من تاريخها ، ولكن قرب المغرب من شبه جزيـــــرة ايبريا وغربى اوربا الناهضة ، وامتلاكه سواحل طويلة على المحيط الاطلســـى ، اثرت على تاريخه تاثيرات اخرى ، ذلك ان انظار البرتغال والاسبان توجهت نحوه، وعملت على احتلال مراكز مختلفة من سواحله . فما هى الاحوال السياسيـــة فى البحر المتوسط فى ذلك الوقت ؟ وما هى احوال بلاد المغرب ؟ وما هى الاوضـــاع الجديدة التى نتجت عن ذلك ؟

شهد حوض البحر المتوسط خلال عصور التاريخ المختلفة تطورات هامة ومتباينة . باعتبار ان هذا البحر يتوسط من جهة قارات العالم القديم الثلاث : آسيا وافريقيا وأوربا . ولان الحوض من جهة أخرى كان الموطن الاول للحضارة البشرية الاولى . ولما كان البحر المتوسط من اهم وسائل المواصلات بين أجزاء العالم القديم . فقد أصبح المحور الاساسى الذي تدور حوله السياسة العامة لمختلف الوحدات السياسية التى قامت على أطرافه : فكل منها كان يسعى الى السيطرة على مجموع هذا الحوض ، وجعله بحيرة خاصة بها ، ولم يخرج عن هذا القصد لا الاغريق ولا الرومان والقرطاجنيون وحتى العرب المسلمون ، وليست غارات الصليبيين وتأسيسهم امارات فى شرقى المتوسط الا محاولات فى هذا الاتجاه .

وعند نهاية العصر الوسيط ، كان حوض البحر المتوسط قسمين متميزين : احدهما ذو طابع عربى اسلامى ، وهو القسم الممتد على كل الناحية الشرقية والجنوبية من الحوض ، والاخر اي جنوبى أوربا، يحتفظ بالطابع المسيحى اللاتينى. ورغم أن العلاقات بين هذين القسمين لم تكن فى مجموعها ودية ، الا أن المبادلات التجارية خاصة ، قد ظلت قائمة بينهما ، حيث كان الاوربيون يستوردون الحاصلات الاسيوية المختلفة التى تسلك طريقين الى البحر المتوسط : أحدهما بري وهو المعروف (بطريق الحرير) من الصين وآسيا الوسطى فالبحر الاسود وسوريا ، والاخرى وهى (طريق التوابل) من موانىء الصين فسيلان والبحر الاحمر الى الاسكندرية . وهذان الطريقان كانا يمران ببلاد العرب ، مما جعل تجار العرب يقومون بدور هام فى عمليات نقل المنتوجات الشرقية التى ياتى التجار الايطاليون لحملها من موانىء الشام ومصر الى ايطاليا وغربى اوربا ، ولما كانت هذه التجارة تدر ارباحا طائلة فان تنافسا حادا قد حصل بين دول غربى أوربا من اجل البحث عن مواطنها وأيسر الطرق للوصول اليها مما كان له اكبر الاثر فى حركات الاكتشافات الكبرى التى انتهت باكتشاف الاسبانيين للعالم الجديد والبرتغاليين لطريق الشرق الاقصى البحرية عبر راس الرجاء الصالح .

وفى السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، ظهرت فى حوض البحر المتوسط قوى سياسية متباينة : البرتغال (1) واسبانيا (2) اللتان ظهرتا كقوتين عظيمتين بسبب حركات الكشوف البحرية التى عادت عليهما بتاسيس امبراطوريتين استعماريتين واسعتين فى قارات مختلفة من العالم . وقد كانتا تعتمدان على عائدات ممتلكاتهما المتزايدة من توابل الشرق وكنوز الغرب ، كما كان التاجر يلعب فى حياتهما الاقتصادية الدور الهام والاساسى ، وقد قامتا بدافع من العصبية الدينية وبتحريض من الكنيسة تعملان على نشر المسيحية ومحاربة المسلمين ومهاجمتهم فى عقر ديارهم .

---

1) ازدادت أهمية بلاد البرتغال كدولة بحرية منذ القرن الرابع عشر الميلادى عند ما نشأت علاقات تجارية بين موانىء البحر المتوسط وبين موانىء غربى اوربا حيث اصبحت لشبونة بحكم وقوعها فى منتصف هذا الطريق ميناء استراتيجيا مما دفع الملوك البرتغال الى الاهتمام بالاساطيل البحرية . وبين سنة 1415 التى هاجم خلالها البرتغال سبتة وبين 1497 التى تم فيها اكتشاف راس الرجاء الصالح ، عرفت مملكة البرتغال ازدهارا ونشاطا متزايدا وخاصة فى عهد الامير هنرى بن جان الاول مؤسس اسرة (Avis) والذى عرف بسبب اهتمامه بالاساطيل وحركات الاكتشافات بهنرى الملاح ، وقد كانت تدفعه الرغبة فى معرفة سواحل افريقية الغربية والوقوف على مدى قوة المسلمين فى افريقية ثم رغبته فى نشر المسيحية فيما وراء البحار استجابة لنداءات البابوية ، علاوة على محاولته لفتح المجال امام الطبقة التجارية الناشئة ، ولم يمض غير زمن قليل حتى اصبحت للبرتغال مراكز ومستعمرات فى معظم سواحل افريقية الغربية وآسيا الجنوبية اتخذت لتموين الاسطول ولتكون بمثابة قواعد يراقب منها البرتغاليون منافذ البحار التي تسيطر على طريق التجارة العالمية آنذاك وحراستها بالاضافة الى اتخاذها مراكز للتجارة مع المناطق المجاورة لها .

---

2) لقد ظهرت اول امارة مسيحية باسبانيا فى اقليم استورياس (Asturias) التى توسعت حدودها وعرفت خلال القرن التاسع بمملكة (Leon) وفى القرن العاشر ظهرت مملكة قشتالة (Castille) كدولة مسيحية ثانية باسبانية ، بينما ظهرت فى شرق البلاد مملكة (Navarro) وخلال القرن الحادى عشر انضمت ليونا الى قشتالة التى تزعمت الحروب ضد العرب المسلمين . على ان النزاع الذى دام طويلا بين قشتالة وارافونة (Aragon) قد انتهى سنة 1469 بزواج ايزابيلا ملكة قشتالة مع فرديناند ملك ارغونة وتكونت بذلك المملكة الاسبانية التى ازدادت مكانتها سنة 1492 بسقوط غرناطة وباكتشاف العالم الجديد فى نفس السنة .

اما القوة الشرقية فهم الاتراك العثمانيون (3) الذين سيطروا علي معظم الشرق الاسلامى وشرقى أوربا ، وبدات انظارهم تتجه نحو بقية البلاد الاسلامية فى الشمال الافريقى لتوحيد جبهة العالم الاسلامى ، وذلك لمواجهة الاخطار الخارجية التى تتوعد هذه البلاد . غير ان جميع هذه البلدان قد ضعفت امكانياتها الاقتصادية وبالتالى اهميتها الستراتيجية ، بعد تعرف الاوربيين على طريق الشرق البحرية ، مما اجبر الاتراك على الاعتماد على عائدات الارض الزراعية بالدرجة الاولى . فالاختلاف كان عظيما بين القوى القائمة فى حوض المتوسط فى السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، فى سائر نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والادارية ، ولقد قامت بين هذه القوى حروب ومعارك ، كما حصل بينها تسابق للسيطرة على المناطق التى يمكن اتخاذها قواعد ، كبلاد الشمال الافريقى : فقد ادرك العثمانيون اهميتها فى تأمين حدود امبراطوريتهم الغربية ، وفى تهديد الطريق التجارية الجديدة عبر المحيط الاطلسى ، ولم يغفل الاسبان والبرتغال بدورهم عن اهمية هذه البلاد ، لاباعتبارها الباب الموصل الى قلب افريقيا لاستغلال ما بها من الخيرات والمعادن ، ولنشر المسيحية بين شعوبها ، بل ولان استيلاء العثمانيين عليها من شانه أن يخلق تهديدا خطيرا للاسبان والبرتغال ، وينذر بالخطر كل المسيحية فى غربى أوربا . ولتتلافى الدولتان المسيحيتان جميع هذه الاخطار ثم لتحولا دون فتح اسلامى جديد لشبه جزيرة ايبريا ، عمد البرتغال والاسبان الى التوسع فى شمالى افريقيا واحتلال مواقع هامة على سواحلها ، يشجعهم على ذلك أحوال البلاد الداخلية المضطربة بسبب ضعف الحفصيين فى تونس ، وبنى زيان فى الجزائر والمرينيين والوطاسيين فى المغرب .

---

(3) الاتراك العثمانيون ينحدرون من العرق الاصفر وقد كان مهد اجدادهم الاولين بآسيا الوسطى ثم هاجروا منها نحو الغرب واستقروا فى بخارى وسمرقند وخورزم التى دخلها الاسلام زمن الفتوحات الاسلامية. وقد لعب الاتراك أدوارا هامة زمن الخلافة العباسية بما يعرف بالعهد التركى ، وكذا زمن السلاجقة الذين عرف الشرق الاسلامى فى عهدهم صفحة ذهبية خالدة . وقد ظهر الاتراك من جديد فى آسيا الصغرى عند مطلع القرن الخامس عشر باسم العثمانيين نسبة الى أحد أجدادهم المعروف بعثمان ، واسسوا أمبراطورية مترامية الاطراف فى كل من آسيا واوربا وافريقيا .

الفصل الأول

الاحتلال الأجنبي للسواحل المغربية

كان لعوامل النهضة الاوربية اثر كبير فى التطورات التى عرفتها بلدان غربى اوربى.وخاصة شبه جزيرة ايبريا ، فلقد اخذت تظهر لدى الاسبان والبرتغال رغبة فى التوسع والسيطرة على البلاد الاخرى ، لاستغلال ما بها من الخيرات ، ولاقامة القواعد على سواحلها ، ولاسيما فى المناطق الستراتيجية والهامة منها ، علاوة على نشر الدين المسيحى بين اهالى البلاد . غير ان الفوز فى هذا التنافس الذي اخذت بوادره تتزايد لدى الاسبان والبرتغال ، كان يتوقف الى حد كبير على الاوضاع الداخلية فى كلا البلدين : فالاسبان كانت مشاغلهم الاساسية تنحصر فى توحيد البلاد ، واسترداد ما تبقى للمسلمين بها ، اما البرتغاليون فقد كانت بلادهم تتمتع بموقع هام لوجودها على الطريق التجارية بين موانىء البحر المتوسط وشمالى غربى اوربا ، اذ عاد ذلك على البرتغال بنتائج عظيمة ، لان الارباح الطائلة ساعدت ملوك لشبونة على توحيد اجزاء البلاد الداخلية ، ودفعتهم فى الوقت نفسه الى الاهتمام بالاساطيل البحرية وتشجيع التجارة مع الخارج . والعمل على الوصول الى مواطن التوابل لاحتكار تجارتها .

ولما كان المغرب بموقعه الجغرافى اقرب نقطة الى غربى اوربا الناهضة وشبه جزيرة ايبريا ، ثم لما كان يمتلك سواحل طويلة على المحيط الاطلسى ، فقد اتجهت اليه انظار البرتغال والاسبان ، واخذت تعمل على احتلال مراكز مختلفة من سواحله ، خصوصا وان اوضاع المغرب الداخلية كانت جد سيئة بسبب ضعف السلطة المركزية فى فاس ، وظهور الوحدات السياسية وما اعقب ذلك من انتشار للفوضى والاضطرابات .

وعمليات الاحتلال البرتغالى والاسبانى للسواحل المغربية ، ترجع فى اصولها الى مطلع القرن الخامس عشر عندما حصل بين هاتين الدولتين نزاع حول ملكية جزر كناريا التى اعتبرها كل من الطرفين نقطة انطلاق وتوسع فى غربى افريقيا . ولاهمية هذه الجزر لم يشأ كل منهما التنازل عنها للآخر ، مما دفعهما الى تحكيم الكرسى المقدس فى روما (4) .

وبديهى ان السفن البرتغالية والاسبانية اثناء سيرها محادية للسواحل المغربية فى اتجاه جزر كناريا وغربى افريقيا ، كانت تضطر الى الوقوف ببعض المراكز المغربية للتزود منها او للتبادل معها الشىء الذي جعل البرتغاليين والاسبانيين يطلعون على الكثير من شؤون البلاد واحوال المغاربة ، وما كانوا عليه من تجزئة داخلية لضعف السلطة المرينية فى فاس ، وعجزها عن ادارة الشؤون العامة فى البلاد . وحدث ان تعرضت بلاد المغرب لنكبات طبيعية تجلت فى الطاعون والمجاعة اللتين عمتا البلاد ولاسيما المناطق الشمالية منها ، فوجد البرتغال فى ذلك فرصة ثمينة سرعان ما استغلوها لاحتلال مركز هام فى شمالى المغرب هو مدينة سبتة (5) التى كانت تتمتع بموقع استراتيجى لاشرافها على الطريق التجارية البحرية بين جنوبى أوربا وشماليها الغربى عبر بوغاز جبل طارق يضاف الى ذلك مناجم الذهب التى طالما سمع البرتغال بوجودها بهذه المدينة المغربية . وقد فاجأت قوات البرتغال البحرية المدينة الآمنة فى اليوم الواحد والعشرين من غشت لسنة 1415 ، ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى كانت المدينة قد وقعت فى قبضة المحتلين البرتغاليين (6) .

---

4) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى البرتغال المجلد الاول : (التسابق البرتغالى ـ الاسبانى فى المغرب والشواطىء الجنوبية منه)

5) كان الاسطول البرتغالى تحت قيادة D. Alphonse وكان يتكون من مائتى سفينة ونحو 50.000 الف محارب وقد ابحر من البرتغال يوم 25 يوليه 1415 ووصل امام سبتة يوم 12 غشت الا ان انزال القوات بسبتة لم يتم الا يوم 21 منه .

6) المصدر السابق نفسه .

ومما تجدر الاشارة اليه هو ان سياسة التوسع البرتغالى منذ احتلال مدينة سبتة ، اصبحت تهدف الى السيطرة على مضيق جبل طارق وبالاخص المراكـــز الجنوبية منه الواقعة على الساحل المغربى بدافع المحافظة على الطريق التجارية فى الحوض الغربى من البحر المتوسط ، مما يفسر لنا الحملات المتواصلـــة التـــى تعرضت لها بعض المدن المغربية الشمالية كطنجة مثلا ، ويجعلنا ندرك فى نفس الوقت الاسباب التى جعلت البرتغاليين يخلفون بالوعود التى قطعوها على انفسهم أن يعيدوا للمغاربة مدينة سبتة رغم انهم تركوا أحد أمرائهم رهينة لذلك ، اثــر فشلهم فى احتلال هذه المدينة سنة 1437 (7) .

هذا الى جانب القيام بعمليات الاستكشافات فى سواحل افريقيا الغربية حيث وصل البرتغاليون الى مصب نهر السنغال واسسوا مركزا تجاريا يحرسه حصـــن فى جزيـــــرة (Arguim) بالقرب من الرأس الابيض ومنه أخذوا يتاجرون بالذهب والرقيـــــــــق .

على أن تزايد المنافسة بين البرتغال والاسبان قد دفعت ملوك لشبونة الـــى السعى لدى البابا للحصول منه على ما يمكنهم اتخاذه كحجة يجابهون بها خصومهم ومنافسيهم الاسبانيين أو غيرهم ، وقد استجاب البابا نيقولا الخامس لذلك ومنحهم براءة فى اليوم الثامن لينابر 1454 تجعل سبتة والممتلكات الاخرى التى كانت قـــد نتحت أو لا زالت فى الاماكن المجاورة وكذلك الشاطىء الافريقى منذ راس بوجادور ونام الى غينيا ومن تم الى ما بعدها من نصيب التاج البرتغالى (8) والاكثر من ذلك

---

7) عندما تولى عرش البرتغال الملك (D. Eduard) بن الملك جان الاول ، رغب فى احتلال طنجة والتوسع فى الاراضـــى المغربية ، ولاجل ذلك ارسل سنة 1437 م حملة ضد المدينة المذكورة الا انها منيت بالخيبة للامدادات المتوالية التى أرسلها الوزير الوطاسى أبو زكريا للمدينة المحاصرة وقد اجبـــرت اخيرا القوات البرتغالية على الاستسلام يوم 16 اكتوبر حيث اشترط المغاربة مقابل اخلاء سبيلهـــم التخلى عن سبتة . وكضمان لذلك سلم البرتغاليون للمغاربة الامير فرديناند كرهينة الى أن يتـــــم الانسحاب عن المدينة المغربية (المصادر الاصلية للتاريخ المغربى المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول . حاشيتـــــه ص 94 .

8) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال المجلد الاول (التسابق البرتغالـــى الاسبانى فى المغـــــرب) .

ان البابا بعث يحث البرتغاليين والامير هنري الملاج بوجه اخص ، بأن لا يتوانوا عن حرب المسلمين ، والاتصال بالممالك المسيحية فى الشرق للتحالف معها على حرب المسلمين وان يدخلوا فى زمرة المسيحية تلك الشعوب التـى لم تتأثـر بالاسلام (9) . والواقع هو أن عمل البابا يعد رد فعل ضد ما قام به الاتـراك المسلمون الذين فتحوا بيزنطة سنة 1453 وقضوا على ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية فى شرقى أوربا .

ولم تمض غير اعوام قليلة على البراءة البابوية حتى قام البرتغاليون بمهاجمة مدينة القصر الصغير بقوات عظيمة يوم الواحد والعشرين من اكتوبر سنة 1458 وقد كان على راس الحملة الملك الفونس الخامس نفسه واحتلال هذه المدينة (10) يرجع فى أساسه الى أنها ميناء هام على مضيق سبتة وطنجة ، ويمكن الاعتمـاد عليه لتقوية سبتة ولمهاجمة طنجة فى قابل الايام . وفعلا فقد تعرضت هذه المدينة لحملات عديدة (11) فشلت جميعها للمقاومة الداخلية الامر الذي حذا بالبرتغاليين الى القيام بمهاجمة اصيلا واحتلالها يوم الرابع والعشرين من غشت لسنة 1471. واتخاذ هذه الاخيرة قاعدة لاحتلال طنجة التى فر عنها اهاليها ودخلتها قوات الاحتلال بعد ثلاثة أيام من التاريخ المذكور (12) . فتعززت بذلك وضعية البرتغال فى شمال المغرب ، وقويت أمانى ملوك لشبونة فى اتخاذ هذه المراكز نقطا لاحتلال داخـل البلاد ، غير ان تزايد المنافسة الاسبانية كانت تجبر سادة البرتغال على تأجيل عملية الانقضاض على المغرب . فالاسبانيون وان اعترفوا بشرعية التوسع البرتغالـى

---

9) فى طلب التوابل . مقدمة صفحة 2

10) عزم الملك البرتغالى الفونس الخامس الذى خلف ادوارد على احتلال مدينة القصر الصغير التى تعتبر ميناء هاما علي مضيق سبتة وطنجة ، هذا المضيق الذى يمكن الاعتماد عليه فى تقوية القوات المهاجمة على طنجة . وفى يوم 21 اكتوبر 1458 قاد الملك البرتغالى نفسه الحملة المكونة من 280 سفينة و 25 الف رجل ، وتم بعد يومين احتلال المدينة التى عين كحاكم عليها الضابط (Duarte Meneses) (المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المقدمة)

11) قاد الفونس الخامس حملة ضد طنجة يوم 20 يناير 1464 الا ان الحملة فشلت وتكبد البرتغـال خسائر فادحة فى الارواح والعتاد (نفس المصادر السابق) .

12) اغتنم الفونس الخامس النزاع القائم بين محمد الشيخ الوطاسى وبين الشريف الادريسى مولاى محمد ابن على عقب اغتيال آخر سلطان مرينى عبد الحق سنة 1465 ، هذا النزاع الذى استمر حتى سنة 1472 م ، وذلك بالهجوم على الاراضى المغربية وبدلا من مهاجمة مدينة طنجة التى استعصـى احتلالها من قبل توجهت القوات البرتغالية نحو أصيلا . وقد كان الاسطول البرتغالى يتكون من 474 سفينة عليها 30 الف مقاتل تحت قيادة (Restelo) وفى يوم 24 غشت 1471 م ، احتل البرتغاليون اصيلا وقد افزع هذا النبأ اهالى طنجة الذين أخذوا فى الجلاء من المدينة مما سهل على البرتغـال احتلال المدينة بعد خمسة أيام من احتلال اصيلا واحتلال هاتين المدينتين ساعد القوات البرتغالية على غزو مدينة العرائش واحتلالها يوم 10 سبتمبر 1473 م . (المصدر السابق) .

فى سواحل المغرب وغربى افريقيا كما تسمح لهم بذلك براءة البابا ، فانهم لدوافع مختلفة قاموا ينازعون البرتغال فى المنطقة الممتدة ما بين راس كانت وراس نون ، اي ما بين اسفى وافنى تقريبا ، مدعين بأن البراءة البابوية السابقة لم تنص على ذلك (13) ، ومن تلك الدوافع ما اشتهرت به هذه المنطقة من تجارة واسعة وغنى فى المحصولات الزراعية والمعدنية (14) ، وما أن تطور الخلاف بين الامتين المسيحيتين واشتعلت نيران الحرب بينهما ، حتى اسرع الاسبان الى التقرب من الوطاسيين الذين قامت دولتهم على أساس محاربة المحتلين البرتغاليين ، وانتهى الامر بخلق تحالف عسكري بينهما كما ظهر ذلك فى الهجوم المشترك على سبتة من البر والبحر سنة 1476 (15) ، وقد استغل الاسبان هذه الحروب واحتلوا بجنوبى المغرب عند وادي ذون منطقة بنوا بها حصنا سنة 1478 اطلق عليه سانتاكروز(16) ولم تنته حال الحرب بين الاسبان والبرتغال الا بعد توقيع معاهدة طليطلة فى السادس من مارس 1480 تخلى بموجبها البرتغال عن كل ادعاء لهم فى جزر كناريا مقابل اعتراف الاسبان بحق البرتغال فى غينيا وكل المناطق التى سيقع اكتشافها فيما وراء جزر كناريا ، وكذلك حقوق الفتح فى مملكة فاس .

ورغم توقيع هذه المعاهدة ، فان الجو لم يصف بين الفريقين للخلاف الذي حصل بينهما حول حدود واراضى مملكة فاس : فلقد وسع البرتغاليون حدود المملكة وجعلوها تشمل كل بلاد المغرب الحالية تقريبا فى حين ان الاسبان اقتصروا فى تعريفهم للمملكة على الجزء الشمالى من المغرب . وعلى ما يبدو فان هذا الخلاف قد وجه انظار لشبونة نحو سواحل المنطقة المتنازع عليها — أي المنطقة الجنوبية من ساحل المغرب الاطلسى — اذ منذ السنة التالية لتوقيع معاهدة طليطلة نجد البرتغاليين يبسطون شبه حماية على مدينة أسفى سنة 1481 ، ثم مدينة ازمور 1486 (17) ، ليجعلوا منافسيهم أمام الامر الواقع .

---

13) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد 1 (المقدمة) .
14) كانت التجارة رائجة فى جنوبى المغرب حيث كان الاجانب يسعون الى اقتناء الذهب والسكر ومدى البارود والنحاس والجلود الخام او المدبوغة ثم الشمع والصمغ والتمر والعسل ، هذا علاوة على المزروعات المختلفة (المصادر لاصيلة للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . المجلد الاول . بريطانيا المقدمة) .
15) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الاول . (أوائل الاحتلال البرتغالى للمغرب) .
16) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول (التسابق البرتغالى الاسبانى فى جنوبى المغرب) .
17) المصدر السابق نفسه .

على ان انشغال الفريقين بعمليات الكشوف الكبرى ، الى جانب بعض الاحداث الداخلية لم يعرض بقية السواحل المغربية للاحتلال الاجنبى : فالبرتغاليون اصبح شغلهم الشاغل هو التوصل الى الهند والشرق بحرا بعد أن نجح بارثولومه ديـاز (Bartholome Diaz) فى التعرف على جنوبى افريقيا واصبح فى الامكان الدوران حول افريقيا منذ سنة 1487 ، وذلك للوصول الى مواطن التوابل لانتزاع تجارتها من أيدي التجار الايطاليين الذين كانوا يحتكرون تجارتها ويجنون من ورائها الارباح العظيمة . اما الاسبان فقد أصبح اهتمامهم ينحصر فى توحيد اراضيهم وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها ، خصوصا وقد أصبحت كل اسبانيا خاضعة لسلطة واحدة بعد زواج ايزابيلا ملكة قشتالة مع فرديناند ملك اراغونة وعندما كانت سنة 1492 حقق الاسبانيون نصرين عظيمين : فتحهم غرناطة آخر حصن عربى اسلامى بالاندلس . واكتشافهم العالم الجديد الذي ساد الظن فى أول الامر بأنها الشواطىء الشرقية لبلاد الهند ، فكان ذلك تفوقا كبيرا احرزه الاسبانيون على منافسيهم البرتغاليين . وقد استغل الاسبان هذه الاحداث وانتزعوا من البرتغال اعترافهم حسب معاهدة (Tordesillas) التى وقعت يوم السابع من يونيه لسنة 1494 باحقية الفتح الاسبانى فى الجزء الشرقى من ساحل المغرب الشمالى ، مقابل منع الرعايا الاسبان من اجتياز رأس بوجادور (18) . كما التجأ الاسبان — الى نفس الوسيلة التى كان البرتغال قد استعملوها من قبل ، وهى مطالبة البابا الاسكندر السادس بمنحهم براءة يأذن لهم فيها بالتوسع فى افريقيا ، وقد بارك الكرسى البابوي فى اليوم الثانى عشر من نونمبر 1494 ، أرواح الذين سيشاركون بأموالهم وأرواحهم فى عمليات الغزو التى سيقوم بها الملوك الاسبانيون ، كما منحهم براءة فتح ممالك افريقيا فى اليوم الثالث عشر من يبراير 1495 م (19) : من غير ان توضح البراءة المقصودة من ممالك افريقيا . ولعل الاسبان تعمدوا هذا الغموض ليستغلوه فى التوسع بافريقيا وليحاجوا به منافسيهم البرتغاليين . وهكذا وصلت الى مليلية قوات بحرية اسبانية استطاعت فى مدة وجيزة أن تحتل المدينة التى كان

---

18) المصدر السابق

19) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى اسبانيا . المجلد الاول — مليلية خلال القرن 16 .

اهاليها قد فروا عنها خوفا من الاحتلال الاجنبى . وتمت السيطرة على مليلية خلال سبتمبر سنة 1497 (20) ، فى نفس السنة التى نجح البرتغاليون خلالها فى تحقيق الامل المنشود وهو الوصول بحرا الى الهند موطن التوابل التى طالما تاقت نفوس البرتغال لاحتكار تجارتها .

واكتشاف طريق الهند والشرق الاقصى البحرية ، يعد بداية تطور هـــام بالنسبة لعمليات التوسع الاسبانى والبرتغالى فى السواحل المغربية وبالاخص فى سواحل البلاد الجنوبية التى ازدادت اهميتها بحكم وقوعها مشرفة على طريـــق التجارة الجديدة ، اذ كان على السفن التجارية البرتغالية العائـدة من الهنـــد والشرق ان تقترب كثيرا من هذه السواحل لوجود جزر كناريا التى كانت فى قبضة الاسبانيين وبهذا اثيرت قضية حدود مملكة فاس من جديد بين الاسبان والبرتغال وازداد نزاعهما لادراك كل من الفريقين مدى اهمية هذه السواحل من بلاد المغرب الجنوبية فى مراقبة طريق الهند البحرية . ولعل البرتغاليين حاولوا ان يضعـــوا منافسيهم أمام الامر الواقع اذ أسرعوا الى احتلال ساحل ماسا سنة 1497 (21)، غير ان الاسبانيين اجابوا على ذلك باحتلال مواقع ساحلية على مقربة من سانتا كروز مثل طاكاوست عاصمة وادي نون ، وتامانار وافران وافنى وذلك سنة 1499، وليعزز الاسبان نقط احتلالهم هذه اقاموا عدة حصون بها خلال السنة الاولى من مطلع القرن السادس عشر . وقد حاولوا فى سنة 1504 أحتلال ساحل اكادير الا ان سكان ماسا بتحريض من البرتغال وبمساعدتهم أجبروا الاسبانيين علـــى الانسحاب (22) فى حين ان القوات البرتغالية اسرعت الى احتلال المنطقة المذكورة واقامة حصن منيع بها أعطى نفس اسم سانتا كروز وكان ذلك سنة 1505 (23).

---

(20) كانت مليلية عند مطلع القرن السادس عشر تظهر كمنطقة ثانوية لان العناية كانت موجهة نحو ميناء فاصاصة وثازوطا ، وقد كانت الحملة الاسبانية بقيادة (D. Juan de guzman) (المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . اسبانيا المجلد الاول — مليلية خلال القــرن 16)

(21) فى اليوم 11 يناير 1497 بسط البرتغاليون حمايتهم على أهالى ماسة واقاموا بساحل المنطقة حصنا منيعا (المصادر الاصيلة للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول — (التسابق البرتغالى-الاسبانى فى جنوبى المغرب)

(22) المصدر السابق نفســه .

(23) لم يكن الحصن البرتغالى قد بنى فى موقع أكادير الحالية ، بل عند عين فونتى على بعد كيلومترين او ثلاث كيلومترات نحو الشمال وقد سماه البرتغال (Santa Cruz de Cabo de gué) نسبة الى راس كير القريبة منه ((المصادر الاصيلة للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى . (احتلال البرتغال لاكادير) .

ولم تقتصر المنافسة الاسبانية البرتغالية على سواحل بلاد المغرب الجنوبية، وانما شملت بقية سواحل المحيط الاطلسى وسواحل البحر المتوسط أيضا ، اذ احتل الاسبانيون فى سنة 1506 مدينة غصاصة (24) بينما فرض البرتغال سيطرتهم على موكادور (الصويرة) (25) التى ساعد اخذها على احتلال أسفى خلال سنة 1508 م (26) ويعد احتلال الاسبان لحجرة بادس فى نفس هذه السنة نهاية التسابق بين الامتين المسيحيتين على التوسع فى السواحل المغربية ، اذ توصلتا فى اليوم الثامن عشر من سبتمبر 1509 الى توقيع معاهدة (Sintra) التى وضعت حدا للنزاع والخلاف بينهما ، على أساس اقتسام مناطق النفوذ فى السواحل المغربية : فقد أطلقت يد الاسبان فى السواحل المغربية الواقعة بين بادس غمارة حتى غصاصة ومليلية ، مقابل اعترافهم بنفوذ البرتغال منذ حدود بادس غمارة حتى راس بوجادور ونام عدا حصن سانتاكروز الذي احتفظ به الاسبانيون فى سواحل بلاد المغرب الجنوبية (27) . اذن يمكننا أن نرى ان التنافس البرتغالى الاسبانى قد جعل معظم سواحل المغرب الشمالية والغربية ، تخضع للحكم الاجنبى ، مما زاد فى ضعف البلاد ، وقوى الفتن الداخلية لدرجة أصبح الحال معها ينذر بأفدح الاخطار والنكبات .

---

24) حسب المصادر الاصيلة للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول (مليلية خلال القرن 16) فان أهالى غصاصة قد أرسلوا الى اسبانيا منذ يبراير 1494 ، وفدا لتقديم طاعتهم . وقد باشر الاسبان احتلال المدينة منذ 4 اكتوبر 1504 ولم يتم احتلالها الا فى أبريل لسنة 1506 .

25 اقام البرتغال فى موكادور خلال عهد الملك عمانويل الاول حصنا عرف باسم (Castillo Real) وذلك فى غشت 1506 (المصادر الاصيلة للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص. 120 .

26) يرجع النفوذ البرتغالى فى أسفى الى سنة 1481 وقد تزايد هذا النفوذ فى عهد جان الثانى سيما وان ميناء أسفى كان بمثابة محطة تجارية بين غانا والبرتغال . وحسب ليون الافريقى فان ميناء أسفى كان مطروقا من قبل التجار الاوربيين . وقد استفاد البرتغاليون من الفوضى التى كانت عليها المنطقة لبسط نفوذهم ولما تأكدوا من وجود صلات سرية بين الاسبان وبعض أهالى أسفى قاموا باحتلال المدينة عسكريا ثم بنوا بها حصنا باسم (Chateau de Mer)
(المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 151)

27) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول — (التسابق البرتغالى الاسبانى فى جنوبى المغرب) .

الفصل الثاني

أوضاع المغرب الداخلية

في الوقت الذي وقع فيه التنافس الاسباني البرتغالي على المغرب . كانت ظروف هذه البلاد العامة في أحوال سيئة . فتعدد الاعداء ، وتعدد مراكز الاحتكاك والاحتلال ، أدت الى تجزئة المعركة بالنسبة للقوى الوطنية . واذا اضفنا الى ذلك صعوبة المواصلات والبعد عن مركز السلطة الحاكمة في فاس ،لوجدنا ان العوامل كانت تساعد على تفكك المعسكر الوطني :

فمن الناحية الاقتصادية : لقد تأثرت أوضاع المغرب الاقتصادية بحالة التجزئة والفتن السائدة في داخل البلاد ، وبالاخطار الخارجية التي ترتبت عن الاحتلال الاجنبي لمعظم السواحل المغربية ، والتوسع العثماني في الجزائر في الوقت الذي كانت الروابط بين المغرب وغربي افريقيا قد ضعفت . والواقع انه ليس هناك من مجال يعكس لنا الحالة الحقيقية التي أصبح عليها المغرب ،كالناحية الاقتصادية : فقد اضطربت جميع المظاهر الاقتصادية ولم نعد نرى أثرا للنشاط الذي عرف به المغرب في ميدان المبادلات التجارية مع بلدان حوض البحر المتوسط، وكذا مع مناطق الصحراء وغربي افريقيا . كما ان اعمال الزراعة التي كانت مزدهرة باعتبار أن معظم الاراضي في المغرب سهول خصبة قد اضطربت مما أضعف من نشاطها وقلل من منتوجاتها ، اذ كان من العسير على الفلاح ان يتعهد أرضه في جو تسوده الفتن والفوضى اي في أوضاع لم يكن الفلاح يشعر خلالها بالطمانينة والامن زد على ذلك المحافظة على وسائل الزراعة القديمة . ونفس الامر حصل للحرف والصنائع التي الى جانب تمسكها بطرق العصور الوسطى ، لم تجد الجو الملائم للازدهار والتطور . ولقد ترك لنا الحسن الوزان (1) (ليون الافريقي) المعاصر ،

---

1) ليون الافريقي (Léon d'Africain) هو الحسن الوزاني ابو علي ولد حوالي 1496 في فاس ونشأ بها ثم رحل الى الشرق وغربي افريقيا وعاصر بداية الاحداث التي تعرض لها المغرب اواخر العهد الوطاسي وقيام الدولة السعدية . أسره القراصنة الاوربيون قرب الشاطيء التونسي 1520 ونقلوه الى ايطاليا حيث عمده البابا ليون العاشر وسماه (يوحنا الاسد) وفي ايطاليا تعلم اللغات الايطالية واللاتينية كما كان يتقن الاسبانية والعبرية ، الامر الذي ساعده على ترجمة رحلاته لافريقيا الى ايطالية بطلب من البابا ، وقد قام الحسن الوزان بتدريس العربية في كلية (Bologne) التي كانت من أعظم جامعات ايطاليا في عصر النهضة الحديثة . عاد الى افريقيا الشمالية سنة 1528 ثم عاد ثانية الى أوربا وانقطعت أخباره .

وصفا هاما للحرف المغربية وعمليات التبادل التجاري ، دون أن يغفل عن التعرض الى النتائج التى ترتبت عن الاحتلال الاجنبى فى الميدان الاقتصادي بوجه خاص ، وجميع ما أورده يؤكد لنا بأن الاقتصاد المغربى قد أصبح يعيش فى نظام شبه مغلق. الامر الذي زاد من مساوىء الحالة الداخلية للبلاد . فعمت الفتن والاضطرابات وأصبح من الصعب وجود طرق آمنة منظمة ، لا تتعرض لاعمال النهب والسلب ، مما ساعد على التجزئة الداخلية وجعل الوحدات السياسية تعيش فى نظام شبه اكتفائى (2) . ولم يشذ عن ذلك الا المدن الساحلية والقبائل التى كانت توجد على مقربة من مراكز الاحتلال الاجنبى لانها اخذت فى التعامل مع الاجانب من برتغال وغيرهم (3) . وأكثر ما تحفظ لنا المصادر أحوال سكان السواحل المغربية الاطلسية الذين كانوا يتاجرون مع البرتغال خاصة يوم كان هؤلاء منهمكين فى اكتشاف سواحل افريقيا الغربية ، وجادين فى البحث عن طريق الهند البحرية . وحسب هذه

---

2) لقد أولى الحسن الوزانى الناحية الاقتصادية عناية كبرى لما لها من أهمية وتأثير على مختلف أوضاع البلاد ، ولم يكتف بذكر أشهر المصنوعات المغربية بل تعرض أيضا الى المناطق التى تصنع بها كما حلل عمليات التبادل التجارى بين النواحى المغربية .

3) بعد احتلال البرتغال لسبتة والقصر الصغير حصل اتفاق بين البرتغال والقبائل المجاورة لهاتين المدينتين ، يسمح بموجبه لهذه بالمتاجرة مع المدينتين ، مقابل السماح بمرور القوات البرتغالية بالاراضى المجاورة ، واجراء التداريب العسكرية بها . (المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول . أوائل احتلال البرتغال للمغرب)

المصادر نعلم بأن المغاربة فى القسم الجنوبى من الساحل الاطلسى ، كانوا يتاجرون مع الاجانب ، وانهم كانت لهم سفن خاصة بهم ، بل وان من الدوافع التى جعلت بعضهم يدخل تحت الحماية البرتغالية الرغبة فى استمرار المتاجرة مع الاجانب ومع أوربا وبلاد البرتغال بوجه خاص (4) .

---

4) هناك رسائل عديدة تبودلت بين ملوك البرتغال والاهالى فى السواحل الجنوبية لبلاد المغرب ، وقد وردت فى المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول — وهى مكتوبة بلغة أقرب منها الى العامية .

1 — رسالة من أهالى أزمور الى الملك جان الثانى مؤرخة سنة 1486 يعربون فيها عن طاعتهم وخضوعهم لحمايته ، ويؤكدون له الجزية السنوية التى سيقدمونها له سنويا (عشرة الف شابل) . كما يخبرونه بأنهم لن يأخذوا من المراكب البرتغالية ضرائب وكذا التجار البرتغال الذين سيتاجرون معهم . ويخبرون على طاعتهم فقد أخذوا الاعلام البرتغالية ورفعوها فوق بلادهم . ويرجو أهالى أزمور من الملك البرتغالى أن يخبر ملوك النصارى حتى لا تتعرض سفنهم لمراكبهم فى البحر (كما هو الامر بالنسبة لرعاياكم) وان من أراد (منا المتاجرة مع بلادكم يكون له الحق فى ذلك) دون ان يلحقه أذى (المصدر السابق . ص 9) .

2 — رسالة من جان الثانى الى سكان أسفى مؤرخة بسنة 1488 .

مبتدئة بعبارة (دون جون بنعمة الله سلطان البرتغال والغربيين المحيطين بالبحرية وصاحب كناوة الذهبيين) . وجوابا على الرسالة التى بعث بها سكان أسفى الى الملك البرتغالى لتجديد طاعتهم ، يؤكد لهم رضاه عنهم ويسمح لهم برفع الاعلام البرتغالية بعد تأدية يمين الطاعة وعلى ان يرسلوا فى كل شهر سبتمبر 300 مثقال ذهبا أو قيمتها مع اقامة دار للتجارة فى المدينة التى سيستقر بها التجار البرتغاليون ، ويختم الملك البرتغالى رسالته مخبرا أهالى أسفى بانه أمر البرتغاليين بأن لا يؤذوهم وان من خالف منهم ذلك يعاقب (المصدر السابق ص 25) .

3 — رسالة من اهالى أسفى الى عمانويل الاول بتاريخ 1509 .

بعد اطلاع الملك على أحوالهم المضطربة وانهم متمسكون بطاعته ويخبرونه بتعسفات عامله

فى أسفى وبما يقوم به الجنود البرتغاليون فى أسفى من فوضى وتخريب مما أضعف التجارة بأسفى . ويختمون رسالتهم بان يطلبوا من الملك البرتغالى ان يولى على أسفى عاملا عادلا يستطيع أن يصلح ذات البين بين سكان أسفى والقبائل المحيطة بها لتزدهر البلاد من جديد. (المصدر السابق . ص 177) .

4 — رسالة من أهالى ماسة الى عمانويل الاول مؤرخة بسنة 1510 .

مستهلة بالعبارة الاتية : (يصل بيد السلطان العادل سلطان البرين واقاليم الهندى دون منوال) بعد السلام يخبرونه بالسرور الذى اعتراهم عندما علموا ان الملك البرتغالى سيقيم ببلدهم حامية برتغالية ، ويذكرونه بتفانيهم فى طاعته (التى أمنوا بها فى بلادهم) . ثم يوجهون انتباه الملك البرتغالى الى أن سفنهم التجارية تتعرض للنهب فى البحر مما جعل جيرانهم يضحكون عليهم مع انهم تحت حماية التاج البرتغالى ، ويرجونه النظر فى أمرهم وان يرد عليهم حقوقهم التى نهبت وان يأمر البرتغاليين بالكف عن اذايتهم (المصدر نفسه ص 233)

ومن الناحية السياسية : كان لضعف السلطة فى فاس وعجزها عن صيانة الامن والدفاع عن البلاد اثر كبير فى انتشار الفوضى والفتن مما ادى الى تجزئة المغرب الى وحدات سياسية شبه مستقلة بعضها املتها ظروف الجهاد ومقاتلة العدو المحتل للسواحل المغربية كما حصل بالنسبة لشفشاون والقصر الكبير وتطوان ، وبعضها الآخر نتيجة البعد عن مقر الهيئة الحاكمة ، وذلك كما تم فى شرق المغرب وجنوبه . بالاضافة الى أن معظم القبائل التى كانت بالسواحل الاطلسية خاصة قد وجدت نفسها مضطرة الى مهادنة المحتلين واعلان بعضها الدخول تحت حماية البرتغاليين .

فقد ظهرت مدينة شفشاون كمركز للمقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاجنبى منذ أن اتخذها المولى على بن راشد (5) قاعدة لجهاده ضد البرتغال ، وتحفظ لنا المصادر التاريخية الكثير من المعارك التى خاضها هذا المجاهد ضد البرتغال وحسب منظومة الكراسى فان المولى على بن راشد قد ثار ضد الوطاسيين وانتقد مهادنتهم للبرتغال (6) ، ورغم اخضاع ثورته فان مدينة شفشاون ظلت تحتل مكانة مرموقة فى حركات الجهاد باعتبارها من الثغور القريبة من مراكز الاحتلال البرتغالى . وعندما وافت المنية المولى على تابع ابنه المولى ابراهيم عمليات الجهاد والغزو ضد البرتغال فى كل من طنجة واصيلا والعرائش .

والى جانب شفشاون هناك مدينة القصر الكبير التى (كانت سوقا تجلب اليها بضائع العدوتين . . وثغرا بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى) (7) وقد تولى حكم هذه الامارة عائلة العروسى التى كان القائد أحمد من اشهر ابنائها ومن الذين

---

5) على بن راشد : أحد شرفاء جبل العلم . صارع البرتغال فى مراكز احتلالهم بشمالى المغرب . وهو الذى بنى مدينة شفشاون واتخذها مقرا لقاعدة جهاده وقد أسره البرتغال فى طنجة فى اكتوبر 1457 وأطلق سراحه فى عمليات تبادل الاسرى .
(المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول — المقدمة)

6) القاضى محمد الكراسى : كان أديبا شاعرا تولى خطة القضاء بمدينة تطوان ، له (عروسة المسائل فى ما لبنى وطاس من الوسائل) وهو جزء فى تاريخ الدولة الوطاسية فرغ منه عام 1543م (عروسة المسائل) (المطبعة الملكية) الرباط 1963 . ص 17 .

وثار فى شفشاون وصالا ... ذاك الشريف العادم المثالا
دعا لنفسه وجاءه الطمع ... ان يدخل الحضرة من حيث طلع
على بلاد مغرب سلطانا ... خاف وخاب رايه ما كانا
تحركت لداره الجنود ... فاس ومكناس لهم بنود
... فانحصر بن راشد فى الجبل ... بالانقطاع وتمام الحيل
فطلع السادات للشريف ... لاموه عما كان من تخريف
دخل فى الطاعة والجماعة ... وتبعث شفشاون بالطاعة

7) مرآة المحاسن ص 143

عرفوا بحملاتهم المتواصلة ضد مراكز الاحتلال . على أن المدينة التى ساهمت بحظ اوفر فى هذا القبيل هى مدينة تطوان وذلك بحكم موقعها على الساحل الشمالى للمغرب حيث كان البرتغاليون والاسبانيون قد أتموا السيطرة على كل المدن الهامة بهذه المنطقة ، يضاف الى ذلك وهو العامل الاساسى كون تجديد هذه المدينة يرجع الى المهاجرين الاندلسيين الذين كانوا يقدرون جيدا مدى خطورة التوسع المسيحى فى المغرب الامر الذي دفعهم الى القيام بحركات الغزو وخاصة فى البحار ضد السفن الاسبانية والبرتغالية . وقد تولت أمر هذه المدينة عائلة أندلسية هى أسرة المنظري التى توارث ابناؤها الحكم فى تطوان والذين اشتهروا بأعمالهم الحربية ضد الاعداء (8) .

واذا كانت ظروف الجهاد والمناداة بقتال المحتلين قد ساعدت على ظهور هذه الوحدات السياسية فى شمال المغرب ، فان ضعف الحكم الوطاسى فى فاس قد دفع بعض الولاة فى المناطق البعيدة الى محاولة الاستقلال عن العاصمة ، ومن هذا القبيل ما حصل فى مدينتى : دبدو بالمغرب الشرقى ، ومراكش فى جنوب المغرب .

فدبدو : التى تقع غير بعيدة عن وادي ملوية والتى تعد نقطة هامة فى المغرب الشرقى قد أخذت تظهر كمركز لامارة شبه مستقلة منذ العهد الاول لقيام الوطاسيين ، ونحن وان كنا نجهل الكثير عن هذه الامارة لقلة المصادر والوثائق عنها ، الا انه – حسب ما يظهر – فان هذه المدينة قد التجأ اليها بعد زوال الحكم المرينى فى فاس بعض الامراء المرينيين . وفى منظومة الكراسى ما يؤكد ذلك اذ ورد بأن أميرا مرينيا هو محمد بن أحمد قد ثار بدبدو ودعا لنفسه الا أن الوطاسيين أخضعوا ثورته (9) وان استمرت هذه الامارة فى الظهور ، مما يجعلنا نرى بأن المرينيين الذين زحزحوا عن فاس قد اتخذوا دبدو مركزا جديدا لامارة صغيرة هى كل ما بقى لهم من حكم المغرب ، ولقد ظل حكام دبدو يلقبون بالملوك وظلت هذه الامارة المرينية معاصرة للوطاسيين الى أن كانت نهايتهما معا على يد السعديين .

---

8) تطوان . المجلد الاول . ص 85 .

9) وثار فى دبدو بذاك الحين ... محمد بن أحمد المرينى
دعا لنفسه وعاث فى البلاد ... ورام بعد الصلح أمرا بفساد
فعقدوا صلحا مع السلطان ... ورجعوا فى نعمة المنان
وجاء هنا ولد الدبدوبى ... حتى بفاس جد فى الركوب
وكان ذا سنة خمس جازت ... من بعد تسعمائة ولازت

(اى ثار سنة 905 هـ الموافق 1499) (عروسة المسائل فيما لبنى وطاس من الفضائل . ص. 19) .

وفى الجنوب المغربى : استولى أمراء هنتاتة وهى قبيلة من مصمودة على حكم هذه المناطق واتخذوا مراكش عاصمة لهم ، وقد اخذ نفوذهم يزداد منذ منتصف القرن الخامس عشر حيث امتد خلال بعض الفترات الى سواحل المحيط الاطلسى . على ان بعض المصادر التاريخية تؤكد بأن أمراء هنتاتة رغم استقلالهم العملى بجنوبى المغرب فان الروابط التى كانت تربطهم مع فاس لم تظهر وكانها انقطعت . ويمكن اعتبار هذه الملاحظة فى الواقع بالنسبة لجميع الوحدات السياسية التى ظهرت بالمغرب خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخه .

والى جانب هذه الامارات الداخلية هناك القبائل التى كانت توجد على الساحل الاطلسى حيث انشأ البرتغاليون عدة مراكز وقلاع ما بين طنجة حتى اكادير باعتبار انها تشرف على الطريق التجارية البحرية نحو الهند والشرق الاقصى ، وقد اقام البرتغاليون فى هذه المراكز قوات مسلحة ، كما اتخذوا منها مخازن لتموين الاسطول ونقط استناد لاكتساح المناطق الداخلية من البلاد . ولما كان الاهالى فى المناطق الساحلية قد دابوا على التعامل مع الاجانب فى مراكز الاحتلال ، فقد ساد النفوذ البرتغالى فى هذه المناطق ، بل وان البعض من هؤلاء لم يتورع عن اعلان طاعة البرتغال والدخول فى حماية التاج البرتغالى ، الامر الذي جعل سكان المناطق الداخلية والمجاورة لهم خاصة يتبرمون منهم ويسعون الى القضاء عليهم ، ما دام هؤلاء المتعاملون قد ربطوا مصيرهم بالاحتلال الاجنبى .

وان الرسائل التى تبودلت بين بعض مشايخ وزعماء هذه القبائل وبين ملوك لشبونة لتعد من الوثائق الهامة التى تكشف لنا القناع عن الكثير من أوضاع البلاد الجنوبية من المغرب خلال اواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن الذي يليه .

هذه هى الاوضاع السياسية التى كان عليها المغرب عند مطلع القرن السادس عشر ، وهى فى مجموعها تدل على مدى التجزئة التى وصلت اليها البلاد مما ساعد على تزايد الفتن الداخلية وشجع فى نفس الوقت الاعداء على التمادي فى عمليات الاحتلال والتفكير فى السيطرة الشاملة على مجموع المغرب .

ومن الناحية الاجتماعية : فلئن كانت هناك مدن قد ازدهرت من قبل ولا زالت بها بعض من مظاهر حضارية ، فان الاغلبية العظمى من السكان كانت تعيش فى البادية حيث يسود نظام العشيرة والقبيلة ، فمدينتا فاس وتطوان كانتا تمثلان مستوى رفيعا من التقدم الحضاري : الاولى باعتبارها العاصمة السياسية منذ

عهد المرينيين ، والثانية تدين بوجودها وتقدمها الى المهاجرين الاندلسيين الذين نقلوا من وطنهم الاصلى مظاهر شتى للحضارة العربية الاندلسية وتأتى بعد فاس وتطوان مدينة مراكش التى لا تزال بها بقايا من مجد غابر عرفته فى عهد المرابطين والموحدين ، اما بقية المدن فقد كانت فى مراحل التطور وخاصة الواقعة منها فى الداخل ، لان المدن الساحلية كانت قد وقعت جميعها تقريبا فى قبضة الاحتلال الاجنبى . وبالنسبة للبادية التى كانت تمثل القسم الاعظم والهام ، فان حياة القبيلة ونظام العشيرة هما السائدان من بين انماط الحياة بالمغرب ، ولا تخفى علينا المظاهر التى تغلب على المجتمع القبلى سواء فيما يرجع للتمسك بالاعراف والتقاليد المحلية ، مما يحول دون قيام ترابط بين افراد المجتمع ، او فيما يتعلق باستمرار النزعات العصبية ، وما يتبعها من فوضى وفتن ولا يوجد بين ايدينا اعظم من منظومة الامام الهبطى (10) المعاصر (الالفية) التى تعتبر صورة حقيقية لما آلت اليه احوال الناس من عادات وتقاليد سواء بالنسبة لسكان المدن او القبائل المنتشرة فى البوادي المغربية والظواهر التى تبرزها الالفية هى انحراف الناس عن مباديء الاسلام الصحيح ، واحداثهم الكثير من البدع مثل تغييرهم القواعد الخمس التى بنى عليها الاسلام ، وايمانهم بالكهان وشيوع عادات شرب الخمر ، واستعمال الوشم وكذا الغش فى المعاملات . وهذا الخروج والانحراف عن الدين القويم لم تتصف به طبقات العامة فقط بل ولقد تجلى بصورة اشد عند الطبقة الخاصة التى كانت تتكون من الفقراء اي المتقشفين ، والفقهاء اي رجال الدين ، ثم طبقة الامراء

---

(10) الهبطى : هو الشيخ ابو محمد عبد الله بن محمد بن الطنجى المعروف بالهبطى نسبة الى الهبط . وهو من أكابر اهل العلم والعرفان ورفعة القدر الواضحة البرهان . كانت تلك الجبال التى كان بها وهى جبال غمارة كثيرة الجهل وشرب الخمر وغير ذلك من المناكر فبذل الوسع فى تعليم التوحيد وتقرير العقائد وتغيير المناكر وخاطب فى ذلك ولاة البلاد وأشياخ القبائل فهدى به عالما لا يحصى وحسن حال البلاد واهلها . (مرآة المحاسن ص 5) وقد عده صاحب التحفة من مشايخ الطبقة الثالثة من اتباع الجزولى . توفى عام 963 هـ ـ 1555 م بمعانب بحوز شفشاون التحفة ص 32)

والحكام . ويبرز الامام الهبطى حقيقة هامة وهى انه اذا ضعف ايمان اهل المدن ، فان الحالة لادهى وامر بالنسبة لسكان البوادي (11) .

واخيرا هناك الناحية الفكرية : التى اكثر ما يهمنا منها الاطلاع على الدور الذي أصبحت تلعبه الزوايا والرباطات التى كانت منبثة فى مختلف مناطق المغرب . فنحن بعد تعرفنا على الاوضاع العامة التى كان عليها المغرب من سياسية واقتصادية واجتماعية عند مطلع القرن السادس عشر أصبح من السهل علينا ان نتنبأ عن الحالة الفكرية التى أصبحت عليها البلاد : فاذا كانت فاس لا تزال متمتعة بالشهرة العلمية بفضل جامع القرويين ، واذا كانت تطوان قد اخذت تتبوأ مقاما رفيعا فى هذا المجال باعتبار أن المهاجرين الاندلسيين الذين انشأوها كانوا على مستوى عال من التقدم الفكري والحضاري ، فانه لمن الصعب العثور على مراكز علمية أخرى تضارع ما ذكرنا ، اللهم الا ما كان من الزوايا والرباطات التى قلما تخلو منها منطقة أو ناحية من بلاد المغرب ، والتى لم تعدم ظهور ائمة ومشايخ اشتهروا فى علوم الدين أو عرفوا بالتقشف والزهد . وهذه الزوايا والرباطات ترجع فى أصولها الى الحركات الصوفية الاولى التى كانت قد تسربت الى المغرب من الشرق والاندلس منذ أمد بعيد .

غير أن تسرب الانحراف والشذوذ الى بعض الحركات الصوفية أبعدها عن اهدافها الحقيقية الى حد أن الكثير من الفقهاء قاموا يعارضون بقوة هذا اللون من الطرق للبدع التى احدثتها واكثر ما ظهر ذلك فى البوادي التى كانت اكثر غلوا فى الجهل حيث وجد فيها هؤلاء المدعون تربة خصبة للشذوذ ولعل هذا هو الدافع الذي جعل الامام الشيخ زروق يصف بعض الطرق السائدة فى عصره بقوله (ولقد تتبعت الطرق الموجودة بأيدي الناس فى هذه الازمنة فلم اجد لاهلها فتحا

---

(11) فالدين ذاهب الى الغروب — والكفر داخل الى القلوب
لا تعجبن من حالنا يا مهموم — اذ الرسوم عندنا من العلوم
ان العوام قد خرقوا الشريعة — وبدلوها كلها بالبدعة
وكل بدعة لهم كالبرهان — على فساد ما لهم من ايمان
فكان ما ترى من الفساد — والظلم والجور على العباد
ومن اتاهم بالمحال الواضح — قالوا تعالوا نحو هذا الصالح
كلا ولكن كذبوا الشريعة — وصدقوا الكهانة الملعونة
ما فيهم من كذب الكهان — بل كلهم اتوه حيث كان
وان دهاك ما سمعت من كلام — فأين أنت من حديث الوشام
علامة دلت بلا توان — على فساد العقل والايمان
أصابنا وهم شديد الحيرة — لم تعرفوا حقا ولا حقيقة
لا تغترر يا صاحب العقل المنير — باسم الفقيه والفقير والامير

ولا نورا ولا حقيقة ولا علما ولا ذوقا ولا فهما ، بل ولا لذة نفسانية غير لذة الرياسة والامتياز بالاختصاص) (12) . وليس معنى ذلك ان جميع الطرق الصوفية كانت على هذا المنوال ، بل هناك حركات صوفية تميزت حقا بصدق الايمان وحسن النية وسلامة المقصد ومن اشهرها الطريقتان الجزولية والزروقية التى وصفهما صاحب التحفة الصديقية فى مخطوطه وكيف ان جميع (طرق اهل الله بقطرنا هذا فى هاتين المائتين العاشرة والحادية عشرة ترجع الى شيخين : الشيخ الامام العالم الكامل القطب الجامع الكبير ابى عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابى بكر بن سليمان الجزولى ثم السملالى الشريف الحسنى ، والشيخ الامام العلامة المحقق الفهامة العارف الربانى شيخ وقته وعروس عصره ابى العباسى احمد بن احمد بن محمد بن عيسى البرنسى الفاسى المؤذن عرف بزروق رضى الله عنهما ، الا من شذ عنهما من بهلول ومجذوب وأصحاب حال ، ممن لا يعرف له شيخ) (13) على ان الطريقة الجزولية

---

12) الفكر الصوفى والانتمالية بالمغرب . مقال فى البينة . نوفمبر 1960 . العدد السابع ص 91

13) التحفة الصديقيةمخطوط ص 2 الجزولى : هو الشيخ ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابى بكر ابن سليمان بن سعيد ... بن على بن ابى طالب ، ويعرف بالجزولى لانه من جزولة وهى قبيلة من البربر بسوس الاقصى ويكتب فى نسبه السملالى ايضا نسبة الى سملالة وهى من قبائل جزولة (ممتع الاسماع فى ذكر الجزولى والتباع) كان رضى الله عنه فى اول امره يطلب العلم فكان بفاس بمدرسة الصفارين وبها الف (دلائل الخيرات) الذى جمعه من كتب خزانة جامع القرويين (الاعلام ص 67) . وبعد خروجه من فاس التقى بالشيخ ابى عبد الله امغار الصغير فى الساحل فأخذ منه برباط تيطنفطر وهى قرية بساحل ازمور وتعرف الان بتيط . وقد كان الجزولى كثير الاوراد مراقبا الله فى جميع اعماله واقفا عند حدوده عاملا بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام الى أن اشتهر بالصلاح وظهرت منه الكرامات وتاب على يده هناك خلق كثير وانتشر ذكره فى الافاق واخذ فى تربية المريدين . ثم انتقل من هناك بعد ظهور ما من الله به عليه من البركات وتتابع الخيرات الى الموضع المسمى بافوغال من بلاد مطرازة فاقام على حالته من تربية المريدين وارشادهم الى سبيل الله . وبافوغال توفى وهو ساجد يوم الاربعاء من شهر ذى القعدة عام 869 ودفن بوسط المسجد الذى كان أسسه هناك . وقد جعل البعض وفاته بين 870 و 875 هـ . اما الطريقة الجزولية فهى مبنية على كثرة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وقد روى عن الشيخ الجزولى قوله (قيل لى يا عبدى فضلتك على جميع خلقى بكثرة صلاتك على نبى . يا عبد.. من اطاعك من الاولياء فقد أطاعنى ومن عصاك من الاولياء فقد عصانى ومن تكبر عليك من الاولياء سلبته من نورى) (الاعلام ص 69) . وقال ايضا (ان دولتنا دولة المجتهدين المجاهدين فى سبيل الله المقاتلين لاعداء الله) (الاعلام ص 65) ولقد ذاع صيت كتابه دلائل الخيرات ولوائح الانوار والمسرات فى سائر الاقطار والامصار كما كثر الانتفاع به فى طريق الله وعم نفعه العظيم لعباد الله فشاع ذكره فى سائر الاقطار والامصار كما كثر الانتفاع به فى طريق الله وعم نفعه العظيم لعباد الله فشاع ذكره فى الاقطار شرقا وغربا وعجما وعربا وفى الحرمين الشريفين وبيت المقدس وعم وقوع الاقبال عليه فى كل حضرة ومجلس وشرحه الائمة والاعلام والاجلة العظام بشروح عديدة (الاعلام ص 103)

الاعلام ص 63 . 64 .

زروق البرنسى الفاسى (1442 — 1493) هو شهاب الدين ابو العباس احمد ولد فى تكرين بطرابلس الغرب وهو من ائمة الصوفية تعلم صناعة الخرز واشتغل بالتصوف والتوحيد . له (الطريقة الزروقية) . ويضيف صاحب (التشوف الصغير (مخطوط لعبد الرحمن الصومعى) بان الطريقة الزروقية (كانت على السنة الكتاب وهى المذكورة فى قوله تعالى الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) التشوف الصغير ص 76 .

هى التى تركت كبير الاثر فى المغرب ، لان الجزولى هو الذي جدد الطريقة بالمغرب بعد دروس آثارها وخبو أنوارها وأصحابه الذين أخذوا عنه تفرقوا فى البلاد ، فأخذ الناس عنهم وانتشر اتباعهم واشتبكت فروعهم وقد كانت بلاد السوس هى الموطن الاول الذي نشأت به الطريقة الجزولية ، اذ (جزولة) التى ينتسب اليها الشيخ هى قبيلة من البربر توجد ببلاد السوس ، ومن السوس عمت سائر المغرب حيث قام أتباعها بدور عظيم فيما يرجع لاحياء السنة ومحاربة البدع والطوائف الضالة . وحسب (دوحة الناشر) يمكننا أن نحصر المناطق التى ظهر بها هؤلاء المجددون كبلاد غمارة وشفشاون والهبط وتطوان وفاس ومكناسة ومراكش وسجلماسة وتادلا ودرعة وسوس ، ومعظم هذه المناطق والسواحل منها خاصة كانت على مقربة من مراكز الاحتلال الاجنبى الشيء الذي سيكون له اثر كبير فى انتشار حركات الجهاد ومقاتلة المحتلين .

وقد اثر البعض من هؤلاء الدعاة العزلة وحياة التقشف ، فأقبلوا على العبادة والصلاة ، كما قاموا بالتأليف ونسخ الكتب ، حيث لا يزال العديد من تآليفهم مخطوطا حتى اليوم . كما كان لهؤلاء الائمة والزهاد احترام وتقديس لدى العامة ويكفينا دليلا على ذلك كون الشيخ ابى عبد الله بن المبارك بالسوس (وضع اياما معلومة فى كل شهر يسمونها أيام سيدي محمد بن المبارك لا يحمل فيها احد سلاحا ولا يقدر احد على المشاجرة فيها ، ويجتمع الرجل مع قاتل ابيه وولده ولا يقدر أن يكلمه ، وذلك شائع عند قبائل العرب والبربر من سوس) (14) .

الا أن قيام بعض المغرضين والجهلة وتظاهرهم بالزهد والعبادة ثم استغلالهم بساطة العامة وسذاجتها لمآربهم الخاصة ، قد أحدث استياء ورد فعل من قبل رجال الدين الاتقياء الذين تصدوا لمقاومة ذلك ، ولعل الاوصاف التى ابرزها الامام الهبطى فى الفيته عندما تعرض لبعض الفقراء والمتقشفين والفقهاء ، كانت تعنى هذه الفئة الضالة التى حادت عن سواء السبيل (15) . فقد أدرك الامام الهبطى حقيقة الاوضاع المضطربة وعرف أن الحالة التى وصلت اليها البلاد ترجع فى اساسها الى

---

14) الدوحة ص 74
وسيدى محمد بن مبارك هو نفسه يدى بركات

15) من لى بواحد من الولات — يدعو الى التوحيد والصلاة
او من لنا بعالم رشيد — يدعو الى الصلاة والتوحيد
مؤديا لما عليه قد وجب — من بث علمه على وفق الكتاب
او من لنا سيد الصوفية — يدعو الى الهدى بصدق النية

جهل العامة : وشذوذ الفقراء ، وجمود الفقهاء ، وجور الحكام ، الشيء الذي جعله يتوجه بالنداء الى أصحاب العقل ورجال الدين المخلصين والى الحكـام والسلاطين ، طالبا منهم العمل على نشر التعليم بين طبقات العامة من رجال ونساء وبنين ، اذ بالعلم والمعرفة ستتغير الامور وتتحسن الاحوال . ولا ينسى الامام الهبطي اخيرا ان يحمل الفقهاء والحكام والمفكرين مسؤولية ذلك .

* * *

هذه هي الاوضاع العامة التي كان عليها المغرب عند مطلع القرن السادس عشر : وحدات سياسية نتجت عن ضعف السلطة المركزية في فاس ، واضطراب اقتصادي للفتن التي كانت عليها البلاد في الداخل والخارج ، ثم فوضى اجتماعية زادتها تاخرا انماط الحياة المختلفة وسيادة المجتمع القبلي بوجه خاص ، واخيرا ظهور دعاة وزوايا وطرق ، اتصف البعض منها بالاخلاص والدعوة الصادقة ، وغلب على البعض الآخر الشذوذ والشعوذة . وهذه الاوضاع جميعها قد زادتها تعقيدا الاخطار الخارجية المتمثلة في عمليات الاحتلال الاجنبي لمعظم السواحـل المغربية ، وقد أصبح من المتوقع أن يقوم هؤلاء الدخلاء باكتساح كل البلاد ان لم تعبأ جميع الطاقات الموجـودة بالبـلاد ، للوقـوف بها صفا واحـدا لمواجهـة الخطر الداهم . فهل بقي المغرب في مكانه تاركا للاجانب حرية التصرف ؟ أم كانت له بقية من قوى ، وبعضا من الطاقة وشيئا من الحيوية ، تدفعه للحركة ومجابهة الاخطـار ؟

الفصل الثالث

ردّ الفعل المغربي ضد الاحتلال الأجنبي

ان المتتبع لاحداث المغرب خلال القرن الخامس عشر ، وهو القرن الذي تمت خلاله عمليات الاحتلال لمعظم سواحل المغرب ، يلفت نظره حصول ظاهرتين متلازمتين ، هما الصدى القوي الذي أحدثه الاحتلال البرتغالى والاسبانى للاراضى المغربية ، ثم ظهور رد فعل عظيم ضد المحتلين المسيحيين .

فبالنسبة للتاثيرات التى أحدثتها عمليات الاحتلال الاجنبى لسواحل المغربية نلاحظ بأنه منذ أن تم للبرتغال احتلال سبتة ، وطوال مراحل الاحتلال التالية ، ظهر عجز السلطات القائمة وضعفها عن مواجهة الاحداث ، فقام المخلصون من الدعاة والائمة والمشايخ يحثون الناس على بذل النفس والنفيس للدفاع عن الوطن ولاعلاء كلمة الاسلام . ولم يهتم هؤلاء بتحريض الناس على الجهاد فقط ، بل واخذوا فى جمع الاموال لصرفها على شؤون الجهاد ، أو لافتكاك اسرى المسلمين . والدعوات الى الجهاد والحرب كانت تتزايد باستفحال الخطر المسيحى ، ولقد بلغ الامر ببعض القائمين على شؤون الجهاد ، أن كفر كل قادر على الحرب ، وكلمتقاعس عن اداء هذا الواجب المقدس (1) . ولم تختلف نظرتهم هذه حتى بالنسبة للحاكمين حيث كانوا يستنكرون ضعفهم وتخاذلهم عن القيام بتعبئة القوات المحاربة لقتال العدو . ولشدما كانت تثور ثائرتهم عندما يعمد هؤلاء الحكام الى مهادنة العدو ، فقد جاء فى (دوحة الناشر) ان الشيخ ابا عبد الله محمد بن يحيى البهلول عندما بلغه خبر الهدنة التى عقدها السلطان الوطاسى محمد البرتغالى مع الاعداء (آلى على نفسه الا يلقى السلطان المذكور ولا يمشى اليه ، ولا يقبل منه ما كان والده عينه له من جزية أهل الذمة بفاس لقوته) (2) .

---

1) أورد صاحب دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر (ابن عسكر) ان بعض المشايخ الذين كانوا يقومون بالجهاد ضد العدو قد توفيت زوجته فى غيابه ، وعند عودته وجد الناس على وشك الانتهاء من دفنها فقام هو ومن معه بالصلاة على الجنازة مما أدى الى استنكار الحاضرين الا أن الشيخ اجابهم بأن صلاتهم فاسدة لكونها بغير امام وعندما استفسروه فى ذلك قال (اذ من شروط الامام الذكورية وهى مفقودة فى صاحبكم ، لان الذى لم يتقلد سيفا قط فى سبيل الله ولم يضرب به ولم يعرف الحرب كما كان نبينا عليه السلام ، فكيف يعد اماما ذكرا، بل امامكم والله من جملة النساء) ص 47 .

2) الدوحة ص 24 .

ومن الامثلة التى يمكن أن نقيس بها الاعمال العظيمة التى كان الدعاة المخلصون يقومون بها ، لحث الناس على الجهاد والكفاح ، ما قام به الشيخ محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازي ، والشيخ الامام الهبطى ، ونحن وان كنا نجهل ما اذا كان الاول من أتباع الطريقة الجزولية التى ذاعت شهرتها فى مجموع المغرب ، فان الامام الهبطى يعد من اتباع هذه الطريقة ، بل وقد عده صاحب (التحفة الصديقية) من مشايخ الطبقة الثالثة من اتباع الجزولى ، الشىء الذي يجعلنا نتأكد من ان الطريقة الجزولية قد طبقت شهرتها مجموع جهات المغرب ، ويرينا فى نفس الوقت النتائج البعيدة المدى التى اخذت تظهر لهذه الطريقة فيما يرجع لتغيير الاوضاع العامة بالمغرب سواء فى الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

فالشيخ بن يجبش التازي (3) اذهلته الغفلة التى سيطرت على عقول الناس ، وافزعه انحراف العامة عن الدين القويم ، فى الوقت الذي اخذ العدو يجمع قواته لاكتساح باقى البلاد ، خصوصا وقد تأكد من عجز المغاربة ، وضعف امكانياتهم الحربية ، وثبت لديه انقسامهم الى احزاب وفئات ، علاوة على عدم اكتراث معظمهم بالمصير الذي آلت اليه بعض المدن الساحلية . وبعد أن يحث هذا الداعية الناس على الجهاد ويظهر ما أعده الله من الثواب الجزيل للمجاهدين الصادقين ، وبعد أن يهيب بهم لتحرير اخوانهم الذين ساءت احوالهم بعد الاحتلال الاجنبى ، يثير انتباههم الى أن الاعداء الذين احتلوا السواحل ، هم بصدد احتلال

---

(3) محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازى ، توفى عام 920 هـ (درة الحجال ص 170) له (جملة مختصرة) : مخطوط . ص 227 – 438 – 439 – 441 – 442 .

ما تبقى من البلاد ان لم يقوموا قوة رجل واحد لصد هؤلاء ، الدخلاء ولتحرير المراكز المحتلة . ولم يغفل الامام التازي جانبا هاما وهو تصوير احداث الاحتلال في قالب شعري واتخاذها عبرة لمن يعتبر (4) .

---

4) (عباد الله ما هذه الغفلة التى أضحت على القلوب سقيمة ، وركنت اليها النفوس التى اصبحت من الرشاد والتوفيق عديمة ، أما علمتم ان أعدائكم باحثون عليكم مشتغلون بكل حيلة في سبيل الوصول اليكم ، قد جمعوا من العدد ما لا يحصى له عدد وارسلوا جواسيسهم وعيونهم في كل بلدة ليخبروهم بما عندكم من عدة وما أنتم فيه من قوة أو شدة فاخبروهم بما أنتم عليه من الاستهزاء والغفلة وان عدتكم بالنسبة الى عدتهم في غاية الضعف والقلة وانكم متفرقون مع اخوانكم المسلمين ، لم تبالوا بما اتفق من اذلال دين سيد المرسلين واخذ عباد الله المومنين فلما عرفوا جميع احوالكم وما انتم عليه من عدم اهتمامكم بهم واشتغالكم طمعوا لا بلغ الله لهم املا منكم في نيل المراد ، واجمعوا بدد الله شملهم في ما بلغنا من الخروج لهذه البلاد فلما اتبعتم اهوائكم وسامحتم اراذلكم وسفهائكم فسدت باذن الله جميع الاحوال ورفعت البركة من الاموال وحجبت القلوب عن سماع المواعظ فلم يؤثر فيها كلام حكيم ولا وعظ واعظ فالبدار البدار معاشر المسلمين والعجل العجل عباد الله المومنين ، فهذا منادى التوجه لاستنقاذ اخوانكم من أيد الكفرة يناديكم وهذه رسالة يستنفركم لجهاد من طغى عليكم من اعاديكم مذكرة لكم ببعض ما أعده الله عز وجل للمجاهدين من عظيم ثوابه وما ادخر لهم من الخيرات في أعلا الجنات مع خاصة احبابه . لان الاعداء دمرهم الله قد استفاض من خبرهم انهم عازمون على الورود عليكم لانهم اما اخذوا ما قدر الله عز وجل من البلاد وملكوا ما سبق في علمه من العباد ولم يروا منكم حركة اليهم وغلب على ظنهم انكم ليس لكم قدرة في الوفدة عليهم سيما حينما تحققوا ما اشتهر من فرقتكم وما وقع من الشنآن بينكم وبين اخوانكم ، طمعوا لا بلغ لهم أملا فيما يكون ان شاء الله وبالا عليهم وسببا لهلاكهم واغتنام ما لديهم ، فاصرفوا هممكم رحمكم الله للاكثار من اكتساب العدد ومن اجادة الخيل الموصلة للغرض في اقرب أمد واقيموا اليهم الرحلة وآتوهم على حين غفلة ولا تعطوهم فترة ولا مهلة ، فعساكم ان أوجفتم عليهم بخيلكم ورجلكم تظفرون ان شاء الله تعالى باملكم وتخلصوا اخوانكم من أيديهم وتغنموا أموالهم وأهاليهم) .

ولتكون لمواعظ بن عجيبة تاثير كبير في قلوب المسلمين عمد الى تصوير احداث الماضي في قالب شعري واتخاذها عبرة لمن يعتبر .

ولم استطع صبرا وكيف يصح لي	وقد هتكت من ديننا كل حرمت
وشاركنا الاعداء في قطر غربنا	وقد أخذوا جل البلاد البهيت
وقد أرعبت تلك السواحل منهم	وصاروا يودون الخراج كجزيت
لقصة أصيلا عرفتهم جميعها	وما فعل الاعداء من شر غدرت
واضحت على الإسلام تبكي رسومها	كذى سكن صار في أرض غربت
مساجدها تبكي على فقد أهلها	كان لم يكن فيها مردد سورت
مجالس أهل العلم يا صاح بدلت	بتلبيس رهبان ورجس الاقست
فلو أبصرت عيناك حال خروجهم	بكيت الدما من بعد انفاذ عبرت
فكيف يطيب العيش بعد لعاقل	وكيف تلذ النفس بعد لشهوت

أما الامام الهبطي فقد قام يدعو الى الجهاد وتلبية نداء الواجب ، مبينا الحالة التي كان عليها السلف الصالح وكيف انهم كانوا يتسابقون الى الشهادة لاعلاء كلمة الاسلام ، وما آلى اليه امر المسلمين من تقاعس وتخاذل (5) .

ومن الدعاة ايضا يمكن ادراج الشيخ أبى عبد الله محمد بن يحيى البهلول الذي جعل من نكبة المسلمين فى الاندلس مثالا لترهيب الناس من أن يحل بالمغرب ما حل بالاندلس ولترغيبهم فى الجهاد والدفاع عن الوطن (6) .

ولقد اثر عامل الجهاد ومقاتلة العدو على السلطة الحاكمة الضعيفة ، فما أن احتل البرتغال مدينة سبتة ، وظهر جليا عجز السلطان أبى سعيد المرينى وان ليس باستطاعته انقاذ هذه المدينة ، حتى قامت ثورة ضده أودت بحياته ، ولما تمض غير بضعة اعوام على هذا الاحتلال ، وذلك سنة 1420 م ، مما جعل الفرصة مناسبة لقائد سلا أبى زكرياء الوطاسى الذي جاء الى فاس وأصبح وصيا على الامير عبد الحق الذي نودي به فى نفس السنة سلطانا على المغرب . وما من شك فى أن الوزير أبا زكرياء قد ادرك ما للمناداة بالجهاد وحرب العدو من دور فى توطيد حكمه اذ نراه يهاجم سبتة ويسرع الى صد حملة برتغالية ضد طنجة سنة 1437 م ، بل ولم يقبل اخلاء سبيل جنود هذه الحملة الفاشلة الا بعد أن تعهد البرتغاليون باخلاء مدينة سبتة ، وقد تركوا أحد امراءهم رهينة ذلك . وجميع هذه الاعمال قد قوت من نفوذ الوزير أبى زكرياء الا أن مؤامرة دبرت ضده سنة 1448 م .

تزايدت أخطار الحملات البرتغالية بعد احتلال مدينة القصر الصغير سنة 1458 م وهجومهم على طنجة من جديد سنة 1464 فضاعف ذلك من استياء العامة ضد السلطان المرينى ، ودفع بادارسة فاس وعلى رأسهم الشريف الادريسى

---

5) باب ما وقع من التغيير فى الجهاد بسبب تغير الايمان .

ان الجهاد أكبر المعين — عليه تنبني أمور الدين
كانت تباع النفس دون ريب — بلذة عظيمة فى القلب
وعندما مال الى الزوال — دين الهدى ذو العز والمعال
انتثر الايمان قل من عقده — شيئا فشيئا بانقضاء ذره

6) قم للجهاد رعاك الله منتهجا — نهج الرشاد الى الاقوام لو فهموا
من بعد اندلس ما زلت محتدما — لو كان يمكننى فى الليل احتزم

الادب المغربى . ص 292

محمد بن على الى القيام بثورة ضد السلطان عبد الحق ، انتهت بمقتله سنة 1465 . وان لم يمنعنا هذا من القول بأن من اسباب هذه الثورة مما اشيع من ان السلطان عبد الحق كان قد دبر قتل الشيخ الامام بن سليمان الجزولى مؤسس الطريقة الجزولية التى كان السلطان المرينى يدرك مدى خطورتها على ملكه وسلطانه (7) .

اما الشرفاء الادارسة بفاس وان اعلنوا بيعة زعيمهم المولى محمد بن على ، فان الامر لم يستقر لهم لقيام حاكم اصيلا محمد بن ابى زكرياء الوطاسى بمعارضتهم أضف الى ذلك ما بدأ منهم من ضعف اتجاه الخطر الاجنبى ، فما ان تم للبرتغال احتلال أصيلا وطنجة سنة 1471 حتى تخلت عامة الناس عنهم ، بينما استغل محمد بن أبى زكرياء ذلك ودخل فاس حيث اعلن نفسه سلطانا سنة 1472 ، فابتدأ بذلك العهد الوطاسى بالمغرب .

وحسب منظومة الكراسى نتأكد من ان الوطاسيين لم يتولوا الحكم الا تحت شعار الدفاع عن الوطن ، فقد اورد الكراسى بأن بيعة محمد بن أبى زكرياء محمد الشيخ) قد تمت بموافقة أهل الشورى والحل ، وهل هناك شىء أكثر اهمية من أمر القيام بالجهاد ضد الاعداء والمحتلين (8) ! ولا ننسى الاعمال الحربية التى قام بها ابو زكرياء الوطاسى فى الوقت الذي كان فيه وزيرا للسلطان عبد الحق ، هذه الاعمال التى كانت لا تزال عالقة بأذهان الناس الشىء الذي يثبت ما ذهبنا اليه من كون الوطاسيين قد استغلوا الدعوة الى قتال المحتلين لتولى الحكم فى المغرب .

---

7) عبد الباسط بن خليل (روبير برونشفيك) باريز 1936 . ص 27 .

8) أولهم من حازه مبايعة ... محمد الشيخ بلا منازعة
قام بأمر الله عن مشورة ... على اتفاق من ذوى المشورة

تطوان المجلد الاول . 147

وقد ازدادت مكانة الوطاسيين فى الداخل اثر الانتصار الذي احرزوه على الحملة البرتغالية التى احتلت جزيرة المليحة بوادي اللوكوس سنة 1489 (9) . غير ان تقاعس محمد الشيخ عن نجدة اهالى الاندلس بغرناطة ، وسقوط هذه الاخيرة بيد الاسبان وما اعقب ذلك من هجرة للاندلسيين الى المغرب ، ثم احتلال الاسبان لمليلية سنة 1497 ؛ اثار الاستياء ضد الوطاسيين ، وقد يكون هذا سببا رئيسيا فى الحملات التى قام بها السلطان محمد بن محمد الشيخ (الملقب بالبرتغالى) ، الذي ما ان تولى الحكم بعد وفاة ابيه سنة 1501 حتى هاجم بعض مراكز الاحتلال الاجنبى ، شعورا منه بما حصل فى الاوساط الداخلية من تذمر بتقاعس الوطاسيين عن محاربة الاعداء . ولقد سعى محمد البرتغالى لدى ملوك الاسلام المعاصرين فى مالى بغربى افريقيا ، وآل عثمان فى الشرق ، لخلق تحالف اسلامى ضد المسيحيين والبرتغال والاسبان بشكل خاص ، الذين اصبحوا يهددون بلاد الاسلام ، وذلك كما يستنتج من الرحلات التى قام بها محمد الحسن الوزان

---

9) عندما علم السلطان الوطاسى محمد الشيخ بخبر الحملة البرتغالية أسرع على رأس قوات مغربية لمقاتلة المهاجمين ، ولما كانت المراكب البرتغالية قد صعدت مع وادى اللكوس فان المغاربة قد قاموا ببناء حواجز عند مصب الوادى للحيلولة دون خروجها نحو المحيط . وبهذا فشلت الحملة وانتهى الامر بعقد هدنة انسحبت على اثرها القوات البرتغالية بعد تخريب قلعة كراسيوسا (المصادر الاصيلة لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول — المقدمة)

والى الحادثة نفسها يشير الكراسى فى منظومته تحت عنوان ذكر مجىء النصارى الى عمارة جزيرة (مليحة)

وجاءت الروم الى الجزيرة — بكل أسطول وكل ميرة
ودخلوا فى وادى آل كوس — ذاقوا به الهوان بالنكوس
هناك اذ ذاك اقاموا بلدا — واسكنوا فيه الطغاة والعدا
وكان من ذا الرئيس الحبيب — راى سديد ردهم جليب
ان قطع الوادى يجل سلك — من قصب وبالصخور تمتلى
أنزلها بمعمل التثبيت — وقطع الوادى بلا تلبيث
وامتنع الطلوع فى الاجفان — فايقنوا بالهون والخسران

(تطوان المجلد الاول . ص 148)

(ليون الافريقى) الى كل من السودان المغربى (10) والى مصر (11) ، عند مطلع القرن السادس عشر ، الا أن ، محاولاته لم يكتب لها النجاح . وقد كان بوسعه ان يكرر المحاولة مع ملوك المسلمين فى الشرق والغرب لولا انشغاله بالاحداث الداخلية وخاصة فيما يرجع لانتشار الدعوة السعدية التى اخذت تعم بلاد السوس والجنوب المغربى ، والتى ادرك الوطاسيون مدى خطورتها على دولتهم . زد على ذلك أن الايام لم تكن لتزيد الحكم الوطاسى الا ضعفا وتدهورا فى وقت استفحلت خلاله حملات البرتغال والاسبان على السواحل المغربية المتوسطة والاطلسية ، نظهر للجميع عجزهم وانه لم يعد هناك اي امل يرجى من الوطاسيين فى اصلاح حال البلاد ورد الاخطار الخارجية عنها .

هكذا كانت الاوضاع العامة لبلاد المغرب خلال السنوات الاولى من القرن السادس عشر : احتلال أجنبى لمعظم السواحل الشمالية والغربية ، واحوال داخلية مضطربة ، تردد صداها فى جميع مظاهر الحياة بالبلاد ، فى الوقت الذي ضعفت فيه السلطات القائمة عن رد الاخطار الخارجية ، وظهر عجز الحركات الداعية الى مناواة الاعداء فى تعبئة العامة ضد المحتلين ، لان ظروف البلاد كانت بحاجة الى قادة يتزعمون صفوف المجاهدين لمقاتلة البرتغال والاسبان . فكيف ظهرت الحركة السعدية ؟ وما الظروف التى ساعدتها على ذلك .

---

10) زار ليون الافريقى عند مطلع القرن السادس عشر منطقة السودان المغربى وقد كان موفدا فى مهمة دبلوماسية من قبل سلطان المغرب الى السيكا الكبير مؤسس أعظم امبراطورية اسلامية فى السودان المغربى . (فجر التاريخ الافريقى . ص 30) .

11) بعد اشتداد خطر البرتغال والاسبان على المغرب كلف محمد البرتغالى الحسن الوزان بمهمة لدى العثمانيين ، وقد قصد ليون الافريقى القسطنطينية أولا ثم غادرها الى مصر حيث كان السلطان سليم قد فتحها وقد أورد ليون الافريقى وصفا من دخول سليم الى الاسكندرية على ان الحسن الوزان عاد الى المغرب ، ولعل مهمته الاستنجاد بالاتراك فشلت كما فشلت المحاولة الاولى مع محمد اسكيا . والظاهر ان انشغال كل من محمد اسكيا وسليم العثمانى بالاخطار البرتغالية على بلادهم قد دفعتهم الى الاهتمام بأحوالهم قبل الاقدام على نجدة المغرب .

الفصل الرابع

بدء الدعوة السعدية بالجنوب المغربي

احدث الاحتلال المسيحى للسواحل المغربية رد فعل قوي فى الداخل ، اذ ظهرت حركات تدعو الى حمل السلاح والتقدم لتحرير الاراضى المغتصبة ، وقد اصبح امر السلطات القائمة بالبلاد يتوقف الى حد كبير على مدى استجابتها لهذا النداء . ولما لم تصادف اي منها النجاح فى نشر الامن فى الداخل وصد العدوان الخارجى ، انبرى المصلحون للاعراب عن امانيهم فى ان يقيد الله للمغرب قيادة جديدة ! وحاكما عادلا مؤمنا . يعود بالناس الى الطريق المستقيم ، ويسعى فى نفس الوقت الى نشر الطمأنينة وحماية البلاد من الاخطار التى تتهددها ، وقد تحقق هذا الامل المنشود عندما قامت ببلاد سوس حركة دينية رائدها التمسك بالدين القويم والحث على الجهاد لتحرير الوطن وتوحيد اجزائه . فهى حركة جديدة وقيادة جديدة للمغرب ، حاولت ان تحقق لـه امانيه ومطالبه .

لقد كان من المتوقع أن يكون خلاص المغرب وانقاذه من الهوة التى تردى فيها . سواء فيما يرجع للفتن الداخلية او الاخطار الخارجية على يد الوطاسيين الذين حاولوا الظهور فى اول الامر بمظهر المدافع عن وحدة البلاد وسلامتها ، وحتى اذا ما خاب الظن فيهم وبرزت وحدات سياسية وخاصة تلك التى قامت فى شمال البلاد . اتجهت اليها الانظار ، ولكن اية واحدة منها لم تكن اهلا للقيام بالمامورية العظمى لعوامل عديدة اهمها سعى كل منها الى تركيز النفوذ الداخلى واستغلال ظروف الجهاد لبلوغ ذلك . ثم معارضتها كل ما من شأنه أن يعيد ثانية سيطرة الوطاسيين الفعلية الى مقاطعاتها أي أن اهتمام هذه الوحدات السياسية كان ينحصر فى النظر الى مصالحها الخاصة قبل اي اعتبار آخر . كامارات اقطاعية تعمل جاهدة للاستقلال عن الوطاسيين فى فاس . وبديهى أن هذه الوحدات السياسية ، وشأنها كما رأينا . ستقتدي بالوطاسيين فى مهادنتها للعدو ، بل وستجد فى ذلك الفرصة للتقرب من المحتلين أو للتعامل معهم . وهذا فى مجموعة افاد قوات الاحتلال التى اغتنمت ظروف الهدنة لبناء الحصون والقلاع ولبسط

النفوذ على المناطق المجاورة . فاذا لم يكن هناك اي امل يرجى من الهيئات القائمة لانقاذ البلاد وتحريرها . طالما ان النزعة المحلية والرغبة فى المصلحة الخاصة كانتا من الاهداف الاولى لكل منها . ولا غرو ، والحالة هذه اذا وجدنا المؤمنين المخلصين الذين كانوا يتالمون لما آلى اليه امر العباد والبلاد ، يتطلعون الى ظهور قيادة جديدة رائدها التمسك بالدين الاسلامى القويم . وهدفها توحيد البلاد وتطهير سواحلها من الاحتلال الاجنبى . ومسالة توحيد البلاد وتحرير مناطقها المحتلة كانت اذا الشغل الشاغل للدعاة المخلصين . وما من شك فى ان اية حركة جديدة تجعل من هذين الهدفين أساسا لدعوتها ، لابد وان تصادف تجاوبا عظيما يضمن لها الفوز والنجاح ، وكذلك كان شأن الدعوة التى قامت بالجنوب المغربى ، وفى بلاد السوس بوجه خاص (1) .

لقد تعرضت المناطق الجنوبية لسواحل المغرب الاطلسية عند مطلع القرن السادس عشر ، بما فى ذلك سواحل بلاد سوس ، للحملات البرتغالية والاسبانية المتوالية ، التى انتهت باقامة مراكز نفوذ واحتلال عليها ، وذلك للاهمية الستراتيجية التى اصبحت لهذه الناحية بعد اكتشاف العالم الجديد والتعرف على طريق الهند البحرية ، من حيث التحكم فى طريق التجارة العالمية الجديدة بين غربى أوربا والهند والشرق الاقصى ، أو فيما يرجع لاتخاذها نقطة انطلاق للتوسع فى المناطق الجنوبية من المغرب وصحراء أفريقيا الشهيرة بخيراتها وتجارتها . ولم ينته صراع الامتين المسيحيتين الا بعد توقيع معاهدة (Sintra) سنة 1509 م التى جعلت هذه المنطقة من نصيب البرتغاليين ، حيث لم يبق بها للاسبانيين الا حصن سانتاكروز الذي كانوا قد اقاموه عند وادي نون منذ عهد بعيد .

---

1) الهبطى :

فرحم الله أميرا قد سلك ... نهج الهدى وما سواه قد ترك
كما به أخذ الحدود والحقوق ... والامر فى حرز الديار والطرق
والصون للثغور حيث الكفار ... دمرهم ربى سبوا للابكار
فان رأى أمر يضر بالمسلمين ... سدده ولم يكن فى الغافلين
حنانه ايضا على الرعية ... مثل الاب المهموم بالذرية
ما أحوج الورى لذا شر زمان ... الى امام قائم بالقرآن
نجد علينا يا عظيم المنه ... بمن يقوم فى الورى بالسنه
اطلع علينا شمسه بلا سحاب ... حتى نرى مقامه بلا حجاب
أمنن علينا بالامام العادل ... يهد بنيان الخنا والباطل
حتى نرى الحق المبين ظاهرا ... وكلنا به يصير ظافرا

وهذه الحملات الاجنبية اثارت رد فعل قوي من قبل أهالى سوس ، اذ خلقت بين الواحات الداخلية — التى عرفت منذ القديم كأسواق تجارية بين جنوبى المغرب وغربى افريقيا ، والتى ظهرت منذ ضعف السلطة الحاكمة فى فاس على شكل وحدات شبه مستقلة شعورا بالخطر ، اهاب بها الى التفاهم والتعاون لتوحيد القيادة الداخلية من جهة ، وللعمل على صد الاخطار الخارجية من جهة اخرى . ولقد زاد من هذا الشعور لدى اهالى سوس ، رؤيتهم القبائل والمراكز الساحلية تستسلم للاجانب بل وتعلن دخولها تحت حمايتهم ، مما اثار حفيظة المؤمنين الصادقين ودفعهم الى اعلان دعوات الجهاد ضد المحتلين ومن يتعاون معهم .

وتحفظ لنا الوثائق التاريخية رسالة وجهها سكان ماسا الى الملك البرتغالى عما نويل مؤرخة بسنة 1510 ، وهى اذ تلقى ضوءا على اوضاع بلاد سوس وعلى النفوذ البرتغالى بها ، تدلنا على ناحية اكثر اهمية وهى موقف الاهالى من المحميين والرسالة مكتوبة بلغة اقرب الى العامية منها الى العربية الفصحى ، وقد جاء فى مطلعها (يصل بيد السلطان العادل سلطان البرين واقاليم الهندى دون منوال) ، ثم تذكر الرسالة مدى السرور والفرح الذي عم اهالى مدينة ماسا لما علموا بأن الملك البرتغالى قد عزم على اقامة قوات عسكرية ببلادهم ، ولا يخفون عليه انهم قد اصبحوا آمنين فى بلادهم بعد الدخول فى طاعته . والذي يهمنا من هذه الرسالة اكثر مما تقدم ، هو تعرضها لموقف اهالى سوس من سكان ماسا ، فقد اخبروا الملك البرتغالى بأنهم يتحملون عداوة جيرانهم من العرب بسبب خضوعهم للبرتغال ، وان جيرانهم (يخطفون اولادنا وابناءنا ويبيعونهم) (2) .

فمن هذه الوثيقة نتأكد من ان السوسيين لم يكونوا كلهم راضين عن الاوضاع التى آلت اليها بلادهم ، وخاصة فيما يرجع لخضوع بعضهم للاجنبى ، الشىء الذي اعتبروا معه هؤلاء المحميين فى حكم الخارجين عن الاسلام ، ولم يفرقوا فى الموقف العدائى بينهم وبين الاجانب المحتلين . واذا عرفنا بأن بلاد السوس كانت المقر الاول للطريقة الجزولية التى عمت شهرتها كل بلاد المغرب ، والتى كان لها اثر كبير فى نشر حركة دينية ببلاد سوس بوجه خاص ، ادركنا مدى الدور الذي سيقوم به الائمة والمشايخ الذين ينتمون الى هذه الطريقة من حيث دعوة الناس

---

(2) المصادر الاصيلة للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول — ص 233

الى الجهاد كما جاء على لسان امامهـا ابن سليمان الجزولى (أن دولتنا دولـة المجتهدين ، المجاهدين فى سبيل الله) (3) ، ولم تكن هناك من فرصة للدعـوة الى القتال ومحاربة الاعداء ، وللجهاد فى سبيل الله ، اعظم من الظروف التـى كانت عليها بلاد سوس عند مطلع القرن السادس عشر ، وعقب الغارات الخارجية والاعمال العدوانية التى قام بها البرتغاليون ضد سواحل بلاد المغرب الجنوبية ، والتى انتهت باتخاذ قواعد احتلال ومناطق نفوذها عليها .

ومن اشهر الائمة الذين عرفتهم بلاد سوس خلال هذه الفترة الشيخ العالم الحسن بن عثمان شيخ جزولة بقرية (اسجاور) (4) ، والامام محمد بن مبـارك بقرية (اقـا) (5) ، والشيخ على بن محمد الاديب (6) ، وغيرهم من الذين عرفوا بالورع والتقوى والقيام بشؤون العلم والتدريس . ولئن كنا مفتقرين الى الوثائق التى تكشف لنا النقاب عن دور هؤلاء الائمة والمشايخ فى حركات الدعوة الـى الجهاد وقتال الاعداء والمتعاملين معهم ، فاننا نستنتج من اجتماع بعض القبائل السوسية ، على مبايعة الامام الشيخ محمد بن مبارك للقيام بأمرهم ، وجود ائمة ودعاة كالشيخ المذكور ، اشتهروا الى جانب علمهم وورعهم بحث الناس على بذل النفس والمال لاعلاء شأن الاسلام ، ولو لم يكونوا كذلك لما كان هناك من سبب يجعل القبائل الآنفة الذكر تقدم على مطالبة الشيخ ابن مبارك بأن يتولى شؤونها وجميع أمورها ، ومما يؤكد ما ذهبنا اليه هو كون القبائل التى اتصلت بالشيخ المذكور ، كانت بحكم موقعها معرضـه أكثر من غيرها للخطر الخارجى الذي كان يهددها فى كل وقت وحين .

وبديهى أن الشيخ بن مبارك سيكون أول من تتجه اليه الانظار فى ظروف عصيبة كهذه ، استفحلت خلالها الاعتداءات الخارجية واصبحـت تنذر بالشـر سائر نواحى البلاد ، خصوصا وان الشيخ يتمتع الى جانب الاحترام والقداسة ، بنفوذ قوى لدى سائر القبائل والاهالى السوسية ، ولا ادل على ذلك من انه كان قد (وضع اياما معلومة فى كل شهر يسمونها أيام سيدي محمد بن المبارك لا يحمل

---

3) الاعـــلام ص 65
4) سوس العالمة 156
5) سوس العالمة 156 .
6) سوس العالمة 133 .

فيها احد سلاحا ولا يقدر احد على المشاجرة فيها ، ويجتمع الرجل مع قاتل ابيه وولده ، وما يقــدر ان يكلمه . وذلك شائع عند قبائل العرب والبربر من اهـــل ســـــوس) (7) .

لقد قصد وفد يمثل بعض قبائل سوس ، بلاد (اقــا) (8) ، حيث يوجد الشيخ ابن مبارك ، وطلبوا منه مبايعته ، ليتسنى لهم ان يوحدوا الصفوف وان يقوموا بأعمال الجهاد والدفاع عن البلاد ضد الخطر المسيحى . الا أن الشيخ رفض ذلك لادراكه المهمة التى طلب منه القيام بها : مهمة تسيير الشؤون وقيادة القــوات المحاربة ، وهى ان كانت شاقة يصعب على شيخ مثله القيام بها ، فانه لم يكن له ان يتولى رئاستهم وهو المعروف بالورع والزهد عن الدنيا . على ان ابن مبــارك الذي كان يعلم الدوافع التى اهابت بهذه القبائل الى التقدم بطلب بيعته ، لم يكن له ليترك الوفد يمضى الى حال سبيله اذ معنى ذلك ان القبائل الآنفة الذكر ستعود الى اتخاذ احد الامرين : اما الخضوع والاستكانة الى الاعداء والدخول فى طاعتهم شأن جيرانهم من قبل ، او انها ستهجر المنطقة ، وكلا الامران يساعدان علــى توسيع مناطق النفوذ الاجنبى ببلاد سوس وهذا يتنافى وما عرف به الشيخ من حرص على التمسك بوحدة الصف ومن دعوة الى الجهاد ومحاربة المعتدين . لذا فقد دلهم على احد اشراف (تاكمادارات) ببلاد درعة وهو المولى محمد بن عبد الرحمن (فلو بعثتم اليه وبايعتموه كان انسب لكم واليق بمقصودكم) (9) .

والمولى محمد بن عبد الرحمن كان يعرف بين قومه ببلاد درعة بسعة العلم و (التمسك بسيرة السلف الصالح من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر) (10) ، كما ذاعت شهرته ببلاد سوس لقيامه بأعمال الجهاد والمرابطة اذ كان (يستنفر الناس للرباط بأقدير حيث كان النصارى دمرهم الله) (11) ، الشىء الذي جعل له بين القبائــل السوسية نفــوذا عظيما فقد (كان يأمــر اشياخ القبائل فيمتثلون أمـــــره) (12) .

---

7) الدوحـــة ص 74 .
8) أقا : قرية تقع فى جبال بانى بالاطلس الصغير ، توجد بها زاوية الشيخ بن مبارك .
9) الافرانى : نزهة الحادى . ص 12 .
10) الزيانى : المغرب فى دول المشرق والمغرب . (مخطوط) ص 343 .
11) المصدر السابق نفسه ص 343 .
12) المصدر السابق نفسه ص 343 .

وعلى ما يبدو فان الوفد السوسى لم يقنع من الشيخ بن امبارك ارشاده اياهم الى المولى محمد بن عبد الرحمن . بل طلبوا منه أن يكون واسطتهم لديـه ، فلم يمانع فى ذلك ، وخلال المقابلة التى تمت بين الشيخ بن امبارك والمولى محمد ببلاد (اقـا) (13) ، قبل هذا الاخير مبدئيا ـ كما يظهر ـ القيام بالمامورية التى عرضها عليه الشيخ ، اذ اننا نجده يقصد بعد ذلك بلاد درعة ، ولعل ذلك كـان للتشاور مع قومه ، لان المسؤولية خطيرة والمهمة جـد شاقـة .

ومن مجريات الاحداث نعلم بأن أهالى سوس ما أن علموا الخبر بعد عودة الوفد من اقـا ، حتى أرسلوا ثانية الى (تاكمادارات) بدرعة من يطلب من المولى محمد بن عبد الرحمن المجيء اليهم (فقد بعث له فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل واستدعوه الى تقديمه عليهم وتسليم الامر اليه ، فلبى دعوتهم وأجاب رغبتهم) (14) وفى قرية (تدسـى) قرب تارودانت اجتمع المولى محمد بزعماء القبائل ومشايخها حيث (خطبهـم خطبة عجيبة بلسان البربر ، ذكـر فيها ووعظ ، وحض علـى الجهـاد) (15) وتلك ميزة أخرى كـان يتصف بها المولى محمد ، وهى معرفتـه باللهجة البربرية(تاشلحيت) مما ساعد على حصول التفاهم بين الطرفين. وقد استعرض فى خطبتهأوضاع البلاد ، وما آلى اليه أمر الناس ، بسبب الفوضى والفتن (فضاعت الحقـوق ، وانقطعـت السبـل ، واكـل القـوي الضعيـف ، وبطلت الاحكـام الشرعية) (16) ، كما تطرق الى الضرورة التى تحتم تولية من يقوم بشـؤون المسلمين ، مفصلا المهام التى عليه أن يقوم بها فى الداخل والخارج : فهو الذي سيعمل على (اصلاح قطركم ، وينصف مظلومكم ، ويسرح سبلكم ، ويقبض واجب زكواتكم وعشوركم ، فيصرفها على اصلاح بلادكم ومنها تكون نفقة من يكون معـه من رجالكم ، والذي يفضل يصرف فى الجهاد) (17) ، وقد وقع بعد الخطبة اجماع الراي على بيعته . وذلك بفضل تزكية الشيخ ابن مبارك له ، و (باشارة مـن الصالحين ، واذن من العلماء العاملين) (18) ، ثم لما اشتهر به من علم وديـن واعمال الجهاد ومحاربة العدو علاوة على نسبه الشريف وكونه غريبا عن قبائل

---

13) الافرانى : نزهة الحادى ص 12 .
14) الافرانى : نزهة الحادى ص 17
15) الزيانى : المعرب . (مخطوط) ص 343 .
16) الزيانى : المعرب (مخطوط) ص 343 .
17) المصدر السابق نفسه ص 343 .
18) الافرانى : النزهة . ص 14 .

سوس التى لم تكن لتقر بعضها البعض على الزعامة والرئاسة . وقد علق المولى محمد بن عبد الرحمن قبوله المسؤولية التى طوقوا بها عنقه ، بشرط اساسى ، وهو أن تقوم كل قبيلة من القبائل التى ارتضت بيعته بتقديم عشرة اشخاص من ابنائها مجهزين بكامل الاسلحة والعتاد ، لعلمه أن الامر لن يعدو ضربا من الخيال اذا ما اقتصر على اعلان القبائل طاعته ، دون قيامها بمشاركة فعلية (فاستحسنوا رايه وانعموا له بذلك ، وتوجهوا لقبائلهم) (19) . ولقد عاد المولى محمد الى درعة ليصحب معه أهله الى المقر الجديد ثم ليطلع وجهاء قومه بما انتهى اليه اجتماع قرية تدسى الاخير . وما أن عاد الى بلاد سوس حتى وجد فى انتظاره القوات المسلحة التى وقع الاتفاق فى شأنها من قبل ، وكانت (خمسمائة رجل وكذا بسلاحهم وخيلهم) (20) ، اي ان القبائل التى اعلنت بيعة المولى محمد فى قرية تدسى ، كانت خمسين قبيلة .

وهناك نقطة جديرة بالذكر ، وهى ان المولى محمد بن عبد الرحمن قد اقدم على اعلان بيعة ولده الاكبر المولى احمد ، ولما يمض على وصوله الى بلاد سوس غير وقت قصير ، حيث اصبح المولى احمد يلقب (بملك سوس) ، فى حين أن المولى محمد قد تلقب (بالقائم بأمر الله) . وعند التساؤل نجد بأن المولى محمد قد ادرك بأن الامر ببلاد سوس يتوقف نجاحه على مدى القيام بعمليات الجهاد والغزو ضد مراكز الاحتلال الاجنبى ، ولن يصلح لهذا الامر غير ابنه الاكبر الذي لا يزال شابا . يتوقد حدة ونشاطا ، ثم انه وان أعلن ملكية ابنه ، فقد ظل يقوم بدور الامام المرشد، والداعية كما يدل على ذلك لقب (القائم بأمر الله) فكأن المولى محمد قد اقتسم مع ابنه المولى احمد السلطتين السياسية والدينية .

أما فيما يرجع للتاريخ الذي يمكن اعتباره نقطة البداية بالنسبة للدولة السعدية الناشئة ، فالمصادر العربية مختلفة فى ذلك ، وسبب هذا الاختلاف يرجع الى اي الرجلين يمكن اعتباره المؤسس الاول لهذه الدولة والذي تسلم سلطة سياسية ببلاد سوس ، اهو المولى محمد بن عبد الرحمن ؟ او ابنه المولى احمد ؟ ثم للاتصالات العديدة التى جرت بين المولى محمد وابن مبارك ونحن اذ اعلمنا بان الوثائق التاريخية تؤكد بأن المولى محمد لم يتقلد اية سلطة سياسية (21) ، وان

---

19) الزيانى : المعرب (مخطوط) ص 344 .
20) المصدر السابق نفسه ص 344 .
21) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول — (جدول عام للسلالة السعدية) .

ابنه المولى احمد هو اول من بويع كملك على سوس ، زال عنا كل التباس ، خصوصا اننا نملك وثيقة معاصرة ، وهى رسالة أرسلها البرتغالى (Ignacio Martins) الى الملك عما نويل الاول ، مؤرخة بخامس نوفمبر لسنة 1510 ، جاء فيها (بأن المولى محمد قد نادى بابنه (المولى أحمد) ملكا على سوس ، وانه قام بتنظيم قوات سوسية) (22) . فهذه الوثيقة لا تترك اي مجال للشك بأن بيعة المولى احمد قد تمت خلال الاشهر الاخيرة من سنة 1510 ميلادية ، الموافق لعام 916 هجرية . وهى السنة التى يجب اتخاذها البداية العملية للدولة السعدية بالمغرب .

أما مسألتا الانتساب لآل البيت ، وتسميتهم (بالسعديين) فرغم وجود من يطعن فى نسبهم وخصوصا خصومهم الوطاسيون الذين اتخذوا من ذلك وسيلة لمقاومتهم وتنفير العامة منهم ، فان المصادر التاريخية المختلفة والمعاصرة منها خاصة ، تثبت هذا النسب الشريف الذي كان من أهم اسباب نجاح هذه الدولة . (فان كلمة الاشياخ قد اتفقت على أن ابا عبد الله محمد القائم . انما كان نهوضه باشارة من الصالحين واذن من العلماء العاملين ، وكفى ذلك شاهدا على صحة نسبه الشريف عندهم ، والا لما حضوه بالامامة العظمى التى لا يمتطى صهوتها الا شريف النسب ، قرشى المحتد) (23) .

وأما اللقب الذي كان الحكام من سلالة المولى محمد بن عبد الرحمن يتلقبون به ، فيظهر من المراسلات والاوامر الصادرة عنهم وكذا الوثائق المعاصرة لهم : انهم كانوا يعرفون (بالشرفاء) ، الا أن بعضهم اضيف اليه لقب (السعدي) كالغالب بالله ثالث ملوك هذه الدولة ، وذلك كما جاء فى الرسالة التى وجهها علماء المغرب الى المولى محمد المتوكل على الله جوابا عن خطابه اليهم (وبعد فهذا جواب من كافة أهل المغرب . . لمولانا محمد بن عبد الله (السعدي) رحمه الله (24) ، ثم أصبح هذا اللقب فى الغالب صفة لهذه الدولة ، خصوصا بعد أن سعد المغاربة فى عهدها وأصبحوا ينعمون بالامن والطمأنينة ، مما لا قبل لهم به منذ عهد بعيد . ويعد صاحب (تاريخ الدولة السعدية) من الاوائل الذين استعملوا هذا اللقب عند

---

22) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الأولى . البرتغال . المجلد الاول — ص 255
23) الافرانى : نزهة الحادى . ص 14 .
24) الافرانى : النزهة . ص 65 .

تاريخه لهذه الدولة ، ونحن وان كنا لا نزال حتى اليوم نجهل صاحب الكتاب ومتى الف تاريخه ، الا اننا لا نجادل فى انه كان من المعاصرين لهذه الدولة ، بل ومن المطلعين على الكثير من اسرارها ، كما يتأكد ذلك من مقارنة أخباره مع بعض الوثائق المعاصرة . ولعل خصوم هذه الدولة قد وجدوا فى صفة (السعدي) وسيلة للطعن فى صحة نسب حكامها الشريف ، وأنهم ينتسبون (لبنى سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم) (25) .

* * *

فى الوقت الذي كانت بعض قبائل سوس تعمل على توحيد صفوفها الداخلية وتتهيأ لمواجهة التحديات الخارجية ، كانت لشبونة تخطط للانتقضاض على هذه البلاد باعتبار أن معاهدة (Sintra) مع اسبانيا قد فتحت آفاقا واسعة للعمل امام البرتغاليين .

لقد وضعت معاهدة (Sintra) الموقعة سنة 1509 حدا للنزاع والحروب التى دامت طويلا بين الاسبان والبرتغال ، حول احقية الفتح فى سواحل المغرب الاطلسية الجنوبية ، الممتدة بين راسى كانتان ونام ، اذ جعلت المعاهدة هذه السواحل فى مناطق النفوذ البرتغالى ، مقابل اعتراف البرتغال بمشروعية التوسع الاسبانى فى الجزء الشرقى من ساحل المغرب الشمالى الواقع بين بادس حتى غساسة ومليلية . ولعلنا لن نجد صعوبة فى فهم العوامل التى دفعت البرتغال الى التنازل لاسبانيا عن جزء هام من بلاد المغرب الشمالية ، اذا ما عرفنا أن البرتغاليين كان يهمهم بالدرجة الاولى اتمام فرض السيطرة على بقية المناطق الجنوبية من ساحل المغرب الاطلسى . للاهمية التى اصبحت لها بعد التعرف على طريق الهند البحرية . حيث السفن التجارية تمر على مقربة منها فى كل وقت وحين ، علاوة على اتخاذها كقواعد للانطلاق نحو المناطق الجنوبية الداخلية فى بلاد المغرب .

(25 المصدرالسابق . ص 9 .

والواقع انه منذ توقيع هذه المعاهدة خلا الجو للملوك البرتغاليين الذين وجدوا ان الفرصة قد حانت لتحقيق الامل المنشود الذي طالما عمل اجدادهم من قبل على انجازه ، وهو احتلال بلاد المغرب التى كانت تمثل فى نظرهم الباب الموصلة الى بلاد الاسلام وقلب افريقيا . والطريقة التى نهجها البرتغاليون لتحقيق خطة الاحتلال الشامل لبلاد المغرب كانت تتخلص فى التمركز فى نقطتين او عدة نقط ستراتيجية من ساحل المغرب الاطلسى . فى شماله وجنوبه واتخاذها قواعد للانطلاق نحو البلاد الداخلية . ولما كان البرتغاليون قد فشلوا مرارا فى احتلال شمال المغرب او مملكة فاس رغم القواعد العديدة التى لهم بسواحل هذه البلاد . للمقاومة التى ابداها الوطاسيون وكل من مجاهدي شفشاون والقصر الكبير وتطوان ، فقد توجهوا صوب بلاد المغرب الجنوبية ، او بعبارة اوضح صوب سواحل بلاد دكالة والشياظما وما جاورهما ، يشجعهم على ذلك الفوضى الضاربة اطنابها بهذه البلاد . وعدم وجود اية سلطة سياسية قوية بها . علاوة على بعض القواعد ومناطق النفوذ التى كانت لهم بها ، كاسفى وموكادور . وتطبيقا لخطة احتلال البلاد الجنوبية او مملكة مراكش اخذ البرتغاليون يمهدون لذلك بخلق العملاء ومن يمكن التعاون معهم من رؤساء المشايخ والحكام المحليين ، وقد وجدوا ضالتهم فى مولاي زيان احد الامراء الوطاسيين . وحسب المصادر التاريخية يظهر بأن مولاي زيان كان حاكما على منطقة ازمور وان خلافا حصل بينه وبين السلطان محمد البرتغالى ، دفعه الى مهادنة البرتغاليين ، والسماح لهم ببناء حصن بساحل ازمور ، وذلك حسب المعاهدة التى وقعها الطرفان سنة 1510 (26) . على ان احتلال البرتغاليين لمدينة ازمور لم يتم الا فى سبتمبر من سنة 1513 والا بعد تعاون يهود ازمور الذين كانوا على اتفاق مع البرتغاليين المحاصرين للمدينة ، حيث فتحوا لهم الابواب على حين غفلة من اهلها ، كما اورد ذلك محمد الحسن الوزانى المعاصر (26) . ومن ازمور توصل البرتغاليون الى فرض سيطرتهم على مازكان (28) التى بنوا بها حصنا عظيما خلال

---

26) المصادر الاصيلة للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 394

27) المصدر السابق . ص 394 .

28) لقد كان الاهالى يطلقون اسم البريجة الجديدة اى الحصن الجديد على المدينة التى كان البرتغال قد بنوها منذ 1506 مكان مازكان والتى عرفت عند البرتغال باسم (Castcho lR ea el) وفيما بعد اخذت مدينة مازكان اسم الجديدة وقد كانت بنواحى مازكان البرتغالية قرية قديمة كانت تسمى مازكان المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . فرنسا — المجلد الاول حاشية صفة 159 .

نفس السنة وذلك لاهمية هذا الميناء الذي يمكن استخدامه فى اي وقت من اوقات السنة خلاف ما عليه الحال بالنسبة لميناء اسفى وازمور . وما ان تم تحقيق هذا النصر للبرتغاليين حتى بعث الملك عما نويل الاول الى البابا ليون العاشر يبشره بالخبر . ويبثه امانيه فى فتح مملكة مراكش كلها (29) .

وحسب ما بين ايدينا من مصادر تاريخية معاصرة ، فان الملك البرتغالى قد حاول فى بداية الامر ان يتقرب من ملك مراكش (مولاي الناصر ابو على الهنتاتى) لاستمالته ، فقد ارسل الى مراكش خلال غشت لسنة 1514 م سفارة على راسها (Fernao Dias) لتعرض على مولاي الناصر عقد معاهدة على اساس التبعية والدخول تحت حماية التاج البرتغالى (30) وعندما رفض ملك مراكش ذلك ، وصلت اوامر من لشبونة الى القوات البرتغالية المرابطة فى اسفى وازمور بأن تتهيأ لاحتلال مراكش . وقد خرجت الحملتان خلال شهر اكتوبر لسنة 1514 فى اتجاه مدينة مراكش . وكل منهما تمنى نفسها بشرف احتلال هذه المدينة . وعند مطلع يناير 1515 كانت مدينة مراكش محاصرة بالقوات البرتغالية (31) التى لم تجد فى النهاية بدا من التراجع للمساعدات التى وصلت الى المدينة المحاصرة من الخارج وخاصة من قبل ملك فاس محمد البرتغالى .

وفشل حملة مراكش جعل البرتغاليين يدركون بأن احتلال المغرب يتوقف الى حد كبير على احتلال فاس ووضع حد للمقاومة التى يتزعمها الوطاسيون ، الامر الذي دفع لشبونة الى ارسال اسطول عظيم الى المعمورة خلال شهر يونيه من سنة 1515 م (32) . مستغلة فرصة قيام ملك فاس بحملة ضد القبائل الخارجة عنه فى بلاد دكالة . وانتهى امر الحملة بالاستقرار عند مصب وادي سبو ، الا ان اخ السلطان مولاي الناصر ونائبه على مكناس سرعان ما تصدى لرد المعتدين واجبرهم على الانسحاب عند اوائل غشت فى نفس السنة .

---

(29) المصادر الاصيلة للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول (فتح ازمور) ص 394 .

(30) م. ص. ت. م البرتغال — ج 1 — ص 687

(31) المصدر السابق . ص 688 .

(32) المصدر السابق . ص 695 .

وهكذا فشلت الحملتان على مراكش والمعمورة ، اللتان كان ملك البرتغال يؤمل من ورائهما احتلالا شاملا لجميع بلاد المغرب . وقد كان من نتائج هذه الخيبة ان اخـذت لشبونة تنهج سياسة التقرب مـن بعض القبائل والعمل على خلـق العملاء ، امثال اولاد عمران ومشايخ قبائل شرقية والقواد حمو امركاس ، ويحيى بلصباع ، ويحيى أوتافونت ، وعبد الرحمن بن حدو ، والشيخ سعيد ، وعلـى مومن وغيرهم من الذين كانوا يعملون تحت الحماية البرتغالية . ويمكننا أن نتخذ من يحيى أوتافونت مثالا نستدل به على نوع العلاقات التى كانت بين هذه القبائل والمشايخ مع البرتغال : ففى شهر يونيه لسنة 1516 ، اصدر الملك عمانويل الاول مرسوما يقضى بتعيين يحيى اوتافونت حاكما علـى كل دكالة مع السماح لـه بتاليف حرس خـاص . شريطة أن ينفذ أوامر الملك البرتغالى التى سيتوصل بها بواسطة حكام أسفى وازمور (33) . ومما يجدر ذكره هو أن جميع هؤلاء العملاء كانوا يبعثون برسائل وتقارير الى لشبونة ، تعد خير مساعد على معرفة احوال بلاد المغرب الجنوبية خلال هذه الفترة الحالكة من تاريخها .

(33 المصدر السابق . ص 6 .

الفصل الخامس

القيادة السعدية بسوس والاصطدام مع الوطاسيين

اتصف العهد الاول من حكم المولى احمد بن محمد بن عبد الرحمن بظاهرتين متلازمتين : الرغبة الاكيدة فى القيام بأعمال الجهاد والقتال لتحرير سواحل بلاد سوس من الاحتلال المسيحى ، والطموح الى السيطرة وبسط النفوذ على مجموع هذه البلاد . وقد اعتمد فى تحقيق ذلك على فرقة الفرسان التى كانت بعض القبائل المنضوية تحت لوائه ، قد وضعتها رهن اشارته ، وقوامها خمسمائة رجل ، والتى تزايد عددها مع الايام لكثرة الراغبين فى الجهاد ومقاتلة العدو . كما استغل موارد البلاد الزراعية والتجارية للحصول على الاموال اللازمة لسد الحاجيات ولشراء الاسلحة ومواد الحرب لتقوية مركزه فى الداخل ولمحاربة خصومه واعدائه . وحسب ما لدينا من وثائق معاصرة فان المولى احمد قد باشر سياسة التعامل مع التجار الاجانب ، من غير البرتغاليين منذ الايام الاولى لتوليته ، اذ ابرم مع جماعة من التجار القشتاليين اتفاقا يقضى باحتكار سكر سوس ، مقابل مبلغ هام من المال يقدر بستمائة الف كروز ادوس (Gruzados) (1) . وما من شك فى ان المولى احمد قد استغل هذه الموارد لتدبير شؤون دعوته من حيث القيام بالدعاية لها فى الداخل . والاستعداد لمنازلة الاعداء البرتغاليين ، الشيء الذي يفسر لنا انقضاء زهاء السنة من تاريخ بيعته ، قبل أن يقوم بأول هجوم ضد البرتغال فى حصن سانتاكروز ، فى اليوم الثامن عشر من غشت لسنة 1511 م (2) ، هذا التاريخ الذي يعد فى الواقع بداية انطلاق الدعوة السعدية الرامية الى تحرير الوطن من الاحتلال الاجنبى . والمولى احمد الى جانب الغارات المسلحة ضد مراكز الاحتلال البرتغالى ، التجأ الى منع كل تعامل مع هذه المراكز ، دون أن يتوان عن مقاومة

---

1) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 255
2) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 334

كل من يحاول الخروج عن ذلك من قبائل سوس . وان كانت علاقاته التجارية مع التجار الاجانب من غير البرتغاليين قد تزايدت ، سيما وان هؤلاء ، كانوا ينقمون على البرتغال ادعاءهم حق احتكار التجارة والتعامل مع هذه المنطقة ، وفرضهم ضريبة الخمس على البضائع التى يتاجر بها غيرهم فى هذه السواحل ، ولكى يعزز المولى احمد سياسة المقاطعة احتل (تافتنا) التى كانت تشرف على طرق المواصلات مع حصن سانتاكروز خلال سبتمبر 1514 م . مما اثر كثيرا على وضعية البرتغاليين فى هذا الحصن ، وجعل حاكمه Aflonso Rodrignes يسرع الى تحصين القلعة واتخاذ كل الوسائل اللازمة للدفاع (3) . وقد جاء فى احدى الرسائل التى وجهها هذا الاخير الى الملك عمانويل الاول بأن العلاقات مع الاهالى قد اصبحت غير قارة ، اذ لم يعد بامكانهم نقل المواد الغذائية من اللحم والقمح والفواكه وغيرها خوفا من المولى أحمد (4) .

وكرد فعل ، عمد البرتغاليون فى حصن سانتاكروز الى الاتصال بخصوم المولى احمد الذين كانوا يناهضون دعوته ، وأمدوهم بالمساعدات المختلفة ، ومن هؤلاء الخصوم تحفظ لنا الوثائق والمصادر أسماء قبائل كزيما التى كانت تستقر حول حصن سانتاكروز . وقبائل ازرارا التى قام قائدها مالك بن داود بدور هام فى نشر فكرة الدخول تحت حماية البرتغال بين بعض القبائل بسوس . كما قام البرتغاليون بتشديد المراقبة على عمليات تهريب السلاح التى كان التجار الاوربيون يقومون بها لمصلحة المولى أحمد (5) . مقابل المتاجرة معه ، الا ان جميع ذلك لم يفت فى عضد الحركة السعدية الناشئة لان المولى أحمد نجح فى الاستيلاء على مدينتين هامتين ببلاد سوس خلال سنة 1516 : احداهما بالشمال ، وهى تارودانت (6)

---

3) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث (احتلال اكادير)

4) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 614
لم تكن مراكز الاحتلال البرتغالى بالسواحل المغربية ، حصونا عسكرية فقط ، بل كانت أيضا مراكز تجارية تتم بواسطتها المبادلات التجارية بين الاجانب والاهالى . وقد نشأت لذلك وكالات بكل منها وكيل وكاتب . يستقران فى مراكز الاحتلال وهؤلاء الوكلاء كانوا مكلفين بثلاثة أشياء :
1 — تجنيد القوات لتقوية المخافر البرتغالية فى المغرب .
2 — جمع الفضة والمعادن الثمينة .
3 — جمع المؤن من اللحم والحطب والطعام والقمح لتموين المراكز .
اى ان الوكالة كانت مكلفة بمهام تجارية وعسكرية فى آن واحد . (المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى . ص 564)

5) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال — المجلد الثالث (احتلال اكادير)

6) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . حاشية ص 440

التي كانت بحق من اعظم المراكز الهامة بوادي سوس . والباب الموصلة الى بلاد الحوز عبر جبال الاطلس الكبير . والمدينة الثانية هى (مـــاســـا) الساحلية التى خرج اهلها عن طاعة البرتغاليين . وشاركوا فى الحملات الموفقة التى شنها المولى احمد ضد الاعداء وحليفهم مالك بن داود . ويبدو مما تقدم ، ان المولى احمـــد كان يهدف الى عزل مراكز الاحتلال الاجنبى بسواحل سوس ، وتضييق الخناق عليها ، املا فى انزال الضربة النهائية بها عند الوقت المناسب ، وتمشيا مع هذه السياسة قام باحتلال (تاركوكو) الواقعة فى الشمال الشرقى لحصن سانتاكروز كما اتخذ (ازرو) وهى قصبة لا تبعد الا بثلاثة اميال عن هذا الحصن ، مقرا لقواته المحاربة . وبديهى ان المولى أحمد قد اتجه بكل امكانياته نحو حصن سانتاكروز باعتباره اهم هذه المراكز واقواها . والمصادر التاريخية المعاصرة تؤكد بأن المولى احمد عند محاصرته الاعداء ومنعه القبائل السوسية من التعامل معهم ، لم يكن يتورع عـــن احراق بيوت هؤلاء المخالفين لاوامره ، وذلك كما حصل فى شهر ماي لسنة 1517 م . ويكفى الرجوع الى رسالة كان قد وجهها الشيخ سعيد ، أحد مشايخ قبائل سوس ، الذين كانوا يتعاملون مع البرتغاليين الى الملك عمانويل الاول ، مؤرخة بشهر ماي من هذه السنة (اي 1517) . لنتأكد من موقف المولى احمد اتجاه هؤلاء المتعاملين ، فقد ورد فيها بأن الشيخ وقبيلته كانوا يقومون منذ ثلاث سنوات بخدمة البرتغاليين فى حصن سانتاكروز ، حيث يحملون اليهم البضائع المختلفة ، الا ان المولى احمد اتى بقوات جرارة وانتصر على قومه ، ففر بعضهم وخضع له الباقى . ثم يعرب الشيخ سعيد عن اسفه لعدم تمكنه من خدمة البرتغاليين ، اذ من المستحيل الاتصال بالحصن المذكور لان قوات المولى احمد تحرس كل الطرق المؤدية اليه (7) .

وهكذا اشتد الحصار على البرتغاليين فى حصن سانتاكروز ، اهم قاعدة احتلال فى ساحـــل سوس ، وازداد شعورهم بالخطر الذي يهددهم من جراء الحركـــة الجديدة . ولقد حاول الحاكم البرتغالى لهذا الحصن Don Francisco de Castro ان يقوم فى احدى المرات بفك هذا الحصار وذلك بارساله لحملة خاطفة ضد قوات المولى احمد يوم الخامس عشر من ماي لسنة 1518 م . فى ازرو ، ولكن هـــذه الحملة فشلت فاضطر الحاكم المذكور الى طلب النجدة من حكومته فى لشبونـــة ، وذلك للمرة الاولى فى تاريخ الاحتلال البرتغالى بسواحل بلاد سوس .

---

(7) المصادر الاصيلة للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى ص 93

مما تميز به حكم السلطان الوطاسى محمد البرتغالى الذي تولى السلطة عند مطلع القرن السادس عشر ، اعمال الغزو والجهاد التى قام بها ضد قوات الاحتلال البرتغالى ، فقد ظهر وكأن البلاد مقبلة على عهد جديد خصوصا بعد المحاولات التى قام بها هذا الملك الوطاسى لدى ملوك السودان المغربى والسلاطين العثمانيين لتوحيد القوى بين الملوك المسلمين ، حتى يتمكنوا من صد الاخطار المسيحية عن بلاد الاسلام . ورغم فشل هذه المحاولات الخارجية ، فان الملك الوطاسى لم يتوان عن القيام بعمليات الجهاد ومقاتلة الاعداء المحتلين ، رغم الامكانيات القليلة الموجودة لديه ، الامر الذي جعل لمحمد البرتغالى سمعة بين أوساط العامة ، ودفع بالتالى حكام الامارات الذين كانوا فى شبه استقلال عن فاس ، للتعاون معه وتلبية دعواته لقتال المعتدين . وقد عرفت سنة 1512 تطورا هاما فيما يرجع لعمليات الجهاد والغزو ، اذ فى شهر يونيه قاد محمد البرتغالى حملات عسكرية ضد أصيلا وكان بمعيته حكام شفشاون والقصر الكبير وتطوان ، ورغم ان هذه الحملة قد فشلت الا ان جميع المحاصيل الزراعية لهذه المدينة قد خربت (8) . كما أعلن فى شهر سبتمبر لنفس السنة ملك مراكش الحرب ضد قبائل عبدة ودكالة التى كانت تدين بالولاء والطاعة للبرتغاليين . وتعرضت نفس هذه القبائل لغارات قام بها الناصر اخ ملك فاس خلال سنة 1514 (9) .

على أن الحدث الذي دفع المغاربة الى التكتل لرد المعتدين هو الحملة ضد مراكش ، اذ شعر الجميع بالاخطار التى ستتعرض لها البلاد فيما لو نجحت هذه الحملة ، ولولا المساعدة التى بذلها الوطاسيون خاصة لسقطت هذه المدينة فى قبضة الاحتلال البرتغالى عند أوائل سنة 1515 . ولقد كان لنجاح الوطاسيين فى صد الحملات البرتغالية عن المعمورة خلال نفس السنة اثر كبير فى داخل البلاد ، اذ ظهروا لدى العامة بمظهر المدافع عن البلاد شمالها وجنوبها ضد الخطر المسيحى ، كما شجعهم ذلك على الاستمرار فى غزو المراكز البرتغالية وانزال الضربات بجميع القبائل المتعاونة معها . ولما كانت الحملات البرتغالية قد استهدفت اكثر ما استهدفته بلاد المغرب الجنوبية لذلك فقد قام الوطاسيون بتوجيه جل عنايتهم الى هذه النواحى من المغرب ، وليس هناك من شك فى أن السلطان الوطاسى قد وجد فى ذلك الفرصة

---

8) المصادر الاصيلة لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال — المجلد الاول ح . ص 388

9) المصدر السابق حاشية صفحة (ح . ص 594)

المناسبة لبسط نفوذه من جديد على هذه البلاد ، بل وعلى غيرها من المناطق التى كانت قد أصبحت فى وضع شبه مستقل عن فاس ، منذ أن ضعفت السلطات القائمة بها . وعندما كانت سنة 1517 قاد محمد البرتغالى حملة عسكرية ضد قبائل عبدة اشترك فيها حاكم مراكش مولاي الناصر الهنتاتى ، وابن عمه محمد الهنتاتى سيد الجبل ، وقد انتهت هذه الحملة بدخول معظم قبائل دكالة وعبدة فى طاعته بينما انهزم عميل البرتغاليين يحيى أوتاعفوفت (10) .

اما موقف المولى احمد بسوس من حركات الجهاد التى يتزعمها الوطاسيون فى جنوبى المغرب خاصة ، فالمصادر التاريخية المعاصرة لا تثبت لنا حصول تعاون حقيقى بينهما، بل نستنتج من رسالة وجهها حاكم آسفى الى لشبونة سنة 1517 التى غزا خلالها محمد البرتغالى قبائل عبدة ، بأن الملك الوطاسى لم يقم بحصار آسفى بسبب تأخر المولى احمد فى ارسال خمسمائة جمل كان محمد البرتغالى يعتمد عليها لضرب الحصار حول المدينة المذكورة (11) . ومعنى ذلك ان المولى احمد قد أدرك بأن تزعم الوطاسيين لحركات الجهاد فى جنوبى المغرب من شأنه ان يعيد النفوذ الوطاسى الى هذه البلاد ، خصوصا بعد الاتفاق الذي تم بين محمد البرتغالى وملك مراكش الناصر ، بأن حكم مراكش سيؤول بعد وفاته الى الوطاسيين فى فاس (12) . وهذا جميعه يتعارض والدعوة السعدية الناشئة بسوس . ولقد اخذت العلاقات تتوتر بين الوطاسيين والمولى احمد حيث لم تكن الايام لتزيد هذا التوتر الا شدة وحدة ، سيما وأن الحاكم السعدي الذي كان قد اتم السيطرة على كل السوس استطاع أن ينقل مجال نشاطه الى ما وراء جبال الاطلس الكبير حيث بلاد الحوز والشياظما وعبدة — هذه البلاد التى كان للمولى احمد بها عدد غير قليل من الانصار ، وذلك منذ عدة سنوات ، ويوم أن لنتقل الى الشياظما والده المولى محمد أبن عبد الرحمن واستقر بها — (13) مما لم يدع مجالا

---

10) المصادر الاصيلة لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال — المجلد الثانى ص 153
11) المصادر الاصيلة لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 721
12) المصادر الاصيلة لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى ص 171
13) انتقل المولى محمد ابن عبد الرحمن (القائم بأمر الله) من سوس الى الشياظما (بعد الحاح شيوخها عليه فى الذهاب الى بلادهم) : الإفرانى : النزهة ص 17 . وتؤكد رسالة حاكم آسفى المؤرخة بـ أكتوبر 1513 بأن القائم هذا قد انتقل الى بلاد الشياظما (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 443 . حيث استقر بافوغال (قرية تقع قرب سوق الاحد بالشياظمة على بعد 35 كم من الصويرة وبها توجد زاوية سيدى على معاشو) . وقد ظل القائم بها الى ان توفى سنة 1517 حيث دفن فيها بجوار قبر الولى الشهير محمد ابن سليمان الجزولى (الزيانى : المعرب . مخطوط . ص 344) .
وسيقوم احمد الاعرج بنقل رفاة والده ورفاة الشيخ الجزولى الى مراكش بعد ان يستقر أمره بها وذلك سنة 1525 (الافرانى النزهة ص 19) .

للشك لدى الوطاسيين فى أن المولى احمد انما يهدف من وراء دعوته الى الجهاد للسيطرة والحكم . وحسب رسالة وجهها الملك جان الثالث الى حاكم آسفى بتاريخ يونيه 1523 : نعلم بأن الخلاف قد اشتد بين الوطاسيين والمولى احمد خلال نفس السنة ، اذ طلب الملك البرتغالى أخبارا مفصلة عن النزاع القائم بينهما (14) . ومن البديهى أن البرتغاليين الذين كانوا يترقبون الفرص السانحة للتدخل فى البلاد ، سيغتنمون هذه المناسبة للتقرب من الفريقين المتنازعين وليعرضوا عليهما هدنة وسلما أو تعاونا ضد الفريق الآخر ، وغير ذلك مما يضمن مصالح البرتغال فى المغرب بل ويساعدهم فى المستقبل على اكتساح البلاد . وتنفيذا لذلك توجه وفد برتغالى الى تافتنا خلال سبتمبر لسنة 1523 ليعرض على المولى أحمد تبادلا للاسرى ، وليدخل معه فى شروط للهدنة ، وقد انتهت المفاوضات بعقد هدنة موقتة لمدة ثلاثة أشهر (15) ، انقلبت الى هدنة سلم بين الطرفين فيما بعد ، كما بدأت فى نفس الوقتمفاوضات بين البرتغال والوطاسيين بواسطة القائد العطار (16) ، غير أن الظروف كانت فى صالح المولى أحمد الذي سرعان ما اغتنم فرصة الهدنة مع البرتغال وانــزل الضربة النهائية بالقوات الاسبانية سنة 1524 فى حصن سنتاكروز عند وادي نون (17) ، مما زاد فى شهرته ببلاد سوس ، كما قام بحملة ضد مدينة مراكش انتهت باحتلالها أوائل يناير 1525 . ومهما اختلفت المصادر فى كون المولى احمد قد دخل مراكش سلما أو عنوة (18) الا أن الذي لا جدال فيه هو أن احتلال مراكش واتخاذها مقرا للدولة السعدية الناشئة ، قد اثر على مجرى الاحداث بالمغرب ، وجعل هذه البلاد تدخل مرحلة حاسمة من تاريخها الحديث .

---

14) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى ص 308
15) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى ج – ص 351
16) المصدر السابق حاشية صفحة 355 .
17) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 151
18) بعض المصادر ترى أن أحمد الاعرج دخل مراكش عنوة وقتل أميرها محمد الهنتاتى الملقب (بوشنتوف) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى ص 366 – ويؤيد هذا الزيانى فى مخطوطه (الترجمان) ص 345 (لقد ارتحل – أى الاعرج – من ردانة وقصدمراكش فنزل عليها وحاصرها ، وملكها أحمد الاعرج وبايعه أهلها وقبائلها وخرجت من حكم بنى وطاس) . اما الافرانى فى النزهة ص 20 فيرى بان مراكش قد دخلت طوعا فى بيعة المولى احمد (لقد اشتهر أمر الاعرج ببلاد سوس وهرع اليه الناس وقصدوه من كل جهة ووفدوا عليه وطالبه أمراء هناتة وملوك مراكش حيث استنجد بعضهم بالمولى احمد الذى جاء الى المدينة واحتلها ثم قضى على خصومه بها .

الفصل السادس

السّعديون وتوحيد المغرب

ما بين استقرار المولى احمد الاعرج فى مراكش عند مطلع سنة 1525 ، ودخول اخيه المولى محمد الشيخ ظافرا الى فاس سنة 1549 . عرفت الحركة السعدية تطورات هامة ، ومرت بمراحل مختلفة ، كان الكفاح فى جميعها هو الطابع المميز ، والصفة التى عرفت بها كفاح فى الداخل ضد الوطاسيين الذين شعروا بخطر الحركة عليهم فناوؤوها وناصبوها العداء . وكفاح فى الخارج : ضد مراكز الاحتلال الاجنبى ، ومن يتعاون معها من الاهالى . فعمل الحكام السعديون على استغلال كل الفرص السانحة التى تمكنهم من القضاء على خصومهم . وتساعدهم فى نفس الوقت على تقوية نفوذهم ، وتوطيد دعائم دولتهم الناشئة . وبالكفاح لتوحيد البلاد وتحرير سواحلها المحتلة ، استجاب السعديون لرغبات طبقات العامة ، فظهروا كقادة شعبيين مختلفين تمام الاختلاف عن الوطاسيين وبعض رؤساء الامارات المحتلة ، الذين قبلوا التحالف مع اعداء البلاد ، فى سبيل الابقاء على مصالحهم الخاصة ، فالقوى متباينة ، والمصالح متضاربة .

لقد استغل المولى أحمد الاعرج فرصة الهدنة التى وقعها مع البرتغال لبسط نفوذه على معظم البلاد الجنوبية ، وخاصة بلاد درعا ثم لاحتلال مدينة مراكش التى اصبحت منذ مطلع سنة 1525 المقر الجديد للدولة السعدية الناشئة .

وبديهى ان اعمالا كهذه كان من شأنها ان تثير الوطاسيين فى فاس ، وتجعلهم يتاكدون من ان المولى أحمد يستغل الدعوة الى الجهاد للسيطرة والتملك ولكن ظروف الوطاسيين لم تكن تسمح بالقيام باي عمل ضد المولى احمد فى مراكش : فقد توفى الملك الوطاسى محمد البرتغالى فى شهر ماي لسنة 1526 تاركا الحكم لاخيه (ابو حسون) على ، الذي لم يحكم الا خمسة أشهر ، اذ عزله ابن اخيه المولى احمد وتولى زمام السلطة فى سبتمبر فى نفس السنة (1) .

---

1) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث ص 146

ولعل المولى أحمد السعدي قد حاول استغلال احداث فاس الداخلية والنزاع بين الامراء الوطاسيين لصالحه ، مما جعله يتمسك بالهدنة مع البرتغال رغم التحرشات وبعض الاعتداءات التى قاموا بها سواء فى سوس أو فى أحواز آسفى وازمور ضد أراضى ورعايا السعديين ، كما لا يستبعد أن تكون أحداث فاس الداخلية وظهور ضعف الوطاسيين من العوامل التى دفعت الحكومة البرتغالية من جهتها الى المحافظة على الهدنة مع المولى احمد السعدي ، بعد ان كان الملك البرتغالى يفكر فى ضرب الحركة السعدية القائمة فى الجنوب بهم .

ولقد جرت خلال فترة الهدنة مراسلات بين المولى احمد والبرتغاليين تكشف لنا النقاب عن بعض أوضاع المغرب الجنوبى ، وتظهر فى نفس الوقت مدى اخلال قوات الاحتلال البرتغالية بشروط الهدنة . وما كانت تقوم به من تعسف وانتهاك للحرمات . وان قوات الاحتلال البرتغالية لم تكن جادة فى المحافظة على الهدنة ، بل عملت على اغتنام الفرص السانحة للتوسع والسيطرة . فلم تكد تمضى على الهدنة غير مدة قليلة حتى قام حاكم سانتاكروز (Antonio Leitao de Gambao) بحملة ضد بعض مراكز السعديين فى سوس ، مستغلا فرصة انتقال المولى احمد واخيه المولى محمد الى مراكش ودرعا . وقد غنمت القوات البرتغالية الكثير من الغنائم ، كما الحقت بأنصار السعديين أضرارا جسيمة ، ولم ينس الحاكم البرتغالى ان يبعث الى الملك جان الثالث ليعتذر عن قيامه بهذه الحملة ضد السعديين . رغم أوامر الملك بعدم الخروج من سانتاكروز . معللا ذلك بأن المناسبة كانت جد مواتية (2) . ومن هذا القبيل ايضا تحرشات الحاميات البرتغالية فى آسفى وازمور والحاقها الاضرار برعايا السعديين واراضيهم ، مما جعل المولى احمد يكتب الى الملك البرتغالى محذرا اياه من مغبة التمادي فى ذلك وتعد هذه الرسالة هى الاولى من نوعها فى تاريخ العلاقات السعدية البرتغالية . كما تعتبر من أهم الوثائق المتعلقة بالدولة السعدية الناشئة (3) . وقد جعل هذا التحذير الملك البرتغالى يقوم بعزل حاكم آسفى وتعيين حاكم آخر جديد هو (Garcia de Mello) الذي دخل لتوه فى اتصالات مع المولى احمد للاتفاق على هدنة جديدة ، وقد كان القائم بدور الوسيط بين السعديين والبرتغال اليهودي ابراهام بن زامير . وتم

---

2) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى — ص 332

3) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى — ص 348

التوقيع على الهدنة فى سبتمبر ، اي فى نفس الشهر الذي اخذت فيه اوضاع الوطاسيين تستقر بفاس ، عقب تولية السلطان احمد الوطاسى الذي اتخذ كوزير له المولى ابراهيم بن على بن راشد (4) ، وهو أحد الشخصيات البارزة التى لعبت ادوارا هامة خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخ المغرب .

ولقد عمل السلطان احمد الوطاسى من جانبه على انهاء خصومته مع البرتغاليين حتى يتفرغ لخطر السعديين المتزايد . فكلف المولى ابراهيم بالاتصال بالبرتغال فى اصيلا . كما امر القائد احمد العطار — حاكم تادلا — بالقيام بنفس المهمة فى آسفى . وحسب الرسائل التى بعثها حاكم آسفى الى لشبونة فان القائد العطار قد عرض عليه باسم سلطان فاس السلم والتعاون ضد السعديين ، على ان يحتفظ كل منها بالاراضى التى سيفتحها وشرح له أن ملك فاس له رغبة أكيدة فى الاستيلاء على مراكش وانه اذا ما ساعده البرتغال على ذلك ، فسيتخلى لهم عن كل البلاد الواقعة على طول الساحل ، اي أراضى الشياظمة (5) . هذا ولم يكن مداد الهدنة التى كان البرتغال قد وقعوها مع الشريف السعدي ، وعن طريق حاكم آسفى نفسه ، قد جف بعد . وفى الوقت الذي كان البرتغاليون يتظاهرون بالمحافظة على الهدنة مع السعديين كما يتأكد ذلك من مراسلة المولى احمد من جان الثالث (6) واصبح على البرتغال أن يختاروا بين « التعاون » مع الوطاسيين فى فاس او المحافظة على (الهدنة » مع السعديين فى الجنوب .

وظهرت نوايا سلطات الاحتلال البرتغالية الحقيقية ، عندما قام ملك فاس بمهاجمة مراكش ومحاصرتها ، فنحن وان كنا نجهل ما اذا حصل اتفاق بين ملك فاس والبرتغال حول تنظيم هجوم ضد السعديين لان الوثائق لا تفصح عن ذلك ، الا أن حصار الوطاسيين لمراكش ونقض سلطات الاحتلال البرتغالية للهدنة مع المولى احمد السعدي ، يجعلنا نقول بتعاون الفريقين وان كان ذلك لا يثبت أن حكومة لشبونة قد رسمت سياسة معينة . فعندما جاءت القوات الوطاسية لحصار

---

4) مولاى ابراهيم بن على بن راشد الادريسى ، مجاهد شفشاون . أمه اسبانية الاصل هى للا زهرة ، واخته هى السيدة الحرة عائشة التى حكمت تطوان بعد وفاة زوجها القائد المنظرى . كان مولاى ابراهيم يتقن الاسبانية الى جانب العربية . وقد خاض عدة معارك ضد المراكز البرتغالية كاصيلا وطنجة ، كما لعب دورا هاما فى الانقلاب الذى ادى الى تولية أحمد الوطاسى . تولى الوزارة لهذا الاخير وشارك فى جميع حروبه كما قام بمفاوضات البرتغال لعقد السلم معهم .
المصادر الاصيلة للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — ص 146

5) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — ص 382

6) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى ص 367.

السعديين ، توجهت قوات برتغالية من أزمور واسفى . وهاجمت قبائل بنى عمير الموالية للسعديين (7) ، وحسب رسالة حاكم اسفى نعلم بأن الوطاسيين قد حاصروا مراكش حصارا شديدا ، وأن الخسائر كانت فادحة فى الارواح والعتاد بين صفوف السعديين (8) . ولم يطل حصار مراكش طويلا ، وذلك بسبب ثورة قامت فى مكناس ضد السلطان احمد الوطاسى . قام بها ابن عمه مسعود بن الناصر ، حيث دعا لنفسه بمكناس ، فعاد الوطاسيون ادراجهم وتمكن الملك من اخماد ثورة مكناس . بفضل وساطة المولى ابراهيم الذي جعل مسعود يستسلم، حيث نقل الى فاس وسجن بها الى أن مات (9) .

وتجلى رد الفعل السعدي ضد السلطات البرتغالية فى الهجومات المتواصلة التى قام بها السعديون ضد مراكز الاحتلال البرتغالية فى السواحل الجنوبية : اذ حوصرت سانتاكروز وتمكن احد المغاربة من اغتيال حاكمها (10) . كما الحقت القوات السعدية اضرارا جسيمة بالبرتغال والمتعاونين معهم فى كل من اسفى وازمور فقد جاء فى رسالة موجهة من اهالى ازمور الى جان الثالث وصف لاعمال التخريب التى كان السعديون يقومون بها ضدهم ، حيث أن ما زرعوه (قد اكله الشريف وتركنا للجوع) (11) . والاكثر من ذلك أن الحاكم السعدي قد منع التجار البرتغال واليهود من الدخول الى اراضيه تحت عقوبة الاعدام لمن يخالف ذلك ومصادرة بضائعه التجارية (12) .

---

7) المصدر السابق ص 407

8) المصدر السابق

9) حسب منظومة الكراسى : عروسة المسائل . ص 28

وكان حاركا على ضرورة	لمن بمراكش كن ضميره
كان قتالهم على البيان	بالحضرة العليا بلا توانى
ثم تولوا راجعين فى نفـم	بعصب ممن تولى وصبر
لما دعا لنفسه مسعودا	وثار فى مكناس والحقودا
اتاه حاركا بكل الناس	من البرابر واهل فاس
صالحه على يد الوزير	مع المواثيق من الامير
فعندما دخل فى فاس معه	سجنه وبعد ذاك صرعه

10) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى – (احتلال اكادير) .

11) المصدر السابق . ص 459 .

12) المصدر السابق . ص 482 .

وعلى ما يبدو ، فان المولى احمد الوطاسى الذي تاكد من جهة بمحاولات البرتغال الرامية الى مساعدة عمه ابى حسون ضده ، والذي راى من جهة اخرى استفحال الاخطار السعدية ضد مملكته ، أو ما تبقى منها ، قد غير من سياسته وذلك بأن أخذ في التقرب من الاتراك العثمانيين في الجزائر (21) : فمنذ سنة 1531 غادر بارباروس الجزائر مع عدد من السفن التى أرست بتطوان والعرائش وقد تزودت منهما بالمؤن والعتاد ثم القمح خاصة ، لان الجزائر عرفت آنذاك المجاعة والقحط (22) . وتعاونا من هذا القبيل ، جعل البرتغال والاسبان يرون تواطؤ الوطاسيين مع الاتراك ، ويسرعون الى تجهيز وتموين مراكز احتلالهم وخاصة بشمالى المغرب ، خصوصا بعد ان وصل الى فاس سفير من الجزائر ، ليعلم مقدار استعداد الوطاسيين لمحاربة المسيحيين (25) . وقد اخذت سياسة التعاون الوطاسى التركى تؤتى ثمارها ، خاصة بعد ان نجح القائد العطار في تحرير غساسة وطرد الاسبان منها ، ثم عندما حاصر الوطاسيون مليلية ايضا (24) . وقد اصبحت وضعية الاسبان بمليلية حرجة اذ أن السفن الاسبانية الذاهبة اليها كانت معرضة لخطر المغاربة في غساسة (25) . وبديهى أن هذه التطورات كانت في صالح الاتراك العثمانيين لانهم كانوا في حالة حرب مع الاسبان والبرتغال ، ولانهم اخذوا يتمركزون في السواحل المغربية ويتخذون من بعضها مراكز وقواعد لمحاربة خصومهم ومتى استمر الاتراك في سياستهم هذه فلا محالة من ان يبسطوا نفوذهم على مجموع المغرب ولن يلبثوا ان يتعاونوا مع السعديين لان عملية الجهاد ومحاربة اعداء المسلمين تعد صفة مشتركة بين الطرفين . وهذا جميعه يضر بمصالح البرتغال والاسبان في المغرب ، بل ويهددهم بأفدح الاخطار .

---

(21) ادخل احد أمراء بنى حفص في تونس في خدمته الاخوين من أسرة باربادوس اللذين كانا من اشهر قراصنة المتوسط : عروج وخير الدين . وقد كانا من اصل يونانى ثم أسلما واشتغلا بالقرصنة كما تطوعا لانقاذ مهاجرى الاندلس ونقلهم الى المغرب وشمالى افريقيا . وعندما اشتدت الحملات الاسبانية على الجزائر استنجد أهاليها بعروج . سيما وان دولة بنى زيان في تلمسان قد ضعفت منذ مطلع القرن 16 م لدرجة جعلت امراءها يتسابقون الى التعاون مع الاسبان ضد بعضهم البعض كما فعل ابو عبد الله محمد سنة 1511 م . وقد اعلن عروج نفسه أميرا على الجزائر وصد منها حملة اسبانية سنة 1516 م وعندما قتل عروج في احدى حروبه ضد الاسبان سنة 1518 م تولى أخوه خير الدين مكانه وأصبح صاحب السلطة في مجموع البلاد الجزائرية تقريبا . وخير الدين هو الذى أعلن طاعة العثمانيين قد خلت الجزائر ضمن الامبراطورية العثمانية التى كانت تضم آنذاك آسيا الصغرى وشرقى أروبا والشرق العربى .

(22) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول ص 1 ، 3

(23) المصدر السابق ص 41

(24) المصدر السابق ص 72

(25) نفس المصدر ص 61

ومما زاد فى قلق البرتغال والاسبان ، العلاقات التى أصبحت لفرنسا ولفرنسوا الاول الخصم اللدود للامبراطور الاسبانى شارلكان ، مع الوطاسيين . نتيجة الروابط والتعاون الذي تم بين فرنسا والاتراك العثمانيين . وما من شك فى أن تقرب أحمد الوطاسى من فرنسا كان القصد منه تقوية مركزه فى الداخل خاصة ، عن طريق الاسلحة التى كان سيتوصل بها من فرنسا ، فى حين أن فرنسوا الاول كان يرى فى المغرب بلدا ذا موقع ستراتيجى هام يمكن اتخاذه لمحاربة الخصوم الاسبانيين ، علاوة على تشجيع رواج التجارة الفرنسية فى المغرب . وقد استقبل السلطان احمد الوطاسى فى فاس سفارة فرنسية برئاسة الكولونيل (Colonel de Piton) وبعث معه الى فرنسوا الاول رسالة تعد الاولى من نوعها فى تاريخ العلاقات المغربية — الفرنسية خلال مطلع العصور الحديثة . وتتضمن الرسالة المغربية السماح للتجار الفرنسيين بالقيام بأعمال التجارة مع مملكة فاس . وذلك جوابا على طلب الملك الفرنسى بهذا الشأن (26) .

ولم تكن هذه التطورات لتخفى على المولى احمد الاعرج الذي قام بمحاصرة المركز البرتغالية فى الجنوب ، وتضييق الخناق عليها خلال سنة 1534 : اذ حوصرت آسفى حصارا شديدا فى شهري ماي ويونيه وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين ، لولا المساعدة الخارجية التى بعثها البرتغاليون الى المدينة المحاصرة . حيث ظهر وكأن تعاونا قد حصل بين المسلمين : الاتراك والوطاسيون والسعديون ضد المسيحيين ، وضد مراكز الاحتلال الاجنبى فى المغرب خاصة . وما أن بلغ مسمع الملك جان الثالث بأن بارباروسيا قد غادر القسطنطينية فى اسطول ضخم ، وانه فى اتجاه نحو شمالى افريقيا وبلاد المغرب ، حتى أخذ يفكر جديا فى الجلاء عن بعض المراكز ، والجنوبية منها بصورة أخص ، تمهيدا لتركيز القوات البرتغالية فى المناطق الشمالية من المغرب ، كسبتة وطنجة باعتبارها حيوية للدفاع عن مصالح المسيحيين فى غربى البحر المتوسط وبوغاز جبل طارق . ثم لصد الاخطار العثمانية عن شبه جزيرة ايبريا (27) . وفى سبتمبر من سنة 1534 بعث الملك جان الثالث منشورا الى مختلف النبلاء والاساقفة يستشيرهم فى موضوع الجلاء عن بعض مراكز الاحتلال البرتغالى فى جنوبى المغرب كآسفى وازمور . وكذا حول حروب البرتغال

---

26) م. ص. ت. م المجموعة 1 — فرنسا — ج 1 ص 8
27) مم. ص. ت م المجموعة 1 البرتغال ج 2 ص 640

فى افريقيا بصورة عامة . وحسب المنشور الذي وجهه الملك البرتغالى الى هـؤلاء بتاريخ 13 سبتمبر 1534 م ، نجـد بأن الملك يطلب منهم الاجابة عن الاسئلـة الآتية : هل ينبغى ترك أسفى وازمور الى المغاربة أم لا ؟ وهل ينبغى الجـلاء عنهما أو عن بعضهما ؟ واذا احتفظنا بهذه المراكز فهل ينبغى تحويلهما الى حصون للتقليل من المصروفات ؟ ثم ما الاضرار الناتجة عن ذلك ؟ وكيف نتفاداها ؟ (28) .

على أن الرسالة التى وجهها الملك البرتغالى جان الثالث الى السيد الاعظـم (Grand Maître) تشرح وجهة نظر الحكومة البرتغالية ازاء الاوضاع الداخلية بالمغرب فقد جاء فيهـا بأن الاحتـلال البرتغالـى فى المغـرب آخـذ يضعف منذ سنة 1534 لصعوبة تموين المراكز وامدادها بالرجال والعتاد . لان جل العناية كانت موجهة نحو الهند والبرازيل . ولقد اخذت القبائل المغربية التـى كانت قد رضيت من قبل بالسيطرة البرتغالية فى استرداد استقلالها تدريجيا بالاضافة الى كون البرتغاليين وجدوا أنفسهم أمام عدو جديد : فالملك الوطاسى الذي كـان يحكم فى فاس لم يفتأ يواصل اتلاق سبتة والقصر الصغير وطنجة واصيلا ، ولكن خطر الجنوب كان اشد واعظم حيث الشريفان مولاي احمد واخوه مولاي محمد : فالاول كان حاكما على مراكش بينما الثانى اتخذ كعاصمة له مدينة تارودانت . وقد اصبحت لهما سيطرة واسعة وسلطة قوية كما اصبح لهما نفوذ كبير بسبب الحروب المقدسة التى يقومان بها ولانهما كانا يعلنان بأن هدفهما هو طرد البرتغال مـن اراضى الاسلام . ولا اتقاء ما عساه أن يحدث اقترح ـــ الملك جان الثالث يقترح ـــ مشروع اخلاء بعض الممتلكات البرتغالية فى الساحل المغربي وذلك بجمع المقاومة فى النقط التى يمكن الدفاع عنها بسهولة ويسر . ويضيف الملك البرتغالى بانـه استشار مع النبلاء حول اخلاء آسفى وازمور : فاسفى ليس لها ميناء ، بينما أزمور لها مدخل جد صعب بسبب عارض وادي أم الربيع ولان هذا المكان الاخير هو من جهة اخرى يوجد على مقربة من مازكان التي تقرر الاحتفاظ بها (29) . والغريب فى الامر أن الملك جان الثالث لم يتوان عن التفكير فى موضوع غزو الاراضى المغربية . فقد كتب الى النبلاء وكبار رجال الدين يستشيرهم حول هذا الموضوع طالبا منهـم الراي فى المراكز التى يجب اتخاذها كنقط استناد لعمليات الغزو المقبلة (30) . وليس

---

28) م. ص. ت. م المجموعة 1 البرتغال ج 1 ص 645
29) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا ـــ المجلة الاول ـــ ص 43
30) نفس المصـــدر ص 52

بخاف ان الملك البرتغالى عندما اظهر حرصه على غزو المغرب ، كان يهدف من وراء ذلك تغطية عجز الحكومة البرتغالية وضعفها امام المقاومة السعدية المتزايدة التى اجبرت البرتغال على التفكير فى الجلاء قبل ان يلقى بهم فى عرض البحر كما حـل بالاسبان فى سانتاكروز بالامس القريب .

وقد تلقى الملك البرتغالى اجوبة عديدة من مختلف الشخصيات البارزة ، وهى فى مجموعها تلقى ضوءا على ما كانت تكنه الطبقة الحاكمة فى البرتغال من حرص على المستعمرات والمراكز المغربية بشكل خاص ، وتعرب ايضا عن رغبة رجال الدين فى اتقاء خطر الاتراك العثمانيين الذين اخذ نفوذهم يتزايد بالشمال الافريقى : فالاميـــر Don Formond اخ الملك احتج على مشروع اخلاء اسفى وازمور ونصح بتحويلهما الى قلعتين . وعند الضرورة القصوى يجب اخلاء أزمور . وحبـــذ فكرة غزو المغرب على ان يبتدىء ذلك بالسيطرة على فاس التى سيكون لاحتلالها اثر عظيم (31) . اما الماركيز De Villa Real فقد نصح فى جوابه للملك بعدم الجلاء عن اسفى وازمور واذا تعذر الاحتفاظ بهما فلنخرب المركزين ولا نبقى الا على الحصون ثم يوجه انتباه الملك الى ضرورة التشاور مع البابا ومجلس الكرتيز حتى لا يتحمل الملك وحده مسؤولية ذلك . ويرى الماركيز اخيـــرا البدء بفـــــاس عند محاولة غزو المغرب (32) . وفى جواب (Francisco Lobo) نلاحظ مدى التخوف من السعديين : فالجلاء عن هذه المراكز سيجعل الشريف يوجه الحرب نحو الشمال ، فيهدد بذلك اصيلا وطنجة وفاس بدون ان يضع ملك فاس اية عقبة فى طريقه . ثم ينصح الملك بتحصين جميع المراكز البرتغالية فى المغرب (33) . ولا يخفى (Nuno Rodregues Barreto) استياءه من فكرة الجلاء عن بعض المراكـــز المغربية لان ذلك غير جدير بالبرتغاليين . حيث سينظر اليهم أجداهم بعين غيـــر الرضى ، اذ ينبغى التضحية بالاموال والارواح دون التفكير فى الجلاء عن هـــــذه الاماكن . ويرى اخيرا اتخاذ اسفى وازمور كقاعدتين للعمليات الحربية ضد المغرب فى قابـــل الايــــــام (34) .

---

31) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولـــى . فرنسا — المجلد الاول ص 52
32) المصادر الاصيلة لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى ص 671
33) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى — ص 676
34) نفس المصـــــدر ص 680

على ان اجوبة بعض رجال الدين وان تضمنت النصح بالتخلى عن بعض المراكز الجنوبية فما ذلك الا لتحث الملك على اخذ كل وسائل الدفاع بالنسبة للمراكز الشمالية لصد خطر الاتراك العثمانيين وباربروس بوجه خاص . فهذا أسقف (Lamego) ينصح باخلاء سانتاكروز وأسفى وازمور لان اهميتها لا تبرر النفقات الباهظة التى تصرف عليها . وان احتلال الشريف لها لن يكون له كبير الخطر على البرتغال . ويرى هذا توجيه العمليات الحربية الاولى ضد فاس كما ينصح بتحصين سبتة للدفاع ضد خطر باربروس (35) . وهذا السيد الاعظم (Grand Maître) لسانتياكو (Santiago) ينصح هو بدوره حكومته لتتخلى عن تلك المراكز،على ان تأخذ كل الاستعدادات للدفاع ضد الاتراك (36) . ولقد تميز جواب أسقف (Algarve) ببعض التفاصيل : فبديهى أن الملك البرتغالى يهمه بالدرجة الاولى ان يتوصل الى القضاء على الشريف قبل اي شيء آخر . لذلك فعليه أن يسيطر على سلا وان يتخذها قاعدة للهجوم على فاس ومكناس . كما كان الملك عمانويل الاول قد قرر القيام به يوم أن فكر فى غزو المغرب عند مطلع القرن السادس عشر للميلاد . ويوجه انتباه الملك الى ضرورة الاستعانة بأموال الاكليروس للقيام بمشروعه هذا . ثم يختم جوابه بان يطلب من الملك العمل على كسب جانب القبائل المغربية وخاصة القريبة منها من المراكز البرتغالية وذلك بجعلها تستقر حول هذه المراكز وتقوم بالزراعة . ومتى ما نجحت هذه الوسيلة فان كثيرا من القبائل ستتخلى عن الشريف من تلقاء نفسها . وفى ختام الرسالة يكرر الاسقف طلب غزو المغرب واعلاء كلمة الصليب (37) .

وهكذا فى الوقت الذي كان المولى احمد يشدد الخناق على المراكز البرتغالية والجنوبية منها خاصة كان الملك البرتغالى جان الثالث يجري استشارات سرية حول الوضع القائم فى المغرب ، سيما وان الظروف العامة بالنسبة للبرتغال لم تكن تسمح بالقيام باي عمل من شانه أن يخلق الجو الملائم للتسرب العثمانى داخل الاراضى المغربية كما حصل من قبل فى بلاد الجزائر . ورغم تراجع البرتغال عن القيام بأعمال عسكرية فى المغرب وتفكيرهم فى الجلاء عن بعض المراكز الجنوبية فان

---

35) نفس المصدر ص 656

36) نفس المصدر ص 622

37) م. ص. ت . م المجموعة 1 البرتغال — ج 2 ص 962

وجود الاتراك فى الجزائر قد احدث تطورات هامة على سير الاحداث فى المغرب ، فالملك الوطاسى أحمد بعدما كان يرى التعاون مع البرتغال لحفظ عرشه من الخطر السعدي ، قد اخذ اليوم يعمل على توطيد علاقاته مع ملك فرنسا ومع الاتراك العثمانيين . ولعل ذلك كان نتيجة شعوره بضعف البرتغال وعجزهم عن رد الخطر الجنوبى . على ان استفحال امر الدعوة السعدية وتزايد انصارها فى المغرب ، أرغم الوطاسيين على التقرب من البرتغال كذلك او ان الخطر المشترك قد قارب وجهات نظر كل منهما : فالحروب بين فاس ومراكش قد استؤنفت من جديد وحصلت معركة ببوعقبة قرب وادي العبيد يوم 24 يوليه 1536 م انتهت بانهزام الملك الوطاسى بسبب تخلى قبائل الخلوط التى كانت تكون القوات الامامية للجيش الفاسى ونشرها الفوضى فى سائر الجيش (38) وبعد المعركة (تدخل كبار القوم وعقد صلح بين الطرفين كتبه العالم ابو محمد عبد الواحد الونشريسى حيث أصبح الشمال للوطاسيين والجنوب للسعديين واتخذ وادي ام الربيع كخط فاصل بينهما كما احتفظ الوطاسيون بسجلماسة وبتافيلالت بينما اعطيت درعة للسعديين بالاضافة الى تادلا وتامسنا) (39) . واثر هذا الانهزام تقرب احمد الوطاسى ثانية من البرتغال ولعل ذلك نتيجة شعوره بانشغال الاتراك فى حروبهم ضد الاسبان . وكلف وزيره مولاي ابراهيم بالسعى لدى هؤلاء لعقد معاهدة سلم على أساس العمل المشترك ضد السعديين . وقد استجاب البرتغاليون الذين افزعتهم انتصارات المولى أحمد لهذا الطلب وجرت اتصالات متعددة بين الطرفين لتهيىء المعاهدة المنتظرة .

---

38) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — ص 49
جاء فى منظومة الكراسى : ذكر حركة وادى العبيد . ص. 32 .

وقصد الجيش الى المحلة	وكان قطع الوادى راى حلة
وذلك بعد مجيء الفقراء	والصالحين من شريف الامراء
والسيد الشريف فى كل لقا	يحل عقدها بجمع مفرقا
يرجع للصلح وللموافى	وبعد ذاك يعقب بالخلاف
فيقطع الوادى اليه صائلا	وكان بالنصر عليه مائلا
فلما وقعت العين بها	عاذ متقهقرا لراى مادها
من جملة الانقاض والمدافع	ولم يجد فى الناس من مدافع
فخانه الاعراب والخلوط	والوادى وحده له قنوط
وفرت الاجناد والبرابر	فلم يكن فى الناس من يصابر
غير ثلاثين على ابن راشد	وخمسة على المليك الوارد
وخاف من عداوة النصارة	وان يمد الغرب فى الخسارة
فعمل الصلح بما قد يصلح	ولامور المسلمين ينجح

39) المؤرخ المجهول : الدولة السعدية . ص 7 .

وبالمقابل فان الحاكم السعدي الذي تمت سيطرته على معظم المغرب الجنوبى قد اخذ يتقرب من امير دبدو بالمغرب الشرقى الذي ثار ضد فاس وارسل اخاه الى مراكش لتنسيق العمل ضد الوطاسيين (40) . ولن نجد صعوبة كبيرة فى فهم الاسباب التى دفعت البرتغال الى الدخول فى مفاوضات مع الوطاسيين . والتى ستنتهى بعقد معاهدة بين الطرفين ، اذا ما اطلعنا على التعليمات التى ارسلها جان الثالث الى سفيره فى مدريد الكونت (Comte de Castanheira) ليطلع عليها الامبراطور الاسبانى ، فهى تعبر بحق عن نوايا الملك البرتغالى اتجاه المغرب ، وتثبت مدى تخوف البرتغال من السعديين . وبعد ان تطرق الملك البرتغالى الى المصروفات الباهظة التى تتحملها الخزينة للدفاع عن الهند ضد الاتراك ، يشير الى اعمال البرتغال في المغرب ضد ملك فاس وملك مراكش ، والى الجهود المتواصلة للحيلولة دون احتلال فاس من قبل السعديين ، لان ذلك سيكون خطرا على الامتين المسيحيتين . كما تبرر التعليمات الاسباب التى دفعت الملك جان الثالث الى عدم ارسال النجدات الى ملك فاس (مما يدل على أن الوطاسيين قد استنجدوا بالبرتغال قبل خوضهم معركة بوعقبة السابقة) لانشغاله بأحداث الهند التى ارسل اليها الكثير من العتاد والرجال والاموال ، ولا يخفى ملك البرتغال شعوره عندما يقارن بين احداث الهند والمغرب ، فهو يرى أن اعماله بالمغرب هى اكثر اهمية وأن على الامبراطور ان يتتبع احداث المغرب عن كثب ، لانه اذا استتبت المقاومة ضد الاتراك ، فان كل ما تبقى يجب أن يوجه الى المغرب ، ولرد خطر السعديين . وأخيرا يشير الملك البرتغالى الى أن المولى أحمد السعدي حاكم ذكى وغنى ، وله اتصالات مع الاتراك . وان الخطر كل الخطر اذا ما احتل فاس او المراكز البرتغالية فى المغرب ، اذ لو سقطت جميعها بيده ، فان ذلك سيعرض لا محالة قشتالة لخطر عظيم (41) .

على ان سياسة التقرب التى اخذت لشبونة تنهجها فى المغرب لا بالنسبة للوطاسيين المستنجدين بهم ، ولكن بالنسبة للسعديين ايضا ترجع فى واقعها الى الظروف العامة التى كانت عليها اسبانيا والبرتغال اثر المعاهدة التى وقعها فرنسوا

---

(40) دبدو : تقع قريبة من الضفة اليمنى لوادى ملوية وتعد مركزا هاما فى المغرب الشرقى لا يقل أهمية عن تازة ووجدة . وقد أخذت هذه الامارة تستقل تدريجيا عن فاس منذ اشتغال الوطاسيين بمحاربة المراكز الاجنبية وبمقاومة الخطر السعدى

(41) م. ص. ت. م المجموعة الاولى — البرتغال — ج 3 — ص 166

الاول مع العثمانيين فى سنة 1536 حيث بدأ وكأن امبراطورية شارلكان قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والاتراك ، مما ادى الى استئناف الحروب بين هؤلاء من جديد . واول محاولة بدرت من البرتغال فى هذا الشأن ، عندما أرسلوا وفدا الى مراكش للتفاوض مع المولى احمد فى شأن هدنة بين السعديين والبرتغال ، وقد استجاب المولى احمد لذلك ، لانه كان فى حاجة الى تنظيم امور دولته الناشئة ، سيما بعد الانتصارات الاخيرة التى أحرزها ضد خصومه الوطاسيين . وقد وقعت هدنة بين الطرفين يوم 25 ابريل 1537 لمدة ثلاث سنوات . مع اجراء تبادل تجاري بين رعايا البلدين (42) . كما جرت مفاوضات مع الوطاسيين انتهت بعقد معاهدة لمدة احد عشر عاما . وقد وقعها مولاي ابراهيم وضابط اصيلا (Don Joao Continho) يوم 24 يونيه 1538 (43) .

ولنتأكد من ان سياسة التقرب البرتغالية من الوطاسيين والسعديين ، لم يكن القصد منها سوى الحيلولة دون قيام تعاون حقيقى بين الاتراك والمغاربة ، ما جاء فى بعض الرسائل والتقارير التى كان التجار والرحالة ورجال الدين المسيحيين يبعثونها عن احوال المغرب . مع الاشارة الى كل ما من شأنه أن يساعد البرتغال او الاسبان ايضا على فرض نفوذهم ويعمل على تحقيق الامنية المنشودة وهى احتلال مجموع المغرب (44) .

اما بالنسبة للوطاسيين والسعديين ، فقد حاول كل منهم الاستفادة من ظروف الهدنة التى لهم مع البرتغال ، لتقوية المركز الداخلى أولا ، وللتهيىء لمنازلة الخصم ثانيا : فمن جهة نجد السلطان الوطاسى جادا فى تحسين علاقاته مع الامارات المجاورة لخلق قوى ضد السعدين فقد تزوج مع السيدة الحرة (عائشة) حاكمة تطوان (47) ، كما زوج ابنته مع امير دبدو (48) ، ومن جهة اخرى ،

---

42) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث ص 44

43) نفس المصدر ص 44 .

44) م. ص. ت. م المجموعة 1 — البرتغال — ج 3 ص 166

47) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الرابع — حاشية ص 51

48) نفس المصدر . ص 75 .

فالسعديون الذين كانت دعوتهم فى تزايد ، قد حققوا نصرا عظيما على يـد المولـى محمد اخ المولى أحمد ونائبه على سوس ، وذلك عندما فتحوا حصن سانتاكروز العتيد يوم الثانى عشر من مارس لسنة 1541 . ويكفى للدلالة على الاثر الكبيـر الذي تركه سقوط هذا الحصن أن نذكر بأن الملك البرتغالى جان الثالث ما ان علم الخبر ، حتى أمر حاميات أسفى وازمور بالجلاء فورا عن هاتين القاعدتين ، مع الاحتفاظ بقاعدة مازكان وتحصينها . وقد وجه الملك جان الثالث فى هذا الشـأن الى سفيره بمدريد . (Francisco Lobo) رسالة مؤرخة بالثانى والعشرين من ديسمبر لسنة 1541 ، ليطلع عليها الامبراطور الاسبانى شارلكان ، حيث جاء فيها ذكر للاسباب التى أجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلاء عن قاعدتـى آسفى وازمور : فبالاضافة الى وضعيتهما الحرجة ، هناك تزايد قوات السعديين ، بفضل المساعدات التركية ، حيث أصبح الحاكم السعدي يتوفر على المدفعية ، والآلات وعلى جنود مدربين ، وقد رأينا كل ذلك عند حصار سانتاكروز ، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمرا شاقا وصعبا ، فقررنا اخلاءهما . ثم ان الجلاء عن آسفى وازمور ليس معناه التخلى بالمرة عن المغرب ، فقد اعطيت الاوامر لتحصين مازكان ، لسهولة استغلال مينائها طوال ايام السنة (49) .

وهكذا اعقب سقوط سانتاكروز اخلاء آسفى وازمور فى ديسمبر من نفس سنة 1541 فى حين أن أعمال التحصين قد شرعت فى مازكان مباشرة ، وذلك لاتخاذ هذه القاعدة مركزا لمقاومة التوسع السعدي . وتؤكد الوثائق بأن أعمال التحصين فى مازكان قد أستمرت دون انقطاع منذ الصباح الباكر حتى المساء ، وحتى أيـام الاحـاد والاعيـاد (50) .

وجميع هذه التطورات اظهرت السعديين فى المغرب كقادة محررين للسواحل المغربية من الاحتـلال الاجنبى ، والابطال الذين ستتم على يدهم وحـدة البلاد . فازدادت شعبيتهم وأصبح الجميع يتطلع اليهم لانقاذ البلاد من الاوضاع الفاسدة التى اصبحت عليها فى الداخل والخارج . ويدلنا على ذلك الاحداث التى حصلت

---

(49) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال — المجلد الثالث — ص 560

(50) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال — المجلد الرابع — ص 9

فى شمالى المغرب خاصة حيث يسود نفوذ الوطاسيين ، ولما يمض غير قليل على تحرير القواعد الجنوبية : (فسياسة الزواج) التى حاول احمد الوطاسى استغلالها لتقوية حكمه قد فشلت ، لان المولى عمر قد ثار فى دبدو ضد اخيه صهر السلطان الوطاسى ، واستولى على الحكم ، ثم اخذ فى التقرب من المولى احمد السعدي فى مراكش (51) . ولان المولى محمد بن على — أخ الوزير المولى ابراهيم (المتوفى فى صيف 1539) قد ثار فى شفشاون ضد السلطان الوطاسى مطالبا بفسخ المعاهدة التى للوطاسيين مع البرتغاليين (52) . وحتى تطوان خرجت عن فاس اذ حدثت بها ثورة اطاحت بحكم السيدة الحرة زوجة المولى احمد الوطاسى ، بينما تولى الامر القائد حسن (المسن) احد أفراد اسرة المنضري (53) . بل والاكثر من ذلك أن الحكم الوطاسى قد أصبح يعانى صعوبات بفاس نفسها مما شجع السعديين على مواصلة هجوماتهم لتوحيد مجموع البلاد وللوقوف بالمغاربة صفا واحدا ضد الاعداء المحتلين .

---

51) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — ص 137

52) المصادر اصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — حاشية ص 375

53) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الرابع — ص 105

الفصل السابع

القضاء على الحكم الوطاسي في فاس

كان من المتوقع ان يكون سقوط حصن سانتاكروز والجلاء عن آسفى وازمور ، بداية تطور هام للحركة السعدية ، التى اصبح جميع المغاربة يرون فى زعمائها القادة الذين تتمثل فيهم أماني الشعب : فى توحيد البلاد بالقضاء على ما تبقى لبنى وطاس فى فاس . ومن هم على شاكلتهم من حكام الامارات الشمالية ، وتحرير بقية المناطق التى تحتلها القوات البرتغالية والاسبانية ، لولا ان خلافا نشأ بين الاخوين : المولى احمد فى مراكش ، والمولى محمد فى تارودانت لم تكن الايام لتزيده الا شدة وحدة ، مما أثر على تطور الحركة السعدية وبالتالى على مجموع الاحداث الجارية بالمغرب ، حيث استفاد من ذلك والى حد ما بنو وطاس فى فاس الذين حاولوا أن ينقذوا صروح مملكتهم المتداعية باستغلال فرصة النزاع بين الحاكمين السعديين والحروب القائمة بينهما .

وعند البحث عن اسباب الخلاف بين الاخوين نجد بأن المولى محمد الذي نجح فى تحرير بعض المراكز الاجنبية بالسواحل الاجنبية . قد بدأ اكثر شعبية من اخيه المولى احمد ، واجدر منه بحمل لقب « المحرر » سيما وان المولى احمد بانتقاله الى مراكش واستقراره بها . قد ابتعد فى الواقع عن مناطق الخطر الاجنبى . وأصبح من جهة ثانية اكثر اعتدالا سواء فى معاملاته مع البرتغال المحتلين او مع الوطاسيين . واعتمادا على الرسالة التى بعثها (Henrique de Noronha) الى الملك جان الثالث بتاريخ 4 يونيه 1541 فان الخلاف بين الاخوين قد تفاقم بسبب غنائم سنتاكروز اذ ادعى حاكم مراكش بأن له نصف الغنائم ، فى حين أن المولى محمد رفض الاعتراف له بذلك ، وتضيف الرسالة بأن حاكم تارودانت قد منع كل تصدير للبضائع الى مراكش ، وكذا ارسال الاسرى ، وانه صادر كل ممتلكات التجار المراكشيين بتارودانت ، كما اقام حرسا قوامه ستون رجلا عند الممر الجبلى الوحيد الذي يصل بين مراكش وتارودانت . على أن المولى احمد قد طلب من اخيه أن يقدم الى مقابلته للتفاوض معه فى ايمنتانوت ، الا ان المولى محمد رفض ذلك بدعوى

انه يخشى مجيء حملة برتغالية فى غيابه ضد سوس (1) . والى جانب الخلاف حول الغنائم هناك سبب آخر يظهر وكأنه أكثر اهمية ، وهو مسألة ولاية العهد : اذ يبدو ان المولى احمد تدحاول تولية ابنه بدل اخيه المولى محمد ، مخالفا بذلك الطريقة التى سنها المولى محمد القائم بأن لا يتولى الحكم الا كبير العائلة (أما مولانا محمد الاكبر فقد عهد لاولاده مولانا احمد ومولانا محمد الشيخ واخواتهما الا يتولى الخلافة منهم ولا من أولادهم الا الاكبر فالاكبر ، فالتزموا ذلك الى أن كبر اولادهم فطلب (المولى محمد) مـن (المولى أحمد) الوفاء بذلك فامتنع . فقاتله على ذلك (2) ولا شك أن استيلاء المولى محمد على مجموع غنائم سانتاكروز من شأنه ان يعزز مكانته المادية والمعنوية ، ويساعده فى نفس الوقت على استغلال الموانىء للاتصال مع التجار الاجانب الذين كانوا يرغبون فى المتاجرة مع اهالى سوس ولشراء السكر والمعادن بشكل خاص ، مما يعود على المولى محمد بفوائد مختلفة . وان الاطـلاع علـى تقرير بعثه مـن تارودانـت (Sebastiao Alvares) الى جان الثالث بتاريخ الخامس من يناير 1542 ليدلنا على مدى استغلال المولى محمد للموانىء المغربية الجنوبية المحررة للاتصال مع الاجانب ، ويطلعنا فى نفس الوقت على أوضاع هذه المدينة خلال أزمة النزاع بين الاخوين : فقد وصلت الى تارودانت حمولة تسعة مراكب ، معظمها ثياب مختلفة ، وذلك مقابل السكر والنيلة والشمع والعنبر والجلود : وان المدينة لمملوءة بالبضائع الاجنبية رغم أن حركـة البيع والشراء كانت غير مزدهرة بسبب المجاعة وظروف الحرب (3) . ويثبـت استغلال حاكم تارودانت للسواحل الجنوبية فى توسيع عمليات التبادل مع الاجانب ما جاء فى أحد التقارير من أن الفرنسيين الذين هم فى اشد الحاجة الى معدن النحاس لصب المدافع قد وجدوا فى معادن المغرب النحاسية رغبتهم ، حيث أخذوا فـى استثمارها مقابل تقديم الاسلحة والعتاد الحربى (4) . وبديهى أن النصر سيكون حليف المولى محمد الذي الى جانب سمعته فى البلاد ، يتمتع بامكانيات لم تكن لاخيه فى مراكش : فقد جرت معركة بين قواتهما على وادي نفيس فى موضع تنيل (Tinnel) بين مولاي ادريس وعلى بن بوزيد قواد حاكم مراكش ، وبين العلج قائد حاكـم

---

1) م. ص. ت. م المجموعة الاولى البرتغال ج 3 — ص 416
2) الافرانى : نزهة الحادى , ص 65 .
3) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الرابع — ص 6
4) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الرابة — ص 133

تاروانت ، انتهت بانتصار قوات هذا الاخير (5) . على ان محاولة قد جرت من قبل الاولياء ورجال الدين لازالة الخلاف بين الاخوين ، حيث انتهت بأن اقتسما بالتساوي الاراضى التى احرزوها فى حروبهم ضد الوطاسيين (6) . ولعل الحاكمين السعديين قد ادركا بأن تحاربهما من شأنه أن يضعف قواتهم ، ويمكن خصومهم البرتغال والوطاسيين من اغتنام الفرصة للقيام ضد السعديين المتنازعين . والواقع هو أن البرتغال أو الوطاسيين لم يكن بامكانهم أن يستغلوا هذه الفرصة ، لان الحروب بين الاتراك العثمانيين وفرنسا من جهة ، والاسبان والبرتغال من جهة أخرى ، كانت لا تزال قائمة فى البر والبحر ، حيث لم تنته الا بعد أن كان المولى محمد قد أحرز النصر النهائى ضد اخيه فى معركة وادي الكاهرا على وادي العبيد خلال شهر يونيه لسنة 1544 ، بينما التجأ المولى احمد الى زاوية سيدي عبد الله بن ساسى هو وجميع عائلته (7) ، ومنها فر نحو الجنوب المغربى الى (بلاد سجلماسة التى امتن بها عليهم كان عند استقلاله بالدعوة الكريمة ومغالبتهم على كرسى الخلافة بمراكش) (8) .

وقد صفا الجو بعد ذلك للمولى محمد الذي انتقل الى مراكش وجعلها مقرا لدولته التى تدين لها بالطاعة كل البلاد الجنوبية من المغرب .

ولقد كان لانتصار المولى محمد الشيخ فى معركة الكاهرا اثر كبير فى تطور الاحداث التاريخية ، سواء بالنسبة لما حدث بداخل المغرب أو خارجه . اذ على اثر هذا الانتصار استقر الحاكم السعدي فى مراكش وجعلها مقرا لدولته الناشئة التى اصبحت سلطتها تعم كل البلاد الجنوبية ، فى حين أن البلاد الشمالية كانت تعرف الفتن والانقسامات مع نفوذ ضعيف للوطاسيين الذين انحصرت رقعة دولتهم فى فاس وما حولها .

وقد اقلق هذا التطور لشبونة ومدريد وادخل الرعب على قوات الاحتلال الاجنبى التى كانت منبثة على طول الساحل المتوسطى والقسم الشمالى من الساحل الاطلسى ، خصوصا وأن المولى محمد الشيخ ما فتىء ينادي بالجهاد لتحرير الوطن

---

5) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الثالث — ص 452
6) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الثالث — ص 121
6) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الرابع — ص 121
7) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الرابع — ص 144
8) مناهل الصفا . للفشتالى . ص 74 .

وانقاذ البلاد من الفوضى الداخلية والعودة بالناس الى مباديء الدين الصحيح . وقد اتخذ لذلك لقب المهدي (9) لما لهذا اللقب من تاثير دينى لدى عامة المسلمين هذا فى الوقت الذي كانت حركة التوسع العثمانى الرامية الى جمع شتات المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها آخذة فى الانتشار بمجوع الشمال الافريقى ، مما يشكل فى مجموعه خطرا كبيرا على المسيحية باوربا الغربية وعلى اسبانيا والبرتغال بوجه خاص . الامتين المسيحيين اللتين نذرتا نفسيهما لغزو المسلمين واعلاء كلمة الصليب .

ولن نجد بين الوثائق التاريخية لتصور الاوضاع السياسية التى اصبح عليها المغرب اثر استقرار محمد الشيخ بمراكش اهم من رسالة حاكم اصيلا (Bastiao de Vargas) الى جان الثالث : فالمولى محمد بعد انتصاره على اخيه عازم على التوجه الى فاس ، وقد اصبح لا يهاب الهزيمة بفضل تفوق قواته العسكرية وفرق مدفعيته . اما سلطان فاس احمد الوطاسى فهو اشد حرصا من اي وقت مضى على المحافظة على السلم مع البرتغال والاسبان(10) وكادت هذه الاتصالات أن تنتهى باتفاق العواصم الثلاث لولا قيام محمد الشيخ بحملة عسكريةضد فاس، وذلك للقضاء على ما تبقى من حكم الوطاسيين،وجرت هكذا معركة حربية على درنة فى سبتمبر 1545 م انتهت بانتصار محمد الشيخ واسر ملك فاس احمد الوطاسى ، حيث اصبحت طريق فاس مفتوحا امام قوات السعديين .

ويحق لنا هنا أن نتساءل عن الاسباب التى جعلت الحاكم السعدي لا يتوجه نحو فاس اثر انتصاره فى المعركة الاخيرة ما دامت الظروف اصبحت جد مناسبة للقيام بذلك ؟ فمن جهة : ما أن علمت فاس بنبأ انهزام احمد الوطاسى ووقوعه اسيرا حتى اعلنت بيعة محمد القصري بن احمد الوطاسى . واصبح ابو حسون ملك بادس وزيرا له ، حيث ظهر وكان الامراء الوطاسيين قد تناسوا خلافاتهم أمام الخطر السعدي الذي يهدد دولتهم بالزوال . فقاموا اليوم متعاونين لرد هذا الخطر ، وقد يدفعهم الخوف الى الاستنجاد بالعدو مما يزيد الامر تعقيداً ؟ ومن جهة اخرى فان المولى محمد الشيخ لم يطمئن بعد لاخيه المولى احمد الذي فر نحو الجنوب عقب معركة الكاهرا واخذ ينظم هناك المقاومة ضد اخيه كما دخل فى اتصال مع

---

9) النزهة ص 23 (ويلقب من الالقاب السلطانية بالمهدى)

10) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الرابع — ص 144

الوطاسيين وغيرهم من الخصوم لتنسيق العمل ضد المولى محمد الشيخ المهدي (فلبثوا بها الى أن اسفوه بمظاهرة بنى مرين اعدائه واتصال اليد معهم علـــى محاربته وتجهيز المدد مع المولى الامير زيدان لاستنقاذهم من يده أيام جثومه عليهم بظاهر فاس محاصرا لهم الحصار الطويل . . واجلابهم ايضا فى مغيبه بالعساكر على الفائجة من أعمال الحضرة ليشغلوه من ورائه ويأخذوا بحجزته عن حصار بنى مرين لما كان بينهم من العهد على ذلك) (14) .

وهكذا لم يقم محمد الشيخ باي عمل ضد فاس بل نراه يطلق سراح الملـــك الوطاسى بعد سنتين من الاسر خلال شهر غشت من سنة 1547 م . بعد ان تنازل له هذا الاخير عن مكناسة وبلاد الغرب ، وقبوله زواج مولاي عبد القادر بن محمد الشيخ مع ابنته ، وعلى أن يصبح الامير السعدي وزير صهره الاكبر فى فاس (15) . وغير خاف بأن المولى محمد الشيخ كان يرمى من اخذ مكناسة القريبة من فاس الى مراقبة كل حركات الوطاسيين ، ومن اخذ بلاد الغرب الى الحيلولة دون حصول اي تعاون بين المراكز البرتغالية والوطاسيين . اي أنه كان يسعى الى عزل خصومه فى فاس ووضعهم تحت رحمته ، هذا بالاضافة الى أن ابنه سيصبح الوزير الاول لاحمد الوطاسى ، الذي بيده كل مقاليد الامور . ويبدو أن الامر لم يتم للحاكـم السعدي وأن الوطاسيين لم يقبلوا بوضع أنفسهم تحت رحمة المولى محمد الشيخ ، وانهم لذلك قاموا بتنظيم المقاومة والاتصال بخصوم السعديين ، وحسب الرسالة التى بعثها من تطوان بتاريخ 15 ماي 1548 م (Jeronimo diez Sanchez) الى جان الثالث : فان معركة دارت رحاها فى اليوم الثانى ماي على وادي سبو ترب فاس واجه خلالها المولى محمد الشيخ حلفا ضم ملك فاس وملك بادس ومولاي زيدان بن المولى احمد ــ أخ الحاكم السعدي ــ وان المعركة انتهت بانتصار المتحالفين فى حين ان محمد الشيخ قد فقد الكثير من قواه (16) . ومع ذلك فان هذا الانهزام لم يفت فى عضد المولى محمد الشيخ الذي صمم العزم على انزال الضربة النهائية بخصومه الوطاسيين ، اذ عند مطلع السنة التالية اي 1549 م كان محمد الشيخ سيد كل البلاد ما عدا فاس وتازة ، كما جاء فى رسالة موجهة من تطوان ، وقـــد

---

14) مناهل الصفا ــ للفشتالى ــ ص 74 .

15) م. ص. ت. م المجموعة الاولى ــ البرتغال ــ المجلد الرابة ــ ص 223

16) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب ــ المجموعة الاولى ــ البرتغال ــ المجلد الرابع ــ ص 268

كاتب أحمد الوطاسى طالبا منه البيعة على ان لا يصيبه بأذى . ويعده ببلاد سجلماسة التى ستبقى وراثية فى سلالته ، وقد جاء فى مكاتبة الحاكم السعدي للملك الوطاسى قوله : (كيف لا نصنع معك خيرا وانت عاملتنا بخيرك واعطيتنا ذخائر ونحن مقرون باحسانك الينا ، فلا تظن فينا الا خيرا ومع هذا حتى متى هذا القتال بيننا) (19) . كما كاتب اهالىفاسللدخول فى طاعته (فلما طال حصار الشيخ لفاس وجه المال لاشياخها وكان الشيخ الونشريشى والقاضى الطروق الاموي واخوه أحمد يحرضون اهل فاس على حرب الشيخ ويقولون لهم ان بيعة السلطان احمد فى اعن اقكم وبيعة ولده كذلك فلا يحل لكم نقضها) (20) . وقد استمر حصار فاس بضعة اشهر وسقطت أولا فاس البالى يوم الثلاثاء 18 يبراير 1549 بينما فـــر احمد الوطاسى وابو حسون الى فاس الجديد . ولم يجد احمد الوطاسى أخيرا بدا من تسليم نفسه للمنتصر السعدي فى حين أن أبا حسون توجه نحو الشمال . وما أن دخلت فاس جميعها فى طاعة محمد الشيخ حتى بعث يوم 14 مارس من نفس السنة أحمـــد الوطاسى مع أولاده ونسائه واخوانه وكل اعضاء عائلته الذين قبلوا الذهاب معه الى مراكش (ولكن بعد اربعين يوما من وصوله الى مراكش قتل ومعه نحو أربعين من رجاله بالسم) (21) . وهكذا استولى محمد الشيخ اخيرا على فاس مما زاد فى شهرته وساعد على توطيد اسس الدولة السعدية الناشئة . ويدلنا على مدى الشعبية التى اصبحت للمولى محمد الشيخ داخل المغرب وخارجه : كون الكثير من الحكام والقبائل قد أعلنوا تاييدهم للدولة السعدية : كعلى أعراس قائـد نواحى مليلية (22) . ومحمد بن رشيد حاكم شفشاون الذي أسرع الى محاصرة اصيلا وطنجة واتلف المحاصيل الموجودة بضواحيهما (23) . ثم حاكم تطوان الحسن المنظري الذي ثبته المولى محمد الشيخ على ولايته (24) . وقائد تازوطا ببــلاد الريف الذي جمع الاشياخ العرب وجعلهم يؤيدون السعديين (25) . وايد السعديين ايضا القائد العروسى حاكم القصر الكبير (26) . أما القبائل فقد توالى تاييدها

---

19) المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 10 .
20) الزيانى : الترجمان المعرب . مخطوط . ص 346 .
21) المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 15 .
22) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — اسبانيا — المجلد الاول — ص 183
23) نفس المصــــدر . ص 254
24) نفس المصدر . ص 337
25) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — اسبانيا — المجلد الاول — ص 381
26) نفس المصــــدر . ص 337

للدولة الناشئة كقبائل بني يزناسن . وقبائل مديونة ، وعرب غياثة (27) . ولقد حصلت ثورة في بادس ضد ابي حسون واعلن اهاليها طاعة المولى محمد الشيخ السعدي (28) . وهكذا ذاع صيت المولى محمد الشيخ في مجموع البلاد الشمالية والشرقية ، مما سهل على السعديين احتلال كرسيف (29) والسيطرة على امارة دبدو التي فر عنها أميرها مولاي عمر والتجأ الى مليلية (30) .

أما في خارج المغرب ، فيدلنا على مدى الشهرة التي وصلت اليها الدولة السعدية الناشئة كون (المور يسكوس) أصبح لهم امل قوي بأن يأتي المولى

---

(27) نفس المصدر . ص 208

(28) نفس المصدر . ص 244

(29) نفس المصدر . ص 264

(30) نفس المصدر . ص 423

من الشعراء الذين مدحوا محمد الشيخ الشاعر محمد الهوزالي . ومطلع القصيدة :

بيض السيوف وسمر العوالي ... توطد أركان اس المعالي

ويصف الشاعر أحوال الاحتلال الاجنبي للسواحل المغربية :

لماث عتوا عظيما فلا ... يزيد فتوى جلوة ودلال

ففي كل يوم له طفرة ... وفتك بعصمة واغتيال

تبجح هذي البلاد بما ... له من جند ومكر مذال

تمكن في الناس أجمعهم ... فيعرك عرك الرحى للثفال

واصبح الناس في ذهول ... كان لهم يكن بينهم من رجال

وقد استبيحت بسائطهم ... ودب العدو لصوب الجبال

ثم يخاطب السعديين :

هناك بدا منكم يا بني السر ... سول مداهمة والنزال

تماسون أهل الصليب كما ... تعادون بالتجبا والالال

فرد الى نحرهم كيدهم ... بحرب زبون وكيد مطال

وجند قوي وباس شديد ... وراي مطاع ونسج احتيال

واس الحروب على خدع ... تصيد الاسود بحوك السلال

ويخاطب المولى محمد الشيخ :

فطهرت الارض من رجسهم ... بعزم بني المصطفى خير آل

فنلنا الامان على ديننا ... وابنائنا وخدور العيال

جزيتم بني المصطفى بالتي ... يجازي بها من يقيم المثال

فلا زلتم في ذرى عزة ... تصون مهابتكم والجلال

(سوس العالمة . ص 68 — 69)

ومدحه الشاعر سعيد الحامدي ايضا :

أخو العزم ان تعزم تلاشت همومه ... وذو الحزم لم تقرع له سن نادم

فلست ترى في الشرق والغرب مثله ... سلوبا لاسلاب الاسود الغواشم

ملكت على الاعداء بالسيف سبلهم ... جهارا وكان السيف أعدل قاسم

فأي حمى لم تصبح عرض غريننا ... غنيمة قد مدت الى مستغانم

كان بملك الروم وافتك رسله ... تعوذ ملك أرضه بالتمائم

اذا عظماء الروم تعنو فانها ... عنت بعظيم في عيون العظائم

لقد حزت بين الناس خير مدائح ... جمال تمشي في سلالة هاشم

(سوس العالمة ص 69 — 70)

محمد الشيخ يوما ما لنجدتهم وخلاصهم ، على أساس أن يقوموا بثورة فى الداخل متى ما شعروا باقترابه من اسبانيا : كما ورد فى مذكرة الاسبانى Ignacio Nunes Gato الذي أبدى تخوفاته من ذلك (31) . وكانت هجرة (الموريسكوس) من اسبانيا الى المغرب مستمرة حيث كان المولى محمد الشيخ يستخدمهم فى قواته المحاربة (32) .

اما صدى وقوع فاس بيد محمد الشيخ وتأييد معظم مناطق المغرب فى لشبونة ومدريد : فالوثائق التاريخية تثبت بأن البرتغال والاسبان قد ارسلوا النجدات المستعجلة الى مراكز الاحتلال بالمغرب ، وأخذوا يترقبون تعاون السعديين والاتراك ضد المراكز المسيحية فى شمالى فريقيا أولا ثم فى غربى المتوسط ثانيا . خصوصا وقد تأكد لديهم تواطؤ محمد الشيخ مع الاتراك : اذ الرسالة التى بعثها من جبل طارق (Luis de Rueda) بتاريخ 6 يبراير 1549 م بعد أن تعلن خبر استيلاء الشريف محمد الشيخ على فاس تشير الى انه على اتفاق مع الاتراك . وانه يسعى لبناء اسطول بحري لتحرير جميع السواحل المغربية وللجهاد ضد المسيحيين بل وللعمل على استعادة اسبانيا (33) . وفى رسالة أخرى نجد بأن الشريف محمد الشيخ يملك العرائش ومعمورة وسلا وآسفى وكلها مراكز هامة على المحيط ، وبامكانه بناء السفن فى مدينة فاس وحملها الى معمورة عن طريق وادي سبو ، ولن يجد صعوبة فى ذلك سيما والتجار الاجانب والفرنسيون خاصة يمكنهم أن يزودوه بمختلف المواد اللازمة لذلك (34) . وهكذا ازدادت مخاوف الاسبان والبرتغال ولم يكتفوا بتعزيز مراكز احتلالهم بالمغرب بل منعوا كل اتصال تجاري مع موانىء الشريف السعدي ، كما جاء فى المرسوم المؤرخ بالتاسع والعشرين من مارس لسنة 1549 م . فالتجارة محرمة مع موانىء الشريف الا باذن خاص . ويمنع منعا باتا المتاجرة فى البضائع المحرمة كالذهب والفضة والسلاح ، ويشترط فى الاشخاص الذين يقومون بالتجارة مع المغرب ان يكونوا من اصل مسيحى وعليهم لاثبات ذلك ان يدلوا بشهادة قاضى مدينتهم وعليهم ان لا يقيموا بالمغرب اكثر من سنة ولن يسمح لهم بالعودة اليه الا بعد أن يقضوا فى وطنهم شهرين على الاقل . اما البضائع فتسجل لدى قضاة الموانىء عند وضعها فى السفن ليجرى تفتيشها من قبل ضباط

---

(31) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — المجموعة الاولى — اسبانيا — المجلد الاول — ص 294
(32) نفس المصدر . ص 321 .
(33) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول — ص 451
(34) نفس المصدر . ص 229 .

الموانىء . وعلى التجار أخيرا بعد الابحار أن يقصدوا بلاد المغــرب راسا ومــن خالف ذلك تنزع منه البضاعة ويحاكم (35) . ورغم كل هذه التدابير فان حركة الجهاد ضد العدو التى ما فتىء السعديون ينادون بها قد استمرت ، ومضايقــة المراكز الاجنبية وتشديد الحصار عليها لم تنقطع . مما أجبر الملك البرتغالى جان الثالث على اتخاذ قرار التخلى عن مركزين آخرين هما اصيلا والقصر الصغير (36) على أن يتم الاحتفاظ بالمراكز الثلاث الباقية : سبتة ، طنجة ، ومازكان . ولا ننسى أن هذه السياسة الجديدة تتمشى وفكرة تكتيل القوى الاسبانية ــ البرتغاليــــة الموجودة على ساحل المغرب الشمالى لمقاومة الخطر العثمانى الذي يهدد شبــه جزيرة ايبريا وجميع غربى اوربا ، وحتى لا تتكرر مأساة الامبراطورية البيزنطيــة التى فسح انهزامها المجال أمام الاتراك المسلمين للسيطرة على شرقى أوربا وبسط لواء الاسلام عليها . وهكذا كانت سنة 1549 بداية تطور هام فى تاريخ الدولــة السعدية الناشئة . فقد تم خلالها القضاء على الحكم الوطاسى فى فاس ، واحتلال امارة دبدو ، كما سيطر فى نفس السنة المولى محمد الشيخ على مجموع بــــلاد المغرب الشمالية والشرقية ، أي أصبحت له السيطرة على سائر بلاد المغرب . وليس معنى هذا أن الامر قد خلص له نهائيا ، اذ لا يزال هناك بعض المنافسين لحكمه ولدولته . كأخيه المولى احمد الاعرج الذي استقر بالصحراء الجنوبيــة وابى حسون ومولاي عمر اللذين التجآ الى الاسبان والبرتغال وطلبا المساعدة منهم ضــد السعديــــين .

ومما يجعل لسنة 1549 م أهمية كبرى : أن الاتراك العثمانيين أخذوا فى بسط سيطرتهم على امارة تلمسان ، وبالتالى اصبحت لهم نقط اتصال وتماس مــــع السعديين بالمغـــــرب .

---

(35) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى ــ ص 475

(36) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الرابع ــ ص 350

الفصل الثامن

السعديون والقوى المجاورة

دخلت الدولة السعدية الناشئة فى طور جديد من تاريخها ، اثر السيطرة التى اصبحت لها على معظم بلاد المغرب عند منتصف القرن السادس عشر ، ذلك أن القادة السعديين وجدوا انفسهم وجها لوجه امام قوى مجاورة لم يكونوا قد احتكوا بها ن قبل ، وكانت اولاها الاتراك العثمانيون الذين بعد أن اتموا السيطرة على معظم الجزائر ، اخذت انظارهم تتوجه نحو امارة تلمسان وبالتالى نحو المغرب الاقصى اتماما لاتجاههم نحو توحيد القوى الاسلامية تحت قيادة واحدة ، لمجابهة الاخطار المسيحية المتزايدة على بلاد المسلمين . اما القوة الثانية فكانت تتمثل فى الاسبانيين الذين يحتلون مراكز هامة منبثة على اجزاء مختلفة من سواحل افريقيا الشمالية ، هى قواعد ضرورية ومراكز لغزو المناطق الداخلية ولمقاومة الزحف العثمانى ، وصده عن هذه البلاد ، وبالتالى عن الحوض الغربى من البحر المتوسط ، حتى لا تقع الطريق التجارية الجديدة تحت رحمة الاتراك العثمانيين ، وحتى لا يقع تهديد اسلامى جديد ، لشبه جزيرة ايبريا وغربى أوربا المسيحية .

فما موقف القادة السعديين من هاتين القوتين المتصارعتين ؟ وما هدف السعديين من اتخاذ سياسة او اخرى ؟

فعند منتصف القرن السادس عشر ، كان المولى محمد الشيخ ، قد اتم السيطرة على معظم بلاد الريف والمغرب الشرقى ، وكان الاتراك العثمانيون فى التاريخ نفسه قد أخذوا يبسطون سيطرتهم على تلمسان والمناطق المحيطة بها على يد الوالى حسن باشا بن خير الدين باربا روسا ، اي أن مناطق نفوذ السعديين قد أصبحت تجاور الاراضى العثمانية فى الجزائر ، مما ادخل الرعب على الاسبان والبرتغال ، وجعلهم يترقبون قيام تعاون بين القوتين الاسلاميتين ضد مراكز الاحتلال المسيحى فى كل من الجزائر والمغرب ، كما تكشف لنا عن ذلك التقارير والرسائل التى بعثها

حاكم وهران الاسبانى comte d'Alcaudete (1) الى حكومته : فالمولى محمد الشيخ قد كتب الى باشا الجزائر واقترح عليه القيام بعمليات مشتركة لفتح وهران والمرسى الكبير ، وبعث بهدايا الى طرغوث باشا Dargut يقترح عليه الدخول فى حرب ضد اسبانيا . ويضيف الكونت الاسبانى : بأن كثيرا من رؤساء البحر الجزائريين سينضمون الى أمير البحر هذا ليدخلوا جميعا فى خدمة المولى محمد الشيخ . وحسب رسالة اخرى نفهم بأن المفاوضات التى جرت بين الحاكم السعدي وباشا الجزائر التركى كانت تتم بواسطة القائد صفا بك صديق الشريف (2) .

وتظهر جميع اتصالات محمد الشيخ بأتراك الجزائر أن الحاكم السعدي كان يهدف الى قيام تعاون مشترك ضد المسيحيين الاسبان والبرتغال لتحرير المناطق المحتلة بشمالى افريقيا وخاصة الموجودة منها ببلاد الجزائر والمغرب ، مع احتفاظ السعديين بكامل سيادتهم على المغرب . فى حين أن الاتراك العثمانيين كانوا جادين فى ضم المغرب بدعوى توحيد القوى الاسلامية بشمالى افريقيا ضد الاخطار الاسبانية والبرتغالية ، الامر الذي عجل باصطدام قواتهما خصوصا بعد أن بسط الاتراك نفوذهم على مدينة وجدة باب المغرب الشرقى ، فى محاولة لتطويق امارة تلمسان التى كانت تعيش أيامها الاخيرة ، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق ضد المغرب فى قابل الايـــــام .

ولما كان المولى محمد الشيخ حريصا على ضم المنطقة الشرقية من المغرب لاستراتيجيتها فى صد كل تدخل خارجى ، فانه لم يتوان عن الاستجابة لطلب النجدة الذي تقدم به الامير الزيانى اللاجىء بالمغرب احمد بن عبد الله ، من اجل مساعدته على استرداد حكمه بتلمسان والدخول فى مفاوضات مع اهالى تلمسان وأشياخ قبائلها لتنظيم وسائل التعاون بينهم (3) .

وحسب الوثائق المعاصرة فان الحاكم السعدي قد استقبل خمسة عشر وجيها من أشياخ قبائل مديونة ، ووفدا يمثل اهالى تلمسان والجماعات الاندلسية المقيمة بها ، وقد أكدوا لـــه انضمامهم اليه ومساعدته علـــى فتح تلمسان كرها منهم للاتـــــراك (4) .

---

1) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول — ص 246
2) المصدر السابق نفسه ص 244 .
3) م. ص. ت. م المجموعة الاولى ، اسبانيا ، ج 1 ص 208
4) المصدرنفســه .

وفى شهر أبريل 1549 انطلقت القوات المغربية نحو شرقى البلاد ودخلت خلال الشهر نفسه الى مدينة وجدة بقيادة محمد الحران بن محمد الشيخ ، فى حين تراجعت القوات التركية عن المدينة (5) . ومن وجدة تقدم المغاربة نحو تلمسان التى دخلوها يوم 9 يونيه 1550 م والقى القبض على الامير الزيانى الحسن حليف الاتراك وارسل الى فاس بينما فر اخوه عمر الى الجزائر طلبا لمساعدة العثمانيين (6) .

يعتبر الفتح المغربى لتلمسان بداية مرحلة جديدة فى العلاقات السعدية — التركية لان كلا من الفريقين كان يقدر ستراتيجية المنطقة واهميتها فى توطيد النفوذ الداخلى والانطلاق نحو ما جاورها من البلاد .

واذا كان السعديون يرون فى ضم تلمسان عاملا قويا فى توطيد سيطرتهم على كل المغرب الشرقى وبالتالى لصد كل تدخل تركى فى المغرب ، فان الاتراك بدورهم كانوا يرون فى التمركز بتلمسان تدعيما لوجودهم بالجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب ، لما تمثله شواطئه الشمالية والغربية من دور رئيسى وفعال فى تهديد المواصلات البحرية الاسبانية — البرتغالية وغزوهم فى عقر ديارهم .

ولهذا السبب كان رد فعل الاتراك قويا ، فقد بعث والى الجزائر حسن باشا قوات حربية تحت قيادة حسن كورسو لاخراج السعديين من تلمسان ، كما ارسل محمد الشيخ من جهته نجدات عسكرية لابنه . ونجد تفاصيل المعارك التى جرت بين الفريقين فى الرسالة التى أرسلها من وهران Don Martin وفيها أن الاتراك تحاربوا مع قوات الشريف التى كانت مرابطة خارج مدينة تلمسان فى اليوم الرابع من سبتمبر لسنة 1550 م : وقد انهزم المغاربة وتحصنوا بالمدينة الا أن وصول النجدات التى بعثها محمد الشيخ جعلت القائد العثمانى حسن كورسو ينسحب ليلا دون أن يشعر به أحد (8) . على أن العثمانيين اعادوا الكرة ضد تلمسان حيث انهزم المغاربة وقتل أحد أبناء محمد الشيخ ، بينما اسر الثانى وقطعت يد الابن الثالث ، كما لاحق العثمانيون قوات الشريف السعدي حتى مدينة دبدو (9) . ولما

---

5) المصدر السابق ص 267 .
6) المصدر السابق ص 441 .
7) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول — ص 441
8) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول — ص 471
9) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول — ص 532

استولى العثمانيون على تلمسان من جديد ولوا عليها كملك مولاي عمر احد امراء بنى زيان . اما صدى انهزام قوات محمد الشيخ امام العثمانيين فى شرق المغرب الاقصى فقد كان عميق الاثر سواء بالنسبة للتوسع العثمانى فى شمالى افريقيـة او فيما يرجع لاوضاع الدولة السعدية الناشئة فرغم استرجاع العثمانيين لمدينـة تلمسان فانهم لم يكتفوا باتخاذها كحد اقصى لممتلكاتهم : بل جعلوها نقطة انطلاق لاعمال الغزو المقبلة ، خاصة وان قوات السعديين قد تراجعت عن كل المغرب الشرقى نحو مدينة فاس لحمايتها ولصد الخطر العثمانى (10) : مما جعل احوال هذه الناحية فى فوضى وفتن ، وشجع بالتالى العثمانيين على مواصلة التوسع لضم المغرب ، الجزء الذي لا يتجزأ من الشمال الافريقى .

على ان المولى محمد الشيخ لم يفت فى عضده انهزام قواته امام العثمانيين فقد نظم امره من جديد واستعد لمواجهة زحفهم ، ولم يهتم بعودة مولاي عمر الى دبـدو ، الا بمقدار ما كان يرى فى ذلك من تسرب لخطر خارجى وقد استطاع أن يسترجع دبـدو بحملة عسكرية قادها المزوار المنصور وعبد الله بن محمد الشيخ وان يطرد مولاي عمر الذي التجأ ثانية الى مليلية (15) . ولم يرعبه ايضا استفحال ثورة أخيه المولى احمد الاعرج بالجنوب المغربى ولا اتصالاته المريبة بالاسبان اذ ارسل حملـة ضـد أخيـه المولـى احمـد الاعـرج بقيادة ابنـه عبـد الرحمن انهزم على اثرها المولى احمد وفر نحو الصحراء وخمدت بذلك فتنته .

وهكذا استرد المولى محمد الشيخ هيبته واظهر لخصومه مدى القوة والمكانة التى لا يزال يتمتع بهما فى سائر جهات المغرب . ولعل هذا هو السبب الذي امتنعت من اجله اسبانيا عن مساعدة ابى حسون رغم اتصالاته بالامبراطور فى اكسبورغ واظهار استعداده للتخلى عن حصن (Penon) (7) (جزيرة بادس) ذي الموقع الهام بالنسبة لشمال المغرب وغربى حوض المتوسط . وعندما فشلت كل مساعى

---

15) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول — ص 1
16) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول — ص 313
17) جزيرة باديس أو (Penon de Vallez) جزيرة صغيرة امام شاطىء المغرب الشمالى قريبة من مدينة بادس التاريخية يبلغ طولها 360 مترا وعرضها 100 متر ، وقد أصبحت اليوم شبه جزيرة لاتصال احدى جهاتها بالشاطىء المغربى . احتل الاسبان الجزيرة سنة 1508 م اثناء عمليات غزو المغرب وللحد من عمليات القرصنة التى اشتهرت بها هذه المنطقة . الا أن المغاربة استعـادوا الجزيرة سنة 1522 م واقام بها ابو حسون بعد استقراره فى بادس عقب خلعه عن عرش فـاس حامية قوية ، فلم تستطع السفن الاسبانية احتلالها سيما وان الاتراك قد أخذوا يترددون عليها منذ ان توجهوا الى المغرب عقب الحوادث التى جرت لهم مع السعديين .

ابى حسون فى اسبانيا اتصل بلشبونة عند مطلع 1552 وطلب نجدة الملك جان الثالث الذي وجد بذلك الفرصة المناسبة لبسط نفوذه فى المغرب من جديد بعد أن انحصر النفوذ البرتغالى فى بعض المراكز الساحلية اثر ظهور حركة الجهاد التى تزعمها الحكام السعديون . وقد أنجد البرتغال فى النهاية أبا حسون بقوات بحرية نزل بها فى خليج الحسيمة عند أوائل سبتمبر من نفس السنة ، غير أن الاسطول العثمانى سرعان ما أسر السفن البرتغالية بعد معركة جرت بين الطرفين (18) ، وسيق الجميع كاسرى الى الجزائر ، مما اجبر أبا حسون على الذهاب الى الجزائر لملاقاة واليها امير البـر (صالح رايس) والدخول معه فى مفاوضات للعمل ضد المولى محمـد الشيـخ ..

ابدى السلطان العثمانـى سليمان القانونـى اهتمامـا خاصـا بالموقـف السعدي من التدخل التركى بشمالى افريقيا ، واعتمادا على رسالتين مؤرختين بأول رجب 959 هـ الموافق ليناير 1552 أرسلهما الباب العالى الى محمد الشيخ ، فان السلطان العثمانى قد عزل حسن باشا عن ولاية الجزائر وعين مكانه صالح رايس الذي سيبدأ مع الحاكم المغربى عهدا جديدا من التعاون والتفاهم (ولما بلغ الى سمعنا الشريف ان أمير الامراء بولاية الجزائر سابقا حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال الى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين ، لذلك بدلناهم غيره فانعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية .. صالح باشا .. ولابد لكم أن تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة) (19) .

وتؤكد الاحداث أن السلطان العثمانى كان يسعى الى تطمين المولى محمـد الشيخ وان الوالى صالح رايس كان مكلفا فى الواقع بوضع حد لامارة بنى زيـان بتلمسان وبتصفية المشكل المغربى بوجه خاص :

فما ان وصل الباشا الجديد الى الجزائر فى ابريل 1552 حتى دخل فى مفاوضات سرية مع ابـى حسون الوطاسى وتظاهر بمساعدته بقوات عسكريـة لاسترداد عرشه بفاس ، وتكشف لنا رسالة حاكم وهران المؤرخة بيوم 31 ماى 1553 م النقاب عن الصدى الذي احدثه فى اسبانيا نبأ المساعدة العثمانية لابى حسون ،

---

18) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى — ص 36
19) اصطانبول — قصر طوبقبو — مكتبة قوغوشلر — دفتر الامور المهمة — رقم 888 — ص 9

اذ بعد أن أخبر الحاكم الاسبانى حكومته بالاستعدادات الجارية فى تلمسان لمساعدة ابى حسون ضد المولى محمد الشيخ ، حذرها من مغبة التدخل العثمانى فى المغرب لان وصول العثمانيين الى بادس يضمن استيلائهم عليها واستقرارهم فيها ، مما سيكون شديد الخطورة فى المستقبل (20) واخيرا وصلت القوات العثمانية التـى جاءت لنجدة ابى حسون الى بادس وعلى راسها والى الجزائر وما ان نزل ابـو حسون فى بادس حتى تلقى طاعة القبائل المجاورة للمنطقة وأخذ فى اعداد قوات محاربة ، كما انضم اليه مولاي عمر ملك دبـدو الذي كان لاجئا فى مدينة مليلية (21) . وقد حصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب بادس التى رسا بها الاسطول العثمانى (22) ، الا أن الهزيمة لحقت بالقـوات السعدية ، مما افسح المجال امام العثمانيين لكى يواصلوا زحفهم نحو الداخل .

وقبل ان تنتهى سنة 1553 م احتلت القوات التركية مدينة تازة واشتبكت مع السعديين فى معارك متواصلة اهمها بكدية المخالى من ساحة فاس (حتى اذا كان زحف صالح رايس من الجزائر بجنود الاتراك مع الاعور أبو حسون المرينى مستنفرهم على حين ما كان الامام رضى الله عنه منفردا عن جنوده انصار الدولة بما كان أطلقهم منذ فتح مدينة فاس لمواطنهم بالسوس ومراكش . . واكتفى بجنود بنى مرين الذين اصطنعهم بمعروفه واصطفاهم لخدمته بفاس وكان هؤلاء الاعراب ممن عليه المدار منهم فزحف بهم من فاس تلقاء العدو معولا عليهم فى الدفاع ومعتمدا بغنائهم عاملا على ما خولهم من نعمته واحتقارا لشأن الاعور بوحسون مستنفـر الاتراك . . وعندما التقى الجمعان بكدية المخالى من ساحة فاس ودارت رحـى الحرب فلاحت بارقة الظفر والظهور للامام رضى الله عنه فزحزح الاتراك عن مراكزهم واستولى على مدافعهم لم ينشب ان انفضت كتائب بنى مرين من حولـه قاطبة لانطوائهم على النكث وتواطئهم على الغدر فلحقوا ببوحسون وقلبوا ظهر المجن للامام رضى الله عنه وقد تركوه فى حومة الوغى وحده فى الفئة القليلة من انصاره فكان خذلان العصابة المرينية سبب نكوصه رضى الله عنه ولحاقـه بمـراكـش) (23) .

---

(20) المصادر اصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى — ص 95
(21) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى — ص 41
(22) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى — ص 88
(23) الفشتالى : مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفا . ص 109 .

وتقدمت القوات التركية ومعها أبو حسون نحو فاس التى دخلتها يوم 8 يناير 1554 م وحسب رسالة (Paulo Ragussco) الذي كان أسيرا بفاس وحرر بعد دخول الاتراك اليها فان دخول صالح رايس الى فاس كان بفضل انضمام انصار ابى حسون من أهالى فاس وكذا بسبب تخلى ستمائة جندي تركى كانوا فى خدمة المولى محمد الشيخ (24) ، كما يطلعنا تقرير (Miguel Ortiz) على الاتفاق الذي تم بين صالح رايس وأبى حسون والذي يجعل للباشا العثمانى جميع الاسـرى المسيحيين بفاس وكذا كل كنوز السعديين بما فى ذلك اموال اهالى سـوس ومراكش (25) . ومن مجموع ذلك وجه صالح رايس للسلطان العثمانى سفينتين مع العلج على (26) فى حين وضعت قوات عثمانية فى أهم الموانىء المغربية (27) .

اما استقبال أهالى فاس لابى حسون فقد كان عظيما ، وقد جاء فى الخطبة التى القاها العالم الزقاق قوله (هذا بقية أمرائكم الذين شيدوا البلاد وسعد بهم العباد وشرفوا المساجد وبنوا المدارس والقناطر وقاموا بأمر الدين والدنيا) (28) .

وباستقرار مولاي عمر فى دبدو وابى حسون بفاس ، ساد النفوذ التركى فى شرقى المغرب ومناطقه الوسطى ، وازداد فزع الاسبان والبرتغال لرؤية الاساطيل العثمانية وهى تسيطر على بعض الموانىء المغربية القريبة من مراكز احتلالهم، وقد جاء فى الرسالة التى بعثها الملك البرتغالى (جان الثالث) الى الامبراطور الاسبانـى (شارلكان) ما يدل على هذا الفزع اذ كتب اليه يحثه على التدخل فى المغرب للحيلولة دون توطيد الاتراك لاقدامهم فى هذه البلاد ، لان ذلك يشكل خطرا كبيرا على مصالح الامتـين (29) .

ومن جهة اخرى لقدحرص الاتراك وهم بفاس على اغتنام الفرصة للاطاحة بأبى حسون الوطاسى واعلان بيعة السلطان سليمان القانونى (ولما راى الترك محاسن البلاد ومنعتها . . فلما اجتمعوا بفاس الجديد ادعوا لانفسهم وقبضوا على السلطان أبى حسون المرينى وقبضوا على خاصته وسدوا أبواب فاس الجديـد

---

24) م. ص. ت. م المجموعة الاولى ، اسبانيا ، ج 2 ، ص 160
25) المصدر السابق . ص 139
26) المصدر السابق . ص 148
27) المصدر السابق ص 151 .
28) المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 19 .
29) م. ص. ت. م المجموعة الاولى ، اسبانيا ، ج 2 ، ص 171

واخرجوا أهلها فبلغ الخبر لاهل فاس البالى فخرجوا واطلعوا بالشواقر والفيسان والسلالم لفاس الجديد فاشرف الترك من أسوار المدينة . . فخافوا .. فعند ذلك فتحوا الباب ودخل الناس الى السلطان ثم أرسل الى كبراء الترك والرؤساء منهم وامرهم بالخروج وتبعتهم محلتهم) (30) .

وبجلاء القوات التركية عن فاس ورجوعها الى الجزائر أصبح ابو حسون يواجه خصمه المولى محمد الشيخ الذي جمع قوات من (الحوز والسوس واتى يجر الامم الى أن نزل براس الماء فخرج له أبو حسون بأهل فاس وعرب اهل الريف ووقع الحرب بقرب عميرة اياما ثم ان الشيخ رتب له بالليل كمينا من الرجال مع الوادي ولما وقع الحرب خرج الكمين خلفهم فانهزموا وقتل أبو حسون واكثر من معه من اهل فاس (31) وأهل الغرب والريف ثم دخل فاسا الجديدة وقدم عليه فقهاء فاس واشرافها يطلبون الامن فأمنهم وقبض على من تعين له فساده . . كالزقاق والونشريسي وعلى حرزوز فقيه مكناسة فقتلهم) . وقد قال بعد قتلهم : الآن تمهد لنا الملك فى المغرب بعد قتلنا هؤلاء الثلاثة الونشريسي والزقاق بفـــاس وحرزوز بمكناسة ، فانهم كانوا يقطعون أمعاءنا على المنابر ويوقدون علينا نار الفتنة عند الاكابــر) (32) .

وقد تم للمولى محمد الشيخ فى هذه السنة أيضا اعتقال أخيه المولى احمــد الاعرج الذي لم يفتأ قائما بالثورة فى الجنوب المغربى منذ انهزامه (الى ان كان من اجلاب عرب اليمن اهلمجالاتها عليهم باغراء الامام والتياب احوالهم الى حين القبض عليهم وخمود ذبالتهم باستئصالهم) (33) ، كما استعاد مدينة دبدو التى فر عنها مولاي عمر والتجأ من جديد الى الجزائر (34) . وبمقتل ابى حسون الوطاسى واسر المولى احمد الاعرج استقرت الاوضاع الداخلية نسبيا للمولى محمد الشيخ (حتى اذا اتيحت له الكرة على ابى حسون فقتله واستأصل جموع بنى مرين . . وفتــح فاسا فتحا ثانيا واستولى على كرسيها) (35) .

---

30) الدولة السعدية للمؤلف المجهول ، ص 20 .
31) المصدر السابق ص 21 .
32) المصدر السابق ص 31 .
33) مناهل الصفا . ص 74
34) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، اسبانيا ، ج 2 ص 327
35) مناهل الصفا ، ص 109

الفصل التاسع

التّقارُب السَّعدي ـ البُرتغالي ـ الأسباني

يمكن القول بأن حادثة استعادة فاس الى حكم السعديين فى 23 سبتمبر 1554 م ، كانت نقطة تحول هام فى تاريخ الدولة السعدية الناشئة : فالمولى محمد الشيخ قد ظهر كخصم عنيد للاتراك العثمانيين ومن المعارضين لسياستهم التوسعية فى بلاد المغرب ، بل والاكثر من ذلك انه اعلن اثر دخوله فاس منتصرا بانه عازم على الذهاب الى الجزائر لمنازلة الاتراك هناك (1) ، فهذا التنافس السعدى ــ العثمانى على شمال افريقية ــ بل وعلى الخلافة الاسلامية كان فى صالح الاسبان والبرتغال ، ولا عجب اذا راينا بعد ذلك تقاربا بين هؤلاء جميعا ضد الاتراك العثمانيين . واول وثيقة فى النصوص التاريخية نستدل بها على هذا التقارب هى الرسالة التى وجهها الملك جان الثالث الى ضابط مازكان البرتغالى (Alvaro de Carvalho) فى شهر يونيه 1554 : جوابا على الطلب الذي تقدم به المولى محمد الشيخ الى كل من مدريد ولشبونة لمده بقوات عسكرية ضد الاتراك (2) . وفى هذه الرسالة ايضا نجد تحديدا لبعض الشروط التى يراها البرتغاليون لمساعدة السعديين : كتسليم بعض المراكز المغربية البحرية : كبادس، وبنيون ، والعرائش . ثم تموين القوات المسيحية التى سيرسلها لمساعدته . واخيرا يختم الملك رسالته بضرورة اخبار الامبراطور الاسبانى بذلك (3) .

ونتيجة لهذا التقارب ، فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة أشهر وذلك فى مطلع سنة 1555 : وان ظل فى الواقع مفعول هذه الهدنة زمنا طويلا (4) .

---

1) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الثانى . ص 181 ــ اسبانيا
2) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الثانى . ص 270 ــ اسبانيا
3) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الثانى . ص 20 ــ البرتغال
3) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الخامس . ص 20 ــ البرتغال

واذا كان حاكم مازكان هو الذي قام بدور الوساطة مع السعديين ، فان المزوار المنصور بن بوغانم هو الذي كلف من قبل المولى محمد الشيخ بهذه المهمة، وأول رسالة للمنصور فى هذا الصدد : تلك التى بعثها الى حاكم وهران الاسبانى (Comte d'Alcaudete) عند مطلع يناير 1555 : وقد أخبر المزوار الكونت الاسبانى بوصول رسائله وانه اعلم بها المولى محمد الشيخ وابنه المولى عبد الله اللذين أعربا عن سرورهما لمقدم وفد اسبانى الى فاس للتفاوض معه (5) . وقد أرسل حاكم وهران فعلا الى فاس وفدا يتألف من ثلاثة اشخاص (6) جاءوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول تهيىء حملة مشتركة اسبانية — مغربية ضد الاتراك(7)

وقام العثمانيون كرد فعل على التقارب السعدي الاسبانى البرتغالى بتشديد الحصار ضد وهران باعتبار ان حاكمها الاسبانى كان اداة الاتصال بين فاس ومدريد الا ان جميع جهودهم فشلت نتيجة للنجدات المتواصلة التى كانت اسبانيا تبعثها الى المدينة المحاصرة . وبعد ان فشلت خطة الاستيلاء على وهران فكر الاتراك فى ارسال وفد الى فاس ليقترح على المولى محمد الشيخ الهدنة والسلم (11) .

ويؤكد هذا ما جاء فى الرسالة التى أرسلت من مازكان الى لشبونة بتاريخ العاشر من مارس 1557 م . وفيها بأن الشريف السعدي قد استقبل فى مراكش سفيرا تركيا جاء يقترح عليه السلم ويعده بمساعدة السلطان العثمانى لمحاربة المسيحيين ، بشرط أن يعترف الحاكم السعدي بالسيادة العثمانية وان يضع اسم السلطان فى سكته (12). وفى تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول نجد تفاصيل السفارة التركية المذكورة (فانه لما كان محمد الشيخ بفاس وفد عليه رسول للسلطان سليم ليهنئه ويعلمه بما كان عليه بنو مرين من الهدايا والوداد والمحبة والخدمة والميل اليه والرغبة فيه وانه فى نصرتهم . فسكت ولم يجبه بشىء وبقى عنده الى أن طال جلوس الرسول فطلب منه ان يسرحه فقال له محمد الشيخ : سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له ان سلطان المغرب لابد أن ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه ان شاء الله ويأتيك الى مصر والسلام (13) .

---

4) المصادر الاصية لتاريخ املغرب . المجموعة الاولى . المجلد الثانى . ص 220 — اسبانيا
5) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى ص 181
6) كان الوفد الاسبانى مكونا من ثلاثة أفراد هم :
نفس المصدر السابق . ص 208 .
11) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى — ص 382
12) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الخامس — ص 55
13) تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول . ص 27

ومن هذا الجواب نستدل على الاستياء الذي كان يشعر به المولى محمـــد الشيخ من جراء التوسع التركى فى شمالى افريقية ، ونرى فيه دليلا قويا على أن الحاكم السعدي لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية . كما يعكس لنا الجـــواب ايضا مدى طموح المولى محمد الشيخ الذي كان يحلم بامامة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها . وقد اكد هذا الجواب للسلطان العثمانى اخيرا صحة تواطـــؤ السعديين مع الاسبان والبرتغال : الامر الذي جعله يرسل قوات عسكرية الـــى الجزائر ليستعين بها الحاكم العام على احتلال المغرب ، وذلك كما جاء فى رسالة موجهة من سبتة الى لشبونة بتاريخ الثالث من يونيه 1557 م (14) . غير أن الباب العالى سرعان ما عدل عن فكرة غزو المغرب عسكريا ولعل ذلك بعد التأكد من الهدنة السعدية ــ الاسبانية ــ البرتغالية ، والتجأ إلى تدبير مؤامرة اغتيال محمد الشيخ، سيما وأن هذا الاخير كان قد اتخذ حرسه الخاص من الاتراك (ولما كان محمـــد الشيخ بفاس سمع بخبر الفرقة الذين تخلفوا من محلة الترك فجمعهم وضمهم الى عسكره وكانوا نحو الاربعمائة فقدم عليهم كبيرهم صالح اغا واعطاهم الســـــلاح والكسوة وكلفهم بالسير مع قبته وأثقاله فكانوا اذا نزلوا يدورون بمبانيه ويعسون عليه فى السفر . ولما بلغ مراكش أنزلهم بجوار قصره وفوض اليهم فى حرس بابـــه وبالغ فى الاحسان اليهم لما ظهر له من نجدتهم وصدقهم فصاروا أقرب الناس اليه وكلما راى من احدهم نباهة قربه اليه حتى كان الكثير منهم فى خدمته بداخل القصر وبمجالس انسه وجعل منهم اصحاب مراكبه وحجاب أبوابه واخص الناس به) (15) ولاجل هذا سهل على الباب العالى تنفيذ مؤامرة اغتيال محمد الشيخ عن طريـــق ارسال جماعة من الاتراك وصلت الى المغرب وانضمت الى الحرس الخـــــاص مظهرة الطاعة والاخلاص الى أن سنحت الفرصة فاغتالت محمد الشيخ خلال احدى الاسفار التفقدية لتارودانت زوال يوم الاربعاء 27 ذى الحجة عام 964 للهجـــرة الموافق 23 اكتوبر 1557 م . ولم يكن المولى محمد الشيخ قد عقد بعد اتفاقيـــة التعاون مع الاسبان حول الحملة المشتركة ضد الاتراك العثمانيـــين بشمالـــــى افريقيـــة (16) .

---

14) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى ــ ص 420

15) الترجمان المعرب . للزيانى . مخطوط ، ص 347 .

16) دوفردان : مراكش . ص 83

ولقد كان اغتيال المولى محمد الشيخ من قبل حرسه الخاص التركى بداية تطور هام للاحداث المقبلة بالمغرب ، وخاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية الناشئة، اذ لم يعد هناك اي مجال للشك فى أن العثمانيين انما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب ، لا باعتباره الجزء المتمم للشمال الافريقى فحسب ؛ بـــل ولاهميتـه الستراتيجية كأقرب نقطة الى بلاد اسبانيا والبرتغال ، وقد دفع هذا الملك السعدي الجديد الى التقرب من جديد من اعداء العثمانيين ، كما أن الاسبان والبرتغال قد ازدادوا تقربا من المولى عبد الله لصد الخطر التركى الداهم . واذا علمنا زيادة على ذلك بأن المولى عبد الله كان الساعد الايمن لوالده المولى محمد الشيخ ، وانه شارك فى جميع المفاوضات السرية التى دارت بين الاسبان والبرتغال وبين والده لاقرار السلـــم ولتهيـــىء حملـــة مشتركـــة ضـــد العثمانيـــين ، ادركنـــــا منذ الآن الخطوط البارزة للسياسة التى سينهجها المولى عبد الله بالنسبة لعلاقاته مع الاسبان والبرتغال وكذا مع بقية دول اوربا ، هذه السياسة التى يسعى مـن ورائها الى توطيد اسس دولته وتثبيت دعائمها ، والعمل على رد اي غزو عثمانـى للاراضى المغربية فى المستقبل .

بويع المولى عبد الله بفاس عندما بلغه خبر نعى والده ، واتخذ كلقب لـه الغالببالله ، وقد كان عليه لتستقر له الاحوال الداخلية ان يأخذ ثأر ابيه من قتلته الاتراك وأن يخضع بعض الثورات التى اخذت تظهر فى بعض نواحى البلاد عقـب نبا اغتيال والده المولى محمد الشيخ . وقد قصد فعلا مراكش ثم تارودانت حيـث انتقم من الاتراك الذين دبروا مؤامرة اغتيال والده (17) . كما قضى على ثـــورة بسوس تزعمها اخوه المولى عثمان خلال يبراير من سنة 1558 م (18) . ثم عاد سريعا الى فاس لتهيىء القوات المحاربة لصد الحملة العسكرية التى يقودها حاكم الجزائر الذي حاول اغتنام فرصة الاحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد ، سيما وأن ملك دبدو مولاي عمر الملتجىء الى الجزائر لم يفتأ يحث الوالى على غـــزو المغرب والسيطرة عليه (19) . وقد جرت أخيرا معركة حاسمة بين قوات الطرفين يوم السبت الثانى من ابريل لسنة 1558 م قرب وادي اللبن حيث دارت الدائرة على

---

17) الدولة السعدية للمؤرخ المجهول . ص 32 .

18) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول — المقدمة

19) المصادر الاصلية لتاريخ امغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى — ص 433

القوات العثمانية التى فرت نحو الجبال المجاورة الا ان المغاربة اقتفوا اثرهـــا وهزموها فى جبال الورغا كما استولوا على غنائم كثيرة . واما باشا الجزائر وملك بدو فقد انسحبا مع بعض القوات نحو مدينة بادس (20) . ويظهر ان حاكم وهران الاسبانى قد حاول اغتنام فرصة انهزام القوات العثمانية بالمغرب لكسب نصر عسكرى فى الجزائر ، فقد قام بهجوم مفاجىء على مدينة مستغانم الا ان محاولته بـــاءت بالفشل اذ تكبدت القوات الاسبانية المهاجمة خلال غشت 1558 م خسائر فادحة وكان الكونت الاسبانى من بين قتلى المعركة (21) . ورغم فشل الحملة الاسبانية ضد مستغانم فان العثمانيين لم يعد لديهم ادنى شك فى تواطؤ المولى عبد الله الغالب بالله مع الاسبان : الشىء الذي جعلهم يتخذون جانب الحيطة والحذر عند محاولة القيام بمساعدة الثائرين ضد الحكام السعديين .

فعندما ثار المولى عبد المومن اخ المولى عبد الله وخليفته على مـــراكـــش خلال دیسمبر من سنة 1558 م واستنجده بوالى الجزائر فان الحاكم لـــم يمده بأيـــة مساعدة عسكرية بل رحب به فى بلاد الجزائر وزوجه باحدى بناته ثم ولاه علـــى مدينة تلمسان (22) .

وهكذا تابع المولى عبد الله سياسة والده الرامية الى مقاومة التوســـع العثمانى فى المغرب والاستعانة فى سبيل ذلك بأعداء العثمانيين من اسبان وبرتغال عن طريق مهادنتهم والمحافظة على أحوال السلم معهم . وقد دفعته سياسة المهادنة هذه مع المسيحيين الى الاستجابة لكثير من المطالب التى تقدمت بها بعض دول اوربا الغربية كالملكة الفرنسية التى استقبل سفيرها (23) وحمله الـــى الاميـــر Antoine de Bourbon رسالة يعبر له فيها عن استعداده للاستجابة للمطالـــب الفرنسية (24) ثم عقد مع هذا الاخير معاهدة فى يوليه 1559 م تقضى بتنازله عن مرسى القصر الصغير للفرنسيين مقابل مده بالاسلحة والعتاد الحربى وارســـال

---

(20) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى — ص 445
(21) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى — ص 470
(22) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول — المقدمة
(23) كان السفير الفرنسى Melchoir d'Azevedo من اصل برتغالى ، وقد كان كوكيل لملك نافـــار فى المغرب . (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا ، حاشية ص 177)
(24) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ، ص 170

فرقة عسكرية تكون بمثابة الحرس الخاص للغالب بالله — ولعل ذلك راجع الى
عدم الثقة التى أصبحت له فى الحرس التركى بعد اغتيال والده ، كما تنظم المعاهدة
التجارة بين البلدين وتقر حال السلم بينهما (25) . ونحن اذا تساءلنا عـن السـر
الذي دفع فرنسا الى التقرب من المغرب ومطالبة الغالب بالله بالتنازل للفرنسيين
عن ميناء القصر الصغير ، نجد بأن ذلك يرجع فى مجموعه الى ما كانت عليـه
العلاقات بين دول أوربا الغربية بوجه عام والعلاقات الفرنسية — الاسبانية بوجه
خاص ، فمعاهدة (Cateau - Cambrésis — 3 أبريل 1559 م) التى انهت الحروب
الايطالية وان اوقفت النزاع بين البلدين لفترة من الوقت فان فرنسا لم تفتأ تبحث
عن حلفاء يمكنها الاعتماد عليهم اذا ما تجدد النزاع مع اسبانيا ، خصوصـا وان
فيليب الثانى الذي خلف والده شارلكان على عرش اسبانيا ومستعمراتها قد اصبح
له نفوذ قوي فى أوربا : لان المعاهدة السابقة قد دعمت نفوذ اسبانيا فى ايطاليا وفى
الاراضى المنخفضة مما يهدد فى كل آونة فرنسا التى اصبحت مطوقة تقريبـا
بممتلكات التاج الاسبانى . وقد تقربت لاجل ذلك فرنسا من بريطانيا عن طريـق
مشروع زواج بين الاسرتين الحاكمتين كما أخذت فى التقرب من المغرب البلـد
الاسلامى ، مستغلة الروابط الحسنة التى تربط فرنسا والسلطان العثمانى منـذ
عهد فرانسوا الاول وسليمان القانونى . وما من شك فى أن فرنسا كانت ترى فى
المغرب حليفا يمكن الاعتماد عليه ضد اسبانيا ، كما كانت ترى فى ميناء القصـر
الصغير الستراتيجى الذي لا يبعد الا ببضع كيلومترات عن جبل طارق وعـن
الاراضى الاسبانية منطقة هامة يمكن اتخاذها لغزو اسبانيـا فى اراضيهـا
ولتهديد المواصلات الاسبانية فى حرب قادمة .

والوثائق التاريخية لا تحفظ لنا فى هذا الموضوع الا رسالة موجهة مـن
فرانسوا الثانى ملك فرنسا الى عمه انطوان دوربون ملك نافار ، يخبره فيها بأنه
اطلع بواسطة السفير الاسبانى على الاستعدادات القائمة من قبل التراصنة فى موانئ
Guienne وانه يلح عليه بشدة ليبذل كامل جهوده حتى لا يقع اي ضرر ضـد
الاملاك الاسبانية (26) . ويظهر بأن هذه الرسالة لم تكن الا تطمينا للسفيـر
الاسبانى فى فرنسا لان فرانسوا الثانى كان يعلم مقاصد عمه الرامية الى اتخاذ مراكز

---

25) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ص 178
26) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول — ص 199

هامة فى المغرب كما كان يؤيد ذلك سرا (27) . وان مسألة العلاقات الفرنسية المغربية لتزداد وضوحا اذا ما علمنا بأن انطوان دوبوربون احد أفراد الاسرة المالكة فى فرنسا ، قد اعتنق المذهب البروتستانى وأصبح زعيم البروتستانت فى فرنسا ، فلا عجب اذا رأينا انطوان هذا يقوم بمحالفة المسلمين والتعاون معهم من مغاربة وغيرهم ضد الامبراطور فيليب الثانى الذي نصب نفسه حامى الكاثوليكية فى أوربا وعزم على القضاء على المذاهب المخالفة لها .

وكما عقد المولى عبد الله الغالب بالله مع الفرنسيين معاهدة قبل فيها بالتنازل لهم عن مرسى القصر الصغير ، فقد تخلى فعلا للبرتغال عن مازكان بعد أن كاد المغاربة أن يفتحوها . وتحدثنا احدى الوثائق التاريخية عن حصار القوات المغربية للبرتغاليين فى مازكان فتشير الى أن الغالب بالله كان قد جمع قوات جرارة وجعل على رأسها ابنه مولاي محمد الذي وصل يوم الرابع من مارس لسنة 1562 م أمام المدينة المذكورة وقام بحصارها نحو شهرين لم تحدث خلالهما اية مناوشة بين الطرفين ولكن فى اليوم الثلاثين من ابريل هاجم المغاربة المدينة ووقعت معركة دامية ، وتضيف الوثيقة بأن المجلس الملكى البرتغالى كان قد عزم على اخلاء مازكان عندما علم بأمر حصارها ، لولا أن القوات المغربية قد انسحبت فى آخر لحظة (28) . وفى تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول نجد السبب الذي تراجعت من أجله القوات المغربية عن مازكان : (فالقائد على بن تودة كاد احتلال البريجة فأمر السلطان بالتراجع عنها فعاد اليها النصارى بعد ما ركبوا البحر وأدوا له بعد رحيل المحلة عنهم مالا عريضا وهدية جميلة وكأنهم اشتروها منه) (29) .

أما بالنسبة للاسبان فقد أطلق الغالب بالله يدهم فى احتلال جزيرة بادس Penon de Vallez التى كانت بيد العثمانيين منذ أن تنازل لهم عنها أبو حسون الوطاسى مقابل مساعدته ضد المولى محمد الشيخ السعدي . وهذه الجزيرة كانت أقرب نقطة مغربية الى جبل طارق ومالقا وأنها كانت بالنسبة للقراصنة ميناء هاما حيث كانت الخسائر التى تلحق التجار الاسبان والبرتغال من قراصنة جزيرة بادس تتجاوز العد كل سنة ، وهذا ما دفع الاسبانيين الى احتلال الجزيرة

---

(27) نفس المصدر . حاشية صفة 199 . وحسب المعاهدة السابقة فان الامر يتعلق بملك نافار وملك فرنسا أيضا .
(28) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول — ص 231
(29) تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول ، ص 37

المذكورة . والرسالة التى وجهها السفير الفرنسى فى مدريد Saint Sulpice الى الملك شارل التاسع تعد اهم وثيقة تكشف لنا حال جزيرة بادس زمن احتلال العثمانيين لها (1558 — 1562 م) ومدى الدور الذي قام به قراصنتها ضد السفن التجارية الاسبانية والبرتغالية . فبعد ان اشار السفير الفرنسى الى اهمية الجزيرة وموقعها الستراتيجى سواء بالنسبة لساحل المغرب الشمالى او بالنسبة للسواحل الاسبانية تطرق الى الاعمال التى كان يقوم بها يحيى رايس الذي عينه حاكم عام الجزائر حسن باشا واليا على الجزيرة : فيحيى رايس اصبح يلقب بسيد المضيق Seigneur de Détroit ولم تكن اية سفينة لتستطيع العبور دون اذن منه . وقد عم الخوف سكان الساحل الاسبانى لدرجة ان هؤلاء لم يكونوا يزرعون اراضيهم الا بكل حذر ، وغالبا ما كان القراصنة العثمانيون يحاصرونهم اثناء عملهم ويأخذونهم كاسرى ، وكذلك الصيادون فلم يكونوا يجازفون بالابتعاد كثيرا عن الشاطىء . ويضيف الدبلوماسى الفرنسى فى رسالته بانه خلال الخمس سنوات التى تولى فيها يحيى رايس امر الجريزة اسر عددا كبيرا من السفن وسلب الكثير من المدن الاسبانية الساحلية وجمع نحو اربعة آلاف اسير من المسيحيين . وعندما عاد الى الجزائر حمل معه اربع سفن محملة بالغنائم واربعمائة مسيحى ومائتى الف دوكة (30) . وجزيرة بادس بالاضافة الى ذلك كانت مثار رعب وخوف لدى الغالب بالله (اذ خاف السلطان ان تخرج عمارة الترك من تلك البلاد الى المغرب : فاتفق مع سلطان النصارى ان يخلى لهم الادالة من حجرة بادس ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين وتنقطع مادة الترك من تلك الناحية ، وعندما جاء النصارى الى بادس استنجد سكانها بالسلطان لعدم علمهم بصنعه سرا وقد نادى بالجهاد ولكنه عندما جاءهم خبر احتلال النصارى بادس تراجعوا وارتحل السلطان الى مراكش وتهنأ من الترك من تلك البلاد) (31) .

وقد فشلت المحاولة الاولى التى قام بها الاسبان لاحتلال الجزيرة خلال سنة 1563 م ، فالاسطول الاسبانى غادر مالقا يوم الثانى والعشرين من يوليه (1563 م) ووصل الجزيرة يوم 28 منه ، فانضم اليه حاكم مليلية بقواته العديدة، وما ان راى سكان بادس ذلك حتى فروا الى الجبال فى حين ان القوات الاسبانية

---

30) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ، ص 243

31) تاريخ الدولة السعدية . ص 37

المؤلفة من أربعة آلاف رجل قد نزلت على بعد ميلين من الجزيرة وتوجهت نحو بادس التى وجدتها خالية . وقد ظل نحو ثلاثمائة جندي اسبانى يحرسون الاسطول حيث فاجأهم ستون مغربيا وهزموهم كما أن فرقتين أعيدتا من بادس نحو الاماكن التى يرسو بها الاسطو فهزمهما المغاربة أيضا ، وعندما كان اليوم التالى تجمع المغاربة حول المناطق المجاورة فى حين أن القوات الاسبانية لم تجد بدا من الانسحاب ، وقد عادت الى مالقا فى الثانى من غشت بعد أن خسرت نحو ثلاثمائة رجل (32) . على أن الاسبان قد أعادوا الكرة ضد الجزيرة فى السنة التالية واستطاعوا بمؤازرة قوات برتغالية من احتلالها فى اليوم السادس من سبتمبر لسنة 1564 م حيث عم الفرح كل بلاد اسبانيا والبرتغال ، لان قراصنة الجزيرة كانوا يتسببون للمملكتين الاسبانية والبرتغالية فى خسائر فادحة (33) .

ومن الجدير بالذكر هو أن البحرية المغربية قد عرفت نشاطا متزايدا منذ الاحتلال الاجنبى للسواحل المغربية ، هذا الاحتلال الذى لم يكن فى الواقع سوى سلسلة من غزوات النهب والتخريب فانقلبت معه الحركة البحرية المغربية الى كفاح وطنى ضد المعتدين وادت مقاومتها الى فشل السياسة الاسبانية – البرتغالية فى افريقية ، مما كان له كبير الاثر فى تغيير مجرى تاريخ القارة الافريقية خلال مطلع عصور التاريخ الحديث (34) . الا أن احتلال الاسبان لجزيرة بادس أنزل ضربة قاصمة بالبحرية المغربية ألتى كانت تقف بالمرصاد لاساطيل الغزاة المسيحيين سيما وقد تبع ذلك اقدام اسبانيا على مهاجمة القوات البحرية فى تطوان خلال نوفمبر من نفس سنة 1564 م وقيامها باغلاق مصب نهر تطوان عن طريق اغراق سفن محملة بالحجارة حيث أصبح من المتعذر على السفن التطوانية اجتياز المصب (35) وبديهى ان عملا كهذا من شأنه أن يؤثر على وضعية تطوان التى ازدهرت منذ نشأتها لاعتمادها على النشاط البحري (36) .

وفى نطاق التقرب من دول أوربا ، نجد الغالب بالله يسعى الى توطيد علاقاته مع ايليزابيت ملكة انجلترا التى سرعان ما استجابت لذلك خصوصا وأن التجار الانكليز كانوا يجنون من وراء التجارة مع المغرب أرباحا طائلة منذ عهد

(32) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، بريطانيا ج 1 ، ص 55
(33) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول – ص 264
(34) تطوان العدد 2 ، 3 ص 65 .
(35) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول ، حاشية صفة 284
(36) تطوان العدد 2 ، 3 ص 127 .

مبكر (37) . ولان انجلترا آنئذ كانت فى حالة حرب ضد اسبانيا بسبب اقـــرار ايليزابيت العقيدة البروتستانتينية فى بلادها وللتأييد المطلق الذي اظهرته الملكـــة الانجليزية اتجاه البروتستانت فى فرنسا وفى الاراضى المنخفضة التى ثارت لطلـب الاستقلال عن اسبانيا وحكم فيليب الثانى خصم ايليزابيت اللدود . وليس مـــن المستبعد أن تكون ايليزابيت التى كانت تنشد العزة والمجد لبلادها قد ادركت مدى اهمية المغرب ومدى الاستفادة من موقعه سواء فى حروبها ضد اسبانيا او للمتاجرة مع بلدان غربى افريقيا ذات الموقع الستراتيجى المشرف على طريق التجـــارة العالمية آنذاك . فقد كتب الغالب بالله الى الملكة ايليزابيت يوصيها باحد التجـار الذين كانوا يقومون بالتجارة فى موانىء المغرب حتى لا تتعرض السفن الانكليزيـة لتجارته ، واغتنم هذه الفرصة ليعبر للملكة الانجليزية عن استعداده لتلبية جميـع رغباتها (وكل ما يتعرض لكم من المآرب والاغراض يقضى لكم على اكمل المراد ان شاء الله) (38) . وقد استجابت الملكة الانجليزية لطلب الغالب بالله وبدا بذلك عهد جديد من العلاقات الطيبة بين المغرب وانكلترا .

وهكذا اندفع الغالب بالله فى سياسة التقرب من دول اوربـــا الغربيـــة

---

(37) ترجع العلاقات التجارية بين المغرب وانكلترا الى وقت مبكر : فقد كان التجار الاوربيون عامـــة والانجليز خاصة يقومون بالمتاجرة مع المغرب وغربى افريقيا رغم ادعاء البرتغال حق احتكار التجارة مع هذه المناطق واضطهادهم للذين يحدونهم فى عرض المحيط الاطلسى او بالسواحل الافريقية الغربية بل واحراق سفنهم او اغراقها احيانا (فى طلب التوابل ص 280) . وقد كانت لشاطىء المغرب الاطلسى خلال القرن 16 م اهمية كبرى لوقوعه على طريق التجارة العالمية ولان الاساطيل العائدة من الشرق الاقصى والمحملة بالتوابل والكنوز الثمينة الى اسبانيا والبرتغال كثيرا ما كانت تتعرض للقراصنة الذين كانوا يجدون فى هذه الشواطى مكامن لا نظير لها (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى فرنسا . المجلد الاول . ص 285) . وبالاضافة الى ذلك فقد اشتهرت بلاد سوس بزراعة قصب السكر الذى كان التجار الاوربيون يتهافتون على اقتنائه ، وتجارة السكر لعبت دورا هاما فى توطيد دعائم الدولة السعدية حيث ان الحكام السعديين الاولين كانوا يشجعون هذه التجارة التى تدر عليهم نحو 7500 مثقال ذهبا كل سنة ويشترون بثمنها الاسلحة وذخائر الحرب التى طالما استعملوها فى حروبهم ضد البرتغال والاسبان (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى. فرنسا . المجلد الاول . ص 303) . فالقيام بالقرصنة وشراء سكر سوس شجعتا التجار الاوربيين ومنهم الانكليز على المجىء الى الشواطىء المغربية الاطلسية والمتاجرة مع المغاربة سيمــا وان وضعية البرتغال بالمغرب قد أخذت تضعف منذ منتصف القرن 16 م . وحسب الوثائق التاريخية فان الانكليز كانوا يجنون الارباح الطائلة من تجارتهم مع المغرب اذ كانوا يشترون من المغرب السكر واللوز والذهب المسحوق الذى يستعملون منه النقود الذهبية مقابل بيعهم الاسلحة والثياب الملونة (المصادر الاصية لتاريخ المغرب . امجموعة الاولى . بريطانيا . المجلد الاول — ص 62) ، ورغم احتجاج البرتغال على أعمال التجارة التى كان الانكليز يقومون بها مع المغرب فان الملوك الانجليز لم يكونوا يعبئون بذلك بل على العكس فقد شجعوا التجارة مع الخارج وبناء الاساطيل البحريـــة . وقد اجابت مرة الملكة ايليزابيت السفير البرتغالى فى لندن بانها تستغرب كثيرا من ادعاءات البرتغال بخصوص التجارة مع المغرب لان الجميع يعلم بأن الممالك الثلاث فاس ومراكش وسوس تخضع كلها لحاكم مستقل سمح هو نفسه للتجار الانكليز بالمتاجرة مع بلاده . (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . بريطانيا . المجلد الاول — ص 123)

(38) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، بريطانيا ، ج 1 ، ص 98

المسيحية والعمل على مهادنتها ، بدافع الخوف من الخطر العثمانى الذي كان يهدد فى كل آونة المغرب من جهة حدوده الشرقية . واتجاهه هذا هو الذي يفسر لنـا موقفه الحقيقى من الثورة التى أعلنها الموريسكوس بجبال البوشرات بغرناطة بعد ان اعلنوا بيعة محمد بن أمية ملكا عليهم (39) .

فالغالب بالله وان بذل الوعود لرسل الثوار بأن يناصر ثورتهم فقد ظـل فى الواقع محافظا على الروابط الودية التى كانت له مع فيليب الثانى ملك اسبانيا ، وعلى العكس من ذلك فقد عمل فى الخفاء ضد الموريسكوس (واما اهل الاندلس وغشه لهم وتوريطهم للهلكة فى دينهم وأقوالهم وأولادهم وفى نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من فى قلبه مثقال ذرة من الايمان .. فقد أمرهم غشا منه بأن يقوموا مـع النصارى ليثق بهم فى قولهم بظهور فعلهم ، فلما قاموا على النصارى تراخى عنهم وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات فى ذلك ومراسلات وانه استشار معهم واشار عليهم أن يخرجوا اهل الاندلس الى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهـم منه بمدينتى فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به فى مصالح ملكه) (40) . وانتهـت ثورة الموريسكوس أخيرا بتوقيع اتفاق يسمح لهم بموجبه بالخروج الى المغرب أو غيره من بلدان شمالى افريقيا ، وقد جاز منهم عدد كبير الى المغرب كما جـاء فى رسالة السفير الفرنسى فى مدريد الى الملك شارل التاسع (41) .

اما بالنسبة لموقف العثمانيين من المولى عبد الله ، فقد اكتفوا بايـواء المعارضين لحكمه بعد أن فشلت الحملة العسكرية التى قاموابها ضـد المغـرب

---

(39) الموريسكوس : Moriscos هم المسلمون الذين ظلوا باسبانيا بعد ذهاب دولة الاسلام عنها ، وقد كانوا مثالا للنشاط والعمل ، وبعد سقوط غرناطة اظهر فرديناندو وايزابيلا بعض التسامح معهم الا أن ذلك لم يدم طويلا اذ ما أن تأسست محاكم التفتيش حتى تعرض هؤلاء لاشد انواع التعذيب والاضطهاد . الشىء الذى جعلهم يغتنمون كل الفرص للثورة ومكاتبة الاتراك فى الجزائر والسعديين فى المغرب لمساعدتهم (تطوان المجلد الاول . ص 165) . وقد قاموا بثورة دامية فى نهاية 1568م بمقاطعة غرناطة ونادوا بالدون Don Fernando de Valor الذى تلقب بمحمد بن امية ملكا عليهم. وأهم الوثائق التاريخية التى تتحدث عن ثورتهم هى الرسائل التى بعثها سفير فرنسا فى مدريد الى حكومته : فقد جاء فى احداها بأن الموريسكوس فى غرناطة قد ثاروا وان فيليب الثانى قد هيأ قـوات لاخماد ثورتهم كما تعرض للمساعدات التى يتلقاها الموريسكوس من باشا الجزائر وسلطان المغرب (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول — ص 286) وفى الثانية ان ثورة الموريسكوس قد صادفت نجاحا عظيما وان فيليب الثانى قد سلح ثلاثين سفينة لمراقبة شواطىء غرناطة قصد منع أية مساعدة قد ترسل الى الثوار (نفس المصدر ص 288) . وفى الثالثة لقد اغتيل محمد بن أمية وتولى مكانه عبد الله بن عبو (نفسه ص 290) .

(40) تاريخ الدولة السعدية . ص 38 .

(41) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول — ص 318

غداة تولية الغالب بالله ، وبعد أن ثبت لديهم تعاونه مع المسيحيين والروابط القوية التى أصبحت له معهم . ومن بين أولئك الذين عارضوا المولى عبد الله والتجأوا الى العثمانيين بعض اخوته الذين رفضوا التسليم لابنه محمد بولاية العهد ، مما دفع الغالب بالله الى التخلص منهم عن طريق الاغتيال ليرث ابنه العرش بعده ، وقد قتل فعلا ثلاثة من اخوته بينما فر الباقون الى خارج المغرب (42) .

واذا تساءلنا عن الاسباب التى حالت دون اغتنام السلطان العثمانى فرصة استنجاد اخوة المولى عبد الله به لبسط السيطرة التركية على المغرب ، نجد ان ذلك يرجع الى تعاون الغالب بالله مع الدول المسيحية الحديثة من جهة ، والى الهزيمة الكبرى التى لحقت القوات البحرية العثمانية فى معركة ليبانتـــو (Lepanto) من جهة اخرى . فقد عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثانى وجمهورية البندقية معاهدة يوم 20 ماي 1571 م للقيام بهجوم بحري ضد العثمانيين الذين يرجع لهم الفضل فى احياء مجد الاسلام وتأسيس امبراطورية اسلامية واسعة الارجاء تضم قسما كبيرا من أوربا ومعظم الحوض الشرقى من البحر المتوسط ، والذين مـــا فتئوا يهددون المسيحية فى عقر ديارها . لسعيهم المتواصل الى اتمام السيطرة على الحوض الغربى من البحر المتوسط ، حتى يسهل عليهم تطويق أوربا الغربية وانزال الضربة الحاسمة بها . وقد جرت معركة حربية كبرى خلال اكتوبر من نفس السنة بخليج كورنت بالجزر اليونانية انتهت بانهزام الاسطول العثمانى . وما ان علمــت أوربا المسيحية بنبا النصر العظيم حتى اقيمت الحفلات وكل معالم البهجة والفرح. وهذه المعركة تعد حتما نقطة انطلاق بالنسبة لاوربا الغربية المسيحية التى لن تجد فى قابل الايام قوة تناهضها وخاصة فى العالم الاسلامى ، لان معركة ليبانتو كانت بداية النهاية بالنسبة للعثمانيين الذين دخلوا منذ هذه الواقعة فى مرحلة جديدة اخذوا معها موقف الدفاع بعد أن كانوا يقومون بالهجوم .

---

42) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول — حاشية صفحة 477

واذا كان الحلف المسيحى لم يستفد من انتصاره فى (ليبانتو) بسبب اختلاف القادة حول ميادين القتال المقبلة ضد الاتراك ، فان الاسبانيين والبرتغاليين قد خططوا لغزو شمالى افريقيا ووضع حد للوجود التركى بها ، وحسب هذا المخطط هاجم الاسبان تونس 1573 وتمركزوا بأهم قواعدها الا أن التدخل العثمانى وما ابداه المجاهدون فى تونس انتهى بانهزام الاسبانيين فى معركة حلق الوادي عام 1574 م ودخلت تونس نهائيا فى طاعة السلطان العثمانى .

وقد وافق انتصار العثمانيين بتونس وفاة المولى عبد الله الغالب وتولية ابنه محمد المتوكل فازداد تطلع الباب العالى الى ضم ما تبقى من شمالى افريقية الى الامبراطورية خاصة وان عمى المتوكل : عبد الملك واحمد اللاجئين بالجزائر يلحان فى طلب المساعدة لاسترداد حقهما فى العرش المغربى .

الفصل العاشر

معركة وادي المخازن وبيعة المولى أحمد المنصور

بوفاة المولى عبد الله الغالب بالله وتولية ابنه المولى محمد المتوكل على الله، دخل المغرب فى مرحلة حاسمة من تاريخه ، بعد الهدوء النسبى الذي عرفه من قبل زمن الملك الراحل ، فقد ازدادت رغبة العثمانيين فى ضم المغرب ، بعد الظفـــــر العظيم الذي نالوه عقب انتصارهم على الاسبان فى تونس ، ودخول هذه البلاد فى حوزة الامبراطورية العثمانية ، وبعد التجاء عمى المتوكل عبد الملك واحمد الـــى الجزائر طلبا لمساعدتهم .

وما من شك فى أن انتصار العثمانيين فى حروب تونس ضد الاسبان ، قـــد شجعهم على مساعدة المولى عبد الملك المطالب بالعرش المغربى ، لبسط نفوذهم على البلاد ، ولان الاستيلاء على المغرب يؤمن الحدود الغربية للامبراطورية العثمانية ويوطد اقدام الاتراك فى مجموع الشمال الافريقى . علاوة على أن ضم المغرب من شانه ان يبعث الرعب فى قلوب الاسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان فى اسطانبـــول .

اما المتوكل على الله فقد تابع خطة والده فى التقرب من الدول المسيحيـــة ومسالمتها لصد خطر العثمانيين حيث لم يعد لديه اي شك فى انهم سينجدون عمه بقوات عسكرية كما عقد اتفاقا مع ايليزابيت ملكة انجلترا (1) التى كانت ترغـــب فى تنمية التجارة الانجليزيةمع المغرب للفوائد التى تعود على التجار الانجليز من وراء

---

1) مجلة تطوان ، العدد الثانى ، ص 51

ذلك ، زيادة على انها كانت تدرك الاهمية العظمى التى للمغرب ، خصوصا وقد كانت انجلترا فى حالة حرب ضد اسبانيا .

وتوقيع المتوكل للاتفاقية التجارية مع الانجليز يعد العمل الوحيد الذي قام به خلال حكمه القصير ، وقد فعل ذلك باعتبار ان الانجليز كانوا من بين التجار الاجانب الذين يبيعون مواد الحرب من ذخائر واسلحة للمغاربة منذ امد بعيد، ولا تخفى علينا حاجة المتوكل فى هذه الآونة الى السلاح لصد الخطر العثمانى ولمقاومة عمه المطالب بالعرش .

وفيما يرجع للامتين المسيحيتين : اسبانيا والبرتغال وموقفهما من انباء المساعدة العثمانية للمولى عبد الملك ضد المتوكل فرسالة (Giovanini Battista) (Gesio) المؤرخة بيوم (24 مارس 1576 والمرسلة الى فيليب الثانى تشرح لنا انه كان من الضروري ان يقوم ملك اسبانيا بجمع القوات فى الموانىء المجاورة لافريقيا لان العثمانيين عازمون على الاستيلاء على المغرب وبالتالى غزو اسبانيا ، وان رمضان باشا (الوالى التركى على الجزائر) والمولى عبد الملك واخاه المولى احمد يريدون السير ضد المتوكل الذي سينهزم امام الاتراك مهما كانت قواته ، خصوصا وان لمولاي عبد الملك عددا كبيراً من الانصار فى داخل المغرب ، ومن الممكن ان يطلب المتوكل النجدة من فيليب الثانى وستكون هذه فرصة ثمينة ليتدخل ملك اسبانيا فى المغرب بل وليطرد الاتراك من شمالى افريقيا (2) . غير ان انشغال فيليب الثانى بثورات الاراضى المنخفضة ضده وبالحروب الدينية القائمة بين الكاثوليك والبروتستانت فى غربى أوربا حال دون اهتمامه باحداث شمالى افريقيا ، خصوصا وان انجلترا كانت تتدخل فى هذه البلدان لمساعدة البروتستانت ضد اسبانيا الكاثوليكية الشىء الذي كان ينذر بقرب اصطدام خطير بين المسيحيين الكاثوليك تحت زعامة فيليب الثانى والبروتستانت بزعامة ايليزابيت . وانشغال فيليب هذا هو الذي منعه فى نفس الوقت من الاستجابة للنداءات المتكررة التى بعثها اليه ملك البرتغال الشاب (دون سباستيان) للتدخل فى المغرب والحيلولة دون احتلاله من قبل العثمانيين . وقد جاء فى رسالة وجهها ملك البرتغال الى سفيره Don Duarte de Castelbranco انه من الواجب التدخل لوقف التقدم التركى فى المغرب ومنعهم من الاستيلاء على الموانىء المغربية،

---

2) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، بريطانيا ، ج 1 ، ص 163

وجاء فى رسالة ثانية له اقتراح على فيليب الثانى باغتنام فرصة أوضاع المغرب المضطربة والقيام بحملة مشتركة لاحتلاله (3) .

لقد وجد العثمانيون فى انشغال ملك اسبانيا باحداث أوربا الغربية فرصة مناسبة للتدخل فى المغرب ، فأمدوا المولى عبد الملك بقوات عسكرية بقيادة والى الجزائر رمضان باشا وأحرز المولى عبد الملك بفضل انضمام رؤساء الجيش الاندلسى انتصارا عظيما فى معركة الروكان ضد المتوكل (اشخصه المعتصم الى المغرب عينا له وسفيرا عنه الى اشياعه ومن كان يداخله فى أمره .. فكان يطوف على منازل الاكابر توصلا الى مكالمة أشياع المعتصم وايصال كتبه اليهم .. وهو فى كل ذلك حاطب فى حبل المعتصم مرسله والمتوكل .. فى غفلة من أمره وكان فى خلال ذلك يسري مع الدغالى فى الغدر ويلحم حتى اذا كان يوم الركن الذي تحيناه لما تعاقدا من الغدر والخلاف نزعا بقومهما مكرا ومخادعة الى الخليفتين لاول اشتعال الحرب) (4) وذلك (لانهم كانوا يكرهون مولاي عبد الله وولده مولاي محمد لخيانته لهم) (5) فأصبح طريق فاس بعدها مفتوحا امامه ، ومن مدينة فاس توجه المعتصم الى مراكش التى فر عنها المتوكل نحو بلاد سوس .

اخذ المولى عبد الملك الذي تلقب (بالمعتصم بالله) منذ أن بدأت الاحوال تستقر لصالحه ، يعمل على اعادة الامن والهدوء الى المغرب ، بدون أن يتوان عن ملاحقة المتوكل الذي ما فتىء يؤلب القبائل ويهىء القوات المحاربة لاسترداد عرشه المسلوب . وقد خاض ضد عميه اربعة وعشرين معركة خلال سنتين انهزم فيها جميعها (6) .

والمولى عبد الملك المعتصم الذي عرف بالاطلاع الواسع على الحضارة الاوربية المعاصرة شاء ان ينهج بالمغرب سياسة جديدة تكسبه احترام جميع الدول وتوفر له الامن والاستقرار اللازمين لتقدم البلاد وازدهارها ، ولهذا السبب نجده يتودد الى السلطان العثمانى ويرضى القوات التركية التى جاءت لمساعدته على استرداد الحكم ويرسل الى ملك فرنسا هنري الثالث مع الضابط Luis Cabrette الذي كان من اصدقاء المولى عبدّ الملك فى الجزائر ليطلعه على أحداث المغربوليخبره

---

3) المصدر السابق . ص 172
4) النشتالى : مناهل الصفا . ص 47 .
5) المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص 48 .
6) الافرانى : نزهة الحادى . ص 65 .

بتوليه حكم البلاد ، وقد كلف هذا الضابط بنفس المهمة لدى ملك اسبانيا فيليب الثانى (7) . كما أرسل ثانية الى فرنسا ولدى هنري الثالث نفسه سفيرا آخر هو Guillaume Berard لابرام حلف بين المغرب وفرنسا . ونحن وان كنا نجهل فيما اذا كان هذا الحلف قد تم بين البلدين أم لا ، الا أننا نعلم بأن (غيوم بيرارد) قد اصبح منذ سنة 1577 قنصلا لفرنسا فى المغرب ، فكان بذلك اول ممثل سياسى فرنسى فى المغرب عند مطلع العصور الحديثة (8) .

وفى نطاق هذه السياسة كاتب المعتصم الملكة الانكليزية (أليزابيت) ليخبرها بتوليه السلطة وأنه مستعد لتلبية كل مطالبها (الى السلطانة المعظمة .. زبيلة بنت السلطان المعظم .. كتبناه اليك من حضرتنا العلية مراكش .. وموجبه أننا نعرفك ان الله تبارك وتعالى مكننى من ملك والدي .. واستوليت على جميع بلاده .. فلتتعرفى انت على محبتك وكلما يعرض لك فى بلادنا من الاغراض فانه مقض على ما يوافق غرضكم ومرادكم) (9) .

كما استدعى التاجرين الانكليزين Jhon Williams و Jhon Bampton واكد لهما رغبته فى احترام جميع الاتفاقيات التى كان ملوك المغرب قد عقدوها مع الدولة الانكليزية واعرب للتاجرين فى الوقت نفسه عن عواطفه ومتمنياته نحو الملكة الانكليزية وبانه يؤمل فى أن تزدهر تجارة المغرب فى المستقبل وذلك بعد أن يقوم التجار الانكليز بنقل منتوجات البلدان الاوربية الى الشرق الاسلامى عبر الاراضى المغربية عوضا عن نقلها عن طريق المانيا وايطاليا (10) .

وحسب مذكرة Edmund Hogan الانجليزى الى ايليزابيت ، والمؤرخة فى مارس 1577 نعلم بان المولى عبد الملك كان يريد ان يجعل من المغرب سوقا رائجة للثياب الانجليزية ، لانه يرغب فى أن يكون لباس رعاياه حسب الزي التركى (11) ، ونرى فى هذه المذكرة ايضا كيف اخذ المعتصم يتقرب من الانجليز وقد سمح لهم وحدهم بتصدير ملح البارود مقابل (قنابل) للمدافع وأسلحة اخرى ، وقد استجابت الملكة ايليزابيت وبعثت تشكر المولى عبد الملك على نواياه الطيبة نحو التجار الانجليز ، ثم أرسلت Edmund Hogan سفيرا فى المغرب وكلفته بان يرجو المعتصم

---

7) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ص 350
8) المصدر نفسه ، ص 355 .
9) مجلد تطوان . العدد التاسع . ص 32
10) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، بريطانيا ، ج 1 ، ص 199
11) المصدر السابق ، ص 239 .

بأن يترك أمر اتفاقه معها فى طى الكتمان (12) .

استاءت مدريد ولشبونة للتقارب بين المغاربة والانجليز ، واحدثت المؤون والذخائر التى اخذ التجار الانجليز يحملونها الى المغرب قلقا عظيما لدى ملك البرتغال خاصة ورغم السفارة التى كان المعتصم قد وجهها الى فيليب الثانى منذ ان تولى امر المغرب فقد أرسل اليه للمرة الثانية رسالة مع حاكم وهران الاسبانى Martin Diego بتاريخ ابريل 1577 تتضمن مشروع معاهدة مغربية اسبانية ، وقد بدأ المولى عبد الملك رسالته مذكرا الملك الاسبانى بانه دائما يبحث عن صداقته ، وكدليل على ذلك مراسلته السابقة له ، ثم استعرض أهم بنود مشروع المعاهدة التى تنص على اقرار السلم بين البلدين وحرية التجارة لرعاياهما ، وعدم مد يد المساعدة ضد بعضهما البعض (13) . ولم تثبت الوثائق التاريخية فيما اذا جرت محاولات بين مدريد ومراكش لمناقشة مشروع المعاهدة الذي تقدم به المعتصم ، أم أن الاحداث التى جرت بالمغرب من جراء انهزام المتوكل والتجائه الى الملك البرتغالى الشاب الذي استجاب لطلبه قد حال دون ذلك وجعل فيليب الثانى يتريث فى جوابه انتظارا لما سيؤول اليه تدخل (دون سباستيان) ملك البرتغال من تطورات واحداث .

تعرض المغرب لاهوال ومحن شديدة بسبب الحروب الاهلية التى جرت بين المتوكل وعميه وانعكست مضاعفاتها بصفة خاصة على أحوال البلاد العامة (التى نفقت فيها اسواق الفتن واظلم الجو فيها بالهرج فى سائر أقطار المغرب حتى تنمرت الرعايا واستنسر بغاتها وطغى الجند .. وتعطل الخراج منذ سنين حتى نفذ الطارف والتالد .. وكاد سلك الدولة ينتثر) (14)

وقد شجعت هذه الاوضاع السيئة القوى الخارجية المتربصة على الاسراع الى الاستفادة من الظروف الملائمة للغزو والاحتلال وتتمثل فى استعدادات البرتغال للتدخل العسكري وفى الجهود المتواصلة للاتراك لفرض سلطانهم على البلاد .

ونحن وان كنا نجهل ما التزم به المعتصم للاتراك ساعة معاونته ضد المتوكل، الا أن بقاء زوجته وابنه اسماعيل رهينتين بالجزائر يؤكد لنا تراجع المعتصم عما

---

12) المصدر السابق ص 350 .
13) المصدر السابق ص 214 .
14) مناهل الصفا للفشتالى . ص 39 .

واعدهم به كما ان انضمام بعض القوات الانكشارية التى قدمت مع المعتصم الى المتوكل بسوس ومحاولة القائدين الدغالى والغري – وهما على ما كانا عليه من صلات قوية مع الاتراك – الثورة ضد المعتصم ، لا يترك مجالا للشك فى ان العلاقات بين المعتصم والاتراك قد دخلت مرحلة من التوتر وتربص الفرص (.. وارتاده المتوكل .. ومن معه من الاتراك النازعين اليه .. فأنزلهم بمنازل القرب والاختصاص لديه فأمحضوا له النصح والمخالصة وعضوا على خدمته والاستماتة دونه بنواجدهم وكانوا احد شوكته فى الحروب السوسية) (15) .

ولقد وصل التوتر مرحلة جعلت رمضان باشا يتدخل عسكريا فى شرقى المغرب (وكان أخونا رحمه الله عرض فى رمضان بهذا السبب للديار العثمانية فامتعض لذلك السلطان .. امتعاضا عزل به رمضان من الجزائر) (16) .

فهل يمكن القول بأن تخلى المعتصم عن وعوده للاتراك دفعتهم الى التدخل عسكريا فى شرقى البلاد كنوع من التهديد ؟ وهل كان التهديد التركى عاملا رئيسيا فى تقرب المعتصم من الاسبان ودخوله فى مفاوضات لعقد تحالف عسكري معهم ؟ أم ان المعتصم قد وجد فى الهدنة التى وقعتها اصطامبول ومدريد فى يبراير 1578 سببا قويا لالتزام الحياد بين قوى الشرق والغرب ومسالمة الاسبان كما سالمهم السلطان العثمانى .

وكيفما كان الامر لقد كان عزل السلطان لرمضان باشا عن الجزائر من قبيل تطمين المعتصم ريثما تسنح الفرصة المناسبة للتخلص منه .

بعد التجاء المتوكل الى شمالى المغرب علم بالاستعدادات التى يقوم بها الملك البرتغالى لغزو المغرب ، فأرسل اليه نبيلا برتغاليا كان أسيرا عنده هو Don Antonio de Cunha ليطلب منه حمايته ومساعدته ؟ وانتقل المتوكل الى سبتة التى ظل بها اربعة أشهر ومنها الى طنجة فى انتظار وصول (دون سباستيان) على راس القوات العسكرية ؟ ومن طنجة وجه المتوكل كتابا الى علماء المغرب يبرر فيه فعلته الا أن العلماء استنكروا تصرفاته وأجابوه بخطاب طويل وهام (17) .

وبالتجاء المتوكل الى طنجة عند البرتغال ، خضعت معظم البلاد للمعتصم ، ولم يبق خارجا عنه غير منطقة الغرب التى كانت تضمّ القصر الكبير واصيلا والعرائش

---

15) مناهل الصفا للفشتالى . ص 34 .

16) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط تحت رقم ك 285 ص 7 .

17) الافرانى : نزهة الحادى . ص 65 .

والتى كانت تحت حكم عبد الكريم ابن تودة صهر المتوكل الذي طلب النجدة من البرتغال مقدما لهم مدينة أصيلا التى سرعان ما وقع احتلالها من طرف القوات البرتغالية (من نزوع ابن تودة قائد الفحص وبلاد الهبط الى أرض الشرك ومجاجاته بالنصارى الى أصيلة على حين غفلة من أهلها واجهاض المسلمين عنها الى القصر فتملكها المشركون) (18)

اما موقف المولى عبد الملك من التجاء المتوكل الى طنجة وطلبه مساعدة (دون سباستيان) فالوثائق المعاصرة تحفظ لنا رسالة وجهها المعتصم الى لشبونة يذكر فيها الملك البرتغالى بأن الحروب التى يسعى لها غير عادلة ، وانه يرمى من ورائها احتلال المغرب ، وليس بسبب تأييد مغربى ضد آخر سيعرض ملك البرتغال نفسه وجيشه للخطر ، ثم ينبهه الى ان عهود المتوكل لا قيمة لها ، وفى الختام يشعر المعتصم ملك البرتغال بأن عليه ان لا ينسى بأن المولى عبد الملك صديق حميم للسلطان العثمانى (19) .

غير ان تمادي ملك البرتغال فى خطته الرامية الى غزو المغرب بدعوى مساعدة المتوكل وحرصه على اغتنام هذه الفرصة ، جعل ملك اسبانيا الذي كان منشغلا بأحداث أوربا الغربية وبالنزاع مع بريطانيا ، يبعث الى قريبه دون سباستيان عدة سفارات ليحذره من مغبة أعماله ، ولا ننسى بأن المعتصم كان فى هذه الآونة قد تقدم بمشروع المعاهدة المغربية — الاسبانية التى لا زالت تحت الدرس فى بلاط ملك اسبانيا بالاسكوريال ؟ ومن السفارات التى وجهها فيليب الثانى الى لشبونة Don Juan de Silba ثم Don luis de Silba كما بعث اليه سفيرا فوق العادة هو Don Medina Sidonia فى مارس 1578 ، ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل لاصرار ملك البرتغال الطموح على اغتنام الفرصة الراهنة للتدخل فى المغرب واستعادة نفوذ البرتغال فى هذه البلاد (20) وقد واتته الظروف المناسبة عندما جاء المتوكل الى طنجة وطلب مساعدة لشبونة ضد عمه المعتصم مقابل التنازل للبرتغال عن سائر السواحل المغربية ، ثم عندما التجأ عبد الكريم بن تودة صهر المتوكل الى طنجة أيضا وتنازل للبرتغال عن أصيلا . فهذان العاملان كانا بالنسبة لملك البرتغال سببين كافيين ليتدخل فى المغرب سعيا وراء تحقيق الامنية المنشودة . وبدأت بذلك صفحة جديدة فى تاريخ المغرب وتاريخ الدولة السعدية بوجه خاص .

---

(18) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 114 .
(19) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ، ص 370
(20) المصدر السابق . ص 465 .

قاد الملك البرتغالي قوات جرارة بلغ تعدادها نحو عشرن الف محارب وارست جميع قطع الاسطول بمدينة أصيلا التي اتخذت نقطة انطلاق لغزو المغرب ، وقد كان وصول القوات المهاجمة يوم الاثنين 12 يوليوه 1578 حيث عسكرت بضواحي مدينة أصيلا ، علاوة على قوات المتوكل التي كانت تقدر بنحو خمسمائة فارس (21).

اما المولى عبد الملك الذي كانت عيونه تراقب كل تحركات الحملة البرتغالية منذ خروجها من لشبونة يوم 25 يونيوه 1578 فقد خرج من مراكش في اليوم التالي وقصد سوس ، وربما كان ذلك لاعداد وتجهيز القوات العسكرية، ثم عاد الى مراكش وخرج منها ثانية باتجاه الشمال حيث عسكر في منطقة الخميس يوم 3 يوليه ، وفي يوم 6 يوليه وصل تامسنا فسلا يوم 14 منه . ثم المعمورة في اليوم السادس عشر ، وقد نضب بهابعضقطع المدفعية . ولما وصل المعمورة علم بنزول الحملة البرتغالية في أصيلا (22) .

وتحفظ لنا المصادر التاريخية مراسلات المعتصم مع سباستيان قبيل خوضهما المعركة فنجد ترجمة لرسالة وجهها المولى عبد الملك الى الملك البرتغالي يوم 23 يوليه 1578 يذكره فيها ثانية بأن الحرب التي يقوم بها غير شرعية وانه جاء لمساعدة محمد المتوكل الذي طالما الحق الاضرار بالبرتغال والذي لن يستطيع الوفاء لما تعهد به للبرتغال من أن يتنازل لهم عن قسم من الاراضي المغربية (23) .

وفي تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول يذكر بأن المعتصم كتب الى ملك البرتغال بعد نزوله بأصيلا ، وكان مما قاله له : (ان سطوتك قد ظهرت في خروجك من ارضك وجوازك البحر الى عدوة المسلمين فإن انت تبتت في الساحل الى أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي وشجاع وان انت رجعت الى بلادك وحقرت بعض الرعية قبل أن يقاتلك امير مثلك فأنت يهودي بن يهودي (24) .

فالبلاد كانت تعيش أوضاعا داخلية سيئة نتيجة الحروب الاهلية ، وتتعرض في الوقت نفسه لمؤامرات خارجية خطيرة ، غير ان نزول الحملة البرتغالية بأصيلا يوم 12 يوليوز 1578 م ومناداة المعتصم في جميع انحاء المغرب بالجهاد المقدس غير بسرعة من ظروف البلاد الداخلية وجعل صفوف المجاهدين تتقدم لمواجهة الخطر الخارجي (ولما سمعت جنود الله وانصاره وحماة دينه من العرب والعجم .. حملتهم

---

21) م. ص. ت. م المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ، ص 293
22) المصدر السابق . ص 536
23) المصدر السابق . ص 392
24) تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول . ص 60 .

الغيرة الاسلامية والحمية الايمانية وتجدد لهم نور الايمان واشرق عليهم شعاع لا يقاس ... عقد الراية المنصورة بالله وسط جامع المنصور بعد ان ختم عليها اهل الله حملة القرآن مائة ختمة وصحيح البخاري وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء له وللاسلام بالنصر والتمكين) (25) .

واثناء استعدادات المعتصم لمواجهة البرتغاليين ، اغتنم الفرصة بعض القادة الاتراك ومن والاهم فى حاشية المولى عبد الملك ، واقدموا على تسميمه (ان قائد الاتراك الذي كان معه بعث لبعض قواده ان يلقاهم بكعك مسموم هدية لعبد الملك المذكور قبل وقت جوازهم عليهم قصد بذلك بعد اخذه به مدينة فاس ليثبت الملـك لهم فيهـا) (26) .

بقيت قوات الحملة البرتغالية بضواحى اصيلا ما بين 12 و 28 يوليه 1578 م حيث كان المعتصم فى هذه الآونة قد عسكر بسوق الخميس على بعد ستة اميـــال جنوبى وادي القصر الكبير . وكاتب المعتصم سباستيان ثانية (بأنى قد جئتك من مراكش ورحلت اليك ستة عشر مرحلة وانت لم تدن الى مرحلة واحدة) (27) .ويديهى ان الغاية التى كان يهدف اليها المولى عبد الملك هى التدرج بالحملة البرتغاليـــة والابتعاد بها عن قواعدها ومراكز تموينها ليسهل القضاء عليها . وقامت القـــوات البرتغالية بالفعل بالزحف نحو الداخل يوم الثلاثاء 29 يوليه وعسكرت اخيرا علـــى الضفة اليسرى لوادي المخازن يوم الاحد الثالث من غشت 1578 م .

اما قوات المولى عبد الملك فمن الصعب تحديدها لانها كانت تضم عددا كبيرا من المجاهدين بالاضافة الى الجنود النظاميين والقوات التى بعثها باشا الجزائـــر لصد الغزو البرتغالى (28) .

واخيرا التقى الجمعان قرب وادي المخازن وجرت معركة حاسمة فى تاريخ المغرب يوم الاثنين 30 جمادى الاولى عام 986 هـ الموافق 4 غشت 1578 م عرفت بمعركة وادي المخازن او معركة القصر الكبير او معركة الملوك الثلاثة .

واعتمادا على ما دونه وزير المنصور عبد العزيز الفشتالى فى (مناهل الصفا) : فان المعتصم قد اشتد عليه المرض ليلة المعركة (الى ان كان من زحف طاغيـــة

---

(25) نزهة الحادى للافرانى . ص 65

(26) ابن القاضى : درة السلوك . مخطوط بدار الوثائق بالرباط تحت رقم د 1428 .

(27) المؤلف المجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 61 .

(28) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 2 ، ص 452
كانت القوات التركية التى حاربت فى معركة وادى المخازن الى جانب المغاربة تتكون من : (6000 من رماة النار و 1000 من قبائل زواوة و 800 فارس) ومزودة باثنى عشر مدفعا .

برتقال فى جموع الشرك لوادي المخازن وارجاف الناس بمرض أخى المعتصم ما بلغ به الحزام الطبيين فارتبك الامر وارعدت سماء الهول وابرقت بتوالى زحوف العدوتين واحزاب الملتين الى اللقاء للغد واضطربت أحوال المسلمين وانحلت عزائم المستضعفين منهم) (29)

وفى صبيحة يوم المعركة مات عبد الملك (لا نقضاء اخيه المولى عبد الملك امير المومنين رحمه الله لاول المصطدم وعند ما اقتدح زناد الحرب فكان فى موته ساعتئذ واحزاب الطاغوت فاغرة الافواه لالتهام انصار الملة كبوة للاسلام) (30)، فتولى المولى احمد القيادة (ولم يحفل بما قارن هجوم العدو من موت اخيه ولا زاد ايده الله على انوكل برعى محفته من وثق بمكانه) (31) وتوجيه الاوامر الى مختلف وحدات القتال (وراى قائد القواد كان عند المنصور حينئذ ابو عبد الله محمد بن سليمان من تلك الاهوال ما هاله ، قال امير المومنين المنصور ايده الله ولم اشعر يومئذ حتى استاذن على الدخول بالفسطاط مذعورا فوصف لى من اضطراب احوال الناس لهول اليوم وانحلال عزائم المسلمين ما شاهده واذهله) (32)

وانتهت المعركة بانتصار المسلمين (وناهيك من يوم اجلى عن ثلاثة ملوك موتى ما بين مجدل وغريق وفائض النفس حتف الانف وعن ثمانين الفا من المشركين ما بين قتيل واسير) (33) .

كلف المولى احمد الكاتب محمد بن عيسى بكتابة نص بيعته ثم جمع كبار الجيش والشرفاء والوجهاء واخبرهم بموت اخيه المولى عبد الملك المعتصم وتوليته امور البلاد ، فاسقط فى ايدي القادة الاتراك والمتآمرين معهم وارتبكوا للمفاجاة ولكنهم سرعان ما حاولوا استغلال السمعة التى كانت للمعتصم الملك الشهيد بين اوساط الجند والعامة لبث روح التفرقة والخروج على المولى احمد بأن نادوا بأحقية المولى اسماعيل بن عبد الملك فى العرش المغربى مما اضطر معه المولى أحمد الى الفرار . (.. خوفا من أن يقتلوه) (34) الا أن المغاربة اصروا على بيعته أخيرا والتمسك بها مما لم يجد معه الاتراك ومن على رايهم بدا من القبول بالامر الواقع (.. فلم يقبل ذلك اهل مراكش فجيء بمولاي احمد اينما كان فى الساعة فولوه فكانمولاي أحمد اميرا(35)

---

29) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 17
30) المصدر السابق ، ص 37 .
31) المصدر السابق ، ص 38
32) المصدر السابق . ص 27
33) المصدر السابق . ص 39 .
34) عبد الرحمن السعيدى : تاريخ السودان . ص 208
35) المصدر السابق . ص 208

ولان المولى عبد الملك المعتصم كان قد أوصى بالامر لاخيه المولى أحمد منــذ ان شعر بالمرض (فأعلم انى لا احب احدا بعد نفسى محبتى لك ورغبتى فى انتقال هــذا الامر بعدي الا اليك لا لغيرك) (36) وهكذا نسجل هذه السابقة الخطيرة بين المولى احمد والاتراك مما سيكون له كبير الاثر على مستقبل العلاقات المغربية التركية طوال عهد المنصور (بويع له ايده الله عشية الاثنين الآخر من جمادى الاولى بمشهد الفتح .. على رأس الثلاثين من ولادته) (37) واتخذ لقب الخليفة المنصور تخليدا لهــذا الانتصار العظيــم .

كان اول عمل قام به المنصور بعد اتمام بيعته هو ارسال جثة أخيه المعتصم الى فاس فى نفس الليلة لتدفن بها وذلك فى موكب رهيب ، اذ حمل نعشـه كبار فقهاء فاس وقضاتها وشرفاء القوم ، فى حين ان جثتى المتوكل ودون سباستيان امـــر المنصور (بسلخ جلد بنأخيه مولاي محمد وحشوه تبنا وارسله الى مراكش فطيف به به ليعاينه الناس على تلك الحالة ويعتبرون به ، فمن يومئذ سمى المسلــوخ) (38) و (بدفن سلطان النصارى بموضع معين ليعرف عند الاحتياج اليه) ، وقد وجد بجثة دون سيباستيان آثار جروح : اثنان برأسه واخرى بساعده (39) (لكن صدمته أمواج الفتنة مجهولا وجدلته حملتها بين حصى الموت مقتولا وبعد حين رفع الينا مـــن طاف على صرعى المعركة خبره وأنه أوقع عليه بين تلك الجثاث نظره فأمرنـــا فى الساعة بحمله وايداعه أصون مستودع) (40) .

ومن ساحة المعركة وجه المنصور سفارة الى اصطامبول برآسة احمد بـــن بحيى الهوزالى (لسلطان الروم والمشرق وايفاد رسائله عليه فى مشهد الفتـــح الـــى القسطنطينية يخبره بما هيأ الله من نصر دينه واعلاء كلمته والاستيلاء على احـــزاب الشرك وطواغيث الكفر) (41) ، وقد حملت نفس السفارة رسالة خاصة الى والى الجزائر حسن باشا البندقى وهدية للمولى اسماعيل بن المعتصم الموجود بالجزائر

---

(36) الافرانى : نزهة الحادى . ص 71
(37) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 25
(38) المؤلف المجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 66 .
(39) م. ص. ت. م المجموعة الاولى ، بريطانيا ، ج 1 ، ص 297
(40) من رسالة المنصور الى الملك الاسبانى فيليب الثانى بتاريخ 2 رمضان 986 هـ .
المكتبة الوطنية بمدريد — مخطوط — رقم 257 .
(41) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 61

(وأشرتم ولدي الى ما كنا اتحفناكم به صحبة خديمنا .. أبى العباس أحمد بن يحيى الهوزالى) (42) .

ثم توجه المنصور الى مدينة فاس (ثالثة الفتح من مخيمه بوادي المخازن يـوم الاربعاء الثانى من جمادى الثانية ووصل لفاس للنصف منها فدخل فى يوم مشهود عند اهلها دخولا فخما لكثرة ما استاق من سبى المشركين واقتاد من جنود الله .. ولايـام من مقامه وافاه وفد مراكش دار الخلافة ببيعة اهلها جنديهم وحضريهم .. ثم انثالت عليه بيعات سائر المدن والامصار) (43) .

وعند ما كان المنصور بفاس اثارت ضده جماعة من قواد الجيش بزعامـة الكاهية محمد زرقون قائد قواد عساكر النار (الغوغاء من الاجناد .. وأسرى فى تنفيق سوق الشقاق لذلك والتغريب بين الجند والخليفة والحم حتى تفاقم الامر .. وجمع كلمة الاجناد كافة على افساد فاضطربت الاحوال وتحقق أمير المومنين حينئذ بذلك ما انطوى عليه محمد من العداوة والبغضاء لسلطانه وجده فى هدم بناء دولته وسعيه فى فساد ملكه وتفريق أمر الجماعة) (44) .

ويبدو أن المؤامرة كانت تهدف الى تولية الامير داود بن عبد المومن لصلاتـه القوية بالكاهية وللتاييد الذي كان يحظى به من قبل الاتراك باعتبار أمه التركيـة ونشأته بتلمسان ، غير أن المنصور عرف كيف يتخلص من المناوئين بالقضاء عليهم (وقتل النفر الاربعة جميعا ليوم واحد من شهر رجب عام ستة وثمانين واصبحـت رؤوسهم معلقة على الشرفات بباب السبع من ابواب فاس الجديد) (45) ، ويفرض فى الوقت نفسه نوعا من الاقامة المحروسة على الامير داود بن عبد المومن (وتوقى لذلك ما ينشأ عن بقاء داود وراءه وحذر مغبته فراى جلبه ومقامه لديه أحوط علـى الكلمـة) (46) .

لهذه الاسباب ضاعت على المنصور فرصة استغلال انهزام البرتغال لتحرير ما تبقى لهم من قواعد فى الشواطىء المغربية واجبر على الاستجابة للطلـب الـذي تقدمت به سفارة اسبانية ـ برتغالية (يرغبونه فى الامتنان بشلو الطاغية بستيـان الموارى بالقصر فى تابوته ووافوه أيام مقامه بمعسكره من ساحة فاس بين يـدي

---

42) من رسالة للمنصور الى اسماعيل بن المعتصم ـ بتاريخ محرم 987 هـ .
دار الوثائق بالرباط ـ مخطوط ك 278 ص 37 .
43) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 40
44) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 45
45) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 47
46) الفشتالى : مناهل الصفا . 56

ارتحاله لمراكش فتطارحوا عليه متضرعين وخاضعين لعز الاسلام فرأى أيده الله ما فى اسلام الشلو لهم والذهاب به الى ارضهم من مزيد الفخر للاسلام وتجدد الاحزان لعبدة الاصنام .. فامتن لذلك به عليهم واسلمه اليهم من غير عوض بعد أن كانوا مذعنين لبذل الاموال العظيمة فيه) (47) .

والعبارات التى جاءت فى اول خطاب من المنصور الى فيليب الثانى تؤكد الاتجاه الجديد لسياسة المغرب الخارجية (وصل الينا خطابك . وفى ضمن ذلك توجيهكم الرغبة فى تسريح جثة السلطان دون سبشطيان .. فأهلا بها من غرض ما اوسع له عندنا ساعة الاسعاف والاسعاد .. واذ وصل كتابك فيه فها نحن سرحناه مكرما ورفعنا لاهتمام غرضك فيه علما .. فلا يمنعكم من اغراضكم بهذا المقام العلوي مانع) (48) .

لقد حرص المنصور غداة توليته على الحفاظ على نوع من الصلات الودية مع الاتراك والاسبان ، وكاتب لاجل ذلك مراد الثالث مخبرا بالانتصار فى المخازن وبتوليته الحكم فى المغرب ، كما سلم جثة دون سباستيان لفيليب الثانى ملك اسبانيا ،وبحفاوة كبرى استقبل الوفود السياسية التى وصلت الى مراكش من اصطامبول ومدريد وغيرها لتهنئة المنصور وتقديم انفس الهدايا عربون المودة والتقدير . (فقد وصلوا مراكش بهدايا رسلهم وكان يوم بلوغهم اليها يوما مشهودا عند اهلها تحدث عنه الناس) (49) ، ومما جاء فى هدية الوفد البرتغالى (ثلاثة مائة الف دقا من ريال الفضة واما ما يرجع الى احمال السلع النفيسة من كل جنس وغريب كل نوع من الحرير والخز والديباج والسندس . الى غير ذلك من السترة الهندية مذهبة بستورها وارطيتها من رقيق الديباج والموشى وكراسى مكللة من طرف الهند وبلادهم وتحف ارضهم واوانى صنعهم وذخائر ملكهم فبحر لا ساحل له ..) (50) .

اما هدايا الوفد الاسبانى فقد اشتملت على كل نفيس من حجر الياقوت الكبير الحصبات المنتقى لذخائر الملوك انتزعها من تاج آبائه .. وربعة مملوءة من حصباء الذر الفاخر وقصب الزمرد وكانت منها زمردة فاخرة الجرم تفوق سائر الاحجار مقدارا وشكلا وعلقت بها زمردة اقل منها جرما واشبه بها حسنا وكلتاهما من ذخائر الملوك العظيمة ..) (51) .

---

(47) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 49
(48) من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى ، المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط رقم 257
(49) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 49
(50) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 49 .
(51) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 50

وبالنسبة للوفد العثماني فقد ضم عددا من علية القوم وكبار الاسلام (أوفدهم مراد خان من حضرته وأوعز الى مفتى الجزائر من ايالته الشيخ العالم الصدر الكبير الخطيب الشهير أبى الطيب البسكري بصحابتهم الى المغرب واختاره لشهرته ومكانته فى العلوم والرياسة ليحسن أداء الرسالة وتقرير المودة والاعراب عما فى الضمائر وليدل بارساله على علو فهمه وشرف مقدار المرسل اليه) . وقد حمل الوفد الى المنصور هدايا ثمينة (من الملابس الفاخرة .. وسيف محلى بديع الصنعة فاخر الحلى والزينة) (52) .

ووصل الى مراكش ايضا الوفد الفرنسى لنفس الغاية (وكان وصل ايضا على تهنئته وذلك عامئذ ارسال طاغية الافرنجة ويقال لهم فرنصة وبه يعرفون اليوم) . وقد قام بالسفارة الفرنسية التى بعثها الملك هنري الثالث وفد يترأسه : Guillaume Berard الذي كلف من طرف حكومته بتهنئة المنصور وتذكيره بالعلاقات الطيبة التى كانت قائمة بين المعتصم وفرنسا ، وبأن يسعى لجعل الموانىء المغربية مفتوحة فى وجه السفن الفرنسية ، ولتحرير الاسرى الفرنسيين بالمغرب ، كما كلف السفير الفرنسى بالعمل على تصدير نحو خمسة وعشرين الف قنطار من ملح البارود وجعل المنصور يقرض الحكومة الفرنسية مائة وخمسين الف دوكة (53) .

ورغم مظاهر الود التركية — الاسبانية فان المولى أحمد لم يطمئن لاي من الجانبين : فالقادة الاتراك ومن والاهم ناوؤه ساعة توليته وكادوا الاطاحة به فى فاس، والوالى التركى بالجزائر حسن البندقى تزوج ارملة المعتصم واصبح يحتضن الامير الصغير المولى اسماعيل لغاية بعيدة يهدف اليها السلطان العثمانى .

والاسبان تدخلوا عسكريا بعد المعركة فى سبتة وطنجةواصيلا والجديدة بدعوى حمايتها من الهجومات المغربية ، فاتسعت لذلك مناطق النفوذ الاسبانى بالشواطىء المغربية وازدادت بالتالى اخطارهم على المغرب .

وقد اشتدت مخاوف المنصور من التدخل التركى عند ما استطاع داود بن عبد المومن الفرار من مراكش واعلان الثورة ضد عمه بسوس فى شعبان 987 هـ الموافق لاكتوبر 1579 (اتصلت به الشرذمة .. من اصحاب المعتصم فاظهروا له الميل الى جانبه ومتوا اليه باسباب الانتماء الى حزب عمه المعتصم وجعلوا يوسوسون

---

52) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 50

53) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 2 ، ص 22

اليه ويبثون فى آذانه .. بما كانوا مرضى القلوب على الدولة .. فتمكنت منه وساوسهم) (54) .

ومن دراستنا للاحداث نصل الى حقيقة هامة وهى ان كلا من مراد الثالث وفيليب الثانى قد حرص على الاستفادة من ظروف الهدنة بينهما لوضع حد لاطماعهما فى المغرب والبرتغال :

فقد توفى الكاردينال هنري فى يبراير 1580 واستفحلت بموته ازمة وراثة العرش البرتغالى ، والملك الاسبانى يعد من اقوى المطالبين بالعرش .

واشتدت فى المغرب ثورة داود بسوس ضد عمه المنصور فبعث الوالى التركى رمضان باشا يؤكد للامير داود استعداده لمده بكل المساعات (ولما عزمنا الآن بقدومنا الى مدينة تلمسان فأول ما سألنا عن احوالكم .. لكى ننشىء معكم عهدا تقادم لنا مع اسلافكم فبعثنا لكم هذا المكتوب لعلكم تعلموننا فى جوابكم لنا بما عندكم من مأمول ومرغوب) (55) .

الا ان نجاح المنصور فى القضاء على ثورة سوس فى جمادى الاولى 988 الموافق ليوليوز 1580 م فى الوقت الذي اخذت القوات الاسبانية تكتسح الاراضى البرتغالية وتلحق الهزائم المتوالية بمقاومة الامير البرتغالى دون انطونيو Don Antonio دفعت السلطان مراد الثالث الى التفكير فى وسيلة اخرى يبرر بها تدخله فى المغرب، فاقترح على المولى احمد فى رسالتيه المؤرختين برجب عام 988 هـ — سبتمبر 1580 م عقد تحالف عسكري ضد الاسبان على اساس امداده باسطول حربى وقوات عسكرية (فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وانه احتوى على سلطنة برتقال اؤ كاد وانه جعل اهلها فى الاغلال والاصفاد وانه لكم جار وعدو مضرار حركتنا الحمية الاسلامية .. لاظهار الالفة الازلية .. أن نتخذ عهدا .. ونؤكد أن المملكتين محروستا الجوانب .. ونعلق العهد بالكعبة المنورة والروضة المعظمة فاذا تم هذا الشأن .. نوجه لكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيش عز ونصر وكماة عثمانية تستفتح بها ان شاء الله بلاد الاندلس) (56) وقبل فى نفس الوقت زواج المنصور من احدى بناته (عهدنا الى أمير الامراء .. ان

---

(54) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 56

(55) من رسالة بعثها رمضان باشا الى داود بن عبد المومن بتاريخ ربيع الاول988 . سيمانكاس — اسبانيا رقم 160

(56) من رسالة للسلطان مراد الى المنصور المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط رقم 257 .

يصهر لكم على احدى بناتنا .. اسعافا لغرضك المنيف) (57) غير ان المنصـــــور (تثاقل عن رد الجواب) (58) لتأكده من عدم صدق نوايا الاتراك اتجاهه وبأنهم غير جادين فى محاربة الاسبان بعد أن جددوا معهم اتفاقية الهدنة يوم 25 يناير 1581 م ، اي ان الامر لا يخرج عن كونه وسيلة لغزو المغرب وضمه الى الامبراطورية العثمانية كما تخوض اسبانيا فى نفس الوقت حروب البرتغال لتوحيد شبه جزيرة ايبريا .

وبسبب اصرار المنصور على موقفه أعطيت الاوامر الى علوج على قائــــد الاسطول العثمانى لغزو المغرب ، وقد وصل علوج الى الجزائر فى جمادى الثانية 989 الموافق لشهر جوان 1581 م بينما كان المولى احمد يرابط بقواته الجرارة عند نهر تانسيفت بدعوى اخذ البيعة مصافحة لابنه المولى محمد المأمون منذ شهر صفر (وبلغ اليه خبر اجتهاده فى ذلك من قبل انحداره فى الاساطيل بستة اشهر) (59).

وكانت القوات المغربية قد استعدت لمواجهة التدخل التركى (فشمر أيده الله لتجهيز عساكره الهاشمية وكتائبه المظفرة الامامية .. الى تخوم المملكة لسد فروجها وحياطة ثغورها مخافة أن يفاجىء على بعضها على حين غفلة وارصدت له العساكر على كل ثنية بالمغرب وجلست للوثبة على براثنها) (60) .

والى جانب الاستعدادات العسكرية ، وجه المنصور لاصطامبول سفارة خاصة تضم القائد أبا العباس أحمد بن ودة والكاتب ابا العباس احمد بن يحيى الهوزالى بعد ان توصل الى شبه اتفاق عسكري مع الملك الاسبانى — الذي كان قد انهى بدوره المشكلة البرتغالية بدخوله العاصمة لشبونة فاتحا يوم 31 يوليوز 1581 م — على اساس المساعدة العسكرية للمغرب لمواجهة التدخل التركى مقابل التنازل عن مدينة العرائش وامتيازات مهمة اخرى .

وامام تطور الاحداث لم يجد السلطان العثمانى بدا من قبول الامور الواقـــع والتراجع عن غزو المغرب بأن امر علوج على بالعودة الى الشرق .

من نتائج الضغط التركى على المنصور انه اجبر على التقرب من الاسبان منذ الشهور الاولى لتوليته ، وكانت حادثة المطالبة بجثة دون سباستيان بداية عهد جديد من العلاقات الودية بين المغرب واسبانيا ، فقد اطلق المنصور سراح السفير الاسبانى فى لشبونة (فككنا عن خديمكم ذي شلبا قيود الاسر وعاملناه مراعـــــة

(57) المصدر السابـــق
(58) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 61 .
(59) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 62 .
(60) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 63 .

لمقامكم بالتسهيل واليسر) (61) . واستقبل بمراكش سفارة اسبانية تتكون من القسيس Pedro Venegas - Diego Marin وسلم اليهما الدوق الصغير De Varcelos كما اكد لهما استعداده لتلبية كل مطالب الملك فيليب الثانى .

وفى نطاق التقارب الجديد منح المنصور امتيازات خاصة لبعض التجار الاسبان (هذا الظهير السلطانى .. بيد حامله المتسك به التاجر افرنسشسق بريد Francisco Varredo يصوغ له ايراد بلادنا والتصرف بتجائره فى مدننا وحدود ملكنا .. وابحنا له الاختلاف لبلادنا .. محفوفا بأماننا برا وبحرا) (62)

ولم يغفل المنصور من جهة اخرى عن اطلاع الملك الاسبانى على ثورة ابن اخيه داود بن عبد المومن بسوس وكيف تم القضاء عليها فى نهاية الامر ، وقد الح المولى احمد فى احدى رسائله هذه على عودة الاسقف (مرين) لاتمام المفاوضات معه خاصة ان حملة علوج على البحرية كانت فى طريقها نحو المغرب .

ومن العوامل التى زادت من تقارب المنصور مع اسبانيا تخوفه من وجود الاميرين السعديين الناصر بن الغالب والشيخ بن المتوكل بين يدي فيليب الثانى بعد توحيد شبه جزيرة ايبيريا ، وفى الوثائق التاريخية ما يبرر حذر المنصور وتخوفه فقد وجه الناصر الى الملك الاسبانى رسالة مؤرخة بيوم 26 سبتمبر 1580 يطلب فيها مساعدته على استرجاع الحكم فى المغرب (63) .

استقبل المنصور القسيس مرين بمعسكره بتانسيفت ودخل معه فى مفاوضات لوضع مشروع معاهدة عسكرية ضد الاتراك على اساس التنازل للاسبان عن مدينة العرائش التى كان الملك الاسبانى يقدر اهميتها الستراتيجية فى القيام بالعمليات العسكرية ضد القراصنة الذين كانوا ينزلون بالتجارة الاسبانية فى عرض الشواطىء المغربية الاطلسية افدح الخسائر (حضر جمعه العظيم رسول عظيم الملة النصرانية طاغية قشتالة بما كان ساعتئذ بمراكش سفيرا الى حضرة امير المومنين من عند ملكه) (64) .

وقبل أن يعود السفير الاسبانى حمله المنصور رسالة الى فيليب الثانى يطلعه فيها على الرحلة التى سيقوم بها الى فاس فى قابل الايام .

---

61) من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى ـ المكتبة الوطنية ـ مدريد ـ مخطوط ـ 257 .
62) يوجد نص الظهير فى المصدر السابق .
63) مجلة الاندلس عدد 23 . ص 19 .
64) الفشتالى : مناهل الصفا ص 60 .

وفى فاس تابع المنصور مع السفير مرين المفاوضات التى ابتدات بتانسيفت هذه المفاوضات التى دامت زهاء السنة تقريبا ، فماذا حصل والمنصور بفاس ؟

لقد استقبل غداة وصوله الى فاس سفارة تركية ارسلها مراد الثالث لتخبر المنصور بالانتصارات العثمانية فى ايران ضد الصفويين ولتؤكد له عودة العلاقات بين المملكتين الى سالف عهدها بعد حادثة الغزو الفاشلة (ثم نظر فى مخاطبة خاقان صاحب القسطنطينية السلطان مراد خان وايفاد ارساله عليه نما تقرر من سوابق الالفة والمهادات السالفة بينهما وبما كان السلطان مراد الاخير منهما فى اتحافهصاحبه بالهدية) (65) .

وفى جواب المنصور الذي حملته سفارة مغربية تتكون من قاضى القضاة بمراكش ابى القاسم الشاطبى والعالم ابى زيد عبد الرحمن بن منصور الشياظمى تذكير بآل البيت واشادة بالروابط بين الدولتين المسلمتين ثم التهنئة بما حققته القوات العثمانية فى ايران ، ويختم المنصور خطابه بالتاكيد على دور المغرب فى الجهاد بالغرب الاسلامى (ولا طارىء بحمد الله عدا ما نحن فيه من الاهتبال بمصالح العباد .. ثم مواصلة البكر والاصال .. باقامة فريضة الجهاد الذي هو الدثار لهذه الملة الاسلامية والشعار .. فنحن بحمد الله دائما فى الاهبة والاستعداد له وارتباط الصافنات الجياد لارهاب اعداء الله اهل الكفر والعناد) (66) .

وقد حملت السفارة المغربية ايضا الى كل من والى الجزائر حسن باشا البندقى وقبطان البحر علوج علي باشا جوابين عن رسالتين لهما للمنصور يعتذران له عما حصل من أحداث (لما وفد على مقامنا العلى خديمنا .. انهى الينا ما اصحبتموه من كتابكم الذي ابديتم فيه لعلائنا وجه الاعتذار سافرا .. فقد قبلنا عذركم) (67)

وجاء فى جوابه لعلوج على (ورد على بابنا رسولنا الآئب من تلكم الابواب العثمانية .. فانهى الينا بما تلقاه منكم .. وان تحرككم ذلك على ما حكيتم ما كان منكم لباعث نفسى .. وانكم فيه على غير هوى منكم ولا اختيار) (68) .

فهل كانت المحاولات التركية الجديدة ترمى الى بعث الطمانينة فى نفس المنصور وبالتالى للحيولة دون سيره بعيدا فى تنازلاته للاسبان ؟

---

65) نفس المصدر ص 64 .
66) من رسالة للمنصور الى مراد الثالث — رسائل سعدية . ص 18 .
67) من رسالة جوابية بعثها المنصور الى حسن باشا . رسائل سعدية . ص 278
68) من رسالة جوابية بعثها المنصور الى علوج على . رسائل سعدية ص 68

ان ما قام به المنصور وهو بفاس يؤكد حذره ويقظته وسعيه فى الوقت نفسه الى تقوية اوضاعه الداخلية : فقد حصن مدينة العرائش حتى لا يفاجأ بهجوم اسبانى للآمال العريضة التى اصبح الاسبان يعلقونها عليها ، ووجه قوات عسكرية لتدعيم سلطانه على الريف وكل الشمال المغربى باعتبار ان هذه المناطق كانت محط اطماع الدولتين الكبيرتين وعندها تلتقى حدودهما (كان أول شىء قدمه من اعماله .. بعض الزيادة مما يلى البحر فى الحصن العظيم .. بالعرائش المعروف بحصن الفتح .. ثـم نظر ايده الله فى تثقيف أطراف البلاد .. فسرح كلا الى مكانه فثقف بهم الجهات وسد الثغور والمسالح .. وجهز القائد .. فى جيش عرمرم من الاسل والنار الى بلاد الريف والهبط وجبال غمارة) (69) .

ومن جهة اخرى ، ظل المنصور يماطل السفير الاسبانى ويعتذر بين الآونـة والاخرى لفيليب الثانى عن هذا التأخير بحجة القيام بأعمال مستعجلة وجد هامة (ثم عنت لنا بعض أمور تجددت لدينا تقتضى مقامنا هذه المدة بهذه البلاد فأشغلنا تقاصيها وتدبرها الى هذا التاريخ عن المبادرة بتشييعه لكم فى الفور كما هو المراد ، فكـان المقتضى لتأخيره ما عـن لنا من هذه الاسباب كما انها ايضا سببت فى تأخر هـذا الجواب) (70) .

ولم ياذن للسفير مرين بالعودة الى اسبانيا الا بعد رجوع السفارة المغربيةمن اصطامبول وتأكده من النوايا الجديدة للسلطان العثمانى (وكان من خبرهم انه لما وندوا على القسطنطينية حضره بنى عثمان وأدوا رسالتهم الى السلطان مراد خان اهتز سرورا من أعواده لمقدمهم ولقاهم مبرة التكريم .. وكان القاضى أبو القاسـم صنع له كلاما اعرب فيه عن حق الدولتين واطرى فيه السلطان وقرر فضل اهل بيت النبوة .. وحض على اتحاد كلمة الاسلام .. ووقف السلطان على قدم البر لرسالة امير المومنين .. بأن تولى جوابها بخط يده فأغرب فى ذلك بما لم يسمع قط عن ملك من ملوكهم الى ملك) (71) .

لقد كان للتهديد التركى خلال المرحلة الاولى من عهد المنصور اكبـر الاثر فى تقاربه مع الاسبان وبذل الوعود المختلفة للحصول على مساعداتهم العسكرية ومـن خلال ما نتوفر عليه من وثائق معاصرة فان الاتصالات بين الجانبين قد مرت بالمراحل التاليـة :

---

(69) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 65 .
(70) من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط رقم 257 .
(71) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 66

أولا — الظروف التى مهدت لمشروع التحالف العسكري (3 شعبان 990 / 2 غشت 1581) فقد استغل الاسبان أوضاع المنصور الداخلية وتخوفه من التدخل التركى وما أبداه من استعداد لتلبية مطالبهم (فلرغبتكم بهذا المقام العلوي علـى الرحب والاكرام واغراضكم فيه محمولة من الاهتبال على الغريب والسنام ولـو توجهت فيما هو اكثر للقيت وجه القبول مشرق الجبين والتيسير .. فلا يمنعكم مـن اغراضكم بهذا المقام العلوي مانع) (72) وسعوا الى الحصول على امتيـازات تتلخص فى :

1 — الوعد بالتنازل عن مدينة العرائش لاهميتها الستراتيجية ودورها فى مواجهة القرصنة التى تكبد التجارة الاسبانية مع العالم الجديد والشرق الاقصى أفدح الخسائر فى الاموال والارواح .

2 — افتداء اسرى معركة المخازن حتى لا يستفيد المنصور منهم ويستغل اليـد اليد الخبيرة بوجه خاص فى مشروعاته العسكرية والصناعية والعمرانيـة وغيرها .

3 — الحصول على امتيازات تجارية بما يشبه احتكار التجارة المغربية ليتمكـن الاسبان من اغلاق الاسواق المغربية فى وجه خصومهم ومهربى الاسلحـة الانجليـز خاصـة .

ثانيـا — التطورات الجديدة واثرها على سير المفاوضات المغربيـة — الاسبانية : من أبرز العوامل التى كان لها الاثر الاول فى هذه التطورات : تراجـع الاتراك عن تهديدهم للمغرب ودخولهم فى نوع من المسالمة وتبادل الود مع المنصور اي ان المولى احمد قد اصبح يشعر بنوع من الاطمئنان النسبى اتجاه الاتراك العثمانيين وهذا العامل أعطاه فرصة ثمينة للتريث والتدبر وعدم التسرع فى اتخاذ ما من شأنه ان يخلق مضاعفات لا تحمد عقباها .

ويؤكد الموقف الجديد للمنصور تصرفاته منذ ان عادت سفارة الشاطبـى والشياظمى من الباب العالى ، والاعذار التى بدا يتذرع بها لمماطلة الاسبان وتسويفهم (ان رسولكم الاثير المرعى القسيس مرين الذي هو الآن بدارنا .. كنا عازمين كمـا عرفناكم على اشخاصه نحوكم .. ثم عنت لنا بعض أمور تجددت لدينا تقتضى مقامنا هذه المدة بهذه البلاد .. فكان المقتضى لتأخيره ما عن لنا من هذه الاسباب .. لكن

---

72) من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط 257 .

ها نحن ان شاء الله على حال اشخاصه فى الفور) (73) . وقبل أن يعود السفيـــر الاسبانى من فاس التى اقام بها سنة كاملة حمله المنصور مختلف الوعود والامانى بتحقيق رغبات الملك الاسبانى فى قابل الايام .

والعنصر الثانى الهام الذي اثر على سير المفاوضات بين المغرب واسبانيا : ظهور انجلترا على مسرح الاحداث وما ابدته الملكة ايليزابيت من جدية فى تسليـــح الجيش المغربى وامداد المنصور بكل الحاجيات العسكرية البرية والبحرية بالاضافة الى العائدات المختلفة التى (ستستفيد) منها خزينة المنصور من جراء التجارة بين البلدين وذلك للحيلولة دون تقاربه مع الاسبان والتنازل لهم عن العرائش وتمكينهم من احتكار التجارة التجارة المغربية .

ونتيجة التقارب الجديد مع الانجليز ، حمل مبعوث الملكة ايليزابيت (هوجـــن Hogan) الى المولى احمد رسالة خاصة وهدية ثمينة وهى اسلحة ناريـــــة ومعدات حربية مختلفة . وفى الخطاب الذي اجاب به المنصور الملكة الانجليزيـــــة بتاريخ 20 جمادى الاولى 988 هـ / 3 يوليوز 1580 نجد الخطوط الكبرى التى سارت عليها العلاقات المغربية ـــ الانجليزية .

فقد بادلها المنصور الود والتقدير (ولقد وصل كتابك مشكور الاشارة والتصريح مشتملا على الود الثابت والحب الصريح) (74) .

وتعهد لها بالسماح للتجار الانجليز الذين يتوفرون على اذن خاص منها بالمتاجرة مع المغرب (وكذا التجار الذين لهم من خطابك الجليل حظ الايصا فلهم عندنـــا بمقتضاه من الحظ ما يدل لهم من حقوقهم كل تمنع واستعصى) (75) .

كما ابدى كامل استعداده لتلبية جميع رغباتها معاملة بالمثل (وقد ذكرتم .. ما عندكم من حسن القيام بما يعرض لنا من الاغراض هنا لكم والاهتمام بما يتـــم تيسيره بأعمال اشارتكم واقوالكم .. فاغراضك بهذه الحضرة العلية محمولة على كاهل التيسير والتسهيل) (76) .

وفى نطاق هذه الاتصالات تطورت العلاقات المغربية ـــ الانجليزية وبلغت مرحلة خاصة لوجود عوامل اساسية قاربت بين البلدين :

---

(73) المصدر السابـــق .
(74) رسالة المنصور الى ايليزابيت ـــ م. ص. ت. م ، انجلترا ، ج 1 ص 335
(75) المصدر السابق .
(76) المصدر السابق .

1 ــ فى المجال الاقتصادي : وجد الانجليز فى المغرب أسواقا تجارية هامة بعد ان سدت اسبانيا امامهم اسواق أوربا الغربية .

ووجد المغرب فى التجار الانجليز زبناء رئيسيين لبيع السكر وملح البارود ومختلف المزروعــات والبضائـــع .

2 ــ فى المجال السياسى : ادرك الانجليز ما لبناء القوات المسلحة المغربية من دور أساسى فى الوقوف فى وجه الاسبان وبالتالى لاحكام تطويق اسبانيـــا وتهديدها متى ما ضمنوا فى المستقبل انضمام المغرب للمعسكر البروتستانتى . وما كان للمولى أحمد وهو الحريص على تقوية سلطانه وتعزيز وسائلـــه الدفاعية ان يتراجع عن عروض مشجعة كهذه تمده بكل انواع المعـــدات العسكرية الحديثة .

3 ــ وفى المجال الستراتيجى : التقت مصالح البلدين فى عدم تسليم العرائـــش للاسبان ، لان من شأن هذا التنازل ان يزيد من نفوذ الاسبانيين فى الشواطىء الاطلسية المغربية ويحول بالتالى دون قيام المبادلات التجارية بين المغرب وانجلترا ومد المغرب بأسلحة النار ومعدات القتال . ويدخل فى هذا المضمار دور الخبراء العسكريين الانجليز وفى مجال الصناعات المغربية المختلفة .

أما العامل الثالث الذي شجع المنصور على التراجع عن تحالفه مع الاسبان ومماطلتهم فى الوعود التى تعهد لهم بها من قبل فهو انشغال الملك الاسبانى فيليب الثانى بالحروب التى تجري فى الواجهات الاسبانية العديدة برا وبحرا ، وما كـــان للاسبان ان يغامروا بحملة عسكرية ضد المغرب قد يكون مصيرها نفس مصيـــر الحملة البرتغالية فى وادي المخازن قبل اعوام قليلة ، وحتى لو حاول القيام بذلك فان الاتراك لن يقفوا مكتوفى الايدي أمام التهديد الاسبانى ، وفى هذه الحالة قد يحقق السلطان العثمانى ما عجزت عنه حملة علوج على باشا من قبل .

ورغم ان المنصور استطاع التوصل فى المفاوضات مع الاسبان الى الوعـــد بمبادلة العرائش بالبريجة (الجديدة) بدلا من التنازل لهم عنها كما كان الامر من قبل (وكذلك تامروا لاصحابكم يقبضون لاصحابنا البريجة مثل ما امرنا نحن للقائد ابراهيم يقابض لاصحابكم العرائش) (77) . ورغم الاوامر التى تظاهر باعطائها للمفاوضين المغاربة من أجل افتداء الاسرى (ان مسألة الاساري التى ذكرتم هى أحق من كل

77) رسالة من المنصور لملك اسبانيا ــ المكتبة الوطنية ــ مدريد ــ مخطوط 257 .

ما تكلمنا به وهى التى تعملون عليها ان شاء الله) (78) . فانه لم ينجز شيئا من ذلك معتذرا باعذار مختلفة منها :

أ ـ انتظار عودة ترجمانه الخاص (فتعذر علينا لاجل ذلك السبب فهم ما فى كتبكم الواردة بخطوطكم من حيث اننا لا نريد ان نناولها لمن يقربها خشية انشاء ما فى مضمنها وبحسب ذلك كتبنا من عندنا لخديم مقامنا العلى .. ليتولى كتبه الينا بخطوطنا لكى نفهمه) (79) .

ب ـ عدم كتمان السر من قبل الاسبان (وما ذكرت من امر المماطلة التى وقعت فى تلك المسألة فذلك ليس سببه الا منكم لانا كلمناكم مرارا بعد مرارا واوصيناكم الا تذكروا شيئا من ذلك ثم ان الكلام خرج من عندكم) (80) .

ج ـ التجاؤه الى طريقة تترك نوعا من الامل لدى مفاوضيه الاسبان ، كأن يوعز الى المفاوضين المغاربة باطلاع الاسبانيين على الاوامر التى يرسلها اليهم لتنفيذ ما اتفقوا عليه مع الاسبان (الى السلطان المعظم .. دون فيليب .. نها نحن بصدد .. قضاء تلك المسألتين على احسن المراد .. حسبما تطالع الاوامر العلية التى تصلكم) (81) .

وتاكيدا لمواقف المنصور الجديدة من مفاوضيه الاسبان عمد الى تحصين مدينة العرائش وامدادها بقوات عسكرية للدفاع عنها (الحصنين الضخمين اللذين خيم بهما على أنف عدو الدين بمرسى العرائش .. وابطل بهما كيد عدو الدين ودفع بهما فى صدر طاغوت الشرك) (82) .

كما ازداد تمسكا بالاسرى لمشروعاته المختلفة فى النواحى الاقتصادية والعسكرية والعمرانية ، وتطورت علاقاته مع الانجليز الى حد السماح لهم بتاسيس (الشركة البربرية) عام 1585 التى اصبحت تنتظم شؤون التجارة الانجليزية مع المغرب وتحتكر اهم الاسواق التجارية المغربية (بما امدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار واطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وامدادها بالمعادن التى اعوزتها ببلادها) (83) مقابل امداده بكل حاجياته من الاسلحة النارية ووسائل القتال وقطع الاسطول ولوازمه .

---

78) رسالة من المنصور لملك اسبانيا ـ المكتبة الوطنية ـ مدريد ـ مخطوط 257
79) رسالة من المنصور لملك اسبانيا ـ المكتبة الوطنية ـ مدريد ـ مخطوط 257
80) من رسالة للمنصور الى فيلب الثانى ـ المكتبة الوطنية ـ مدريد ـ مخطوط 257
81) من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى ـ المكتبة الوطنية ـ مدريد ـ مخطوط 257
82) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 265
83) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 193

لقد انعكست علاقات المنصور مع الانجليز على سير اتصالاته مع الاسبانيين ولم يعد للملك فيليب الثانى اي شك فى عدم جدية المولى احمد فى الوعود التـــى يتعهد بها للمفاوضين الاسبان (ورد علينا كتابكم وانت تعير علينا فيه وتقول ما من حق رجل كبير مثلكم يأتى لحاجة ويتربص عليها هذا التربص كله ، اعلم ان تربصنا لاجل مصالح كثيرة .. فانف عنك ما تتوهم به من هذه المسالة فانها متضية .. ولابد من ملاقاتنا معكم عن عجل ان شاء الله لنتكلم فيما يؤول نفعه على الجانبين) (84) فقر`رايه على سحب السفير المكلف بمفاوضة المنصور (Perdo Venegas) وقد ابدى المولى احمد استغرابه لذلك (واسستم مبانى خطابكم عليه من استدعاء توجيه رسولكم بذر بنيفيس ذي قرطبة اليكم واشخاصه نحوكم) (85) وجدد صدق نواياه ووعوده للملك الاسبانى (لذا كان لا ينفصل خديمكم الانباشدور هذا عن دارنا ومقامنا الا مكمل الاغراض من عندنا على التمام .. لانه على حال استكمال مآربه من هنا وجميع اربه على حال مصافطته اليكم بجميع أوطاره واسبابه راجعا ان شاء الله بكل مرغوب اليكم) ب86) .

ولكن بدون جدوى لان الاوامر صدرت الى جميع الدبلوماسيين الاسبان بالعودة الى اسبانيا (والذي اوجبه الى تلكم المكانة المكينة ان ولد اخى القسيس مريـــن خديمكم المتوفى الذي هو الآن بحضرتنا وفى كنف ايلاءتنا انهى الينا انه جاءه أمركـم بالقدوم على تلكم البلاد والتجاته بذلكم الند ولما اخبرنا عنكم بذلك ولم يكن وصل الينا فى شأنه خطاب من عندكم من هنالك (87) .

واول حدث يعكس التوتر الذي اصبحت عليه العلاقات المغربية ــ الاسبانيــة ان الملك الاسبانى لم يستجب لطلب المنصور بالسماح للقائد عبد الكريم بن تـــودة اللاجىء فى اسبانيا بالعودة الى المغرب (ولما تقرر لدينا وعلمنا ان ما تقادمون الينا فيه انتم بشفاعتكم ووسائلكم وتبعثون من اجله نحونا بارادتكم أو رسائلكم نسعفوا فيه رغبتكم .. فالمراد منكم ان شاء الله ان تصدقوا ظننا الحسن فيكم باطلاق ذلكـم الرجل الينا) (88) .

وخلاصة القول اذا كان التهديد التركى قد ضيع على المنصور فرصة القيـام بتحرير قواعد الاحتلال البرتغالى فى الشواطى المغربية (سبتة ، طنجة ، اصيلا ،

---

84) رسالة لاحد أعوان المنصور ــ المكتبة الوطنية ــ مدريد ــ مخطوط 257
85) رسالة المنصور الى فيليب الثانى ــ المكتبة الوطنية ــ مدريد ــ مخطوط 257
86) المصدر السابـــق .
87) من رسالة للمنصور الى ملك اسبانيا ــ المكتبة الوطنية ــ مدريد ــ مخطوط 257
88) من رسالة للمنصور الى ملك اسبانيا ــ المكتبة الوطنية ــ مدريد ــ مخطوط 257

والبريجة) وأجبره على التقارب مع الاسبانيين ، فان تدخل الانجليز فى سير المفاوضات المغربية — الاسبانية قد اثر على مجرى الاحداث بما أمدوا به المنصور من اسلحة وعتاد مكن المولى احمد من مماطلة الاسبانيين وتسويفهم .

واذا كانت هناك من صفات خاصة لسياسة المنصور خلال المرحلة الاولى من حكمه اتجاه قوى الشرق والغرب فابرزها :

1 — السعى الى تجنب كل ما من شأنه أن يثير النزاع مع احدى القوتين الرئيسيتين ويؤدي به الى الاصطدام والمجابهة ، فى الوقت الذي كان يرى فى تربص بعضهما للآخر اقوى الضمانات التى تحول دون تعرض المغرب لاي هجوم خارجى ، وقد أدرك مراد الثالث وفيليب الثانى هذا الجانب فى سياسة المنصور وأرغما تحت وطأة المشاغل الداخلية والخارجية المتزايدة لكل منهما على قبول الامر الواقع ، فأصبح المغرب لذلك بلد الحدود بين الامبراطوريتين الكبيرتين : العثمانية والاسبانية .

3 — من دهاء المولى احمد — وحفاظا على موقفه الجديد هذا — حرص على اطلاع كل من الاتراك والاسبان على ما يبيته كل منهما للآخر .

3 — لقد وجد المنصور فى استعداد الانجليز لتلبية حاجياته من أجل بناء قوات عسكرية فى البر والبحر ولتطوير اقتصاديات البلاد ما جعله يندفع بعيدا فى التعامل معهم الى الحد الذي يمكن معه القول بأن اتصالاته المتزايدة مع الانجليز قد عادت على المغرب بأعظم الفوائد سياسيا وعسكريا واقتصاديا وجعلت المولى أحمد ينحاز تدريجيا الى المعسكر البروتستانتى الذي تتزعمه انجلترا للوقوف فى وجه الهيمنة الاسبانية على أوربا الغربية وشمالى المحيط الاطلسى .

وهكذا استغل المنصور الظروف الخارجية المساعدة :

وانسد على الاتراك العثمانيين محاولات التدخل عسكريا فى المغرب .

وحال دون اغتنام الاسبان لفرص تقاربه معهم للحصول على مكاسب جديدة كما استفاد من تعامله مع الانجليز فى بناء قواته المسلحة وتجهيزها باحدث وسائل القتال ، الامر الذي ساعده على توطيد دعائم حكمه فى الداخل وبالتالى فى الحفاظ على استقلال المغرب اتجاه الاطماع الخارجية .؟

الفصل الحادي عشر

المنصور والنزاع الإنجليزي - الأسباني

ان تدخل الملكة (ايليزابيت) لدى المولى احمد المنصور لصالح الامير البرتغالى (دون انطونيو : Don Antonio)قد صادف هوى فى نفس الحاكم المغربى الذي وجد فى مشكلة العرش البرتغالى فرصة لتحقيق الكثير من آماله (ونجا الى ملكة بلاد نكلطيرة ايزبيل فنزل منها خير نزل فآوته وشمرت لنصرته ثم نظر فى امره فراى ان جبر صدعهم وبناء ما تهدم من ملكهم لا يتأتى الا على يد امير المومنين الذي فى ملاكه ضرهم ونفعهم وجبرهم وصدعهم (1) . واذا حاولنا ان نشرح الاهداف التى كان المنصور يرمى اليها من وراء تدخله فى المشكلة البرتغالية واعلان تأييده للامير البرتغالى المطالب بعرش لشبونة ، نجد لاول وهلة ان المنصور كان يحرص على اغتنام هذه الفرصة للاستفادة منهـــا .

1 ــ فى تحرير مراكز الاحتلال الاجنبى بالشواطىء المغربية :

ا ــ بدعوى مساعدة دون انطونيو ، خاصة وان بعض مراكز الاحتلال كانـــت لا تزال تحت السيطرة البرتغالية .

ب ــ عن طريق مساومة الملك الاسبانى فيليب الثانى الذي يهمه الى حد بعيد بقـــاء المنصور على الحياد فى النزاع الاسبانى ــ الانجليزي .

2 ــ تنفيـــذ سياسته التوسعية فى السودان وجنوب غربى افريقية :

---

1) النشتالى : مناهل الصفا ,ص 101

ان تدخل المنصور فى المشكلة البرتغالية فيه الكثير من المعانى : تصريحه العلنى بمعاداة اسبانيا ، وانضمامه الى المعسكر البروتستانتى الذي تتزعمه ايليزابيت ويضم انجلترا وهولندا وفرنسا . والذي كان فى حروب قاسية مع اسبانيا . ثم سعيه الى الضغط على خصمه اللدود الذي طالما ابدى المنصور تخوفاته منه باستغلال ظروف اسبانيا الحرجة . خصوصا وأن الموريسكوس كانوا لا يزالون يكونون قوة داخلية لا يستهان بها .

فما هى العوامل التى دفعت المنصور الى السير قدما فى تنفيذ سياسة الجديدة ؟ سياسة الاعتراف بأحقية دون انطونيو فى عرش لشبونة ، والمجاهرة بمساعدته على استرداد عرشه ؟

من الناحية الداخلية : كان المنصور قد وطد أركان دولته بمجموع البلاد ، فعم الامن والاستقرار ، وازدهرت بالتالى سبل الحياة (فالدولة استفحلت واستطال جناحها واتسع نطاقها وضاقت حواضر ممالكها وثغورها القاصية والدانية بما تراكم فيها من الجند وتوفر فيها من الحامية) (2) .

ومن الناحية الخارجية اهم ما يلاحظ :

التطور الذي طرا على الادارة العثمانية بالجزائر وشمالى افريقية : فهذه البلاد كانت منذ الفتح العثمانى تخضع لحاكم تركى برتبة (بيلرباي : بكلربك : اي أمير الامراء) الذي كان مقره بالجزائر باعتبارها الحدود الغربية للامبراطورية العثمانية ، والذي كان نفوذه المطلق يشمل المنطقة الممتدة بين الجزائر ومصر .

وفى سنة 1587 م توفى العلج على (3) أمير البحر ، فاستدعى السلطان العثمانى حسن فنزيانو (4) (البندقى) من الجزائر الى أصطامبول وولاه أميرا على البحر . اما شمالى فريقية فقد جزئت الى ثلاث ولايات هى : الجزائر ، تونس

---

(2) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 75 .

(3) العلج على أو لوج على : القرطاس (الاقرع) من أسرى نصارى كلابر بصقلية ، تربى فى أحضان القراصنة ووصل أعلى مراكز البحرية عند الاتراك ، ولاه السلطان بكلر بك افريقية ورحل الى الجزائر يوم 8 غشت 1568 ، وقد عرف ببطولته وشدة حروبه فى البر والبحر كما شارك فى معركة ليبانتو الشهيرة سنة 1571 وفى فتح تونس 1574 . عين أخيرا قائدا عاما للاسطول العثمانى .

(4) حسن باشا : حسن البندقى (حسن فنزيانوا) من الاسرى الاطاليين تولى بكلر بك افريقيا فى يونيو 1577 عرف بجده وحزمه ، وقد دعاه السلطان مراد الثالث الى اسطانبول للاحداث الداخلية التى عرفها الشرق الاسلامى سنة 1580 الا أنه أعيد الى الجزائر سنة 1583 وقام بدور هام فى اخماد اضطرابات داخلية بشمالى افريقيا . ومما عرف به أعمال الترصنة الواسعة التى قام بها فى غربى المتوسط ومساعدة الموريسكوس المضطهدين باسبانيا على الانتقال نحو شمالى افريقيا . بعد وفاة العلج على سنة 1587 عين السلطان مراد الثالث حسن باشا أميرا عاما للبحرية العثمانية .

وطرابلس على اساس ان يولى على كل منها وال برتبة باشا لمدة ثلاث سنوات . وهذا التغيير يدل من جهة على ان السلطان العثمانى قد سعى الى تقوية نفوذه بشمالى فريقية عن طريق تجزئتها ، ويدل من جهة اخرى على ان الباب العالــى قد سلم بالوضع القائم بالمغرب ، ولم يعد السلطان كالسابق يسعى الى بسط نفوذه على الجزء الغربى من الشمال الافريقى ، لما ابداه السعديون والمولى احمد المنصور من حرص شديد على استقلالهم مستغلين الظروف الدولية لابعــاد التهديد التركى عن بلادهم .

وكنتيجة لتجزئة الادارة العثمانية بشمالى فريقية ، دخلت هذه الولايات فــى مرحلة جديدة من تاريخها تتميز بانتشار الفوضى والفتن والاضطرابات (5) . اي ان الامر فى مجموعة كان فى صالح المولى احمد المنصور الذي لم يعد منذ اليوم يحسب للخطر العثمانى حسابا كبيرا كالسابق .

فالتخفيف من حدة الضغط التركى على حدود المغرب الشرقية جعل المنصور يغير من موقفه اتجاه فيليب الثانى الذي كانت الظروف تجبره على التقرب منــه فيما مضى لرد العدوان التركى ، اما وقد خفت وطأة هذا الضغط ، فان المنصور قد وجد الفرصة السانحة للانطلاق فى سياسته الخارجية ، وخصوصا فيمــا يتعلق بعلاقاته مع الانجليز الذين طالما عملوا على استمالته للتدخل لصالح الاميــر البرتغالى دون انطونيو ضد فيليب الثانى ملك اسبانيا (ثم نظر فى امره فراى أن جبر صدعهم وبناء ما ت هدممن ملكهم لا يتاتى الا على يد أمير المؤمنين) (6) ، هذا التدخل الذي وجد فيه المنصور فرصة للضغط والتدخل ضد الاسبان ، فتغيرت بذلك سياسة المنصور ، وبدلا من أن يطلب وده كالسابق ارغمه على التفاهم معه على اساس التنازل له عن بعض مراكز الاحتلال الاسبانى بالمغرب ، بحيث لم يكن هذا التنازل ليزيد المنصور الا امعانا فى تأييد القضية البرتغالية سعيا منه فى الحصول على مكاسب اعظــم .

---

(5) خير من يحدثنا عن اضطرابات شمالى افريقيا بعد تجزئتها سفير المنصور الى السلطان مراد الثالث : ابو الحسن على بن محمد التمجروتى الذى دون رحلته من تطوان الى اسطامبول (غشت 1588 — نونبر 1590) فى كتابه : النفحة المسكية فى السفارة التركية . هناك نسخة مخطوطة بــــدار الوثائق بالرباط (د 795) :
فى صفحة 99 يتحدث عن ثورة بطرابلس بليبيا (ورد هذا الباشا بما معه من الجند بسبب قائم قام فى بلاد طرابلس وعاث فيها وافسد اوطانها واضرم فيها نار الحرب واجتمعت عليه العرب وحشدها واستولى سوى المدينة من القرى والبادية والاوطان ... واقام له ملكا فى ديارهم .. وقد كان يزعم انه يقوم بتغيير مناكر الترك وفسقهم وبسط العدل) ثم فى صفحة 70 يذكر , هكذا اهل افريقيا كلهم من الدل والاهانة لموجب ذلك استماعهم لكل ناعق واتباعهم لكل قام رجاء ان يجد الفرج معهم) .

(6) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 101

ازدادت تدخلات الملكة ايليزابيت لصالح دون انطونيو ، وانتهى الامر بارسال وفد برتغالي الى المغرب في شهر ماي 1587 م حيث استقبله المنصور واولاه عناية خاصة وقدم لاعضائه جوائز سنيـــة (7) ، ويبدو أن الامير البرتغالي قد حاول اغراء المنصور للتمادي في مساعدته ، او ان المنصور قد حاول منذ اليوم الاول ان يستغل تقرب دون انطونيو منه للحصول على مكاسب هامة ولا سيما فيما يرجع الى تحرير بعض قواعد الاحتلال الاجنبي بالشواطىء المغربية : فقد حاول حاكم سبتة بايعاز من الملكة ايليزابيـــت والامير دون انطونيو ، تسليم هذه المدينة الـــى المنصـــور (8) ، لولا أن هذه المحاولة قد فشلت .

بعث المنصور سفارة الى لندن لتقدم الى الملكة اليزابيت مقترحاته حول التعاون المغربي ــ الانجليزي والمشكلة البرتغالية ، واعتمادا على وثيقة معاصرة بتاريخ يناير 1588 فان المنصور قد اقترح على اليزابيت أن يساعدها بالرجال والمال والمؤن ، وان يفتح موانئه في وجه سفنها ، وان يقاتل بكل قواه الى جانبها ضد عدوهما المشترك ملك اسبانيا ، ولتأمين نجاح الحملة المشتركة ضد البرتغال ، رسم المنصور لايليزابيت خطة حربية خاصة تنبني على الخديعة بالدرجة الاولى : فهو يرى مجيء قطع من الاسطول الانجليزي الى موانىء المغرب الشمالية ، لايهام فيليب الثاني ولدفعه الى توزيع قواته الدفاعية على شواطىء اسبانيا الجنوبية ، وبذلك تخف مقاومة الاسطول الاسباني في السواحل البرتغالية وتنجح بالتالي حملة غزو البرتغال ويستعيد دون انطونيو عرش لشبونة (9) .

اما فيليب الثاني الذي اصبح متأكدا من انحياز المنصور ضده ، فقد وجـــد في قيام ثورة بجبال غمارة فرصة للضغط على المنصور ولدفعه الى التراجع عـــن مواقفه الجديدة : ونحن وان كنا لا نملك وثائق معاصرة تؤكد بأن لفيليب الثاني يدا في قيام ثـــورة (بن قرقوش) في منتصـــف صفر 996 هـ الموافق ينايـــر 1588 م ، الا أن :

1 ــ قيام الثائر بجبال غمارة (واغترب عن بلده وذهب يتقلب في الارض . . حتى وصل الى جبال غمارة) (10) ، وقرب هذه الجبال من مراكز الاحتلال الاسبانـــي : سبته ، طنجة واصيـــلا .

---

7) م. ص. ت. م المجموعة الاولى ــ فرنسا ــ ج 2 ص 131
8) م. ص. ت. م المجموعة الاولى ــ فرنسا ــ ج 1 ص 489
9) م. ص. ت. م المجموعة الاولى ــ فرنسا ــ ج 1 ص 513
10) الفشتالي : مناهل الصفا . ص. 93 .

2 ـ العدد العظيم من الانصار الذين تبعوه (ثم سرى خبره فى سائر بلاد الهبط وجبالها فانثالت عليه غوغاؤها من كل فج عميق) (11) وقد أصبحت ثورته لذلك خطيرة خاصة بعد أن ادعى أنه من ابناء المولى عبد الله الغالب (فلبس شارة الملك واتخذ الالة وتسمى فى كتبه بأمير المومنين فاضطرمت به سائر بلاد الهبط نارا وفتنـــة) (12) .

3 ـ عدد القوات المحاربة التى ارسلها المنصور ضد الثائر وما كانت تحمل من أسلحة نارية فتاكة (وكانت زهاء ستة آلاف بين الاسل والنار) (13) .

4 ـ محاولة ابن قرقوش بعد انهزامه أمام قوات المنصور ، الفرار نحو احدى المراكز الاسبانية القريبة (طالبا منجاته الى بعض ثغور المشركين بسيف البحـــــــر) (14) .

5 ـ بعد القضاء على ثورة ابن قرقوش ، شنت القوات المحاربة حملات متواصلة ضد قبائل جبال غمارة وكل جبال الريف ، اي أن المنصور قد وطد دعائم سلطانه على كل الشمال المغربى حيث توجد قواعد الاحتلال الاسبانـــى (ثم جاست العساكر خلال ديار سائر قبائل الهبط . . حتى استوعبتها . . فنصلوا الى بلاد الريف وقد دوخوا سائر الجبال تدويخـــا) (15) .

كل ذلك لا يترك مجالا للشك فى أن ابن قرقوش قد وجد من الاسبان كل عون وتأييد والا من أينله الاموال والوسائل التى تمكن بها من جمع العدد العظيم من الانصار وتسليحهم بل وادعاؤه الخلافة ايضا ؟ والوقوف ضد المنصور وهو ما عليه يومئذ من قوة وحزم فهل كان الاسبان يرمون الى احتلال ما عجزوا عنه بالمفاوضة مـــع المنصــــــور ؟

وتأييدا لما ذهبنا اليه ، نشير الى ان المنصور ولما يقض على ثورة ابـــن قرقوش بعد ، بعث الى الملكة الانجليزية اليزابيت ودون انطونيو بتاريخ 28 ابريل 1588 م يعرب لهما عن حرصه الاكيد واستعداده التام لمساعدة دون انطونيو الى ان يسترد عرشه مما يدل على أن المنصور لم يشك قط فى مساعدة الاسبان لثورة ابن قرقوش وان ذلك مما زاد من تدخله فى القضية البرتغالية ودفعه الى العمـــل

---

11) الفشتالى : مناهل الصفا ،ص 93 .
12) المصدر السابــــــق
13) المصدر السابق ، ص 94
14) المصدر السابـــــق .

ضد اسبانيا وفيليب الثانى ومما جاء فى رسالة المنصور الى دون انطونيو (هذا وان كتبكم الاثيرة ورسائلكم هذه الاخيرة قد اتصلت بحضرتنا الشريفة . . على يد رسولكم المقيم من قبل هذا فى حريم دارنا والمستقر منذ اعوام فى جوارنا . . فكل ما يبت لديكم عنا وينهيه من الخبر اليكم من لدنا فثقوا به ان شاء الله وشدوا عليه يدكم وعمروا به فؤادكم) (16) .

على أن التطورات التى عرفتها اوربا الغربية ، جعلت المنصور يتريث فى مواقفه من المشكلة البرتغالية ، خاصة وان فيليب الثانى ملك اسبانيا كان قد اخذ فى التهيىء للقيام بحملة بحرية عظيمة لغزو بريطانيا التى كانت فى نظره السبب الرئيسى فى معظم الاحداث التى عرفتها أوربة الغربية ، وتلك هى حملة الارمادا Armada التى ترجع فى واقعها الى عوامل دينية وسياسية واقتصادية : ففيليب الثانى أعظم ملوك أوروبا الكاثوليك كان قد دخل فى صراع حاد مع ايليزابيت ملكة انكلترا وزعيمة المعسكر البروتستانتى ، واشتبكت قواتها فى مناطق مختلفة من اوروبا الغربية ، كما أن البحرية الانجليزية كانت تلحق الاضرار الفادحة بالبحرية الاسبانية عن طريق القرصنة والمنافسة .

انتهت حملة الارماد بالفشل (30 يوليوز — 10 غشت 1588) وعجلت الملكة ايليزابت بارسال كتاب تزف فيه البشرى الى المنصور ولما تمض غير خمسة أيام على انتهائها ، ومما جاء فى رسالتها : شكرها الخالص لما يعرب عنه المنصور من استعداد لمساعدة دون انطونيو ، ثم تخبره بأن الامير دون كريستوف بن دون انطونيو سيبقى رهينة عنده فى المغرب مقابل المساعدة المادية والقرض المالى الذي سيقدمه لدون انطونيو والمقدر بمائة الف دوكة (17) .

اما المنصور فقد سر للبشرى كثيرا ، وكتب بدوره الى ولاته يطلعهم على الامر ، مما يؤكد انشراح المنصور لزوال الخطر الاسبانى الذي كان يهدد المغرب ، ويبرز اهتمامه بكل التطورات الجارية بأوربة الغربية ، وقد تضمنت رسالة المنصور الى ولاته معلومات قيمة قل أن نجد لها مثيلا فى الوثائق التاريخية المعاصرة عن معركة الارمادا وانهزام الاسطول الاسبانى العتيد (18) .

---

15) المصدر السابق .
16) رسالة من المنصور الى (دون انطونيو) البرتغالى م. ص. ت. م انجلترا ، ج 1 ، ص 492
17) م. ص. ت. م المجموعة الاولى — فرنسا ج 2 — ص 151
18) يوجد نص الرسالة فى (رسائل سعدية ص 150) وقد بعثها المنصور الى سوس وهو فى طريقه من مراكش الى فاس عام 1588 م

اثرت نتائج الارمادا على الاحداث التى عرفتها أوربا والمغرب بوجه خاص : فعلاوة على الثورات التى ازدادت ضد الاسبان بأوربا لفقدهم بعض المكانة التى كانت لهم كأعظم دولة فى العالم ، اخذ خصومهم الذين كانوا يقفون منهم على حذر لسطوتهم ، يصارحونهم العداء ويحاولون استغلال هذه الفرصة لرفع نيرهم وابعاد خطرهم او للانتقام منهم . واذا كان هذا القول يصح بالنسبة لمجموع دول أوربا الغربية البروتستانية والسلطان العثمانى ، فانه ينطبق بصفة خاصة على المولى احمد المنصور الذي طالما انتظر سنوح فرصة ثمينة لتحرير مراكز الاحتلال الاجنبى بالمغرب ، ولنصرة المسلمين بالاندلس (الموريسكوس) (19) (وهو الآن ايده الله لهذا العهد من عام (97) سبعة وتسعين (20 نوفنبر 1588 — 9 نوفنبر 1589) واقف على قدم الاهبة والاستعداد . . الى التفرغ لما صرف اليــه ايده الله عزمه وجعله قصده وهمه من جهاد المشتركين واغزاء اراضهم . . بعساكره الامامية وموالاة البعوث الى اقطارهم حتى ينجز الله وعده الكريم فى اعلاء كلمة الحــق (20)

دخل المنصور فى مفاوضات سرية مع الانجليز حول تنظيم تعاون عسكري ضد الاسبان او بعبارة اخرى ، لقد استجاب المنصور للتدخلات الانجليزية ولرسائــل ايليزابيت وبعثاتها الدبلوماسية حول مساعدة الامير البرتغالى دون انطونيو ضد خصمه فيليب الثانى ، خصوصا وان عداوة فيليب الثانى قد جمعت بينهما ، ولان الظروف كانت جد مساعدة اثر انهزام الاسبان فى الارمادا وما أحدث ذلك من صدى وتأثير داخل اسبانيا وفى مستعمراتها ومناطق نفوذها .

والسياسة التى سلكها المنصور ظهرت فى المجالين العسكري والدبلوماسى ، بل وسارا جنبا الى جنب : فقد جرب المنصور استعمال القوة وبالاخص ضد مناطق الاحتلال بالمغرب ، اذ امر أحمد النقسيس حاكم تطوان بالهجوم المسلح على سبتة ، وتم ذلك يوم 11 ديسمبر 1588 (22 محرم 1997) حيث فاجأت القوات المغربيــة ضواحى هذه المدينة التى كان معظم أهاليها الاسبان قد خرجوا للنزهة بها ، فقتلوا واسروا عددا عظيما منهم (وكادوا أن يستولوا على سبتة بما اتيح لهم من الظهور باستئصال عامة أهلها وانتهاز الفرصة فى حاميتها) (21) وعندما علم المنصور الخبر (اهتزله سرورا من أعواده) (22) ، مما لا يترك مجالا للشك فى ان المنصور

---

19) قام الموريشكوش (الغرباء) بثورة فى ربيع 1588 باراغون ، فهل كان للمنصور يد فى ذلك .
20) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 81 .
21) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 96 .
22) المصــدر الســابــق

هو المدبر لهذا الهجوم الذي كان القصد منه اغتنام وضعية الاسبان الحرجة عقب الانهزام فى الارمادا لتحرير مراكز احتلالهم فى المغرب ، وللضغط على فيليب الثانى واشعاره بمدى قوته وحزمــه وليظهر لحلفائه الانكليز الدور الهام الستراتيجـــى والعسكري الذي يمكنه القيام به فى حرب مقبلة ضد اسبانيا .

واما الناحية الدبلوماسية ، فلاهمية الامر ، أرسل المنصور سفارة برئاسة مرزوق السيد ، وصلت الى لندن يوم 12 يناير 1589 لتقدم الى ايليزابيت وحكومتها مطالب المنصور واقتراحاته ، وقد جاء فيها : تزويده بالسلاح والذخائر وآلات الحرب وكل ما يلزمه لبناء الاسطول ، والسماح له باستخدام المهرة الانجليز فى صناعــة السفن ثم الاستعانة بالبحارة الانكليز والسفن الانكليزية حالة كونه فى حــروب ضد أمير غير مسيحـــى .

أما اهم اقتراحاته فهى : عقد حلف انجليزي ــ مغربى ضد فيليب الثانى ملك اسبانيا واعرب السفير المغربى عن استعداد المنصور لتقديم القروض اللازمــة لتجهيز الحملات العسكرية التى ينوي دو انطونيو القيام بها لاستعادة عرشـه ، بل واكد لايليزابيت عزم المولى احمد على التوجه على راس القوات المغربية الـــى اسبانيا متى وصلت اليها القوات الانجليزية (23) .

والذي يلفت النظر فى هذه الاقتراحات هو حرص المنصور الاكيد على بنـــاء قوى بحرية عظيمة وخلق اسطول مغربى مسلح ، للدور الهام الذي يقوم فـــى الميدان العسكري دفاعا وهجوما ، ولاهميته الاقتصادية والسياسية أيضا (وهو بصدد الاكثار من الاساطيل رغبة فى الجهاد والاستظهار على عدو الدين . . ولفتح الاندلـــس . . والاقطـــار البعـــاد) (24) .

والمنصور وان لم يتوصل الى عقد اتفاق مع الانجليز ، فانه سعى مبدئيا الـــى نقل دون كريستوف الى المغرب ، شعوراً منه بالدور العظيم الـــذي سيلعبه فى المجال الخارجى متى كان الامير البرتغالى بين يديه وفى بلاطه ، وقبل ان يصـــل دون كريستوف الى المغرب عمل المنصور على تحصين الموانىء وخاصة العرائش والمعمورة وعلى بناء السفن وتهييء القوات المسلحة (25) . وقد غادر كريستوف لندن يوم 23 ديسنبر 1588 .

---

23) البحر المتوسط (فيرناندو بروديل) ص 590

24) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 197 .

25) م. ص. ت. م المجموعة الاولى ــ بريطانيا ــ ج 1 ــ ص 476

كما تؤكد رسالة معاصرة ذلك (26) ، الا أننا نجهل كيف خرج والطريق التى سلكها من لندن الى المغرب للسرية التامة التى احيطت بها رحلة الامير البرتغالى ، واذا رجعنا الى الوثائق التاريخية نجد بأن المنصور قد بعث مع السفير الانجليزي فى المغرب سفيرا من لدنه الى ايليزابيث حيث خرج السفيران من اسفى يوم 2 نونبر 1588 ووصلا لندن يوم 12 يناير 1589 وان السفير المغربى قد عاد مصحوبا برسول من انطونيو وبعض الجنرالات الانجليز (27) ، ولا يستبعد أن يكـــون ذلـــك الرسول هو كريستوف للاهمية التى اعطيت لهذه السفارة ، حيث جعل من بين اعضائها عدد من كبار الضباط الانجليز . واعتمادا على ما اثبته الفشتالى وزيـــر المنصور فان دون كريستوف قد وصل الى اسفى اوائل ربيع الاول 997 هـ الموافق اوائل يبراير 1589 (واوفـــد عليه ابنه من بلاد لنكلطير صريخا وضارعا فنـــزل باسفي قاعدة البحر وبلغ الى أمير المومنين على مكناسة من طريقه لفاس خبر وصوله غرة ربيع النبوي ، فسرح الى ابنه المولى الامير ابى فارس بالحضرة يأمره بارسال كبير الموالى المعلوجى ببابه القائد محمود لصحابته فوصل به وأنزل بسهريج المنارة من بساتين الخلافة بساحة الحضرة واقيم له هنالك من رسوم الكرامة ما يليق بعظماء القوم امثاله) (28) .

هل كان المنصور جادا فى انجاز وعوده اتجاه الانجليز ودون انطونيو ؟ وهل كان صادقا فى عزمه على قرض الامير البرتغالى مبلغ مائة الف دوكة لتهيىء الحملة العسكرية ضد البرتغال لاسترجاع عرش لشبونة ؟

ان الاحداث التاريخية تثبت لنا بأن المنصور قد ظل حذرا يقظا ، ولم يندفع خطوات واسعة فى تأييد انطونيو والانجليز ضد فيليب الثانى ، ولعلنا نجد لذلـــك اكثر من سبب واحـــد :

فرغم وصول الامير دون كريستوف الى المغرب ، ورغم تعهد المنصور بتقديم القروض والمشاركة فى الحملات العسكرية ضد البرتغال ، فانه لم يف بذلك عندما هاجمت القوات البريطانية الشواطىء البرتغالية بقيادة الضابطين (Drake) - Norris حيث خربت Peniche - Corogne وانطلقت للهجوم علـــى لشبونة ، فانهزمت أمام القوات الاسبانية جون 1589 (29) ، الامر الذي جعـــل

---

(26) المصـــدر السابـــق .
(27) المصدر السابق ص 482 .
(28) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 101 .
(29) م. ص. ت. م — المجموعة الاولى — بريطانيا — ج 1 — ص 527

الانجليز يلومون المنصور على عدم تقديمه المساعدات المتفق عليها ويحملونــــه مسؤولية انهزامهم فى حملتهم ضد البرتغال (30) .

والدافع الذي جعل المنصور لا يقوم بتنفيذ ما وعد به من مساعدة ماليــة وعسكرية هو ان فيليب الثانى ملك اسبانيا ، قد دخل مع المنصور فى مفاوضات سرية ، مبديا استعداده للتنازل عن بعض مناطق الاحتلال الاسبانى بالمغرب ، بعد ان كان الملك الاسبانى يطالب بالمزيد من هذه القواعد كالعرائش مثلا . وفعلا فقد تم التفاهم بين الطرفين وجلت القوات الاسبانية عن مدينة اصيلا يوم 13 سبتنبر 1589 م (31) اي بعد ان تأكد فيليب الثانى من ان المنصور لم يشارك فى الحملة الانجليزية السابقة ضد البرتغال وبأنه لن ينضم الى خصوم اسبانيا فى المستقبل .

على ان المولى احمد قد كتب الى قائدي الحملة الانكليزية من مراكش بتاريخ 10 سبتنبر 1589 مجيبا عن الرسالة التى كانا قد بعثاها اليه لاستفساره عـــن عدم تدخله عسكريا ومديد المساعدة للحملة الانجليزية ، وقد برر المنصور فـــى جوابه عدم تقديمه المساعدة : كونه لم يكن على علم بموعد الحملة ، لان السفير المغربى مرزوق السيد قد غادر المغرب الى لندن فى مطلع سنة 1589 (هـــذا وكتابكم قد اتصل بمقامنا العلى صحبة رسولكم المكرم . . وتلقينا منه ما ذكرتموه عـــن استطلاعكم الى الاشياء التى وعدكم رسولنا ان تأتيكم من مقامنا العلى والمـــال للسلطان دون انطونيو والطعام والبارود لعمارتكم ، اعلموا ان رسولنا هذا الذي ذكرتم كان انفصاله عن حضرتنا العلية تجاهكم من قبل ان تتحرك عمارتكم او نسمع لها خبرا اصلا . وبعد بلوغه بلادكم تعينت حركتكم وسفر عمارتكم وكيف اذ اتفترون بهذا القول ويصح لديكم اننا نعدكم بشىء ولم يتقدم لنا به علم ولا حصل لنا به خبـــر) (32) . فهل كان المنصور صادقا فى تعليله هذا ؟ وهل لم يسمع قط بخبر الحملة الانجليزية ضد البرتغال ؟ ان الوقائع يؤكد عكس ذلك : لقد تراجع المنصور عن وعوده بالمشاركة فى الحملة ضد الاسبان ، والقى مسؤولية عدم المشاركة على السفير مرزوق السيد ، مع ان سر تراجعه يكمن فى مفاوضاته السرية مع فيليـــب الثانى الذي عجل بالتخلى عن مدينة اصيلا يوم 13 ستنبر 1589 م ، اي بعـــد ثلاثة ايام فقط من توجيه المنصور لهذه الرسالة الى القائدين الانجليزيين .

---

30) م. ص. ت. م المجموعة الاولى — بريطانيا — ج 2 ص 34
31) فصـــل الفشتالى القول فى جلاء الاسبان عن اصيلا . مناهل الصفا . ص 114
32) يوجد نص رسالة المنصور الى الضابطين الانجليزيين — فى مجلة تطوان عدد 9 ، ص 76

ورغم ذلك فان المنصور لم يتوان عن تقديم الوعود لمساعدة دون انطونيو والانجليز فى المستقبل (غير انه اذا كان قد وعدكم بشىء من ذلك للمستقبل فلا شك فى ان هذه الامور التى ذكرتم والاشياء التى طلبتم هى كلها بحول الله اسهل علينا وايسر مطلوب لدينا وليس فيها بحول الله ما يشق علينا او يصعب امره علـــى متامنا لما بيننا وبينكم من المحبـــة) (33) .

ان مواقف المنصور واستغلاله للنزاع الاسبانى ــ الانجلزي قد ساعدته على تحرير مدينة أصيلا ، احدى قواعد الاحتلال الاسبانى بسواحل المغرب الشمالية على المحيط الاطلسى ، الم يكن المنصور يهدف من جملة ما يهدف اليه من تأييد دون انطونيو دفع هذا الاخير الى تحريض حاكم سبته على التنازل عنها للمنصور ؟ لقد ادرك فيليب الثانى هذا الجانب فى سياسة المنصور ، فلم يكتف بالسكوت عن المطالبة بالعرائش ، بل تنازل للمنصور عن اصيلا ، وهل كان المولى احمد يطمح الى أكثر من استعادة مدينة هامة وقاعدة رئيسية من قواعد الاحتلال الاجنبى بالمغرب دون خوض معارك حربية واراقة دماء ؟ من هذا يتجلى لنا جانب هام من جوانب السياسة التى كان المنصور ينهجها : سياسة الحذر واستغلال الظروف لتحقيق المزيد مـــن الانتصارات ولا سيما التى تعود بالفوائد العظيمة ودون تكاليف تذكر (فلم يزل أمير المومنين يسدي فى أمرها ويلحـــم . . ويوعد ويعد وبنى ذلك على أساس مـــن المكـــايـــــد) (34) .

ان موقف المنصور اتجاه انطونيو والانجليز ، لم يترك لديهم اي مجال للشك خصوصا بعد الجلاء عن اصيلا ، بأن التفاهم قد حصل بين فيليب الثانى والمنصـــور وان الامر يحتم عليهم وضع تخطيط جديد فى محاربة الاسبان ، والبحث عن حليف آخر غير المنصور الذي اثبتت الايام بأنه غير صادق فى وعوده ، وكانت المطالبة بارجاع دون كريستوف الى لندن اولى بوادر هذه السياسة حيث اشعر المنصور فى شهر اكتوبر 1589 م بضرورة تنفيذ وعوده او ارجاع الامير البرتغالى (35) ، الا ان المنصور الذي القت الظروف بين يديه اميرا برتغاليا لم يكن ليترك الفرصة الثمينة لتفلت من يديه دون أن يستغلها استغلالا كبيرا لصالحه ولصالح بلاده فـــى الداخل والخـــارج :

---

(33) المصـــدر السابـــق .
(34) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 114
(35) م. ص. ت. م المجموعة الاولى ــ بريطانيا ــ ج 1 . . ص 530

فالتجاء أمير برتغالي الى بلاط المنصور بمراكش قد اشعر المنصور بقوته ، واضفى عليه صفة الحاكم القوي العظيم اتجاه خصومه في الداخل ، وزاد من قيمته في الخارج بالنسبة للعالمين والاسلامي والمسيحي على السواء ، وفي ذلك اكبر ضمان للمنصور لكسب شهرة واسعة في الشرق والغرب (ومن البشائر العظيمة . . ما اتفق من ورود ولد طاغية برتغال الذي عبر البحر الى حضرتنا الشريفة . . مؤملا النصرة من سيوفنا المظفرة بالله على سترداد ملكهم الداثر) (36) .

كما أن في ذلك فرصة عظيمة لتحقيق الكثير من آمال المنصور وطموحه ، واكبر هذه الآمال التوسع نحو الجنوب بما يعرف (بالسياسة السودانية) ، هذه البلاد الاسلامية المترامية الاطراف ، المشهورة بغناها ووفرة منتوجاتها والتي كانت بعض سواحلها تخضع بالامس القريب للبرتغاليين الذين ضعفت دولتهم وانقرضت امبراطوريتهم منذ انهزامهم في معركة وادي المخازن .

لقد كان المنصور وهو يعد العدة لفتح السودان مطمئنا الى ان الظروف الدولية لن تسمح لاي من خصميه العنيدين في الشرق والغرب بالتحرك ضده :

فالاسبان كانوا منشغلين برد الهجومات الانجليزية ضد البرتغال واسبانيا (فكان اشدهم تكالبا عليه (اي على فيليب الثاني) واكثرهم جراة على الاجلاب على ممالكه والتضييق عليه والاخذ بمخنقته ايزابيل سلطانة ممالك بلاد نكلطيرا لاغراء مولانا امير المؤمنين اياها بمناواته وشحد عزائها على عداوته ومظاهرتها على مغالبته بما امدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار واطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة التي اعوزتها ببلادها ونصبها ايده الله في وجه عدو الدين وقيض له منها ايده الله بمقتضى عظيم حزمه وواسع تدبيره وشدة احتياطه شاغلا يشغله تفرغا واستجماعا . . واعتزت صاحبة بلاد نكلطيرة بمظاهرته وطاوعته على ما اغراها به وتوكأت على منسات الاسناد الى جانبه والاعتضاد بعظيم سلطانه) (37) . ولم يكن فيلب الثاني يطلب ود المنصور في وقت اكثر مما هو عليه الحال ،للحيلولة دون انضمامه الى الانجليز ومساعدة دون انطونيو . وللحروب القاسية التي كانت تخوضها الجيوش الاسبانية بأوروبا الغربية ثم لتدخل فيليب الثاني المسلح بفرنسا بدعوى تأييد الحزب الكاثوليكي ضد البروتستانت

---

36) رسالة من المنصور الى سوس وهو في الطريق من مراكش الى فاس (رسائل سعدية) ص 160
37) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 193

ا ووافق ذلك ما كان من تحويل جمهورا هل تلك الممالك الى الدين الحادث فى الامم النصرانية المعروف بلاتريان « نسبة الى مارتن لوتر » فكان ذلك اعون على خدلان ملك الافرنج لاطباق رعاياه على الانتقال لهذا الدين . . وليس له مع ذلك وارث ملكه . . فلم يكن اقرب اليه واحق بارثه من ابن عم له سلطان اهل نبارة (مملكة نافار) الوارث لملكهم من طريق الخؤولة وكانوا كلهم على دين لاتريان فطمع لذلك طاغية قشتالة في ملك الافرنج لانقطاع وارثه وتحول دين اهله فاعتمل فى التضريب بين سلطانهم وقومه واغرى بعض اهل باريس قاعدة ملكهم بالفتك به فاستحكمت النفرة بينهم وبين سلطانهم . . فانتقل عن باريس الى روان .. ووصل يده بيد ابن عمه صاحب نبارة ثم عاود باريس منا زلالها فدس اليه اولياء طاغية قشتاله من اهلها بالغدر على يد قسيس فطعنه . . فصار بسبب ذلك لصاحب قشتالة من مملكة افرانصة برطانية ويرجوم والبعض من نبارة وصارت باريس بعد خروج صاحب افرنصة عنها ليجيه ومعناه جماعة تدير الامر وصاحب قشتالة معهم فى تلك الليجة كاحد تلك الجماعة وكان يمدهم بجيشه الذي بافلانضس « لفلاندر » (38) . وهكذا دخلت فرنسا فى حرب اهلية دامية واحتدم الصراع المسلح بين البروتستانت والكاثوليك ، وبالتالى بين انجلترا واسبانيا فازدادت مشاغل فيليب الثانى وازداد تمسكه بمسالمة المولى احمد المنصور .

واما الاتراك العثمانيون فعلى اثر الانتصارات العسكرية والدبلوماسية التى حققوها فى ايران عقب تولية الشاه عباس الثانى فى يونيه 1587 الذي اضطر امام خطر الاوزبك فى خراسان ، الى التفاوض مع السلطان العثمانى والاعتراف بجميع الفتوحات التركية بايران اي فى جورجيا وشيرفان ولورستان وشيرزول وتبريزواذ ربيجان . . (39) توجهوا نحو اوربة الشرقية واخذوا منذ سنة 1589 يهيئون القوات والعتاد برا وبحرا لمهاجمتها ، يشجعهم عل ىذلك تصدع الجبهة المسيحية بأوربا الشرقية ، والحروب القائمة بينها ، وانهزام الاسبان فى الارمادا وتوالى الحروب الدينية بأوربا الغربية .

وبالرجوع الى الوثائق المعاصرة نجد بأن العلاقات المغربية — التركية قد عرفت تحسنا فى هذه الفترة ، ومن مظاهر ذلك استقبال المنصور بفاس خلال ربيع الاول 997 هـ / يناير 1589 (كانت الارسال الوافدة من جهة بنى عثمان بالقسطنطينية

---

(38) المصدر السابق .
(39) البحر المتوسط : (البروديل) ص 1012

مقيمة بفاس لانتظار بلوغ امير المؤمنين اليها) (40) وقد جاء الوفد التركى (خاطبا لسلمنا وراغبا فى عقد الصلح والمهادنة معنا) (41) . ولم يخف المنصور الدواعى التى قاربت بينه وبين الاتراك (ولعل فى ذلك اجتماع كلمة الاسلام ان شاء الله بهذا الصلح الذي آن ان ينعقد بين الدولتين ويبرم حكمه بين المملكتين عونا على صرف العناية بحول الله لمجاهدة عدو الدين) (42) اي استغلال انهزام الاسبان فى الارمادا للتدخل ضدهم ، ثم للتوسع فى السودان (حتى ينجز الله لهذا الامر العزيز وعده فى الاستيلاء على الاقطار ان شاء الله دانيها وقاصيها) (43)

وبالمقابل ، فقد بعث المنصور سفارة الى مراد الثالث مع على التمجروي ومحمد الفشتالى (فتوجهنا . . سفيرين بهديته المباركة مع الرسل ووردنا على الابواب العثمانية بالقسطنطينية قاعدة الملك بأقصى بلاد الروم وهى المعروفة عند المغرب بصطنبل) (44) ، وذلك فى شوال 997 / غشت 1589 حيث استقبل السلطان العثمانى السفارة بكل حفاوة (ولما حان وقت السفر وتيسر اذن لنا فى الدخول على السلطان للوداع . . وناولنا اجوبة كتب الخليفة السلطان مولاي احمد وهدية عظيمة مكافأة وبعثوا معنا رسولين منهم) (45) . لقد هيأ الاستقرار الداخلى بالمغرب فرص التطور والازدهار الاقتصادي والاجتماعى ، وامكن المنصور من استغلال الظروف الخارجية المضطربة للتاثير فى مقدرات حفظ التوازن الدولى وتمهيد الجو المساعد علي التوسع الخارجى بالسودان وغربى فريقية ، مما جعل لهذه الفترة من تاريخ المغرب الحديث طابعا مميزا خاصا ان لم نقل بأنها الفترة التى كانت تمثل الاوج بالنسبة لعهد المولى أحمد المنصور .

وأبرز ما اتصفت به سياسة المنصور الخارجية خلال هذه الفترة : الدهاء والحنكة والحزم ، الامر الذي يفسر لنا وجود اميرين فى بلاط المنصور بمراكش كلاجئين سياسيين أحدهما من أوربا الغربية هو دون كريستوف بن دون انطونيو المطالب بالعرش البرتغالى والآخر من السودان هو على بن داود المنافس الخطير لاخيه اسكيا اسحق بكاغو وكلاهما يلحان على مساعدة المنصور وعونه المادي والمعنوي لاسترجاع حقوقهما فى عرشى البرتغال والسودان .

---

40) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 99
41) رسالة المنصور الى سوس — رسائل سعدية — ص 160 .
42) المصـــدر السابـــق
43) المصـــدر الســـابـــق
44) التامجروتى : النفحة المسكية . ص 12
45) المصدر السابق ، ص 68 .

فهل كان المنصور جادا فى بذل المساعدة التى كان يعدبها كلا من الاميرين البرتغالى والسودانى ؟ أم انه استغل وجودهما فى بلاطة وبين يديه للمساومة وتحقيق ما كان يصبو اليه من توسيع خارجى فى السودان منذ أمد بعيد ؟

ان المنصور وهوياوي فى بلاطه الاميرين اللاجئين لم يكن يرى فيهما اكثر من وسيلتين هامتين لخدمة مصالحه الخاصة اولا ومصالح بلاده ثانيا ، كما انه لم يخرج فى نفس الوقت عن السياسة التقليدية التى سار عليها كل من خصميه ومنافسيه السلطان العثمانى مراد الثالث وفيليب الثانى اتجاهه بوجه خاص والمهم فى الامر هو براعته واتقانه لهذه الادوار المتناقضة ونجاحه اخيرا فى فتح السودان وتأسيس امبراطورية عظيمة بغربى افريقية .

فبالنسبة لعلاقاته مع الدولتين الاوربيتين : اسبانيا وانكلترا ، نذكر بأن تراجع المنصور عن نجدة دون انطونيو كان له اثر كبير فى تطور الاوضاع بأوربا الغربية : فقد كان الانجليز يعتدون اكبر الآمال على هذه المساعدة لمهاجمة الاسبان وغزو بلاد البرتغال بصفة خاصة غداة انهزام الاسطول الاسبانى فى الارماد ، وبديهى ان حل المشكلة البرتغالية من شأنه أن يساعد الى حد بعيد على وضع حد للحروب الدامية القائمة بالاراضى المنخفضه وفرنسا وعلى العكس من ذلك فان نجاح فيليب الثانى فى استمالة المنصور ودفعه الى الوقوف على الحياد فى النزاع المسلح مع الانجليز بالتنازل له عن مدينة اصيلا ، قد ضيع على الانجليز وكل خصوم اسبانيا من المعسكر البروتستانتى فرصة ثمينة ، مما خفف من وطأة الانهزام فى الارمادا ومكن الاسبان من الحاق هزيمة كبرى بالانجليز عند هجومهم على لشبونة ، ولما تمض غير سنة واحدة على الارمادا حيث اعتبرت مدريد ذلك كانتقام لانهزامهم السابق امام الانجليز ، كما شجع فيليب الثاني على مواصلة حروبه فى الاراضى المنخفضة وعلى التمادي فى تدخلاته العسكرية بفرنسا ضد هنري الرابع البروتستانتى ، بدعوى أحقية ابنته فى العرش الفرنسى وان كان فى الواقع يرمى الى ضم العرش الفرنسى كما سبق له العمل فى البرتغال قبل عشر سنوات .

فالاسبان قد استفادوا كثيرا من مواقف المنصور الحيادية ، وهل كان فى مقدور المنصور أن يتمادى بعيدا فى تأييد دون انطونيو وفى مجاراة الانجليز فى مشروعهم الرامى الى غزو البرتغال والتدخل ضد الاسبان ؟

لقد كان المنصور يدرك جيدا أن بوسع الاسبان اثارة العديد من الاضطرابات ضده بالمغرب ، فبالاضافة الى قواعد الاحتلال الاسبانى بالسواحل المغربية كان

فيليب الثانى يأوي أميرين سعديين من أشد المنافسين للمنصور هما : الناصر بن عبد الله الغالب ، والشيخ بن محمد المتوكل وقد كانا بلشبونة ثم نقلهما فيليب الثانى الى (Carmona) قرب اشبيلية فى شهر ماي 1589 م ، محاطين بكل مظاهر العناية والتقدير ، مما اكد للمنصور نوايا الملك الاسبانى الحقيقية والاهداف البعيدة التى كان يسعى اليها بايوائه الاميرين السعديين وتأييدهما ، وجعله بالتالى يقف من دون كريستوف موقفا صوريا لا يتعدى *التأييد الظاهري المعنوي* .

وبالاضافة الى ذلك فان المنصور لم يغفل يوما عن الدور الهام الذي يلعبه الاسبان فى رد الخطر التركى عن المغرب ، كما أن الاسبان بدورهم كانوا يقدرون دوما أهمية المغرب الستراتيجية والعسكرية فى الوقوف أمام الزحف التركى وللدفاع عن ايبريا وأوربا الغربية المسيحية ، الى حد أن الخوف من التهديد التركى قد قارب بين حكام مدريد ومراكش وجعل لسياستهما الخارجية طابعا تقليديا خاصا ، ودوره الاقتصادي لاشرافه على ملتقى التجارة البحرية بين الغرب والشرق علاوة على القواعد الاسبانية المنبتة بسواحل المغرب الشمالية والغربية .

اما بالنسبة للانجليز فالمنصور ظل يؤكد للملكة اليزابيت محافظته على الروابط الودية القائمة بينهما واستعداده التام للتدخل لصالح الامير دون أنطونيو (واعتزت صاحبة بلاد انجلتيرا بمظاهرته وطاوعته على ما اغراها به وتوكأت على منساة الاسناد الى عالى جنابه والاعتضاد بعظيم سلطانه) (47) ، وحسب المذكرة التى بعثها مبعوث دون انطونيو فى المغرب Jhon de Cardonas بتاريخ 18 أكتوبر 1589 فان المنصور لم يخف عنه استعداده التام لتقديم القروض لدون انطونيو ، الا انه اشترط اطلاعه مسبقا على موعد الحملة المزمع القيام بها ضد الاسبان (48) . الامر الذي يصعب تنفيذه من جهة ، ويؤكد من جهة اخرى مراوغة المنصور وعدم صدق نواياه ، وما كان للانجليز ، وقد خبروا المنصور من قبل أن يثقوا به من جديد ويركنوا الى وعوده والتزاماته ، وان يطلعوه على اسراهم وحقائق نواياهم ؛ فلا شىء يضمن لهم عدم تسرب هذه الاسرار الى فيليب الثانى الذي كان لهم بالمرصاد .

ان بوادر الشك وعدم الاطمئنان قد بدت فى عدد من التقارير التى أرسلت من المغرب الى انجلترا وفى بعض الرسائل التى تبودلت بين الانجليز : فالاتصال

---

47) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 193

48) م. ص ت. م — المجموعة الاولى — بريطانيا — ج 1 ص 530 .

المباشر والقوي الذي حصل بين المغاربة والانجليز فى الميادين الاقتصادية والتجارية ثم السياسية ، قد مكن المبعوثين الانجليز المستقرين فى المغرب من الاطلاع عن كثب على كثير من الاوضاع الحقيقية للمنصور سواء فيما يرجع لعلاقاته مع الاتراك أو مع الملك الاسبانى فليب الثانى ، وجعلهم يدركون بعض نواياه الحقيقية ، انما الجدير بالملاحظة هو أن بعض هؤلاء المبعوثين قد بالغوا فى تشويه سمعة المنصور مدفوعين بعوامل كثيرة : اما للفشل الذي منوا به فى ماموريتهم لدى المنصور أو لعدم الاخلاص فيما ائتمنوا عليه ، لان التقلبات وعدم الوفاء والاخلاص كانت من سيم ذلك العصر المضطـــرب .

ولاجل ذلك دخلت العلاقات المغربية ــ الانجليزية فى حالة من التوتر :

1 ــ لما ابدته اليزابيت من حرص والحاح شديدين على المنصور فى أن يقـوم بالتزامات القروض المالية والمساعدات العسكرية لدون انطونيو .

2 ــ التعجيل باعادة دون كريستوف والسماح له بمغادرة المغرب الى انجلترا حالة تراجعه عن وعوده السابقـــة .

3 ــ مطالبة المنصور بتحسين أوضاع التجار الانجليز فى المغـــرب .

4 ــ تهديد المنصور بعرض الحال على السلطان مراد الثالث .

اكد المنصور للسفير الانجليزي Edward Prynne عند استقباله بمراكش خلال افريل 1590 (49) عزمه على مساعدة دون أنطونيو عند تدخل الانجليـــز عسكريا ثم وجه الى اليزابيت سفارة خاصة ومعها كتاب بتاريخ 19 شعبان عام 998 هـ الموافق 23 يونيو 1590 اهم ما جاء فيه محاولة المنصور تبرير تماطله ، وذلك بسبب انشغاله بفتح السودان (هذا وانه اتصل بمقامنا العلى كتابكم الواصل صحبة رسولكم المكرم . . نحيطكم اننا كنا لا شك واعدنا رسول السلطان دون انطونيو الذي هنا بحضرتنا الشريفة بأنكم اذا مددتموه أنتم لهذا العام بما يطلب منكم من العساكر والاجناد وقمتم بنصرته لذلك على ساق الجد والاجتهاد نبعث اتجاهكم رسولا من قبل مقامنا العالى ووافى رسولكم الواصل فى حال الاهبـــة والاحتفال بهذه الحركة السعيدة التى اخذنا فى تجهيزها ان شاء الله الى جهـــة السودان وهى على قدم السفر بحول الله فى هذه الايام . . وبسببه قبضنا رسولكم

---

(49) م. ص. ت. م بريطانيا ــ ج 2 ــ ص 18

. . على وجه العز والكرامة بينما نفرغ ان شاء الله من تجهيز هذه الحركة السعيدة عن قريب وتنصرف بسلامة الى قصدها وسبيلها فنلتفت اليه حينئذ ان شاء الله فى اغراضكم واغراض السلطان دون أنطونيو ولكن بودنا أن تكتبوا لنا وتعرفون بما عندكم عن هذا الامر واي وقت عزمتم عليه لنكون على بصيرة فأنا واياكم فى هذا الامر واحـد) (50) .

وسيتخذ المنصور من موضوع فتح السودان وانشغاله به سبيلا للمماطلة والتحايل لعدم تقديم اية مساعدة الى دون انطونيو ضد الاسبان .

لقد تأكد الانجليز بأن المنصور غير صادق فيما يدعيه من حرص على انجاز وعوده لدون انطونيو ، وانه انما يسعى الى هدفين اثنين :

أ ــ التظاهر بمصادقة كل من لندن ومدريد فى آن واحد : وذلك من خلال ما يؤكده للسفراء الانجليز وفى مراسلاته للملكة اليزابيت من رغبة صادقة وحرص اكيد على التعاون العسكري لصالح القضية البرتغالية والامير دون انطونيو ولما يقوم به من جهة اخرى من اتصالات مستمرة مع فيليب الثانى تتم جميعها عن جـو الصداقة القائمة بينهما فى الوقت الذي كان يسعى الى دفع الانجليز للدخول فى حروب ضد الاسبان دون ان يشترك فيها ، ليشغلهما ببعضهما البعض وليضعف من شوكة الاسبان وفيليب الثانى بوجه خاص أي العمل على توسيع رقعة الخلاف الاسبانى ــ الانجليزي والحيلولة دون حصول اي تفاهم او تقارب بينهما (51) ، لان ذلك ليس فى صالح المنصور ومن شأنه ان يحول بينه وبين التوسع بالسودان بل ويعرض المنصور للخطر الاسبانى وتهديد فيليب الثانى بوجه خاص (وقيض له منها ايده الله بمقتضى حزمه وواسع تدبيره . . شاغلا يشغله تفرغا واستجماعا الى ما كان أيده الله صرف اليـه . . من تجهيز العساكر الى بلاد السودان (52) .

ب ــ الدخول مع فيليب الثانى فى مفاوضات سرية لتبادل الخارجين عليهما ومساومته على الاميرين السعديين اللاجئين باسبانيا الناصر والشيخ بالاميـر البرتغالى الموجود بمراكش دون كريستوف (53) .

ومما زاد فى شكوك الانجليز اتجاه المنصور ما تعرض له بعض التجار الانجليز فى المغرب من معاملة سيئة ، خاصة وان الكثير من التقارير التى وصلت الى لندن

---

50) رسالة المنصور الى ايليزابيت ــ مجلة تطوان عدد (3 ــ 4) . ص 55
51) م. ص. ت. م ــ بريطانيا ــ ج 2 ص 36
52) الفشتالى : مناهل الصفا ــ ص 193 .
53) م. ص. ت. م بريطانيا ــ ج 2 ص 89

قد أطنبت فى وصف المعاملة القاسية التى اصبح التجار الانجليز يلقونها من قبل المنصور ومن رجاله المسؤولين .

وقد استجابت الملكة اليزابيت اخيرا لنداءات مبعوثها وتجارها فى المغرب وكتبت الى المنصور تستنكر معاملته للتجار وتستوصيه بهم خيرا وتطلب منه الاعتناء بهم واطلاق سراح المعتقلين منهم ، متهمة اياه بانزال الاذى بهم والتعدي عليهم لا لجرم اقترفوه بل ابتغاء لمرضاة الاسبان وملكهم فيليب الثانى (54) .

فهل كان الانجليز صادقين فى ادعاءاتهم ضد المنصور ؟ ان الرجوع الى الوثائق التاريخية المعاصرة تؤكد بأن التجار الانجليز والجالية الانجليزية بوجه عام هى التى عرضت نفسها لنقمة المنصور وغضبه .

اننا نعلم الصلات القوية التى كانت بين الحكام السعديين والتجار الانجليز منذ عهد المولى محمد القائم وابنه احمد الاعرج ، هذه الصلات التى عادت على الفريقين بأعظم الفوائد اذ استفاد السعديون من الاسلحة الانجليزية خاصة ، واستفاد الانجليز من متاجرتهم مع المغرب (بما أمدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار واطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وامدادها بالمعادن التى اعوزتها ببلادها) (55) . ويكفى الاشارة الى أن التجار الانجليز قد اسسوا سنة 1585 (الشركة البربرية) التى اصبحت بعد زمن تحتكر بالدرجة الاولى تجارة السكر المغربى ، فهل يعقل اضطهاد المنصور للتجار الانجليز أو لبعضهم دون ارتكابهم ما يستلزم ذلك ؟ (اما ما كنا عليه من العهد معكم فى امر كل من يخرج بسواحلنا من خدامكم ويصل لبلادنا من تجار بلادكم فمازلنا على عهدكم فى رعيهم واحترام جانبكم فيهم ومعاملتهم بجميل العدل وحسن الانصاف فى سائر احوالهم وعامة شؤونهم) (56) .

لقد اخذ بعض التجار الانجليز بالمغرب يثيرون مشاكل خطيرة بعد الارمادا ، نشرت الفوضى فى الداخل وشوهت سمعة المغرب فى الخارج ، مما اضطر معه المنصور الى اتخاذ مواقف صارمة ضد الخارجين على القانون ، ومن ذلك تنظيمهم بمراكش لمظاهرة عدائية ضد الاسبان حيث قصد المتظاهرون اللذين كانوا يتكونون

---

54) المصدر السابق ، ص 34

55) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 193

56) رسالة من المنصور الى ايليزابيت — دار الوثائق بالرباط ، مخطوط ك 278 ، ص 195 .

علاوة على الانجليز من هولانديين واندلسيين بيت السفير الاسبانى بالمغـــرب Diego Marin وقاموا باضرام النار فيه ، مما اجبر السفير الاسبانى ومن معه على استعمال الاسلحة النارية ضد المهاجمين (57) .

ولما كان المنصور حريصا اشد الحرص على اقرار الامن وتوطيد دعائمـــه بالمغرب ، لما يترتب عن ذلك من ازدهار سياسى وتطور اقتصادي وعمرانى ، فانه لم يتوان عن عقاب المذنبين وانزال الاذى بهم لردعهم وليكونوا عبرة للاخرين (ومما نعرفكم به أن رجلا هنا ينتسب الى التجارة من اهل بلادكم قد تعدى طوره ودخـــل أمورا لا تعنيه من أسباب الفساد والخوض فيما لا يعنى من الفضول التى خرج بها عن حالة التجار الواقفين عندما يعنيهم فبسبب ذلك أمرنا بسجنه وعرفناكم بحقيقة حـــالــــــه) (58) .

التجأت الملكة اليزابيت أخيرا الى مكاتبات السلطان العثمانى مراد الثالث فى أول سبتمبر 1590 وطلبت منه التوسط لدى المولى أحمد المنصور ، وحثه علـــى نجدة دون انطونيو وانجاز ما وعده به من قروض مالية ومساعدات عسكرية ضد فيليب الثانى الذي ينوي امتلاك العالم والسيطرة على شعوبه (59) وقد وجـــد وجد السلطان العثمانى فى ذلك فرصة مناسبة للتدخل فى القضية البرتغالية واستغلالها ضد الاسبان وفيليب الثانى ، وفى المغرب ضد المولى أحمد المنصور :

لقد اتسمت علاقة السلطان العثمانى مراد الثالث بالمنصور بنوع من التحسن اخيرا لما رأينا من تبادل السفارات وعبارات الود والتقدير ، دون أن تغفل عين المنصور عن ابن اخيه الامير اسماعيل ابن عبد الملك ، اللاجىء عند الاتراك والذي كان يلقى من السلطان العثمانى كل عطف وتأييد وقد كانت مشاغل المنصور بالمشكلة البرتغالية والحرص على اغتنام فرصة النزاع الاسبانى ـــ الانجليزي لفتح السودان من عوامل التقارب المغربى ـــ التركى اذ أبدى المنصور حرصا كبيرا على مسالمة الاتراك بالشرق وفى شمال افريقيا بصفة خاصة رغم الظروف المساعدة على التدخل ضدهم : فالدالى احمد باشا قد خاض غمار حروب داخلية بشمال افريقيا وفى طرابلس انتهت بمقتله سنة 1589 ولم يتمكن خلفه خضر باشا من اخماد هـــذه الفتن الا بعد جهد جهيد ، ومما تحفظه لنا الوثائق التاريخية الرسائل التى وجهها

---

57) م. ص. ت. م ـــ بريطانيا ـــ ج 2 ـــ ص 97
58) من رسالة للمنصور الى ايليزابيت ـــ فى مجلة تطوان عدد 8 . ص 81
59) م. ص. ت. م ـــ بريطانيا ـــ ج 2 ـــ ص 40

المنصور الى الوالى خضر باشا وجميعها تؤكد ما ذهبنا اليه من حرص المنصور على مسالمة الاتراك والتمسك بحسن الجوار معهم فى الجزائر (التى بمسامعنا الكريمة ما ذكرتم انكم حظيتم مقامنا العلوي قبل هذا التاريخ وتشوفتم للجواب فلم تصدر لكم مراجعة ما من علائنا فتعجبنا من ذلك ونحن قد انفذنا اليكم الجواب علـــى سبيل الفور . . لما تقتضيه حرمة الجوار فتقوا بأن ودادكم عندنا محفوظ) (60) والاعراب عن تأييدهم المادي والعسكري (ثم اعلموا ان آنستم من جانب الكفرة دمرهـم الله عمارة تنشـــأ او اسطولا يـؤم ناحيتكم واحتجتـم الينـا فنحـن بحمـد الله بانفسنا واموالنـا واجنادنا موجوديـن بنصرتكم على اتم اهبـــة واستعـــــداد) (61) .

على أن السلطان العثمانى الذي كان قد انهى المشكلة الايرانية على حساب الدولة الصفوية قد جرب استغلال تقرب الانجليز منه للتدخل فى المغرب ، خصوصا وانه لم يفتأ بين الفينة والاخرى يلوح للمنصور بالامير اسماعيل ابن عبد الملك ، واعتمادا على وثائق معاصرة فان أمير البحر حسن باشا الوصى على المولى اسماعيل قـد تحركت آماله غداة اتصال الانجليز بالسلطان العثمانى لحث المنصور على العمل لصالح دون انطونيو ، وأنه قد أخذ يسعى لدى مراد الثالث للتدخل فى المغرب ضد المنصور بطريقة أو أخرى ، ومن ذلك ما جاء فى رسالة السفيـر الانجليزي فى اصطانبول Edward Barton بأن السلطان يهيىء حملة عسكرية ضد المغرب بحجة محاربة الاسبانيين (62) ، وهذه الرسالة مؤرخة بيوم 24 يونيه 1590 اي فى نفس السنة التى وصلت الى المنصور سفارة تركية تحمل طلـب السلطان فى أن يمكن المنصور ابن اخيه الامير اسماعيل من مدخول بعض الاقاليـم المغربية ، ويلح عليه فى ارسال ثلاثين الف دوكة عاجلا كتعويض عن السنوات الماضيـــة (63) .

وبالاضافة الى ذلك طالب السلطان العثمانى مراد الثالث المولى أحمد المنصور بارسال (دون كريستوف) الى اصطامبول ، كما جاء فى الرسالة الجوابية للسلطان الى ايليزابيـت (64) .

---

60) رسالة من المنصور للوالى العثمانى بالجزائر — دار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 21
61) المصدر السابـــق .
62) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 26
63) المصـدرالسابـق ص 46
64) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 201

وأمام اصرار الملكة الانجليزية على عودة الامير البرتغالى الى لندن ، وليقطع المنصور الطريق على الباب العالى ، سمح له بالسفر الى بريطانيا (وانكم تطلبون حيث لم يتمكن أمر المال الذي كان طلب امداده به على جهة السلف ولم تظهر فائدة لجلوس ولده المستقر الآن بكريم جوارنا وفى كنف عزنا وايثارنا ، نبعث به اليكم لاجل انكم أنتم الذين بعثوه الى جانبنا العلى) (65) . وقد وصل (دون كريستوف) الى لندن أواخرمارسلسنة 1592 (66) .

هكذا استفاد المنصور الى حد بعيد من قضية النزاع الاسبانى ــ الانجليزي حول العرش البرتغالى : فبين وصول دون كريستوف الى المغرب وخروجه منه (1589 ــ 1592) أي خلال ثلاث سنوات بلغ المنصور شاوا عظيما فى الداخل والخارج وتحكم فى توجيه الاحداث وفق مصالحه واهدافه ، كما اصبح فى وسعه التأثير على حفظ التوازن الدولى بين قوى المعسكر الكاثوليكى والبروتستانتى من جهة ، وبين قوى الشرق الاسلامى والغرب المسيحى من جهة أخرى ، فاصبحت له بذلك شهرة عالمية تردد صداها فى الشرق والغرب ، وذلك أسمى ما كان يهدف اليه ويعمل على تحقيقه كما استفاد من التجاء على بن داود اخ اسكيا اسحاق بكاغو للتدخل عسكريا فى بلاد السودان وتأسيس امبراطورية عظيمة بغرب افريقيا لا تقل اهمية وغنى عن الامبراطوريتين المعاصرتين : العثمانية والاسبانية الشيء الذي رفع من قدر المنصور وجعله فى مصاف الملوك العظام الذين عرفهم الربع الاخير من القرن السادس عشر للميلاد .

---

65) رسالة من المنصور الى ايليزابيت مجلة تطوان ــ عدد (3 ــ 4) . ص 55

66) م. ص. ت. م ــ بريطانيا ــ ج 2 ــ ص 70

الفصل الثاني عشر

فتح السودان وتأسيس الأمبراطورية المغربية

تمتد بلاد السودان على مساحة واسعة من غربى القارة الافريقية ، بين منطقتين متباينتين طبيعيا وبشريا واقتصاديا ، هما : الصحراء الافريقية الشاسعة الاطراف فى الشمال حيث لا تتم الحياة الا فى الواحات وحيث تكثر انماط حياة الترحال والتنقل ، والغابة الاستوائية المكتظة الاشجار موطن القبائل الزنجية البدائية ، فى الجنوب ، وقد اشتهرت منذ القديم بنهرها العظيم (نهر النيجير) الذي يبعث الخصب والحياة فى جميع المناطق التى يمر بها (وحسبها ببلاد آثرها الله وأثراها بنهر الجنة ومنبع مياه الرحمة . . وارض كرم الله ترتبها وابان فضلها) (1) ، وبزراعتها الواسعة (فقد طم بها بحر الحبوب والاقوات والادم وسال بها سيل النعم السائلة المنبثه للتناسل فى المرج النضر الممتد على ضفتى النيل جناحا أخضر موشى البرود بوشيح النبات مغدق السقيا بالفيض المتراكب المزج الى محاسن لا تحصى) (2) ، ثم بمعدن الذهب (الابريز وحد النضار الذي فغرت اليه اقطار الارض أفواها) (3) ، علاوة على (أصناف الرقيق المنيف على الذر) (4) اذ ان السودانيين كانوا ينظرون جميعهم الى القبائل الزنجية بالغابات الاستوائية كوثنيين كفرة ، تجب مقاتلتهم وشن الغارات ضدهم ، فكان ان اتخذوا منهم بضاعة

---

1) الفشتالى : مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفا . ص 117
2) المصدر السابق . ص 118 .
3) المصدر السابق . ص 168 .
4) المصدر السابق . ص 117

للمتاجرة ازدهرت مع الايام الى حد ان مناطق الغابات الاستوائية اشتهرت بتجارة الرقيق بالدرجة الاولى الى جانب الذهب والعاج وبعض التوابل .

ولهذه المزايا العظيمة ازدحم الناس واتسع العمران (فما شئت من مدن قاهرة وقرى متراصفة ومروج نضرة واسواق بالخلق والنعم زاخرة) (5) ، يقصدها التجار من جميع انحاء العالم وخاصة من شمالى افريقيا ومن اوربة الغربية حيث كانوا يحملون المنسوجات والمصنوعات المختلفة والاسلحة والمشروبات وغيرها (. . لكثرة من ينتابها من جميع زوايا المعمور من ركاب التجر وارباب البضائع الثقيلة الذين يضربون اليها اكباد الابل من كل فج عميق) (6) .

كما عرفت بلاد السودان بتاريخها السياسى ودولها العديدة التى بلغت السودان فى عهودها مراحل هامة من التطور السياسى والازدهار الحضاري .

ومنذ ظهور الاسلام وانتشاره فى شمالى افريقيا ، اخذ نور الدين الحنيف يشرق بين جنبات بلاد السودان الى ان عم القسم الاعظم منها ، لدرجة أن مدن السودان غدت من اعظم المراكز الاسلامية بغربى افريقيا خاصة زمن حكم اســـرة اسكيا المؤسسة لدولة سنغاي فى مدينة كـــاغ على النيجر الاوسط ، وبحكـــم وضعية السودان الجديدة دخلت هذه المنطقة فى عداد بلاد الاسلام وازدادت الروابط الروحية والمادية بين سكانها وباقى المسلمين فى الشرق والغرب ولا سيما بشمالى افريقيا بحكم موقعها القريب من السودان ، ومن أهم مدن السودان . . العاصمة كاغ وتمبكتو ودجينى وغيـــرهـــــا . .

ودولة سنغاي فى كاغ يرجع تأسيسها الى محمد اسكيا الملقب باسكيا الكبير ، الذي تمكن بعد ضعف امبراطورية مالى وانحلالها من تأسيس دولة مسلمة سنـــة 1493 م ، توارث حكمها ابناؤه من بعده ، وقد قاموا بأعمال هامة فى بلاد السودان سواء من حيث نشر الاسلام والعروبة اي فى ما يرجع لتنظيم البلاد وضبطها وخاصة فيما يتعلق بتوسيع حدود الدولة التى اصبحت بعد زمن تحكم امبراطورية مترامية الاطراف ، من مناطق نفوذها : اجاديس مدينة القوافل المزدهرة ومركز الاتصال بين السودان وتونس ولبيا ومصر ، ثم امارات الحوصة الخصبة علاوة على مناجم الصحراء المختلفـــة .

---

(5) المصدر السابق ص 117

(6) المصـــدر السابـــق ص 117

وخلال القرن السادس عشر للميلاد ، حصل تطور سياسي ببلاد السودان نتيجة قيام دولة اسلامية في برنو ، وقد ازدهرت هذه الدولة خلال حكم ادريس الثاني وادريس الثالث (الوما) ، الذين وسعا حدود دولتهما لدرجة اصطدم معها نفوذ امراء بورنو بنفوذ آل اسكيا في المنطقة الخصبة التي اشتهرت بالرخـــاء الاقتصادي ، فقد تقاسمها الحكام الاقطاعيون واسسوا بها شبه امارات صغيرة من اهمها . . كانوا ، دورا ، جوبير ، رانوا .. وقد اشتد نفوذ برنوا وكاغ في هذه الامارات الطائفية ، مما زاد من حدة الصراع بينها وجعلها تعيش في اوضاع مضطربة، ودفع كلا من الحاكمين في برنوا وكاغ الى البحث عن الوسائل المختلفة التي تحقق له القوة وتكفل له الظفر والنصر .

اما العلاقات المغربية ـــ السودانية فترجع في تاريخها الى عهد بعيد وان تطورت بعد انتشار الاسلام وازدادت قوة الاتصالات التي كانت مستمرة بينهما طوال العصر الوسيط حيث كانت السودان (مثراث العديم ومجلبة التبر الى المشارق والمغارب في الحديث والقديم (7) .

ومنذ ظهور السعديين وقيام دولتهم بالمغرب ، سعوا الى البحث عن موارد ثابتة تمكنهم من توطيد اقدامهم وتساعدهم على تطوير الاقتصاد المغربي لما فيـــه رفاهية البلاد وازدهارها وكما استغل السعديون قصب السكر بسوس وغيره من الثروات الزراعية والمعدنية فقد سعوا الى استغلال ثروات الصحراء المغربية الجنوبية كمعادن الملح بتغازي (الذي تمتار منه سائر بلاد السودان) (8) .

فالمولى احمد الاعرج وهو الحاكم الثاني في السلالة السعدية ، تدخل سنـــة 1526 في توات وكاتب آسكيا اسحق الاول في أن (يسلم له في معدن تغاز) (9) ، الا أن الملك السوداني اجابه (بأن احمد الذي يسمع ليس هو اياه وان اسحق الذي سمع ليس انا اياه ما زال ما حملت به امه) (10) .

وعندما تولى محمد الشيخ ارسل سنة 1544 الى اسحق في شأن التنازل له عن معادن تغازي حيث يستخرج الملح ولكن آسكيا اسحق رفض للمرة الثانيـــة بل وارسل (الفين ركابا من التوارق وأمرهم أن يغيروا على آخر بلد درعة الى جهة

---

(7) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 117
(8) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 118
(9) عبد الرحمن السعيدي : تاريخ السودان ، ص 99
(10) المصدر السابـــق .

مراكش بلا اخراج روح أحد فيرجعون على اثرهم فغاروا على سوق بينما اصبح كيفما قام وثبت فاكلوا جميع ما وجدوا فى ذلك السوق من الاموال فرجعوا كما أمرهم وما قتلوا أحدا وما ذلك الا ليرى السلطان قوته) (11) .

اما رد الفعل المغربى فقد جاء قبيل مقتل محمد الشيخ ، اذ ارسل سنة 1557 م حملة عسكرية قوامها نحو الف وثمانمائة فارس وصلت الى واد ان حيث توجد سبخة اجل الشهيرة التى يستغل السودانيون ملحها ويدر عليهم ارباحا طائلة ، وقد تقدمت منها نحو تغازي وقضت على مظاهر السلطة السودانية بها (اجلب الامام رضى الله عنه على تغازي فانتزعها من يد سكية واستضافها للمغرب وعقد عليه لرجاله) (12)

قاطع السودانيون ملح تغازي والقوافل التى تمتار منه ، مما اجبر المولى محمد الشيخ على التفاوض مع الحاكم السودانى على أن يتخلى المغاربة عن (بعض خراجها لسكية مقابلة تسريح بيع الملح الذي تستامه العير الى بلاده من هذا المعدن فكان سكية يبعث من يحمل له نصيبه من الخراج دون أن يكون له قبض ولا بسط فى أحكام البلد والمعدن) (13) .

غير أن الاوضاع كما يبدو قد تغيرت اثر مقتل محمد الشيخ من قبل الاتراك وبسبب الظروف الداخلية الصعبة التى عرفتها بلاد المغرب بعد مقتله ، اذ استأثر اسكيا بمناجم تغازي لامد بعيد .

لما تولى المولى احمد المنصور واخذت اوضاعه الداخلية والخارجية تعرف نوعا من الاستقرار ، بدأ فى رسم سياسة توسعية خاصة ، أساسها التمركز فى مواقع استراتيجية هامة فى الصحراء المغربية تشتهر بواحاتها ومعادنها وبأهميتها فى المواصلات ، ثم اتخاذ هذه القواعد نقاط ارتكاز للتوسع فيما جاورها اولا ثم بلاد السودان ثانيا .

واولى خطوات هذه السياسة كانت عام 990 هـ عندما وفدت على المنصور بفاس سفارة من برنو ارسلها ادريس الوما (ادريس الثالث) ، وقد حملت اليه (ما جرت به عادتهم ان يجلبوه فى مهاداتهم من فتيان العبيد والاماء المختلفة الاسنان؛ وكان من ذلك عدد كبير ناهز المئين) (14) ، وذلك ليتقدم الى المنصور خطاب

---

11) المصدر السابق . ص 100 .
12) النشتالى : مناهل الصفا . ص 114
13) المصدر السابق . ص 120 .
14) المصدر السابق ص 67 .

ادريس الثالث المتضمن لطلب النجدة والمساعدة (بالعساكر والاجناد والعدة من البندق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم فيما زعوا بقاصية السودان من الكفار) (15) .

وما من شك فى ان التنافس السياسى والاقتصادي ببلاد السودان بين برنو وكاغ قد كان له اثر كبير فى توجه ادريس الثالث الى طلب هذه النجدة العسكرية من المنصور ، بعد ان فشلت المحاولات التى قام بها من قبل مع السلطان العثمانى (وكان هذا الرسول قد وفد قبل هذا على سلطان الترك بالاسطنبول مراد يطلب منه المدد) (16) .

كان وصول وفد برنو الى فاس واتصاله بالمولى احمد ؛ بداية تطور هام فى التاريخ المغربى الحديث ، لان اطلاع المنصور على احوال بلاد السودان عامة وبرنو خاصة ، قوى عزمه على الشروع فى تنفيذ سياسته السودانية (فقد قارن ذلك ما كان من عزم امير المومنين قبل مجىء هذا الرسول على تجهيز العساكر يومئذ الى تنويخ بلادتوات وتيكورارين وامل ان يجعلها ركابا الى استفتاح اقطار السودان والاستيلاء على ممالكهم) (17) .

ولهذا السبب فان المنصور لم ينجد ادريس الوما ملك برنو بالاسلحة والعتاد الحربى من مدافع واسلحة نارية وغيرها ، اذ لم تكن دول السودان قد تعرفت على هذا النوع من الاسلحة الفتاكة بل ان محافظة السودانيين على استعمال الاسلحة التقليدية قد كانت من العوامل التى حفزت المنصور على تنفيذ خططه التوسعية خاصة وان الظروف كانت جد مساعدة حيث (نهض بالدولة حتى استفحلت لعهده . . بما تراكم فيها من الجند وتوفر من الحاميه) (18) .

وقد اشترط على ادريس الثالث كأساس لمساعدته اعلان بيعة الخلافة السعدية ، ورغم قبول ملك برنو الدخول فى الطاعة (19) فانه لم ينجده بالاسلحة النارية ، وانما التجأ الى سياسة المماطلة والتسويف باتخاذ الاعذار المختلفة ؛ ولا شك فى أن المنصور سيجد من طاعة ملك برنو عاملا مساعدا للاندفاع فى سياسته التوسعية بالصحراء وبلاد السودان

---

(15) المصدر السابق ص 67

(16) المصدر السابق ص 68 .

(17) المصدر السابق ص 68 .

(18) النشتالى : مناهل الصفا . ص 40 .

(19) فى مناهل الصفا للفشتالى يوجد نص بيعة امير برنو للمنصور (ص 69)

كانت الخطوة الاولى لتحقيق سياسة التوسع : الاستيلاء على منطقتين رئيسيتين بالصحراء الجنوبية ــ الشرقية المغربية هما : توات وتيكورارين ، فما الداعي الى القيام بالسيطرة على المنطقتين قبل غيرهما من المناطق الصحراوية ؟ الم يكن بوسع المنصور مهاجمة المناطق الصحراوية بجنوبي المغرب والنفاذ منها الى السودان ؟

لقد وجــد المنصور امامه طريقتــين للوصول الــى السودان : الاولـــى توات وتيكورارين في الجنوبي الشرقي ، والثانية عبر الصحراء الجنوبية ، غير انــه اتجه صوب الطريق الاولى وارسل حملة عسكرية لاحتلال توات وتيكورارين شعورا منه بالدور الهام الذي ستقوم به هاتان المنطقتان لتحقيق اطماعه التوسعية ببــلاد السودان (فالقطران عالم من عوالم الارض . . بما جمع من الامم وتراكم فيه من القصور واتصل من العمران وتخلله من العيون) (20) .

فاحتلاله لهاتين المنطقتين يمكنه من قطع الطريق على الاتراك بالجزائر اذا ما فكروا في التوجه نحو غربي افريقيا وبلاد السودان بوجه خاص : لغنى المنطقـــة الاقتصادي ووفرة ثرواتها ولمركزها الستراتيجي الهام كبلد له سواحل طويلة علــى المحيط الاطلسي ــ اداة المواصلات الاولى بين اوربا الغربية والشرق الاقصى ــ يمكن استغلالها لتهديد المواصلات البحرية الاسبانية ، ولن يعدم السلطان العثماني ما يبرر به تدخله في هذه البلاد التي تدين بالاسلام بصفته خليفة المسلمين ، خصوصا اذا ما توصل من اسكيا ملك السودان بطلب النجدة والمساعدة ضد المنصور ، خصم السلطان العثماني العنيد (لما كان صقع بلاد توات وتيكورارين من دون سائر الاقطار القاصية بالمحل القريب من جواره راي ايده الله ان يبدا امره بافتتاحه ويجعله ركابا لما وراءه وسلما لما يليه) (21) . وفي هذا يكمن سر الموقف السلبي الذي اتخذه المنصور ازاء طلب المساعدة الذي تقدم به ادريس الوما ملك بورنو . خرجت حملتان عسكريتان لفتح توات وتيكورارين عام 991 / 1583 م من فاس ومراكش : الاولى بقيادة ابي عبد الله محمد بن بركة ، والثانية بقيادة ابي العباس احمد بن الحداد العمري المعقلي ، وبعد ان التقت القوات الفاتحة بسجلماسة قصدت (تينميمون) قاعدة قصور تيكورارين وفرضت عليها حصارا بعد ان رفض اهاليها اعلان الطاعة والولاء للمنصور (وكانوا قدموا الى اهلها كتب امير المومنين بالاعذار والبراءة والدعاء الى الطاعــة

---

20) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 73 .
21) المصــدر السابــق .

والارشاد والدخول فى حزب الهدى فأساءوا الرد ولادوا بالمنع واستعدوا للحصار) (22) وبعد معارك حربية طاحنة فتحت المدينة عنوة بفضل الاسلحة النارية الفتاكة التى تتوفر عليها القوات المغربية (فانقاد بانقياد تينمبون سائر قطر تيكورارين وأتوا طاعتهم راهبين) (23) .

وبعد تيكورارين قصدت القوات المغربية (تمنطيط) قاعدة قصور تـــوات فاسرع رئيسها الشيخ عمر ابن محمد بن عبد الرحمان الى اعلان طاعة المنصور اذ (علم انه لا طاقة له بمقاومة الحصار ودفاع العساكر . . فكان استنزال عمر رئيس البلاد وزعيمها مفتاحا لانقياد سائرها (24) .

هكذا حقق المنصور الخطوة الاولى من سياسته السودانية ، واعتبر هذا النصر بمثابة عامل مشجع على التمادي فى طريق التوسع والفتح .

اما الخطوة الثانية فقد جاءت عقب وفاة الملك السودانى أسكيا داود فى رجب 990 هـ الموافق لغشت 1582 م ، الذي كانت تربطه بالمنصور روابط حسنة ، فقـــد سبق للمنصور أن بعث اليه يطلب منه التنازل له عن خراج معدن تغازي ، وقـــد اجاب أسكيا داود بأن (بعث له عشرة آلاف ذهبا هدية وعطية خير . . فكان سبب المحبة والوصلة بينه وبينـــه) (25) .

ارسل المنصور وفدا الى كاغ عام 991 / 1583 (ومعه هدايا عجيبات) (26) لتقديم التعازي الى الملك الراحل ولتهنئة الملك الجديد ، ثم للاطلاع على أحوال البلاد كلها والتعرف على اسكيا الحاج محمد وموقفه من قضية معادن الملح الصحراوية فى تغازي التـــى كان المنصور يرى أحقيـــة استغلالها بحكم أن والـــده محمـــد الشيخ كان قد انتزعها من السودان وضمها الى المغرب سنة 1557 م ولكنـــه تراجع عن بعض خراجها لملوك السودان اللذين اصبحوا يسيطرون على كل المعدن وعائداته الوافرة (فرأى نصـــره الله أن المعدن لبيت المال وان اباحة ملحـــه بغير قيمة فيه تضيع لمال المسلمين وحقوقهم فيه (27) . وقد كان على راس الوفد المغربى الشيخ مومن بن موسى العمري المعقلى (قس زمنه فى الفصاحة وطلاقـــة

---

(22) المصـــدر السابـــق ص 74.
(23) المصـــدر السابـــق .
(24) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 74
(25) السعيدى : تاريخ السودان . ص 111 .
(26) المصدر السابق . ص 120
(27) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 122 .

اللســـان . فسرحه بهدية ورسالة الى سكية بكاغو) (28) . واهم ما تضمنته الرسالة مخاطبة اسكيا (فى شأن معدن الملاحة الكائن بتغازي . . وقدر له فيها ما اقتضاه سديد النظر الكريم من فرض مثقال للحمل على كل مـــا ينتابه مــن القــوافــــل (29) .

ارجع اسكيا الحاج محمد الوفد المغربى مكرما وارسل معه للمنصور (اضعاف ما ارسل هو من الهدايا من خدام وسنانير الغالية وغير ذلك ومن جملة ما أرسل ثمانون خصيا (30) . واكد له فى نفس الوقت عن عزمه على عدم التنازل له عــن معادن الملح فى تغازي . اما الوفد المغربى فانه (لم يدع من نقير ولا قمطير الا واحاط به فهما وفتله علما فقص ذلك على امير المومنين أيده الله وشحد به غرار عزمه) (31) ، وانتهى الامر بأن قرر المنصور التدخل عسكريا لانتزاع المعدن المذكور انما مهد لذلك بالسيطرة على جميع المناطق الصحراوية الساحلية الممتدة بين سوس ودرعة شمالا ونهر سينغال جنوبا حتى (يستعين بفتحها وبما تستاق العساكر من الكراع والظهر المجلوب . . على امر الحركة الى جهة الجنوب) (32) .

خرجت حملتان من سوس : الاولى بقيادة محمد بن سالم ، والثانية بقيادة عبد المولى بن عيسى اواخر عام 1584/992 (وخاضوا القفر مع الساحل الى السودان فوصلوا اليها من بعـــد الجهد لتسعين مرحلة متصلة من ثغور ممالك العــــرب القبلية) (33) ، فاذعنت جميع القبائل للقوات الفاتحة وكان من الذين دخلوا فى الطاعة من مشايخ المنطقة (كبيرهم الموفى على الغاية فى السن والهرم ابراهيـم ابن رضوان يامر فلان وموسى جوب وغولى اخويا مرفال وكلهم من ملوك السواحل ببلاد السودان ... وكان الذى استجاب لهم ودان بالطاعة والانقياد من عرب الفــلاة فقط وامهم اللذين ينتجعون الكلأ فى مجالات القفر الممتد من شعوب المغرب القبلية الى ممالك السودان بالجنوب نيفا واربعين الف خيمة . . فحصل امير المؤمنين من ذلك على ما اراد وفوق ما كان يأمل من الاستعانة بكثرة الظهر علـــى ما اجمـع عليه من الحركة الى سكيا بجهة الجنوب) (34) .

---

28) المصدر السابـــق .
29) المصــــدر السابـــق ، ص 123 .
30) السعيدى : تاريخ السودان . ص 120 .
31) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 123 .
32) المصدر السابق . ص 78 .
33) الفشتالى : مناهــل الصفــا . ص 78 .
34) المصـــدر السابـــق . ص 79 .

اصبحت ظروف المنصور بعد السيطرة والتحكم فى المنفذين الهامين نحو السودان خير مشجع ومساعد فى آن واحد على رسم سياسة توسيعية بالسودان ، خاصة وان اسكيا الحاج محمد قد رفض كل نوع من التفاهم مع المنصور حول استغلال ملح تغازي . والسياسة التى مضى المنصور فى تنفيذها ترمى :

اولا : مهاجمة تغازي والاستيلاء عليها وتحصينها ثم اتخاذها قاعدة انطلاق للتوسع فى السودان .

ثانيا : التدخل فى السودان عن طريق استمالة بعض الثوار والخارجين على حكم اسكيا ، واستغلالهم لمهاجمة السودان عسكريا .

وهكذا وجه المنصور قوة عسكرية مسلحة باعتدة النار لاحتلال نغازي ، وبعد السيطرة على المنطقة (بنى على ذلك المعدن حصنا انزل به من جيش النار من يحميه) (35) وقام بفرض مثقال على كل حمل (على جميع الابل التى ترده) (36) ؛ وقد تم ذلك خلال عام 994 هـ .

اما موقف اسكيا فى كاغ فقد كان سلبيا ، شعورا منه بضعف امكانياته المسلحة بالنسبة للقوات المغربية المجهزة بكل وسائل النار ومدافع البارود ، وكل ما قام به اسكيا هو اعلان مقاطعة المغاربة بتغازي وعدم التعامل معهم (37) ، فراى صاحب السودان ما يحصل من عظيم الربح والمنفعة فى ذلك لامير المومنين . . فسعى فى تعطيل ذلك وافساده ونادى فى سائر بلاده باقتطاع ملح ذلك المعدن ومنع العير التى تمتار منه من الورود الى بلاده) «(38) .

ويبدو ان هذا الموقف قد اغضب الكثير من السدانيين مما ادى الى قيام ثورة اطاحت فى شهر ذي الحجة عام 994 : نوفمبر — ديسمبر 1586 بحكم اسكيا الحاج محمد وجعلت البلاد تدخل مرحلة من الفوضى الداخلية ، اذ تولى اسكيا محمد وهو اخ الملك المعزول فى محرم 995 / يناير 1587 الا انه توفى فى نفس السنة وخلفه اخوه اسكيا اسحاق الذي تمت بيعته يوم الاحد 3 جمادى الاولى عام 996 الموافق 10 ابريل 1588 .

---

(35) المصدر السابق ص 120 .

(36) المصدر نفسه .

(37) (وفى سنة اربعة وتسعين وتسعمائة فى شوال جاء الخبر بأن لا يذهب احد الى تغاز فمن مشى اليه فماله هدر) — السعيدى : تاريخ السودان . ص 121 .

(38) الفشتالى : مناهل الصفا ص 121 .

قضى اسكيا اسحاق الفترة الاولى من حكمه فى اخضاع الفتن الداخلية ولا سيما ثورة محمد الصادق بلمع احد الولاة بالسودان ، فقد اعلن نفسه اسكيا بمدينة تنبكتو ولكنه انهزم اخيرا امام اسكيا اسحاق الذي انتقم من اهالى تنبكتو وانزل بهم سوء العذاب وذلك فى شهر جمادى الاولى عام 996 هـ (39) .

ومن الذين ثاروا على اسكيا اسحاق ، اخوه على الذي التى عليه القبض وابعد عن السودان منفيا الى تغازي ، واعتمادا على ما اورده الفشتالى وزير المنصور فى (مناهل الصفا) فان عيون المنصور بالسودان (منصور بن الفيلالى) هو الذي اشار على اسكيا اسحاق بنفى أخيه على الى تغازي . وعلى كل فقد ابعد على الىتغازي حيث (وكل به من اوصله الى ولى الامر من قبل امير المومنين بتغازي مقيدا فاغد به من حينه الى مراكش) (40) ، التى وصلها فى جمادى الاولى عام 997 هـ وقد كان المنصور فى زيارته الثانية لفاس (اتصل خبر وصوله بأمير المومنين بفاس فاهتز له من اعواده سرورا باتمام حيلته واستبشارا بفتح البلاد) (41) .

كان وصول على بن داود الى مراكش فى جادى الاولى عام 997 / مارس أفريل 1589 فرصة عظيمة مكنت المنصور من الاطلاع على خبايا الاوضاع بالسودان وما كانت عليه البلاد من فوضى وانقسام داخلى فقد اطلع على بن داود المنصور على (اخبار أهل سنغى وبما كانوا عليه من الاحوال الذميمة والطبائع الرذيلة مع ضعف القوة ، وحضه على اخذ الارض من ايديهم) (42) . وطلب منه مساعدته العسكرية ضد اخيه أسكيا اسحاق (بأن يكتب الى امير المؤمنين يرغب بامداده بالعساكر ليجلب بها على اخيه السلطان اليوم بكاغو (43) .

عجل المنصور بارسال وفد الى أسكيا لتبليغ مطالبه المستعجلة :

اولا : اطلاع اسكيا اسحاق على فتاوي العلماء والفقهاء واحقية الامام فى النظر وحده فى شؤون المعادن (وها نحن قد انفذنا اليكم بما لائمة المذهب فى هذه المسالة على الخصوص وما لعلماء السنة من الحجج لتعلموا أن للامام فيها النظر

---

39) السعيدى : تاريخ السودان . ص 121 .
40) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 122 .
41) المصدر السابق .
42) السعيدى : تاريخ السودان . ص 137 .
43) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 122

والاجتهاد) (44) علاوة على قيامه بالجهاد ضد العدو الذي لولا المنصور وقواته المسلحة لتمكن من الوصول الى السودان (وهى جنود الله التى لولا ما حجزت بينكم وبين طواغيث الشرك سيوفها القاصمة .. لفاض عليكم طوفانه السائل) (45) .

ثانيا : لتبليغه أمر المنصور (بتسريح العير تمتار الملح من هذا المعدن الى بلاده) (46) وتمسكه بفرض مثقال على كل حمل .

ثالثا : مطالبة أسكيا اسحاق بالدخول فى طاعة الخلافة المغربية (فأنا ندعوكم الى ما فيه ان شاء الله الخير العاجل .. والدخول فيما دخلت فيه جماعة المسلمين من مبايعتنا والائتمام بشريف امامتنا) (47) .

رابعا : اطلاعه على طلب النجدة الذي تقدم به أخوه على اللاجىء بمراكش (وها نحن امهلناه فى الجواب .. حتى نرى ان شاء الله ما يبدو منكم) (48) ، اي ان المنصور اخذ يلوح لاسكيا اسحاق بامكانية مساعدة اخيه على الذي هو مستعد بطبيعة الحال لاعلان طاعة المنصور وللاستجابة لرغباته متى ما استقر له الامر بالسودان

رفض اسكيا اسحاق الاستجابة لمطالب المنصور (والتسليم فى ذلك المعدن بل قبح له الكلام فى الجواب وبعث له صحبة جوابه حرشانا ونعلين من حديد) (49) اشارة الى انه بعد انتصاره على المنصور سيضعهما فى رجليه مما اثار المنصور ودفعه الى التعجيل بالتدخل فى السودان ضد أسكيا اسحاق .

عقد المنصور مجلسا للشورى (ضم الملأ من طبقات الاجناد وذوي الحل والربط واولى البصيرة والحنكة وذوى الخبرة والنباهة بالامور الشداد .. فصدع لهم ايده الله بذات صدره وفاتحهم بعزيمته وما اجتمع عليه من تجهيز العساكر الى هذه الاقاليم السودانية والاصقاع الجنوبية معلنا لذلك الملا الا يدخر أحد رايا .. وانه ايده الله غير مستنكف من حق يوضحونه بحجة ولا متوقف عن الرجوع الى صواب يثبتونه ببرهان) (50) .

---

(44) رسالة المنصور لاسكيا اسحاق (مناهل الصفا . ص 123 .
(45) المصدر السابق .
(46) المصدر السابق .
(47) المصدر السابق .
(48) المصدر السابق .
(49) السعدى : تاريخ السودان . ص 138 .
(50) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 126 .

وقد اتخذ المنصور من امكانية استغلال خيرات السودان للجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله وضد اعداء الاسلام وانقاذ الاندلس وارجاعها الى حظيرة العرب والمسلمين سببا قويا لتبرير فتحه لهذه البلاد (.. للاستكثار من الاسطول لغزو عدو الدين والاجلاب عليه بحول الله في عقر داره) (51) .

واثناء المداولة ، ابدى بعض المستشارين شكوكهم في امكانية تحقيق غزو السودان بحجــة :

اولا : صعوبة اجتياز الصحراء القاحلة و (اعتراض المفاوز البيد والمجاهل القفار التـي لا تشقها الرفاق القلائـل الا بعد عصب الريق والافلات مـن مخالـب الهلكــة) (52) .

ثانيا : عدم تفكير اية دولة من الدول المغربية السابقة بغزو السودان علـى الرغم مما اتصف بـه بعضها من (وفور الاجناد وامتداد ظل السلطان .. ولو كان ذلك في طوق امكانهم لكان همهم الذي يسرع اليه هو ابتدارهم) (53) .

وبعد تبادل الراي استطاع المنصور أن يقنع الحاضرين بوجهة نظره الرامية الى غزو السودان والسيطرة على اقاليمه او ان المستشارين لم يجدوا في النهاية بدا من موافقة المنصور على ما صمم العزم عليه . وكان المنصور قد بنى خطته هذه علـى :

اولا : تفوقه العسكري بما يتوفر عليه الجيش المغربي من تدريب حديـث واسلحة نارية فتاكــة .. خلاف ما كانت عليه الحال بالنسبة للدول المغربية السابقة التي لم تخرج عن (عساكر الخيل والفرسان الرامحة وعصائب الرمات الناشبة) (54) ونفس ذلك التنظيم والعتاد كان عند السودانيين اما قواته فانها (عساكر قاذفة بشواظ النار وحصباء البندق المنهل بسحائب من البارود مركوم تزجيــه الرعـود القاصفة والصواعق الراجفة تتبعها الرادفة) (55) وبامكان مجموعة منها أن تحقق الكثير من الفتوحات في بلاد السودان للفارق العظيم بين قوى المتحاربين (الحصة منها تدوخ اقصى تلك الاقطار لعدم القدرة على مقاومتها والانتصار لمحاربتها) (56) .

---

51) المصــدر السابق ، ص 190 .
52) المصدر السابق ، ص 126 .
53) المصــدر السابــق .
54) المصــدر السابــق ، ص 127 .
55) المصــدر السابــق ، ص 128 .
56) المصــدر السابــق .

ثانيا : غنى السودان وضخامة مواردها وامكانية الوصول اليها لما يتوفر عليه المغرب من اقاليم صحراوية كتوات وتيكورارين وبلاد الطوارق الساحلية ، وجميعها تعتبر منافذ هامة نحو بلاد السودان وقواعد انطلاق للقوات الفاتحة ، وقد اتخذ المنصور من التجار الذين كانوا يتاجرون مع السودان ويقطعون الفيافى والقفار للوصول اليه مثالا يمكن الاقتداء به (ثم هؤلاء التجار الخائضون لغمارها المختلفون اليها يعبرونها بأوقار البضائع الثقيلة واحمال المتاع الجمة بين صدر وورد) (57) .

وبالرجوع الى الوثائق المعاصرة نتأكد من أن منافسة قوية قد ابداها الاسبان فى السواحل الغربية لبلاد السودان لاجل استغلال خيرات هذه البلاد ، خاصة وان الوضعية فى سواحل افريقيا الغربية قد اضطربت بانهزام البرتغال فى وادي المخازن وزوال امبراطوريتهم . وحسب الرسالة التى وجهها الاسبان Melchoir de Petoney الى Miguel de Moura فان جزيرة Arguin لقريبة من الراس الابيض وعند مصب نهر السينغال فى المحيط الاطلسى والمناطق الافريقية المجاورة لها بلاد غنية جدا بالقمح والشعير والماشية والفواكه وبمعادن الذهب وان اهالى المنطقة يجلبون ذهب بلادهم الى المغرب أو تمبوكتو ، فلو قام فيليب الثانى ملك اسبانيا وارسل سفنا محملة بالمصنوعات الزجاجية والخناجر والاجراس والثياب والمرايا وغيرها لمبادلتها مع الاهالى بالذهب لعاد ذلك بالنفع العميم على اسبانيا بدلا من ترك هذه الخيرات للمولى أحمد . وقد استولى الاسبان فعلا على الجزيرة المذكورة وأخذوا يتاجرون منها مع المناطق المجاورة (58) الامر الذي يمكن اعتباره كمنافسة للمنصور بغربى افريقيا وبلاد السودان ومن العوامل التى جعلت المنصور يعجل بالتدخل العسكري فى السودان لقطع الطريق على الاسبانيين (وهو الآن أيده الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين واقف على قدم الاهبة والاستعداد ... من جهاد المشركين واغراء ارضهم فى الجنوب بعساكره الامامية) (59) .

ثالثا — توحيد المسلمين بغربى افريقية :

فالمولى احمد المنصور كأمير للمؤمنين يسعى الى جمع كلمة المسلمين بغربى افريقيا وتوحيد قواهم للوقوف صفا واحدا امام التهجمات الخارجية التى يمكن أن

(57) المصدر السابق . ص 127
(58) م. ص. ت. م — فرنسا — ج 2 ص 67
(59) المفشتالى : مناهل الصفا . ص 81 .

يقوم بها الاسبان بصفة خاصة أو غيرهم من الاوربيين الذين كانوا يتربصون الدوائر ببلاد السودان الغنية وذات السواحل الستراتيجية التى تتحكم فى طريـــق الهنـــــد البحرية (وقصدنا بما يحصل من ذلك صرفه ان شاء الله فى سبيل الغزو والجهــــاد وفى ارزاق ما لنظرنا العلى من العساكر والاجناد التى جعلناها لنكاية عدو الديـــن بالمرصاد واعتدناها للذب عن كلمة الاسلام وحياطة البلاد والعباد) (59)

اخذ المنصور فى الاستعداد لغزو السودان واهتم شخصيا بالاشراف علـــى مـــا تتطلبه الحملة بالوسائل والمعدات (انتضى مولانا الامام صارم العزيمة للاحتفال وشمر للجلوس له بنفسه . . وذهب فى مذهب الاحتفال ابعد شاو) (61) فأمر بجمع الابل (اذ هى ملاك السفر البعيد ومركز مدراره) (62) حيث وجهت الاوامر الى جميع ولاته فى الاقاليم الصحراوية خاصة (لاعتيام كل فدنية ارحبية من البزول الشديد الاسر مضطلعة بشق المفاوز البيد) (63) وصنع الرحال ومستلزماتهـــا حيث جمع لها ايدي العملة من صناع النجارة) (64) وتهيء الذخيرة من (السلاح الشاك الظاهر . . وخزائن البارود المتراكمة .. وخزائن الرصاص المعدة لحصى القذف وبندق الرى من الانفاض) (5) وبناء السفن لعبور نهر النيجر (آلة السفن والاساطيل برسم اتخاذ الفلك والجواري المنشآت لعبور النيل) (66) ثم باذخار (الازودة والاقوات) (67) اللازمة لذلك والاستعداد لهذه الحملة يبرز بصفـــة خاصة الامكانيات الضخمة التى كان المنصور يتوفر عليها الى حد انه لم يدون فى (بطون القراطيس حديث معسكر بلغ فى الاحتفال والانتقاء والانضباط على قواعد الحزم وتوفير العدد ما بلغت هذه العساكر المنصورة) (68) .

والى جانب هذه الاستعدادات حرص المنصور على استمالة علماء السودان والتعاون معهم وخاصة قاضى تنبكتو عمر بن محمود بن عمر (المسموع الكلمة فى اجيال السودان) الذي بعث اليه فى شوال 998 هـ يعرض عليه الدخول فى طاعته التى (اوجب لنا بها سبحانه على الخلق السمع والطاعة) وليطلب منه دعوة

---

60) من رسالة المنصور لاسكيا اسحاق (رسائل سعدية ص 132)
61) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 128 .
62) المصـــدر السابـــق ، ص 129
63) المصـــدر السابـــق .
64) المصـــدر السابـــق .
65) المصـــدر السابـــق .
66) الفشتالى مناهل الصفا ، ص 130
67) المصـــدر السابـــق .
68) المصـــدر السابـــق ص 130 .

السودانيين الى امامته (لتكون اول من لبى داعيها . . ولترفعوا بها عقيرتكم فـــى تلكم الاقطار) (69) وقد نوه المنصور فى هذه المراسلة بمقام القاضى الرفيع فـــى بلاد السودان وانه اعلم من آسكيا اسحاق بما يدعوه اليه (وانكم بالآثار الشريفة . . اعرف من سواكم) (70) كما اعلمه فى ختام الرسالة بقرب وصول الحملة المسلحة المغربية الى السودان وان (كل من أمنتموه من عساكرنا . . فقد امناه .. اظهار لمزيتكم واشعارا بمزيتكم لدينـــا) (71) .

انتهى الاستعداد للحملة وجرى احتفال استعراضها يوم الاثنين 16 ذى الحجة 998 هـ بحضور الخليفة المنصور والجمهور العظيم (وانجفلت الدهماء لمشاهدتهم .. واسترسلوا فى مذاهب الاعجاب لكثرة ما كان الناس يتحدثون بغرابة امور هـــــذه الحركـــة) (72) . وفى مطلع شهر محرم لعام 999 هـ اخذت الحملة طريقها نحـــو السودان بقيادة (جودر باشى . . مملوكه الشهم .. الناشىء بتهذيب الامامة الكريمة .. المنقطع القرين) (73) . الذي جعل له المنصور هياة استشارية عليا من كبار القواد (وشد مولانا الامام .. ازر مملوكه .. بثقات من كفاته .. اولى الدهاء والراي وذوي النجدة فى مضايق الحروب .. يرجع اليهم فى مخض زبدة الآراء ومجـــال المفاوضـــة) (74) .

سلكت الحملة المسلحة طريقا خاصا نحو السودان عرف فيما بعد (بطريق جودر) ، وكان من بين افراد الحملة عدد من التجار كأدلة ومرشدين (الذين أخلقوا بردة الغمر وانفقوا عينها فى التردد فى هذه الطريق جيئة وذهابا) (75) . . فبعـــد مراكش اتجهت الحملة نحو وادي درعة حيث ودعهم حاجب المنصور ابو محمد عزوز ابن سعيد بن منصور الوزكيتى (لتثقيف أحوال العساكر ومراقبة امورهم عنـــد منتهى العمران) (76) . وفى يوم 24 صفر 998 هـ اخذوا فى اختراق الصحـــــــراء المغربية الجنوبية متجهين نحو لكتاوا فتندوف وتغازي ثم كارابارا على نهـــر النيجـــر (وعندما وصلت الحملة الى البحر عند قرية كربر فنزلوا هناك وعمل الباشـــا

---

(69) المصدر السابـــق . ص 122 .
(70) المصـــدر السابـــق .
(71) المصـــدر السابـــق .
(72) المصـــدر السابـــق . ص 130 .
(73) المصـــدر السابـــق .
(74) المصـــدر السابـــق .
(75) المصـــدر السابـــــق .
(76) المصـــدر السابـــــق .

جودر صفرة كبيرة لاطعام الطعام فرحا لوصولهم البحر سالمين لان ذلك امـــارة ظفرهم بمرادهم ونجاحهم لسعيهم .. وكان ذلك يوم الاربعاء الرابع من جمـــادى الاولى فى العام التاسع والتسعين بعد الهجرة) (77) .

وهكذا تكون الحملة قد اجتازت مسافة تقدر بنحو الفى كيلو متر خلال اربعة اشهر تقريبا منذ خروجها من مراكش اوائل محرم الى ان وصلت نهر نيجر اوائل جمادى الاولى ، وبعد ان قامت بنحو ستين مرحلة (وقطعوا هذه المفارز من لدن الثغور القبلية الى ان وردوا النيل فى قريب من ستين مرحلة) (78) .

كانت بلاد السودان – الحوض الاوسط لنهر النيجر – خلال السنوات العشر الاخيرة من القرن العاشر للهجرة (90 – 999 هـ / 81 – 1591 م) تعيش اوضاعا داخلية سيئة ، بسبب عوامل مختلفة اهمها : استبداد الحكام وتمرد الولاة فى المناطق المختلفة وعدم تحديد مبدأ لوراثة العرش ، الامر الذي جعل الخـــروج والثورة على الحاكم الطريق الوحيد لتولى السلطة ، فكان (الاسكيا) بحـــق (المغتصب) وكانت عهودهم (ايام بؤس ومجاعة) (79) لكثرة الحروب الداخليـــة المستمرة وما رافقها من تخريب وتدمير . وقد ترتب عن ذلك أن أصبحت البلاد تتعرض لسلسلة من الاحداث والنكبات لم يكن الامير السودانى على بن داود مبالغا عندما وصف للمنصور أحوال السودان (بالاحوال الذميمة والطبائع الرذيلة مع ضعف القوة) (80) .

وفى تاريخ السودان للسعيدي ما يؤكد ذلك (ثم بدلوا نعمة الله كفرا وما تركوا شيئا من معاصى الله تعالى الا وارتكبوها جهرا) (81) اي أن السودان عندمـــا وصلت اليها الحملة المغربية لم تجدها (من أعظم أرض الله تعالى نعمة ورفاهية وأمنا وعافية فى كل جهة ومكان) (82) ، بل كانت تئن للانقسام الذي جزأ القوى الوطنية وجعل العاصمتين الرئيسيتين تتزعمان حروبا اهلية طاحنة بين أسكيا اسحاق فى كاغو واسكيا محمد الصادق بلمع فى تمبكتو ، ولم يتمكن اسكيا اسحاق من القضاء

---

77) السعيدى : تاريخ السودان ، ص 139 .
78) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 82 .
79) السعيدى : تاريخ السودان . ص 122 .
80) المصدر السابق . ص 133
81) المصدر السابـق . ص 144 .
82) المصدر السابـق . ص 142 .

على خصمه الا بعد معارك حربيـــة عرفت بعدها تمبكتو الكثير من الاهـــوال والمحـــــن) (83)

منذ أن وصلت الحملة المغربية الى (كارابار) على نهر النيجر ، جددت نداءات الامان للسودانيين (واعتقدوا مع ذلك ان كل من امنتموه من عساكرنا الطالعة براياتها البيض على تلكم الاقطار السودانية . . فقد أمناه ومن اجرتموه فقد أجرناه) (84) واقام الباشا جودر حفلا كبيرا بمناسبة وصولهم (وصلوا البحر عند قرية كربر فنزلوا هنالك وعمل الباشا جودار سفرة كبيرة لاطعام الطعام مرحا لوصولهم البحر سالمين) (85) اي أن الحملة لم تصادف أية مقاومة من عامة السودانيين الى أن اقتربت من العاصمة كاغو حيث راسل ـ كما يبدو ـ جودر باشا أسكيا اسحاق لمعرفة رايه الاخير فى مطالب المنصور ، فعقد اسحاق مجلسا للشورى ضم (قياده وكبراء مملكته فى المشاورة فى الراي والتدبير فكلما اشاروا اليه من الراي السديد يرمونه وراء ظهورهم) (86) وهذا يؤكد حرص البعض من مستشاريه على مسالمة الحملة التى لا قبل لهم بمواجهة أسلحتها الفتاكة (وانه لا يدله بمقاومة قتالهـــم بالنار) (87) غير أن عناد اسحاق وجهله وثقته ببعض المشعوذين ممن يدعون السحر جعله يطمئن من أرهبتهم اسلحة النار بأنه (أعد لذلك همسا بسحر ونفثا فى عقد يبطل عملها ويبعث خللها) (88) ومع ذلك فقد تخلى عنه البعض من اقـــرب خواصه أمثال : (على بن عيسى وكان لذلك العهد فى اشياع سكية المصطنعين لـــديــــه) (89) .

وعلى (ثلاث مراحل من كاغو) (90) جرت المعركة فى موضع (يقال تنكندبـــغ وهو فى قرب تندبى) (91) حيث توجد (غابة ملتفة الشجر صعبة المسلك مـــن اشتباك أدواحها فلم يتات لهم قطعها على التعبئة والانتظام بل سلكوها زرافات ووحدانا وما مرقوا منها الا وقد الفوا العدو اخذ مراكزه بحومة الوغى التى بيـــن

---

(83) المصـــدر السابـــق . ص 127 .
(84) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 133 .
(85) السعيدى : تاريخ السودان . ص 139
(86) المصـــدر السابـــق .
(87) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 137 .
(88) المصـــدر السابـــق .
(89) المصـــدر السابـــق . ص 137 .
(90) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 144 .
(91) السعيدى : تاريخ السودان . ص 140 .

يديها ونظم تعبئته نعاجل العساكر الامامية بالقتال من قبل انتظام التعبئة وترتيب المصاف ليثبت بذلك فى عضدهم) (92) .

لم تدم المعركة اكثر من يوم واحد ، اذ انتهت بانتصار القوات المغربية المسلحة بالنار والحديثة التنظيم ، وذلك يوم الثلاثاء 17 جمادى الاولى 99 هـ / 12 مارس 1591 م ومن ميدان المعركة اتجهت الحملة ضد العاصمة كاغو التى فر عنها اسكيا اسحاق (وجاشت العساكر الامامية خلال تلك الديار واجفلوهم عن قاعـــدة ملكهم . . مدينة كاغو واحتل بها الاجناد المنصورية على الطائر الميمون واقلع عنهـا العبد وحاشيته) (93) وكان دخول جودر باشا الى كاغو يوم 20 رجب 999 هـ / 13 ماي 1591 ،حيث خرج منها معظم سكانها (ولم يبق من سكانها الا الخطيب محمود درانى وهو شيخ كبير يومئذ والطلبة ومن لم يقدر على الخروج والهروب مـن التجـــار) (94) .

ولما وصلت البشرى الى مراكش اقيمت الافراح وكتب المنصور الى الجهات المختلفة يزف اليها النبأ العظيم ، ومن ذلك الرسالة التى أرسلها من مراكش يـوم الجمعة 7 شعبان 999 هـ / 31 ماي 1591 والتى تضمنت أخبارا مفصلة عن الاستعداد للحملة الى أن تحقق الظفر والنصر (95) .

اما القوات المغربية المرابطة بكاغو ، فان طبيعة المناخ وتقلباته لم ترقهم (ثم الفوها مستوبئة وخيمة الهواء منحرفة المزاج لا تقتنص بها الصحة الا بشرك عـلاج) (96) وبينما القيادة تبحث عن مخرج اذا بوفد سودانى أرسله اسكيا اسحاق يصل الى كاغو ليعرض على جودر باشا الصلح مقابل الاعتراف بطاعة المنصور والتعهد بارسال خراج سنوي (فى تقبل فئة على خراج ثقيل يضرب عليه التزامه مسانهة . . وئظم نفسه فى طاعة مولانا الامام . . وقدم بـين يـدي نجـواه هدية مولانا الامام المنصور .. تشتمل على عشرة آلاف مثقال ذهبا ومائتى مـن الرقيـــق) (97) .

---

92) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 137
93) المصدر السابق . ص 139 .
94) السعيدى : تاريخ السودان . ص 141 .
95) رسالة المنصور مبشرا بفتح السودان (مناهل الصفا . ص 143) .
96) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 146 .
97) المصدر السابق . ص 147 .

ويبدو أن الظروف قد أجبرت جودر باشا ومن معه على قبول المفاوضة مبدئيا للتعب الذي حل بالقوات المحاربة من طول المسافة وخوض المعارك ، وللامراض التى اصبحت تتعرض لها من جراء المناخ السيىء علاوة على اعلان اسكيا اسحاق طاعة المنصور وتعهده بالخراج السنوي ، وهكذا (انبرم هذا العقد على شرط القبول من مولانا الامام المنصور .. وامضائه لعقدته وان المصير لرايه الكريم فرد وقبول) (98) ثم تراجعت القوات المغربية من كاغو الى تنبكتو ، وكان دخولهم مدينة تنبكتو يوم الخميس 6 شعبان 999 / 30 ماي 1591 . واثناء انتظار جودر باشا لجواب المنصور عمد الى (انشاء الاساطيل والسفن لاقتحام النيل والعبور لعدوته القصوى . . مخافة أن يفاجئهم الراي الكريم بنقض ما ابرموه مع العبد سكية) (99) .

ولما وصل (بشوط على العجمى) الى مراكش حاملا كتاب جودر باشا (نقم عليهم التنفيس من مخنق العبد سكية والافراج عنه .. وقرعهم بالتوبيخ على ما اتوه .. ووقع أيده الله للعبد .. اتمدونني بمال الآية الكريمة الى قوله . . اذلة وهــو صاغرون) (100) .

ترك المنصور جودر باشا على ادارة شؤون البلاد المفتوحة من السودان ، وعين على رأس القوات المحاربة بها محمود باشا بن زرقون الذي ارسله على وجــه السرعة الى تنبكتو التى وصلها يوم الجمعة 26 شوال 999 / 17 غشت 1591 وشرع حالا فى تنظيم القوات المسلحة لمتابعة الحرب ضد اسكيا اسحاق حتى الاستسلام أو القضاء عليــه .

ومن الوسائل التى اتخذها محمود باشا بناء الاساطيل والسفن لعبور نهــر النيجر وللاحقة قوات أسكيا اسحاق ، وقد اصطدم الفريقان فى منطقة (بنب) شمالى نهر النيجر بين مدينتى كاغو وتنبكتو يوم الاثنين 25 دي الحجة 999 / 14 اكتوبر 1591 وانتهت المعركة بانهزام اسحاق وفراره فتوجهت القوات المغربيــة نحو كاغو ومنها (تصاعد محمود باشا مع النيل وبقية العساكر اثر العبد سكية امعانا فى استئصاله) (101) ، خاصة وقد اخذت مقاومته تضعف لتخلى الكثير الكثير من السودانيين عنه ومن ذلك (أخوه فى نحو ثلاثمائة من اخوته ووجوه

---

98) المصدر السابق .
99) النشتالى : مناهل الصفا . ص 147
100) المصــدر السابــق .
101) المصــدر السابــق .

عساكره ورؤساء دولته) (102) الذي اخذ يتعاون مع محمود باشا ضد اخيه اسكيا اسحاق . تابعت القوات المهاجمة مطاردة اسحاق وانتهى بها السير الى (القاعدة الشهيرة الصيت المدعوة كوكية) (103) ، اما اسكيا اسحاق فقد التجا الى (تنفنى عند كفار كرم . . وما تبعه احد من اهل سغـي) (104) . غير أن التهديد باستعمال القوة ضد الذين آووه ، قد اجبرهم على قتله ، او لعل اسحاق انتحر بتجرعه السم خوفا من ان يسلمه هؤلاء الى محمود باشا (فان رؤساء عساكر مولانا . . تقدموا لطواغيث الشرك الذين اووه بالوعيد والانذار ان لم يسلموه ماستبصروا فى أمرهم . . وسقوه كأس الحمام) (105) .

واعتمادا على ما اورده وزير المنصور الفشتالى فى المناهل فقد (انتظمت ممالك السودان فى سلك الطاعة ما بين البحر المحيط من اقصى المغرب الى بـلاد اكنـو المتاخمة لمملكة برنـو) (106) .

ولما كتب محمود باشا الى المنصور بجميع انتصاراته وفتوحاته وبالقضـاء على اسكيا اسحاق (أمر بالمفرحات غدوة وعشيا ثلاثة ايام) (107) وتقدم الشعراء الى تهنئته وتبشيره بقرب دخول العالم العربى الاسلامى تحت طاعته ، وبتحقيق الامنية الغالية : استعادة الاندلس فردوس الاسلام المفقود (108) .

اثناء دراستنا للفتح المغربى للسودان تعترضنا تساؤلات عديدة منها :

1 — مدى تجاوب السودانيين مع الفاتحين المغاربة .

2 — والى اي حد حافظ المغاربة على مقومات السودان الرئيسية وما مدى عدالة حكمهـم .

3 — ومن المسؤول عن خراب البـلاد ؟

كان لنداءات الامان وحسن المعاملة كبير الاثر فى تعامل الفئات المختلفة من العامة فى السودان مع الفاتحين (واخذوا فى التمهيد وتسكين الشارد وتامين الطريد

---

102) المصـدر السابـق . ص 150 .
103) المصدر السابـق .
104) السعيدى : تاريخ السودان . ص 149 .
105) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 152 .
106) المصـدر السابـق .
107) المؤلف المجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 67 .
108) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 159 .

وبسط الهدر وخفض الجناح حتى اطمأنت النفوس المستنة فى مجال القلق واستقرت الانئدة الجائشة بما خامرها من الرهب والذعر الذي ملأ احشاءهم وازاغ ابصارهم واشكت لرحبه مسامعهم من اجل جدة الدولة وثقل الوطاة وجلال السلطان) (109) ويتوالى الايام ازدادت الصلات بين المغاربة والسودانيين وتعدد مجالات تعاونهم (وانحشرت عوالم من دهمائهم لمشاهدتها وارتاع لها اقاصيهم وادانيهم) (110) .

والى جانب الفئات الشعبية هناك العديد من حكام المناطق الذين رحبـــوا بالفاتحين وتعاونوا معهم (وجاز هو على حاله اليهم ومعه جنكى عبد الله بجيشه وسلطان ماسته وسلطان سنقربوبول بجيشهم) (111) . كما اعلنت العواصم الكبرى بيعة المنصور كتمبوكتو (دخلوا فى بيعة السلطان مولاي احمد بسبب هذا الصلح (112) ودجينى (فقام جنى مندبكرن وهو حاكم اسكيا على البلد والقاضى بنب كناتى ، . واعيان البلد من الفقهاء والتجار فكتبوا بقبول تلك البيعة للقائد المصطفـــى) (113) .

وايد الفاتحين ايضا عدد من العلماء السودانيين وفى مقدمتهم قاضى تمبوكتو عمر بن محمود بن عمر ، وخطيب كاغو محمود رامى (وهو شيخ كبير يومئـــذ . . وتلقاهم الخطيب المذكور بالترحيب والاكرام واضافهم ضيافة فاخرة كبيرة) (114) .

اما المتعاونون مع المغاربة من افراد عائلة الاسكيا فكثر من بينهم عدد مـن اخوة اسكيا اسحاق (وكان ممن انخذل عنه فى هذه الوقيعة اخوه (محمد كاغ) فى نحو من ثلاثمائة من اخوته ووجوه عساكر ورؤساء دولته . . راسل اجناد المنصور ليصل يده بأيديهم موريا بالمظاهرة على اخيه . . واجتمعوا به) (115) .

اما عن مدى عدالة الحكم المغربى بالسودان ، فاعتمادا على ما اورده المؤرخ السودانى عبد الرحمن السعيدي فى (تاريخ السودان) ، فان سلوك اغلبية المسؤولين المغاربة كان محمودا : فعندما رفع عبد الله بن شين المحمودي شكواه الى المنصور فى شأن ابل له صادرها جودر (ووافقوا بابل عبد الله بن شين المحمودي

---

(109) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 147 .
(110) المصدر السابق ، ص 148 .
(111) السعيدى : تاريخ السودان ، ص 162
(112) المصدر السابق ، ص 157 .
(113) المصدر السابق ص 158 .
(114) المصدر السابق ص 141 .
(115) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 153 .

فاخذ منهم جودر مقدار حاجتهم فركب وغرب الى الامير مولاي احمد فى مراكش اشتكاء بما ناله منهم من الظلم . . وكتب له ان يعطوه قيمة ما أخذوا من ابله) (116)

ولما اخذت الامور تستقر نسبيا للفاتحين المغاربة حرصوا على الحفاظ على مقومات البلاد ونظمها العامة ، فقد مكنوا أسكيا محمد كاغ من الاساطيل السودانية التى غنمها المغاربة من قبل (من جملة ما وقع الاستيلاء عليه الاساطيل البحرية . . ان احتال على استرجاعها من العساكر واستخلاصها من أيديهم وادلى بانها ملك للرعية الذين شملهم كنف الامان وانه لا يحسن ان يهتضم لهم جناب ولا ينقض عليهم الامان المبذول لهم) (117) كما ابدوا احتراما للاسكيا (وأكرم الباشا سليمان غاية الاكرام حتى جعله أسكيا عليهم (118) الذي كان يتمتع بحرية التصرف (اخذ فى تقليد الاعمال وتفريقها على رجاله وقسمتها بين خدامه) (119) .

ومن الذين اشاد بهم المؤرخ السودانى السعيدي من الحكام المغاربة : الباشا منصور (كان رجلا مباركا عدلا ذا حكم شديد فى الجيش وامسك ايدي الظلمة والفسقة عن المسلمين فصار يحبه الضعفاء والمساكين ويبغضه الفسقة والظالمون) (120) .

الباشا محمد طابع (وهو شيخ كبير من قياد السلطان مولاي عبد الملك ذو معرفة وذو رأي وتدبير) (121) .

الباشا سليمان (كان ذاهمة عالية ورأي فائق وتدبير عجيب وحكم شديد وسار بذلك فى ذلك الجيش كله) (122) .

والقائد مامى فى جنى (ثم جاء القائد مامى بنفسى الى جنى . . وولى عبد الله بن عثمان سلطنة جنى واصلح من امور البلاد ما أصلح) (123) وفى تمبوكتو (ثم رجع القائد مامى لتنبكت وقد استقام الحال بحيث لم يبق فى تلك الناحية ما يشوش البال والحمد لله الكبير المتعادل) (124) .

---

116) السعيدى : تاريخ السودان . ص 139 .
117) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 155 .
118) المصدر السابق . ص 152 .
119) المصدر السابق ، ص 155 .
120) السعيدى : تاريخ السودان . ص 177 .
121) المصدر السابق .
122) المصدر السابق . ص 190 .
123) المصدر السابق . ص 158 .
124) المصدر السابق ، ص 162 .

وعن المسؤول عن خراب البلاد التى (صار الامن فيها خوفا والنعمة عـــذابا وحسرة والعافية بلاء وشدة ودخل الناس يأكل بعضهم بعضا فى جميع الامكنة طولا وعرضا بالاغارة والحرابة على الاموال والنفوس والرقاب فعم ذلك الفســـــاد وانتشر واشتهر) (125) هنـــــال :

1 ــ عناد الاسكيا (اسحاق ونوح) والمحاولات اليائسة التى قاما بها اثناء الحملة المغربية ، ومن ذلك تخريب اسحاق للعاصمة كاغو (وقد كان لما صرف الوجهة تلقاء الاجناد المنصورية سولت له نفسه من عمل العزم ان امر باخلاء كاغو ونسف اقواتها ولم يدع بها عدا نزر من عجزة الرعايا فتركها أقفر من جوف عير خاوية على عروشها) (126) .

2 ــ قيام بعض الحكام المجاورين للسودان بالهجوم على اطراف البلاد فى محاولة للتوسع ، ومن هؤلاء (سنب لمد صاحب دنك فأهلك كثيرا من بلاد راس الماء واكل أموالهم على الاطلاق وقتل من قتل وكسب ما كسب من الاحرار ، وكذلك الاغرانيون اتلفوا بلاد بر وبلاد درم كذلك ، واما ارض جنى فقــد أتلفها كفار بنبر شرقا وغربا يمينا وشمالا اتلافا قبيحا شنيعا وخربوا جميع البلادات ونهبوا جميع الاموال . . ومن رؤساء اولئك الكفر الذين يسوقهم مع هؤلاء الفاسدين القطاعين منس سام فى ارض فدك وماي قاب فى ارض كوكر هؤلاء فى جهة كل واما فى جهة شيلى وجهة بندك ففلان وفلان) (127) .

3 ــ المجاعة التى كانت تنتاب البلاد بين الآونة والاخرى ولا سيما فى السنـــوات العشر الاخيرة من القرن العاشر للهجرة والمضاعفـــات الخطيرة التـــــى تخلفها فى شتى مجالات الحيـــاة .

4 ــ لم تكن بلاد السودان على مستوى عال من التطور الحضاري (فدار شيخ الحمارة فى المغرب خير من دار اسكيا التى طالعوها) (128) .

لقد اظهر المغاربة منذ اليوم الاول لفتح السودان حرصا كبيرا على اقرار الامن فى البلاد ، ولم يتوانوا عن ملاحقة الخارجين عنهم ، الذين حاولوا بث الرعـــب

---

125) السعدى : تاريخ السودان ، ص 143 .
126) النشتالى : مناهل الصفا . ص 150 .
127) السعدى : تاريخ السودان . ص 143 .
128) المصدر السابق . ص 141 .

والقيام بأعمال القتل والتخريب (فانتبذوا لبعض الاطراف الشاسعة من هـــذه الممالك فكان منهم بعض عيث شبوا ناره) (129) .

ولمواجهة هذه الاحداث قاموا بتفتيش المناطق وبعض المنازل بحثاً عن المتمردين والاسلحة (ثم برحوا فى البلد ان الباشا يدخل فى ديار الناس غدا فاي دار وجد فيها السلاح فلا يلوم ربها الا نفسه . . فدخلوا ديار البلد وفتشوها جميعا) (130) .

ويبدو ان هذا التصرف قد اغضب بعض السودانيين وخاصة العلماء بمدينة تمبوكتو ، وان تذمرهم قد قوبل بنوع من الشدة لما ادرك الحكام المغاربة ان الامر سيتطور الى ما لا تحمد عقباه . (فقال لم يبق الا الفقهاء . . فلما اجتمع الناس فى الجامع غدا اغلقت الابواب واخرج الناس الا الفقهاء .. قبضهم الباشا محمود .. واسرهـــم وامر بهم الى القصبة .. ثم شرع فى تسفيط الفقهاء الى مراكش) (130) .

ومن جهة اخرى واجه الفاتحون الهجومات الخارجية على اطراف السودان والحقوا بالمهاجمين خسائر متوالية ، ومن هؤلاء (سلطان محمود صاحب ملى تجهز لغزو اهل مدينة جنى فبعث مرسوله لكل ساع بكر يعلمه بذلك وطلب منه المساعدة عليها وهو فى بلد كنتى يومئذ . . فهزموا ملى وعسكره فى طرفة عين .. ثم قام الجيش المغربى بملاحقتهم) (131) .

وخلال قيام القوات المغربية بعمليات اقرار الامن ، اظهر البعض من المغاربة نوعا من الشدة والصرامة استنكرها المنصور نفسه لما اطلع عليها وسعى الـــى معاقبة مرتكبيها (فاخبر السلطان مولاي احمد بما يفعل محمود من التعديات حتى قال انه لا يعرف الا سيفه . . فغضب السلطان غضبا شديدا فقال رجعت لا انصر فى السودان الا بسيف هذا الملعون . . ثم ان السلطان مولاي أحمد بعث القائد منصور بن عبـــد الرحمن الى ارض السودان برســـم قبض محمود بن زرقـــون وقتلــــه) (132) . ولم يغفل الفاتحون المغاربة عن دورهم الرئيسى فى حماية الاسلام والقيام بنشره فى المناطق النائية من بلاد السودان وخاصة تلك التى كانت تتعرض لغزو التبشير المسيحى (هؤلاء اهل كذا لما انتهى الفتح فى الجنوب الى من يليهم . . لم نزل لذلك فى كل اوان نقدم اليهم مقدمات الاعذار .. ولما رايناهم قد

---

(129) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 157 .
(130) السعيدى : تاريخ السودان . ص 170
(131) المصـــدر السابـــق . ص 182 .
(132) المصدر السابق . ص 175

اتوا من الغواية .. من النزوع الى دين النصرانية واستبدال الملة التوحيدية بالملة التثليثية ..) (133) وبانتهاء أعمال الفتوحات (اجتمعت اليوم بحمد الله بانتظام هذه الممالك كلمة الاسلام وارتقى الامر بحول الله الى الكمال) .

* * *

الحكم المغربي للسودان :

1) التنظيم الاداري المغربي بالسودان :

اوجد المنصور بالسودان ادارة خاصة لا تخلو فى مجموعها من تاثيرات تركية : فقد جعلت بلاد السودان باشوية ، وتولى حكمها ولاة يحمل كل منهم لقب باشا ، كما تم الفصل بين السلطات الادارية والعسكرية والمالية والقضائية سعيا من المنصور الى تنظيم البلاد واقرار دعائم الحكم المغربى بها ونشر الامن فى ربوعها ، لما للاستقرار من أثر فى المجالين الاقتصادي والعمرانى ، وحرصا منه على التبعية السياسية وعدم استبداد الولاة بالمنطقة من جهة اخرى .

وخلال عهد المنصور تولى الحكم بالسودان سبعة باشوات هم : جودر ، محمود ، منصور ، طابع ، عمار وسليمان : منهم من تولى السلطة الادارية وحدها ومنهم من جمع الادارة ورئاسة الجيش مثل جودر وعمار وسليمان . وقد فرضت طبيعة الفتح ومواجهة المتمردين ظهور القادة العسكريين واتسام الادارة المغربية بالطابع العسكري ، وكثيرا ما كان استمرار حكم الواحد منهم يتوقف على مدى نجاحه فى مامورياته العسكرية بالدرجة الاولى .

وجميع هؤلاء الباشوات اتخذوا مدينة تنبكتو عاصمة لهم : لموقعها الستراتيجى كنقطة انطلاق نحو جهات السودان ولتوسطها المدينتين الرئيسيتين بالنيجر الاوسط كاغوو دجينى . والى جانب الباشوات هناك فى كل مدينة :

الوالى او القائد : ينوب عن الباشا ومهمته السهر على الشؤون السياسيه والادارية فى المدينة : فالباشا محمود قبل توجهه الى محاربة اسكيا اسحاق عين على

---

133) من رسالة مبتورة للمنصور .
دار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 187 .

تنبكتو (القائد مصطفى التركى فخلفه محمود على تنبكت) وعلى كاغو (القائد حم بركة وقد خلفه على ذلك البلد) وعلى دجينى (على العجمى دجينى) (134) .

الامين : وقد كان مكلفا بأمور المال فى المدينة ، والمنصور هو الذي كان يعين هؤلاء فهم مسؤولون أمامه وحده ، ومن الامناء : (حم بن عبد الحق الدرعى فى تنبكت) وخلفه (الحسن بن الزبير) و (أنفاس الدرعى فى دجينى) (135) . وهؤلاء الامناء كانوا يضبطون الموارد والمصروفات فى دفاتر خاصة (فلما وصل القائد حم حق عرض عليه الجرائد راي فيها كثيرا من الاموال) (136) .

القاضى : للفصل فى أمور الشرع ، ومن القضاة المغاربة فى دجينى (أحمد الفيلالى) (137) .

الحامية العسكرية : اوجد المنصور بكل مدينة حامية عسكرية مهمتها الدفاع عن المدينة ضد الهجومات الخارجية ، وقد كانت الحاميات تقيم فى قلاع وحصون خاصة .

والى جانب حاميات المدن ، هناك حاميات اخرى منبثة فى مناطق السودان الخاضعة للمغاربة : وهى تحرص على تأمين المواصلات وتوطيد أسس الحكم المغربى ، وتسهر فى نفس الوقت على حماية بعض المناجم والمعادن الثمينة التى كان المغاربة يستغلونها بالسودان (138) .

وخلال حكم المنصور للسودان لم تخل سنة من السنوات الثلاث عشرة (99 — 1012 هـ) من ارسال القوات المسلحة المغربية الى تنبكتو ، وقد تفاوت عددها اعتبارا للظروف الداخلية ، ومدى الحاجة الماسة اليها ، واعتمادا على ما أورده الشيخ أحمد بابا السودانى المعاصر ، نقلا عن الامير زيدان بن المولى أحمد المنصور (فان نهاية الرجال الذين صرفهم والده فى المحلات من لدن الباشا جودار الى الباشا سليمان ثلاثة وعشرين الفا من خيار جيشه وهى مقيدة فى الزمام) (139) . وقد تمكنت القوات المغربية من اخضاع أهم الاقاليم

---

134) السعيدى : تاريخ السودان . ص 162 .
135) المصدر السابق . ص 174 .
136) المصدر السابق .
137) السعيدى : تاريخ السودان . ص 159 .
138) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 197
139) السعيدى : تاريخ السودان . ص 191 .

السودانية وضمها الى الامبراطورية المغربيـــة (جالت العسـاكر خلال الاقطـــار السودانية واثبتت راياتها فى آفاقها الشاسعة والدانية وسارت تطوي ممالكهـــا بسيف التدويخ والتمهيد أرضا وغورا ونجدا وسهلا وحزنا حتى استوعبت التمهيد . . واقتضت الخراج وانتظمت ممالك السودان فى سلك الطاعة ما بين البحر المحيط من اتصى المغرب الى بلاد اكنو المتاخمة لمملكة برنو . . وتنتهى مملكة برنـــو هـــذه . . الى بلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصـــر) (140) .

الاستغــلال الاقتصـــادي :

ان من العوامل الرئيسية التى دفعت المنصور الى فتح السودان : استغلال موارده الطبيعية (المعينة بخراجها المستبحر ومعادن الذهب علـــى التوسـع فى الانفاق الذي لا يخشى عيلة ولا فترا) (141) ، والبشرية (وبالسودان الاعظـــم المستاق من رقيقها على تسخير المجاذيف الثقيلة بالاساطيل) (142) ، وذلك من اجل (أن يبلغ أمل الاسلام في الجهاد ويفتح من ارض الاندلس اقصى البلاد والاقطار البعاد) (143) ، اي ان المنصور لم يكن يخفى عن حاشيته أمانية البعيدة فـــى استغلال موارد السودان العظيمة لتأسيس امبراطورية واسعة الارجاء وغنية بغربى افريقية ، بما فى ذلك العمل على استرجاع الاندلس الى حظيرة الاسلام : فما مقدار استغلال المنصور لبلاد السودان ؟ والى اي مدى وصل المنصور فى تحقيق أمانيه؟

تؤكد المصادر والوثائـــق المعاصرة بأن المنصور وادارته بالسودان ، قـــد استغلت مورد البلاد وخيراتها استغلالا واسعا :

فعلى اثر انهزام اسكيا اسحاق للمرة الاولى وتقدمه بعروض الصلح لجودار باشا (قدم بين يدي نجواه هدية مولانا الامام المنصور . . تشتمل على عشرة آلاف مثقال ذهبا ومائتين من الرقيق) (144) .

وبعد دخول محمود باشا الى تنبكتو قام بجمع (الاموال والمتاع والاثاث التى لا يحصيها الا الله ما بين املاكهم وأملاك سائر الناس من الودايع . . وانفسد الباشا محمود جميع المال فشتتها شذر مذر وتكرم بها للرماة ولم يبعث للسلطان مولاي

---

(140) الفشتالـي : مناهل الصفا ، ص 164 .
(141) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 197 .
(142) المصـــدرالسابـق .
(143) المصـــدر السابـــق .
(144) المصدر السابق ، ص 147

احمد الا مائة الف ذهبا) (145) . كما بعث (اثنى عشر مائة مملوك من الجـــواي والغلمان واربعين حملامن التبر واربعة سروج من الذهب واحمالا كثيرة من العاج والبينوز وكور غالية وقطوط الغالية وذخائر السودان فتدخر من ذلك مولاي اجمـــد الذهبى وقوى ملكه وبقيت جباية السودان ثابتة كل سنة) (146) .

وفى عام 1006 هـ / 1598 (رجع الامين القائد الحسن بن الزبير الى مراكش بمال عظيم الذي حصل من خراج الارض فى ثلاثة أعوام) (147) .

اما جودار باشا فقد حمل معه من السودان سنة 1007 / 1599 (عشرة آلاف عبد وعشرة آلاف جارية كلهن فى سن البلوغ واربعمائة حمل من التبر والف حمل من عظم الفيل وكسوة السودان وطرفه واربعة افيال . . فكان دخول جودار باشا لمراكش يوما مشهودا) (148) .

ولما تولى الباشا منصور بن عبد الرحمن وهزم أسكيا نوح عام 1003 هـ ، فسبى القائد منصور ذكورا واناثا كبارا وصغارا قنين وقنينات فرجـــع بالجميـــع الى تنبكت) وبعد ان كاتب المنصور بذلك أمره بتوجيه السبايا الى مراكش (ونؤكد عليكم أن تنظروا فيما عليه استوليتم من ذخائر العبد نوح واثاثه ، وبجميع أمتعتـــه وآلاته ، فكل ما يليق من ذلك بمقامنا العلى توجهه لابوابنا الشريفة ، وتسديه لمثابتنا العلية المنيفة بحال الفور والبدار . . وأولاد سكية فالذكور منهم ابعث بهـــم كافـــة لمقامنا العلى واما الاناث فابحثوا فى أمر آل سكية فان صح عنهم ما قرع اسماعنا الشريفة من كون أصلهم مماليك تحت الرق وان ذلك صحيح ورقهم عند النـــاس صريح وكان فيهن من تليق بمقامنا العلى ابعثها والا فلا) (149) .

وفيما يتعلق بالاستثمار الفلاحى : فالمنصور كان يرمى الى تنمية الزراعة وتطويرها فى بلاد السودان بتحسين وسائل الري واستثمار الاراضى الخصبـــة (وهو أنه يمكن منه اقتطاع الخلجان والانهار المغلقة المشعبة المذانب والجداول واعلى البسائط مناسبة الاراقم خلال الاباطح والوهاد التى تغل ضروب المزارع وتنتظم عليها الحدائق الغلب من البساتين ومعروش الشجر والثمار والادواح الاشبه

---

145) السعيدى : تاريخ السودان ، ص 171 .
146) المصـــدر السابـــــق .
147) المصدر السابـق ، ص 178 .
148) المصدر السابـق .
149) رسالة المنصور الى القائد منصور باشا بالسودان ، (رسائل سعدية ، ص 172 .

ملتفة الاغصان والرياض المفوفة الخمائل الموشعة البرود بضروب الزهر الغض والرياحين الانيقة التى يمكن اتصالها فراسخ وبردا فتعفى على واسطة الاقاليم زكاء نبت وكرم تربة وجموم اقوات وحبوب وفواكه جنية قطوفها دانية) (150) ، وقد شرع المغاربة فعلا فى تنفيذ ذلك (فمحمود باشا اخذ فى انشاء نهر اجتلبه من غمره واقتطعه من تياره ويمكن ذلك غير ما موضع منه ، وعى قريب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزهو على جلق وشط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتمير القاصى والدانى من اقاليم السودان) (151) .

اما الاهالى فقد بدأ استخدامهم فى المرافق المختلفة المدنية والعسكرية (دفع المنصور نصف العبدان لرؤساء البحر يركبون فيه ويخدمون معهم ليتدربوا على سفره والنصف الآخر أعطاهم السلاح والخيل وزوجهم بالجواري) (152) .

وهكذا سار المنصور بعيدا فى استغلال ثروات السودان وخيراتها فقد (حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لا يعطى فى الرواتب الا النضار الصافى والدينار الوافى . وكانت ببابه كل يوم اربع عشرة مائة مطرقة تضرب الدينار دون ما هو معدود لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلى وشبه ذلك ، ولاجل ذلك لقب بالذهبى لفيضان الذهب فى زمانه) (153) .

واعتمادا على الوثائق المعاصرة فان مجموع ما كان يتوصل به المنصور من ذهب السودان قد بلغ نحو الستين قنطارا فى كل سنة (154) .

---

150) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 166 .
151) المصدر السابق . ص 167 .
152) المصدر السابق .
153) الافرانى : نزهة الحادى . ص 125 .
154) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 ص 367

الفصل الثالث عشر

تطور العلاقات الخارجية للأمبراطورية المغربية

اصبح المولى احمد المنصور امبراطورا تدين لطاعته بلاد واسعة من شمالى غربى افريقيا : وهذه الامبراطورية تميزت باهمية الموقع بالنسبة لقلب القارة الافريقية ، وبستراتيجية السواحل التى تمتد مئات الكيلومترات على ضفاف المحيط الاطلسى ، الامر الذي جعل المنصور يشرف على أعظم طرق المواصلات البرية والبحرية الواصلة بين أوربا الغربية والشرقين : الاوسط والاقصى :

ففتح السودان ونشر النفوذ المغربى فى بلاد الحوصا وبرنو حتى تشاد قد وضع طريق القوافل الواصلة بين السودان والمغرب من جهة وبين افريقية الشرقية ومصر من جهة اخرى تحت رحمة المنصور ومراقبته وشجعه على التمادي فى فتوحاته بالصحراء الافريقية وبلاد السودان وعلى امتداد هذا الطريق التجارية الهامة ، التى اصبحت اساسية لضعف الطريق البحرية المتوسطية بسبب انتشار القرصنة وغداة التوسع التركى فى الشمالى الافريقى .

واما استراتيجية السواحل فتبدو بكل وضوح عندما نعلم بان المحيط الاطلسى قد اصبح الادارة الاولى للمواصلات البحرية بين اوربا الغربية الناهضة والشرق الاقصى وان الاساطيل الاوربية فى ذهابها وايابها كانت تمر محادية للسواحل الافريقية الغربية بما فى ذلك سواحل بلاد السودان والمغرب .

وقد كان لامتداد امبراطورية المنصور على المحيط الاطلسى اثر كبير فى خلق اسطول مغربى ، وفى ضرورة دخول المغرب عالم البحار الذي كان الاوربيون يحتكرون عالمه الفسيح وكل ما يتعلق بالمواصلات وحركات الكشوف البحرية ،

وكذا فيما يرجع الى دور الاسطول فى حماية الشواطىء والدفاع عن البلاد والتوسع فيما وراء البحار . وزاد من رغبة المنصور هذه ، انهزام الاسبان فى الارمادا وفقدهم لمعظم قواتهم البحرية ، ثم صلاته القوية مع الانجليز الذين اشتهروا بصناعة السفن وركوب البحار علاوة على ما يتوفر عليه المغرب من امكانيات ضخمة مادية وبشرية لتحقيق ذلك (وهو اليوم أيده الله لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل .. قوى الاسر بحمد الله ... بما أتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية المعينة بخراجها المستبحر ومعادن الذهب . . وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها على تسخير المجاذيف الثقيلة بالاساطيل كأجنحة الطير خفقانا وسرعة وطيرانا) (1).

والاهتمام بخلق القوى البحرية تجلى فى نواح عديدة أهمها : بناء الدور لصناعة السفن وتحصين القواعد البحرية المهياة لرسوها (ولما كمل بناء حصن الفتح . . من مرسى العرائش نقله إليه وأنزله بـــه) (2) .

ثم اصدار الظهائر التنظيمية لقيادة الاسطول وطرق العمل فى البحر (هذا ظهير كريم رفع للجهاد اعز منـــار . . وهيأ للجواري المنشآت ثبـــج البحـــار أمـــر به عبد الله تعالى امير المومنين .. للرايس .. ابراهيم الشط .. ولما كان ممن علمت كفايته ، واشتهرت فى الجهاد عنايته .. راء ايده الله أن يقلده قيادة الاسطول) (3) .

وقد كان الاسطول المغربى الناشىء يتكون من عدد كبير من القطـــع البحرية اهمها : (القطائع والشوانى) (4) وهى مراكب معدة للجهاد فى البحر لما كانت تتوفر عليه من أسلحة نارية وقوات محاربـــة .

والجدير بالاشارة هو أن المنصور قد حاول اغتنام فرصة تقرب الانجليز منه ، وتقدم اليهم بمطالب تهدف جميعها الى تعزيز الاسطول المغربى وتقويته فقـــد طلب منهم مساعدته بالخبراء والصناع المهرة الانجليز) ، الا أن البريطانيين قـــد سكتوا عن هذه المطالب ، وما كان لهم أن يساعدوا المنصور على خلق اسطول مغربى يدركون قبل غيرهم عواقب وجوده سياسيا واقتصاديا ، وسكوتهم هذا دفع

---

1) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 197 .
2) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 197
3) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 204 .
4) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 197 .

المنصور الى الاعتماد على امكانياته الخاصة ، وكان من العوامل الاساسية فى تراجع المولى احمد عن سياسة التعاون معهم ضد الاسبان .

* * *

واما الرفاهية الاقتصادية التـــى اصبحت عليها دولة المنصور بعد فتـــح السودان ، فقد كانت نتيجة الموارد الضخمة التى اصبحت خزائن المولى احمـــد تتلقاها بين الفينة والاخرى من مناطق الامبراطورية وبلاد السودان بوجه خاص ، ولكثرة الغنى ولشيوع الذهب اصبح المنصور (الامبراطور الذهبى) : فانفتحت امامه آفاق واسعة وظهرت مشروعات ضخمة كان من أهمها الاعتناء بالاسطول وتقويته ، كما ازداد عدد المتقربين منه والراغبين فى التعاون معه ، وكل هذا زاد من اهمية المنصور ورفع من قيمة دولته وامبراطوريته وجعل له وزنا خاصا فى العالم الخارجى (وهو اليوم أيده الله لهذا العهد . . وافر العدد والمدد مراش الجناح بما اتيح له . . من معادن الذهب على التوسع فى الانفاق الذي لا يخشى عيلة ولا فقرا) (5) واعتمادا على وثيقة معاصرة أرسلها المبعوث الانجليزي Lawrence Madoc فى مراكش خلال سبتمبر 1594 ، فان المنصور قد أصبح اغنى حاكم فى العالم (6) .

وكان الرفاه الاقتصادي ايضا نتيجة السيطرة التى اصبحت للمغرب علـــى الطريـــق التجاري الصحراوي الواصل بين السودان غربا وبحيرة تشاد ومصـــر شرقا عبر نيسيبت وتيكوات واكاديس وبرنو وتشاد والسودان ، وقد اشـــار الفشتالى وزير المنصور الى الامال العريضة التى أصبح المنصور يعلقهـــا علـــى استغلال السودان وتصريف منتوجاته عبر هذا الطريق (وعن قريب ان شاء اللـــه تعود تلك الامصار تزهو على جلق وشط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتميـــر القاصى والدانى من اقاليم السودان) (7) .

على أن تنوع اقاليم الامبراطورية المغربية وتعدد منتوجاتها من شأنه ان يساعد على خلق رواج تجاري عظيم فى الداخل ، ويزيد من تمتين الروابط بـــين اجـــزاء الامبراطورية واحكام الصلات بين مناطقها ، ويرغب بالتالى التجار الاجانب على الاقبال على المغرب للمتاجرة معه ، وكل هذه التطورات فى صالح الاقتصاد المغربى ومن

---

5) المصـــدر السابـــق .
6) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 86
7) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 167 .

عوامل ازدهاره ونموه ، اذ من شأنها أن تجعل امبراطورية المنصور صلة الوصل وحلقة الاتصال بين القارة الافريقية الغنية وبين شعوب ودول العالم فى الشرق والغرب ، فتزداد غنى واهمية ويزداد المولى أحمد بالتالى قوة وعظمة .

* * *

وبالنسبة للتطور الحضاري والعمرانى : فشيوع الغنى والرفاهية قد فتح مجالات واسعة للعمل أمام طبقات العامة فى ميادين الفلاحة والصناعة والتجارة ومختلف الحرف اليدوية ، او كجنود نظاميين فى قوات المنصور المحاربة ، وترك اعظم الاثر فى طبقات المجتمع وفى انماط الحياة المغربية الى حد أن دولة المنصور امتازت عن غيرها بأنها الدولة التى (اثرت العديم واكسبت المحروم) (8) ، وبديهى أن شيوع الامن والاستقرار وانتعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية من شأنه أن يهىء الجو المساعد لتطور ثقافى وفكري عظيم .

ورغم اننا لسنا فى معرض الحديث عن المظاهر الحضارية فى عصر المنصور الا ان التعرض الى مختلف هذه النواحى من شأنه أن يساعد الى حد كبير ، ولا سيما عند دراسة وضعية الامبراطور المنصور ، على التعرف على كثير من حقائق هذا العهد من حيث الوقوف على امكانيات المنصور المادية والبشرية العظيمة ، والمرامى البعيدة التى كان يهدف الى تحقيقها فى الداخل والخارج .

اهم ما يلاحظ على سياسة المنصور الخارجية منذ نجاحه فى فتح السودان وتأسيس امبراطورية واسعة ، السعى الى المحافظة على روابط الود مع قوى الشرق والغرب ، بدافع الرغبة فى التوسع وبسط النفوذ فى المناطق الافريقية الداخلية ، ولاستغلال خيرات البلاد المفتوحة ، ثم العمل فى نفس الوقت على تقوية الدولة المغربية وتوطيد دعائم قوتها ليظهر المولى احمد المنصور دائما بمظهر الحاكم القوي الذي يخشى هيبته وترجى مساعدته .

على أن ظروف المنصور الجديدة قد فتحت أمامه آفاقا واسعة اذ أصبح فى وضعية استلزمت تخطيط سياسة خارجية خاصة ، تتمشى والحدود الجديدة لامبراطوريته سواء فيما يرجع الى علاقاته مع الاتراك العثمانيين أو فيما يتعلق بمواقفه من النزاع بين المعسكرين البروتستانتى والكاثوليكى بأوربا الغربية .

---

8) المصدر السابق ، ص 178

اولا ــ العــلاقــات المغربيــة ــ الاسبانيــة :

انحصرت مشاغل فيليب الثانى ملك اسبانيا منذ انهزامه فى الارمادا ، فى نقطتين رئيسيتين :

1 ــ الحيلولة دون قيام تعاون عسكري مغربى ــ انجليزي ، اذ كان الاسبان يدركون جيدا الاضرار التى ستلحقهم بانضمام المغرب الى المعسكر البروتستانتى، وتعاونه مع الانجليز والفرنسيين والهولانديين ، فمن شأن هذا التعاون أن يفتح عليهم واجهة جديدة للقتال بجنوبى اسبانيا ويهدد قواعد احتلالهــــم بشمالى المغرب للخطر ، وان يعرض سفنهم لاعمال السطو والقرصنة أثناء عبورها لشواطىء المغرب الاطلسية ، وقد كان الاسبان يخشون أيضا حصول اتصال وتعاون بين المغاربة و (الموريسكوس) المنتشرين فى جميــع انحـــاء اسبانيا والذين كانوا على استعداد دوما للثورة وحمل السلاح لروح التعصب الدينى التى طغت على الحكام الاسبانيين ، ولاعمال الاضطهاد والتعسف التى كانوا ينزلونها بالموريكسوس وبكل الطوائف الغير الكاثوليكية .

ولاجل ذلك سعى فيليب الثانى ونجحت مساعيه فى التفريق بين المغاربة والانجليز وابقاء المنصور على الحياد بالتنازل له عن مدينة أصيلا دون قتال وعدم خلق اية مصاعب ضده فى الداخل رغم ايوائه لاميرين سعديين يقـــدر المنصور جيدا خطورتهما عليه . وبث عوامل الشك فى نفس المنصور وتحذيره من نوايا الانجليز الحقيقية ، خصوصا بعد التجائهم الى السلطان العثمانى الذي وجد فى ذلك فرصة سانحة للتدخل فى المغرب ، ثم بالاعراب له دوما عن الاستعـــداد الكامـــل لمســـاعـــدتــــه ضـــــد اي تدخـــل تـــركـــــى . ولما كان المنصور حريصا علــى التوســع بالســـودان وغربـــى افريقيـــة بالدرجة الاولى ، فقد اكد للاسبان تمسكه بحسن الجوار معهم ومحافظته على الروابط الودية القائمة بينهما ، ولم يكن فيليب الثانى يأمل من المنصور يومئذ اكثر من ذلك حتى ينطلق بعيدا فى حروبه الدينية بأوربا الغربية .

2 ــ السعى الى الانتقام من خصومه بأوربا الغربية والثار لهزيمة الارمادا : فقد تبلورت الحروب الدينيـــة فى أوربا الغربية بين المعسكريـــن الكاثوليكــــى والبروتستانتى واتخذت صفة صراع مسلح مرير وقاسى بين فيليب الثانى ملك اسبانيا وزعيم المذهب الكاثوليكى من جهة ، وبين الملوك البروتستانت :

ايليزابيت ملكة انجلتيرا ، ومريس ناسو زعيم هولاندا وهنري الرابع ملك فرنسا من جهة اخرى ، ولم يتوان كل من المعسكرين فى البحث عن الوسائل الداخلية والخارجية التى تضمن له الفوز والنصر ، ومن ذلك اتصالاتهم العديدة مع المولى احمد المنصور بمراكش .

واهم الميادين التى اصطدمت فيها قوى الجانبين : الاقاليم الشمالية من الاراضى المنخفضة (هولاندا) بعد سيطرة القوات الاسبانية على الاقاليم الجنوبية منها (بلجيكا) ، حيث اتخذ المقاومون الهولانديون من الطبيعـــة وتضاريسها الصعبة عوامل مساعدة لمحاربة الاسبان ، كما ان قرب هولاندا من انجلترا ساعد الانجليز على مد الثوار بالاسلحة والمؤن والرجال .

وفى منطقة نورماندي الفرنسية التى كانت تمر منها مختلف المساعدات الانجليزية العسكرية الى هنري الرابع ملك فرنسا . ثم الاراضى الجنوبية من فرنسا لمجاورتها لاسبانيا . ورغم تظاهر القوات الاسبانية التى كانت تحارب فى فرنسا تحت قيادة Alexendre Fornès بمساعدة العصبة الكاثوليكية الفرنسية ضد هنري الرابع وانصاره البروتستانت فانها كانت تعمل فى الواقع على اقرار دعائم الحكم الاسبانى بهذه البلاد وبالتالى ضم العرش الفرنسى الى التاج الاسبانى بدعوى توحيد الجبهة المسيحية الكاثوليكية بأوربا الغربية ضد بدعة الاصلاح الدينى البروتستانتى .

وتنفيذا لذلك وضعت منذ سنة 1591 حاميات عسكرية اسبانية فى فرنسا ولا سيما فى العاصمة باريز وانتشرت القوات الاسبانية فى مختلف المناطق الفرنسية لمحاربة البروتستانت والقضاء عليهم .

وكوسيلة لاحباط مساعى فيليب الثانى ، اقلع هنري الرابع فى شهــر ماي 1593 (بسان دونيس) عن العقيدة البروتستانتية واعلن عودته الى المذهب الكاثوليكى فأيد معظم الفرنسيين الذين كانوا يرغبون فى تأسيــس ملكية قومية وقوية بفرنسا موقف هنري الرابع فى حين أن فيليب الثانى قد أمر قواته بمواصلة القتال مما يؤكد بأن العاطفة الدينية عند العامة قــد استغلت من قبل الساسة ورجال الحكم فى اوربا الغربية الى حــــد بعيــد ، لتحقيق الكثير من الاغراض السياسية والاهداف التوسعية .

ثانيـا ــ العلاقــات المغربيــة ــ الانجليزيــة :

كان الانجليز يعقدون آمالا عريضة على تدخل القوات المغربية الى جانبهم فى محاربة الاسبان : اذ سيضمنون بانضمام المنصور حليفا قويا ويحصلون على قواعد استراتيجية قريبة من الاراضى الاسبانية ، ويفتحون بالتالى ضد فيليب الثانـى جبهة جديدة ، مما يضمن لهم الانتصار على الاسبان ويحقق لهم التدخل خاصة فى بلاد البرتغال لاعادة الامير دون انطونيو الى عرشه بلشبونة . وقد خابت كل هذه الآمال لان المولى احمد لم يكن جادا فى التدخل لصالح أي من الفريقين المتحاربين بقدر ما كان يرى فى ذلك الفرصة المناسبة للتوسع فى افريقية الغربية وبـلاد السـودان .

ورغم تدخل الانجليز لدى السلطان العثمانى للضغط على المنصو ودفعه الى محاربة الاسبان ، فان المولى أحمد لم يغير من موقفه الخارجى ، وكل ما نجح فيه الانجليز هو ارغامه على ارجاع الامير دون كريستوف الى لندن بعد أن ذهبت بهم الظنون بعيدا أو خشوا أن يدخل المنصور فى مساومة مع فيليب الثانى علـى حساب اللاجىء البرتغالى .

واعتمادا على رسالة المنصور الى ايليزابيت فى منتصف ربيع الثانى عام الف للهجرة الموافق لفبراير 1592 م ، فان المولى احمد لا يزال مستعدا لتلبية كل مطالب الملكة (والى هذا الذي يتقرر لديكم وتشدون عليه بكلتا يديكم أن مسائلكم عندنـا كلها جليلها وحقيرها واموركم بأسرها كبيرها وصغيرها متلقاة عندنا بوجه الاعتناء والاهتبال ومقابلة من على مقامنا بجميل الترحيب والاقبال بحيث تثقون كل الوثوق بأن هذا الجناب ما لكم فيه الا الخير والرضى والموالاة بالوجه الجميل المرتضى) .

وان فى فتح السودان قوة للمغرب حليف بريطانيا (ولا يخفاكم أن زيادتهما زيادة ايضا فى قوتكم وعائدة ان شاء الله بمصلحتكم) ، وعاملا مساعدا على تحقيق ما يسعى المغرب وانجلترا الى تحقيقه (ومدد من الله معين على المسألة التى اهمتنا واهمتكـم) .

ومن مقترحات المنصور تحديد خطة مضبوطة (ونحن لم نزل على ما عملنا معكم لكن على أن تعينوا السلطان المذكور الاعانة التى نثق بها ونعتقد بحصانة سبيلها اذ لا يحسن أن نجتمع نحن وانتم على أمر ولا ينتج ويقع تظاهرنا على مسألة ولا تستفتح من مغلقهـا) (9) .

---

9) رسالة المصور الى ايليزابيت . تطوان عدد (3 ــ 4) ــ ص 55 .

ويختم المنصور رسالته مخبرا بلقائه القريب مع ابنه محمد الشيخ بفاس وبأنه سيوجه سفارة خاصة الى لندن لتطلعها على تفاصيل ذلك .

على ان خيبة امل الانجليز فى المنصور قد احدثت لديهم ردود فعل عديدة سواء فيما يرجع الى علاقات ايليزابيت مع المنصور او فيما يتعلق بمتاجرتهم مع المغرب وقد قلت لاجل ذلك التقارير السياسية فى الوثائق الانجليزية عن المغرب وحصل نوع من الضعف فى العلاقات بين البلدين استمر عدة سنوات ، خاصة وان كلا من الحاكمين قد اتجه الى معالجة قضايا الداخلية ومشاغله الخارجية : ولئن انشغل المنصور بالسودان وتوطيد حكمه بها ، فان الانجليز قد وجهوا كامل عنايتهم الى تقوية اسطولهم وتطويره ليصبح قادرا على تحمل الاسفار البعيدة الى حيث الغنى والذهب فى العالم الجديد ، والتوابل والمنتوجات الثمينة فى الشرق الاقصى ، كما اولوا اهتماما متزايدا بتنمية بلادهم الاقتصادية بعد الهجرة الواسعة التى عرفتها انجلترا للصناع والتجار والعمال من مختلف جهات الفلاندر ، بسبب الحروب القائمة هناك وما اعقب ذلك من اقامة للمصانع والمعامل ودور للتجارة الداخلية مما اثر على اقتصاديات انجلترا وأهلها لتصبح المركز الاول للمنتوجات الصوفية وغيرها فى اوربا ، وساعدها ايضا على تأسيس الشركات التجارية الواسعة فى مختلف مناطق العالم . وقد كانت حصيلة ذلك كله ان مظاهر الترف والغنى قد اخذت تعم مختلف نواحى المجتمع الانجليزي الى الحد الذي جعل سفير البندقيه فى لندن يكتب الى حكومته بأن البلاد مجهزة بكل ما هى بحاجة اليه وان الحقيقة تلزمنا القول بأنه لا مجال للفقر بالبلاد (10) .

ثالثا -- العلاقات المغربية — التركية :

حصل نوع من التطور فى سياسة المنصور الخارجية اثر اندفاعه فى التعاون مع الانجليز ضد الاسبان ولصالح القضية البرتغالية ، فقد اخذ يلوح فى الافق بأن تقاربا قويا وتعاونا فعالا سيحصل بين المنصور ومراد الثالث ، وأن الانجليز سيلعبون دورا هاما فى تقريب وجهات النظر المغربية — التركية ، للروابط الودية والمصالح الاقتصادية التى كانت تربطهم مع كل من الاتراك فى المشرق والسعديين فى المغرب ، الا أن المنصور الذي كان يسعى جاهدا الى اغتنام ظروف انهزام الاسبان فى الارمادا وفقدهم لمعظم قواتهم البحرية المسلحة ، وتقرب الانجليز منه لصالح

---

(10) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 257

الامير دون انطونيو البرتغالى ضد الاسبان ، ثم تظاهره بمسالمة الاتراك ، من اجل التوسع فى افريقيا الغربية والسودان وبناء اسطول مغربى قوي ، قد خيب آمال الانجليز وجميع قوى المعسكر البروتستانتى بأوربا الغربية ، ودفع ايليزابيث ملكة انجلترا ، وهنري الرابع ملك فرنسا ، الى الالتجاء الى مراد الثالث السلطان العثمانى وتمتين علاقاتهم به ، املا فى وساطته لدى المنصور وللضغط عليه ودفعه الى العمل ضد الاسبان بطريقته او اخرى ، غير ان ظروف السلطان العثمانى لم تساعده على اغتنام الفرصة المناسبة للتدخل من جديد فى المغرب ووضع حد لنفوذ الملك المغربى الذي اصبحت امبراطوريته الافريقية تحد الاملاك التركية فى الشمـــال الافريقى ، فى وقت ازدادت اضطرابات هذه الباشويات وتعددت اصطدامـــات الاهالى مع الحكام الاتراك بسبب سوء تصرف الحاميات الانكشارية عمـــاد الحكم التركى فى الباشوية والمضاعفات الخطيرة التى اوجدها نظام الالتزام ، ولاستبداد العناصر التركية بالمناصب الرئيسية فى مجموع الامبراطورية .

وقد زاد من خطورة الاوضاع التحول التدريجى لطريق التجارة العالمية من البحر المتوسط الى المحيط الاطلسى منذ اكتشاف اوربا الغربية للعالم الجديـــد (امريكـــا) والطريق البحرية المؤدية الى الهند والشرق الاقصى ، فقد اخذت مع السنين مضاعفات هذا التحول تظهر فى مختلف نواحى الحياة بالامبراطورية العثمانية ولاسيما فى العالم العربى لامتداده على الضفاف الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط الذي دخل فى مرحلة جديدة من تاريخه تتسم بنوع من الضعف والركود وتتصف باضطراب الامن وانتشار القرصنة ، مما زاد احوال البحر المتوسط سوءا وتتسبب فى انفصام عرى الاتصال بين شعوبه واقطاره بما فى ذلك المناطق العربيـــة التى كانت تخضع للاتراك العثمانيين .

وهكذا اخذت مظاهر الامن والاستقرار فى الامبراطورية العثمانية خلال اواخر القرن السادس عشر للميلاد تضعف وبدات بالتالى نواحى الحياة الاقتصادية تعرف نوعا من التدهور كما اضطربت وسائل المواصلات الداخلية ، مما كان سببا رئيسيا فى التأثير على المجتمع العربى وانتشار نوع من الجمود والركود الفكري او بعبارة اوضح لقد اخذت عوامل الضعف والانحطاط تبدو فى مختلف نواحى الحياة بالعالـــم العربى والشرق الاسلامى (11) . ومع الايام ، اخذ الاستياء والتذمر فى البلاد العربية

---

(11) اكد الرحالة المغربى المعاصر احمد بن القاضى فى مخطوطه (المنتقى المقصور) الاوضاع السيئة التى اصبح عليها الشرق الاسلامى الخاضع للاتراك العثمانيين . ص 67 .

يشمل سائر الطبقات ويتحول تدريجيا الى اصطدام وثورة مسلحة ضد الحاكم التركى والحامية التركية التى لم تكن تتورع عن القيام بجميع انواع القسوة والتنكيل ، كما اخذت بعض الحركات الاستقلالية فى العالم العربى تبرز بين الآونة والاخرى وتسعى جاهدة الى الخروج عن الاتراك والحكم التركى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر : لقد اضربت دمشق عام 1000 هـ / 1591 — 1592 احتجاجا على تعسف الدفتر دار محمود وتزعم الحركة القاضى مصطفى بن سنان (12) . وفى لبنان ظهر الامير فخر الدين الثانى الذي اخذ يعمل على توطيد دعائم سلطاته بلبنان والاستقلال عن الاتـــراك (13) .

وفى مصر (حصلت الفتن وتحركت العساكر . . ومنعت أولاد العرب من الدخول فى العسكـــــر) (14) .

اما فى ليبيا فقد ثار زعيم عربى فى طرابلس و (اجتمت عليه العرب وحشدها واتام له ملكا فى ديارهم . . وقد كان يزعم أنه يقوم بتغيير مناكر الترك وفسقهـــم ولبسط العـــــدل) (15) .

وفى الجزائر ثارت قبائل زواوة ضد الاتراك ولم يتمكن احد من البشــــوات اخمادها واخضاع القائم بها (16) .

ومن جهة اخرى ، حرصت الكنيسة الشرقية التى كانت تتزعم الحلف المسيحى بأوربا الشرقية ضد الاتراك ، على استغلال الظروف الصعبة للسلطان العثمانـــى وانطلقت فى حملاتها العسكرية ضد الحكم التركى : فمنذ سنة 1594 م ثـــارت (ترانسلفانيا وفالاشى ومولدافيا) بزعامة (ميشيل الشجاع) وقد وجدت هذه الثورات الدينية المسلحة كل عون وتأييد من اوربا الغربية وروسيا القيصرية فـــى الوقت الذي اخذ السلطان مراد الثالث يشكو المرض وبدأت نهايته تقترب .

وجميع هذه الاوضاع لم تكن تخفى على المنصور الذي كانت له معرفة (بأخبار

---

12) (ودخل القرن الحادى عشر والبلاد فى حالة شديدة من البؤس والشقاء بسبب ظلم الولاة المتعاقبين وظلم الجند فى حلهم وترحالهم وشقاء البلاد بصغار أمرائها) — خطط الشام لمحمد كرد على . ج 2 ص 247 .

13) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان . ج 2 . ص 350 .

14) محمد بن اسحاق : لطائف أخبار الاول ، مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 2409 .

15) التامجروتى : النفحة المسكية . ص 77 .

16) عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام . ص 359 .

الآفاق الشاسعة والاقطار البعيدة واطلاع على انباء الملوك من اضداده واوليائه) والذي (لا يكاد يخلو له يوم من ورود وارد بخير على بر أو بحر) . (17) .

فالى اي حد استفاد المنصور من الاوضاع المضطربة للحكم العثمانى فـى الشرق العربـى ؟

اتخذت محاولات تدخل المنصور فى الشرق العربى مظاهر عديدةً ابرزها :

اولا ــ احكام الصلات مع كبار العلماء والفقهاء بالعالم الاسلامى شعورا منه باهمية الدور الذي يقوم به العلماء والفقهاء ، ولدى عامة الناس بوجه خاص .
(أردنا كى تجتمع الكلمة وانتم فى بلادكم من اعيانها فان اذعنتم اذ عن غيركم) (18) .

وقد تبادل المراسلات العديدة معهم بدافع :

1 ــ الترغيب فى التاليف لخزانته (وها خدام بابنا العلى واردون على تلكم الديار برسم جلب ما لعلكم تستفرغون فيه الوسع من الكتب لخزانتنا العلية) (19) .

2 ــ التماس اجازتهم له (ثم مما يكون لهذه المخاطبة الختام ؟ . استدعاء اجازة من ذلكم المقام الصديق يوجز عليها المجيز ويشرف بها المجاز) (20) .

3 ــ اطلاعهم على اوضاع المغرب الخارجية والداخلية وأماله وامانيه للرفع من شأن الاسلام والدفاع عن المسلمين .

4 ــ ارسال المزيد من المعلومات عن الدولة السعدية والخلافة المغربية (اشرنا

علـى بعض كتبة انشائنا . . بتجريد اخبار الدولة موجزة .. وبتلخيـص موضوع يكون لاخبار هذه الدولة الكريمة ان شاء الله الشامل المستوعب . . يعتمد عليه الفضلاء امثالكم المعنيون بهذا الشأن عليه) (21) .

وقد اغدق الهبات الجزيلة على مـن ساعدته الظروف على الوصول الـى المغرب امثال محمد بن العقاد المكى وامام الدين الخليل المقدسى والشريف المدنى ومثل احمد المقري التلمسانى :

---

17) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 207 .
18) من رسالة المنصور لقاضى تمبوكتو (مناهل الصفا . ص 131 .
19) من رسالة المنصور للعالم المصرى بدر الدين القرافى (رسائل سعدية . ص 33) .
20) من رسالة المنصور للعالم المصرى زين العابدين البكرى (رسائل سعدية . ص 167)
21) من رسالة المنصور لقاضى حلب مصطفى الجنابى (رسائل سعدية . ص 236)

(ولما تقرر عند أعيان البلاد الشرقية حب مولانا نصره الله فى العلماء وبره بهم وأجزاله عطاياهم نسلوا اليه من كل حدب ومن لم يمكنه الاتيان خدمه نصره الله بالتآليف ، فالف تاريخ دولته نصره الله جماعة من اكابر علماء القسطنطينية العظمى وكذا جماعة من اعلام مصر وغيرهما مما لا يحصى عدده) (22) .

واغدق الامواق على العلماء مكافاة لهم على تآليفهم التى وجهوها الى خزائنه (هذا وقد وصل لعلى مقامنا كتابكم الذي اورد من الادب عيونه . . وانهى لمقامنا العلى رسولنا الائب من تلكم الابواب العثمانية . . المجلدين الذين اتحفهم بهما هـذا الجناب الكريم) (23) ولشراء الكتب العلمية ولنسخ المؤلفات التى عز وجودهـا (هذا وانه ينتهى اليكم ان شاء الله على ايدي خدمتنا دفتر قيدنا فيه بعض ما تذكرناه فى الوقت من الكتب . . ان تصرفوا وجه اعتنائكم بجعلها لنا مما يتيسر ابتياعه عجل على ايديكم تحصيله . . وما لم يتفق سوى استنساخه فتوكلوا فيه على الله) (24)

وهؤلاء العلماء كانوا ينتمون الى مختلف الاقطار الاسلامية وخاصة من مصر والشام وفارس والجزائر ، ومن اشهرهم : البكري والقرافى ومصطفى الجنابـى والمقري وابو بكر الشنوانى ومحمد امين الدفتري العجمى وغيرهم .

ثانيـا ــ ارسال الدعاة الى الشرق الاسلامى بصفة سفراء وتجار وطـلاب علم وحجاج ورحالة وغير ذلك ، ومن هؤلاء : احمد بن القاضى ، على التامجروتى ، عبد العزيز الثعالبى ، أحمد الماسى ، أحمد بن عبد الجليل ، الحاج الوجانى ، سعيد الماغوسى . . واكثر ما تحفظ لنا المصادر التاريخية معلومات كثيرة عن أحمد ابن القاضى الذي (تاب له راي فى معاودة البلاد الشرقية . . وكانت له نية بالغة فى نشر مآثر مولانا الامام . . فى الافاق فجمع من مفاخر الدولة وامداحها وفتوحها ومئاثرها ما امل بثه فى الاقطار ونشره فى المشارق واستاذن مولانا الامام . . فـاذن له ووصله) (25) وعن التامجروتى الذي توجه الى اصطامبول فى سفارة مغربيـة الى مراد الثالـث (26) .

وقد قام هؤلاء الدعاة بالاتصال بعدد كبير من العلماء والوجهاء وكبار القوم فى الشرق العربى وفى مختلف المدن والعواصم مبشرين بدعوة المولى احمد المنصور

---

(22) المقرى : روضة الآس . ص 18 .
(23) من رسالة للمنصور (رسائل سعدية . ص 65)
(24) المصـدر السابـق . ص 79
(25) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 230 .
(26) التامجروتى : النفحة المسكية من السفارة التركية .

وداعين الى خلافته العربية الهاشمية (ولقد حضرت مجالس ذكر فيها من مصـــــر والاسكندرية والصعيد وجدة ومكة والمدينة على ساكنها أفضل الصلاة وازكـى السلام لما طنت فى آفاق العالم حصاته . .) (27) · ولم يتوانوا عن نشر دعوتهم بالعاصمة العثمانية نفسها ، الى جانب بعض مهامهم الدبلوماسية ، كالسفيـــر التامجروتى (. . تالله لقد كان من تحدثنا معه من خيار اهل تونس واعيان مصر الذين لقيناهم بالقسطنطينية) · (28) وعلى ما يبدو فان هؤلاء الدعـــاة والمبشريـــن قد كانوا يتخذون من بيوت بعض علماء المشرق وفقهائه أماكن لنشر الدعوة ، اذ تعددت توصيات المنصور لبعض العلماء المشارقة برسله وبمساعدتهم على ما هم بصدد القيام به (ثم لا تزال ان شاء الله على دابك المشكور تتعاهـــد مـــن يـــرد هناك من قبل هذه الابواب . . بما يحمل من المساعى المرضية .. فانك اليوم ممن تقرر لهذا الجناب الكريم وداده وخلص لهذه المثابة الحسنية اعتقاده) (29) ، وبالاخذ بأيديهم (وحاملها الفقيه المذكور هو وديعة فضلكم وحفيظة سروكم . . تفسحون له فى كنفكم وتجعلون القيام بما يعرض له هناك من جملة اعبائكم وكلفكم) . . (30)

وهكذا تمكن هؤلاء من استمالة عدد كبير من عرب المشرق الى حد أن الكثيـــر (من أهل المشرق الذين عليهم العقد والضبط واليهم الحل والربط ، حلف لى بالايمان اللازمة المغلظة الجازمة التى لا يمكن نقضها ولا ينكث بعضها ، انه لو راى جارية من جواري مولانا أيده الله اقبلت بالدعاء لطاعته والانقياد اليه فى امارته ، لكان أول مطيع لها هو واهله فى لحظة من غير مهلة . .) (31) ، والى درجة أن العـــرب فى الشرق قد أصبحوا يفخرون بالمولى احمد المنصور (. . وصارت العرب من كل مملكة يفخرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم . .) (32) ، وانهم اخذوا ينتظرون ساعة الخلاص من الحكم التركى على يديه (. . فكادت قلوب الناس أن تنفطر شوقا اليه وودوا أن لو كانوا عنده ولديه أو يكونوا تحت رايته والويته . . وبالجملة فاهل المشرق قلوبهم باجمعها مقبلة عليه وعقولهم حاضرة لديه واحداقهم ناظرة اليه نفذ الله به كسادهم واصلح به فسادهم (33) .

---

27) أحمد بن القاضى : المنتقى المقصور . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ص 101
28) التامجروتى : النفحة المسكية . ص 70 .
29) رسالة المنصور الى العالم المصرى (البكرى) — رسائل سعدية . ص 33 .
30) المصـــدر السابـــق .
31) ابن القاضى : المنتقى المقصور . ص 101 .
32) المصـــدر السابـــق .
33) المصدر السابـــق . ص 102

ولم يعد بعض عرب الشرق يقرون بشرعية الخلافة العثمانية (. . لاشتياقهم الى امارته العربية العلوية) (34) ولان العثمانيين (من جملة المماليك والموالى الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للاسلام . . وتقلدوا الامر في الحقيقة نيابة وامانة يؤدونها الى من هو احق بها واهلها وهم موالينا وساداتنا الشرفاء) (35) وازداد بذلك تبرم هؤلاء بالحكم التركي وازدادت رغبتهم في أن تساعدهم الظروف على الانتقال الى المغرب (نسأل الله تعالى ان يزعجنا عاجلا الى حضرته المقدسة الطاهرة من ادناس الجور والحيف) (36) وان توفقه العناية الالهية الى بسط سلطانه على كل العالم العربي (ايد الله دولته الطيبة الاعراف وملكه من السوس الاقصى الى اقصى العراق) (37) .

ومن جهة اخرى ، عكست أشعار الكثير من شعراء بلاط المنصور هذه الاماني وما كان يهدف اليه المولى احمد من بعث للخلافة الهاشمية العربية التي تنتظم شمل العرب في المشرق والمغرب (38) .

على أن المنصور قد وجه عناية كبرى بمصر ، لمركزها الستراتيجي ودورها الرئيسي كباب للشرق الاسلامي ، وسعى بشتى الوسائل الى توطيد نفوذه بها، يدفعه الى ذلك :

1 ـ علاقاته القوية مع العديد من كبار علمائها وتبادله واياهم العديد من المراسلات التي تضمنت ـ من جملة ما تضمنته ـ الكثير من :

---

(34) ابن القاضي : المنتقى المقصور . ص 101 .
(35) التامجروتي : النفحة المسكية . ص 147 .
(36) المقري : روضة الاس . ص 111 .
(37) المصدر السابق .
(38) من قصيدة للشاعر محمد بن على الهوزالي : (مناهل الصفا : للفشتالي . ص 142)

لئن اسلمت أرض الجنوب مقادها ... فمن كتب تلقى مقاليدها مصر
وتزور وراء العراق فتهدى اليكم ... واعناق العدا خضع صغر
وتخفق بالوادي المقدس راية ... عليك تهوى فيه الوية حمر

ومن اخرى لعبد العزيز الفشتالي : (مناهل الصفا للفشتالي . ص 157)

فادرك مصر والعراق ويمم ... حرم الحي آلكم خير آل
ان شرق البلاد يرجوك شوقا ... مثل ما يرتجى طلوع الهلال

وجاء في قصيدة الشاعر الحسن بن أحمد المسفيوي (مناهل الصفا . ص 159) .

فما دون درب الشام غير التفاتة ... وما دون بغداد العراق سوى فتر
فسوف يطوى مغربا ومشارقا ... ويزور دجلة والفرات بعسكر
وتحل بالحرمين ربعا زاكيا ... ماوى لجدك ذي السجايا الطهر

وفي قصيدة الشاعر على بن أحمد المسفيوي (مناهل الصفا . ص 161)

وهذى الشام وهذى العراق ... ستمسى لكم وهى دار القرار

أ ـ تمجيد المنصور لخلافته العربية (. . ومقر هذه الايالة العلمية ومتبوأ خلافتنا الهاشمية الحسنية . .) (39)

ب ـ مطالبته العلماء بالدعاء له ولخلافته (. . فالمطلوب منكم أن لا تزال السنتكم منطلقة لهذا المقام الفاطمى واللواء النبوي بصالح الحال وبلوغ المراد . . (والدعاء لهذا الامر العلى العلوي بما يزيده عزا وظهورا . . ويضاعف انصاره ويظهر حماته وانصاره) . . (فأنتم احق الناس بموالاة هذا المقام وأولاهم بالاعتناء والاهتمام) .. (والدعاء لهذا المقام العلى الامامى بعضد تشتد به أواخى الاسلام واواصره) (40) .

ج ـ تصريح بعض كبار علماء مصر كالبكري بمعاداة الاترائك والاعراب عن

رغبته فى أن يكون الخلاص على يد المولى احمد المنصور ، . . وواعجبا من طلوع الشمس من المغرب امانا للعالم وحفظا . . استطار ذكره بين نقتطى الشروق والغروب ، وحشرت لدعوته افئدة الموحدين فكل ينادي البدار البدار . . غرة مولانا أمير المومنين وقبلة الموحدين .. فأصبح الاسلام متوجا منه بعزة الحى القيوم .. وتشرف به تخت الخلافة على الممالك .. يناصرهم من فتاك الاتراك ..) (41) .

2 ـ محاولة المنصور الاستفادة من اضطراب الحكم التركى بمصر واستياء المصريين من الاتراك . فاعتمادا على ما دونه احمد بن القاضى احد دعاة المنصور بمصر فان ظلم الاتراك قد بلغ اشده وان الحال اصبح يهدد بالانفجار (لما يجدونه فى قلوبهم من الم افعال الترك واحكام حكامهم الطاغوتية فى النفس والمال والاهل و لشدة وطاتهم على عرب مصر والصعيد) . (42)

وقد اكد ذلك التامجروتى السفير (هكذا اهل افريقية كلهم من الذل والاهانة . . وقد رأينا منهم العجب العجاب فى كثرة اشتياقهم وحنينهم الى حكم موالينا الشرفاء) (43) .

---

39) رسالة المنصور الى العالم المصرى البكرى ، (مناهل الصفا ، ص 172) .
40) المصدر السابق .
41) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 270 .
42) ابن القاضى : المنتقى المقصور ، ص 103 .
43) التامجروتى : النفحة المسكية ، ص 70 .

3 ـ امكانية الوصول الى مصر بحكم مجاورتها لحدود الامبراطورية المغربية التى (انتظمت ممالك السودان . . وتنتهى الى برنو . . المتاخمة لصعيد مصر) (43)

4 ـ امانى المنصور البعيدة فى نشر لواء خلافته العربية الهاشمية على العالم الاسلامى ، ولم يخف الفشتالى وزيره الخاص هذه الامنية عندما اشار الى ان احد حكماء مصر كان قد تنبأ بالمنصور وبأن الخلاص سيكون على يديه : (. . فهو خليفة الاسلام العظيم الشأن القوي السلطان المفتوح له وعلى يده بتمهيد الاقطار وافتتاح الامصار والاوطان) (45) .

* * *

فماذا كانت نتيجة المحاولات التى قام بها المنصور فى الشرق العربى وفى مصر بوجه خاص ؟ لقد اشتبه الاتراك فى الاتصالات القائمة بين المغاربة والمصريين ويبدو انهم تنبهوا الى ان شيئا ما يدبر فى الخفاء ضدهم ، فشددوا الرقابة وحالوا دون اي اتصال جديد بين المغاربة والمصريين ، الامر الذي حدا بالمولى احمد المنصور الى مراسلة الوالى التركى بمصر فى شأن التوصية بالوفد المغربى ، والتأكيد له بأن الوفد لن يقوم بأي اتصال فى مصر الا باذن الباشا (وجهنا لهذا الغرض . . الحاج احمد الوجانى وجعلنا وجهته الى بابكم وامرناه بحط رحاله برحيب فناء جنابكم . . وقد الزمناه ان لا يقطع امرا من الامور الا بأمرك ومشورتك هنالك) (46) .

ولم تخف على الاتراك النوايا الحقيقية للمنصور والمرامى البعيدة التى يهدف اليها خصوصا وقد تم له فتح مناطق واسعة ببلاد السودان واواسط افريقية . ولاجل عرقلة التوسع المغربى فى افريقية ، وليحمى الاتراك بصفة خاصة جنوبى مصر من اي تدخل خارجى ، امدوا ملك برنو ادريس الوما (الثالث) بالاسلحة النارية التى طالما سعى الى الحصول عليها باتصالاته العديدة مع الاتراك تارة ومع المنصور تارة اخرى (47) ، وغير مستبعد أن يكون الاتراك قد امدوا عددا من امراء وحكام افريقية بهذه الاسلحة ليواجهوا بها الهجومات المغربية او ليقاوموا بها الحكم المغربى ، هذا فى الوقت الذي ظل الجانبان التركى والمغربى يظهران حرصهما على روابط الود القائمة بينهما ، للمشاغل الكثيرة التى كانت تشغل بال كل من مراد الثالث فى اوروبا الشرقية والمنصور فى السودان .

---

44) الفشتالى : مناهل الصفا ص 164 .
45) المصدر السابق ص 290 .
46) رسالة المنصور للباشا التركى بمصر (رسائل سعدية . ص 180) .
47) الحضارات الافريقية . ص 55 .

الفصل الرابع عشر

ثورة النّاصر وملابساتها الدّوليّة

الناصر : هو ابن المولى عبد الله الغالب ، انتقل صبيحة معركة وادي المخازن الى معسكر البرتغال للانضمام الى اخيه المولى محمد المتوكل الذي استنجد بالبرتغال ضد عميه المولى عبد الملك المعتصم والمولى احمد المنصور ، ثم الى اصيلا فالبرتغال .

وعندما قام فيليب الثانى ملك اسبانيا بضم البرتغال عام 1580 وجد الناصر الفرصة وتقدم بطلب النجدة (1) ضد عمه المنصور الا ان الملك الاسبانى لم يلتفت اليه بسبب مشاغله الداخلية والخارجية وللعلاقات الودية التى كانت له مع المنصور .

ولما انتهت معركة الارمادا بانهزام الاسبان وانطلق المنصور بعيدا فى الاعراب عن تأييده ومساعدته ـ للامير البرتغالى دون انطونيو Don Antonio المطالب بعرش لشبونة ، وغالى فى التعامل مع المعسكر البروتستانتى وايليزابيت ملكة انجلترا بصفة خاصة (بما امدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار واطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وامدادها بالمعادن التى اعوزتها ببلادها) (2) ، ثم لما حاول استغلال ظروف اسبانيا الحرجة بأوربا الغربية للضغط على فيليب الثانى ومساومته للتنازل له عن اصيلا ، لجأ الملك الاسبانى الى المعاملة بالمثل ونقل الاميرين السعديين الناصر والشيخ من لشبونة الى كرمونا Carmona قرب اشبيلية فى شهر ماي 1589 (3) واخذ يلوح

---

1) مجلة الاندلس Al - Andalus
العدد (23) ص 19 .
2) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 193 .
3) م. ص. ت. م — فرنسا — ج 2 — ص 218

للمنصور بامكانية مساعدتهما للثورة ضده ، الامر الذي يمكن عتباره من العوامل الاساسية التى اجبرت المنصور على عدم انجاز وعوده للانجليز ودون انطونيو فى المشاركة فى الحرب ضد اسبانيا .

ولما كان دون كريستوف Don Cristophe بن دون أنطونيو بالمغــرب لاجئا فى مراكش ، نجد بعض المراسلات التى كان الاجانب المقيمون بالمغـــرب يبعثونها الى أوربا تتعرض الى الاتصالات التى كانت بين فيليب الثانى والمنصور حول امكانية تبادل الخارجين عليهما اي الاميرين السعديين بالامير البرتغالى ، ولعل هذا من الدوافع التى جعلت الحكومة الانجليزية منذ ان ادركت تراجــــع المنصور عن التعاون معها ، تلح فى اعادة دون كريستوف بل وتتدخل لدى السلطان مراد الثالث لاجل ذلك ، ادراكا لتخوفات المنصور من التدخل العثمانـــــى ، فاضطر المنصور الى السماح لدون كريستوف بمغادرة المغرب نحو لندن ، وحتــى فى هذه الحالة اكد لفيليب الثانى مدى حرصه على مسالمته حيث لم يمكن السلطان العثمانى من الامير البرتغالى حتى لا يتخذه سلاحا ضد اسبانيا اي ان تطورات الاحداث لم تسمح للمولى احمد باستغلال وجود دون كريستوف بين يديه الا فى مواقف خاصة ولامد محدود ، فى حين ان فيليب الثانى الذي لم يغفر للمنصور تواطؤه مع الانجليز واعلان تأييده لدون انطونيو ، والذي لا زال يأوي الاميرين السعديين ، قد أخذ يترقب الفرص لانزال الضربة بالمنصور ، للاطاحة به او لازعاجه والضغط عليه ، وقــد واتت الفرصة المنتظرة سنة 1595 م : فما الاحداث العامة التى حصلت فى هذه السنـــة ؟ وما التطورات الداخلية بالمغرب التى وجد فيها فيليب الثانى مناسبة للتدخل ضـــد المنصــــور ؟

فى الميدان الخارجى : اهم ما يلفت النظر الاصطدامات العسكرية بين الاتراك العثمانيين وحلف شرقى أوربا : فالسلطان مراد الثالث بعد انهائه حروب ايران توجه نحو أوربا الشرقية لاتمام فتوحاته بها ، غير ان تدخل الانجليز وتوسط الملكة ايليزابيت ادى الى عقد هدنة سنة 1591 بين الاتراك وبولونيا سعيا من الانجليز الى جر الاتراك والبولونيين الى تحالف عسكري ضد الاسبان ، خاصة بعد أن فشلوا فى دفع المنصور الى محاربة فيليب الثانى ، ثم رغبة من الانجليز ايضا فى استمرار شراء الحبوب وملح البارود من بولونيا لحاجة الانجليز الملحة الـــى ذلــــك .

ولم تنجح وساطة الانجليز بين العثمانيين وشعوب أوربا الشرقية الا لامـــد

تصير لعوامل كثيرة أهمها : حرص الاتراك على تسفية أوضاعهم المضطربة بأوربا الشرقية وتعزيز نفوذهم وسلطانهم بها ، ثم عزم شعوب هذه المنطقة على صد التوسع العثمانى الذي كان يحمل بين ثناياه أخطارا سياسية ودينية أيضا ، الامر الذي قارب بين وجهات نظر المسيحيين ودفع دول القارة وشعوبها الى مديد المساعدة والعون الى المحاربين فى ترانسيلفانيا (Transylvanic) ونالداشى (Valdachic) ومولدافيا (Moldavic) وما من شك فى أن أكثر المتحمسين لاعانة شعوب أوربا الشرقية ضد الاتراك ملك اسبانيا فيليب الثانى الذي كان يقدر أكثر من غيره مدى خطورة الفتوحات العثمانية بأوربا ، هذا فى الوقت الذي كان كل من بلاط مدريد واصطامبول يظهران حرصهما على التمسك بالهدنة القائمة بينهما .

وفى غمرة هذه الاحداث ، توفى السلطان مراد الثالث وتولى ابنه محمد الثالث يوم 16 يناير 1595 فوجه قوات محاربة الى اوربا الشرقية ، الا انها انهزمت أمام التحالف المسيحى ، ولندرك مدى الخطورة التى اصبحت عليها حال الحكم العثمانى فى اوربا الشرقية نذكر بأن (ساع من الباب العالى جاء يأمر بأن يجتمع العلماء والصلحاء والمشايخ والفقراء وأولاد المكاتب فى الجامع الاموي ويقرأوا القرآن ويدعو لعساكر الاسلام بالنصر) (4) . وقد زادت عوامل الطبيعة وظروف فصل الشتاء القاسى من خسائر الاتراك ، مما قوى عزيمة المحاربين المسيحيين وشجع الزعيم الهنغاري (ميشيل الشجاع) على التمادي فى مقاومة الحكم الاسلامى العثمانى بأوربا الشرقية .

وبالنسبة لشعوب أوربا ، فقد اعتبرت هذا النصر فتحا لا يقل عن انتصار معركة ليبانتو (Lipanto) التى جرت قبل ربع قرن وحققت فيها المسيحية انتصارا عظيما على الاتراك العثمانيين .

تركت هذه الاحداث مضاعفات خطيرة فى مناطق مختلفة من الامبراطورية : ففى الشام : اثار استبداد (كيوان باشا) سخطا عاما بعد أن شرع الوالى (يصادر الناس ويسلبهم باطنا وظاهرا وكثر القتل فى أزقة دمشق والطرق والاسواق) (5)

---

4) محمد كرد على : خطط الشام . ج 2 . ص 245 .
5) محمد كرد على : خطط الشام . ج 2 . ص 246 .

وفي مصر : اضطربت لاوضاع واستاء الاهالي لتصرفات الوالي (قورد باشا) الذي (كان أميا سادجا محبا للهو والملذات ولا حيلة له الا جمع المال) (6) .

أما في الجزائر : فقد اشتد التنافس بين الاتراك والعرب وتولى على حكم البلاد عدد من الباشوات دون أن ينجح أحدهم في اقرار الاوضاع الداخلية (7) .

فهذه التطورات الداخلية تعد من العوامل المساعدة التي جعلت المولى احمد المنصور ينطلق بعيدا في تنفيذ سياسته التوسعية بافريقية وفي توطيد صلاته مع البلاد العربية في المشرق ، لولا ثورة الناصر التي شجعتها اسبانيا بشمالي المغرب : فالملك الاسباني (فيليب الثاني) الذي كان يسعى دائما الى أن يبقى المنصور ضعيفا ومحايدا قد اقلقته تطورات المغرب الداخلية وما آل اليه أمر الاقتصاد بالمغرب في ميادين الفلاحة وصناعة السكر وفي التجارة الداخلية والخارجية ، علاوة على الاسطول المغربي الذي اخذت وحداته تتزايد في عرض البحار ، وما أصبح للمولى احمد من صيت ونفوذ وغنى بعد فتح السودان . ولم يعد من جهة اخرى يامن جانب المنصور لما يتمتع به المغرب من موقع ستراتيجي يمكن خصوم اسبانيا متى ما نجحوا في استمالة المنصور من تهديد المواصلات الاسبانية ، وتصفية قواعد الاحتلال الاسباني بالمغرب ، بالاضافة الى المساعدة التي يمكن أن يقدمها المغرب للموريسكوس الذين لا يزالون قوة خطيرة باسبانيا

ولهذه الدوافع ، وحتى لا يستغل المولى أحمد انهزام الاتراك في الشرق ، وانشغال الانجليز والاسبان بالحروب الدينية بفرنسا والاراضي المنخفضة ، لاحراز نصر سياسي يمكنه من التوسع وبسط النفوذ ومن الحصول على مكاسب مادية تزيد من أوضاعه الداخلية قوة وتشجعه على الانطلاق والتدخل ضد فيليب الثاني في شبه جزيرة ايبريا بوجه خاص ، ارسل ملك اسبانيا الامير السعدي الناصر بن عبد الله الغالب بالله ضد عمه المولى احمد المنصور ، ليفسد عليه امنه الداخلي ومراميه التوسعية الخارجية (ولماءانس . . نار العزم تلتهب التهابا والهمم الشريفة قد همت بتجديد الاسطول وكلفت بالاستكثار من المراكب الجهادية والالات البحرية بما كان مولانا يومل من فتح جزيرة الاندلس وعبور البحر اليها بجنود الله وعساكر الاسلام لتجديد رسوم الايمان بها) (8) ثم (لما عظم على الطاغية شأن ما

---

6) محمد بن اسحاق : لطائف أخبار الاول . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 2409 .
7) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام . ص 360 .
8) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 170 .

أسفه من اسداء أمير المومنين والحامه . . واقلقه ذلك وحذر مغبته شمر للاعتمال فى المكايد التى هى جنده الاقوى .. فأمل الناصر لتفريق الكلمة وتحريك حـوار الفتنة به ليثنى بذلك عزم مولانا امير المومنين ويشغله عن شانه ويكافئه على ما يعتمد فيه من نكايته ، فرمى به الى مليلية من سواحل العدوة) (9) .

والواقع ان الاستقرار الداخلى الذي كان ينعم به المغرب ، يعد من أهـم عوامل تطوره الاقتصادي والاجتماعى ، واليه يرجع الفضل فى معظم المنجزات التى حققتها المنصور فى غربى افريقية وبلاد السودان ، ولم يكن يقلق بال المولى أحمد غير الاطماع الاسبانية المتزايدة فى سواحل غربى افريقيا وفى جزيرة (اركوان) (Arguin) التى اتخذوها مركزا للمتجارة والتعامل مع القبائل المجاورة مما اعتبره المولى احمد منافسة خطيرة من قبل الاسبان لاهدافه التوسعية بالسودان سياسيا واقتصاديا . واعتمادا على وثيقة معاصرة لاحد الاسبانيين (10) فـــان الاراضى المجاورة لجزيرة (Arguin) بلد غنى بالقمح والشعير والماشيــة والفواكه وخاصة معادن الذهب التى يحملها الاهالى بعيدا الى المغرب او تمبوكتو ، ولقطع الطريق على هذه الثروات وحرمان المنصور منها ، عمد الاسبان الى المتاجرة مع الاهالى واخذوا فى نقل المنتوجات المختلفة اليهم ، الى درجة أن تجارة الاسبان قد ازدهرت بهذه النواحى وان نفوذهم السياسى قد اخذ يتعزز بها ، وهــذا سيكون له اثر كبير على الحكم المغربى بالسودان فى قابل الايام .

ابحر الناصر من مالقا يوم 7 ماي 1595 ومعه قوات جرارة معظمها مــن الموريسكوس الذين كانوا يسامون سوء العذاب باسبانيا للتعصب الدينى ، والذين وجدوا فى ذلك فرصة للفرار من جحيم الاضطهاد ، كما وجد فيليب الثانى بالمقابل فى ذلك وسيلة للتخلص منهم ، ونزل الجميع بمدينة مليلية ، احدى قواعد الاحتلال الاسبانى بشمالى المغرب ، يوم الثلاثاء 27 شعبان 1003 هـ الموافق 9 ماي 1595 م واعلن منها الثورة ضد عمه المولى احمد المنصور .

ان ما اظهره المنصور من حزم ، وما هيأه من قوات مسلحة ، يعكس الــى حد بعيد ، تخوفاته من ثورة ابن اخيه الناصر بجبال الريف بالمغرب الشمالى — الشرقى . وهناك اكثر من سبب لتفسير اهتمام المنصور بالثورة وانشغالـــه بالقضـــاء عليهـــا :

---

9) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 170 .
10) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 44

اولا : ظروف المنصور الخارجية حيث أن الاحداث السابقة قد باعدت بينه وبين حلفائه الانجليز الذين فقدوا الثقة فى وعوده ، فى الوقت الذي كان السلطان محمد الثالث منهمكا فى حروبه ضد الحلف المسيحى الذي صمم على التحرر من الحكم العثمانى بشرقى اوربا ، وقد امد الاسبان الناصر بقوات عظيمة وبكل المساعدات (ان عدو الدين طاغية قشتالة الذي هو اليوم العدو الاكبر للاسلام . . رام خذله الله مكافاتنا عدو ذلك بما أمل ان يفت فى عضدنا الاقوى . . فرمى بمخذول من ابناء أخينا عبد الله كان ربى لديه وطوحت به الطوائح منذ ثمانية عشر عاما اليه الى مليلية احد ثغوره المصاقبة لمغرب ممالكنا) (11) .

ثانيا : ان القوات التى تناصر الثائر تضم من بين عناصرها : الموريسكوس كقوة نظامية ، ووجود الموريسكوس فى صفوف الناصر يجعل المنصور لا يركن الى العدد العظيم منهم الموجود ضمن قواته المسلحة .

ثالثا : العدد الكبير من قبائل المغرب الشرقى التى استجابت لدعوة الناصر للاموال الطائلة التى وزعها الناصر على رؤساء هذه القبائل ، علاوة على الوعود والامانى التى بذلها ومناهم بها بعد تحقيق الفوز والانتصار ، وقد تجمع للناصر من مجموع ذلك قوات جرارة (ثم لحق به سائر الاحلاف فالتفوا به واعلنوا بدعوته فصرخ الشيطان به فى آذان غوغاء تلك الناحية من اهل الجبال المصاقبة لها فطاروا اليه من كل أوب وصوب . . فالتف به منهم جموع لا تحصى) (12) . خرج بها من مليلية نحو تازة التى لم يجد صعوبة كبرى فى فتحها لانضمام عدد من قوات المنصور المسلحة الى الناصر (فتخاذلت منهم فئة ومالت اليه . . فنازلها .. والقوا باليد فدخلها) (13) . وبالاستيلاء على تازة باب المغرب الشرقى اصبح طريق مدينة فاس مفتوحا أمام القوات الثائرة ، كما أن هذا النصر الاولى زاد من حماس الناصر ودفع بالكثير من زعماء القبائل الى الانضمام الى الثورة واعلان تأييدهم لها (ولما دخل تازة وتسامع به المغتر بابا طيله

---

11) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 189
12) المصدر السابق ، ص 171 .
13) المصدر السابق ، ص 172 .

الواهية . . تسايلوا اليه ينسلون من كل حدب فتكاثرت جموعه وحشوده والتف عليه منهم عالم من العرب والبربر .. فلاح له من ذلك بارق خلب اكذبه أمنيته فقوض عن تازى وتخطاها الى أمـــام) (14) .

رابعا : لقد اختيرت جبال الريف بالشمال الشرقى من المغرب كمركز للثورة ، وذلك لقربها من قاعدة الاحتلال الاسبانى مليلية حيث يسهل مد الناصر بمختلف المساعدات العسكرية ، ولصعوبة تضاريسها مما يساعد على محاربة قوات المنصور (وجاد بالخروج الى تلك الجهة . . حذارا من المباغثـــة والمعاجلة بالعساكر) (15) ، ثـم لاستراتيجية هذه المنطقة التى يمكـــن الانطلاق منهـــا نحو مناطق المغرب الشمالية والشرقية ، وتمكن الناصر فى الوقت نفسه من طلب العون التركى بالجزائر او الالتجاء اليهم عنـــد الانهزام (وليجد وليجة الى المروق من هنالك لجهة الشرق ان بدا له من أمــره مــــا يكــره) (16) .

اما الموقف الذي اتخـــذه المنصور من هذه الثورة فقد تجلى فى مظهريـــن : دبلوماســـى وعسكري .

1 ـــ فالمظهر الدبلوماسى : ظهر فى مكاتبته ملك اسبانيا فيليب الثانـــى بشان ثورة الناصر ، وقد كان قصده من ذلك ـــ كما يبدو ـــ التأكد من موقف الاسبان الحقيقى ومدى مساعدتهم لها ، ومما جاء فى رسالته المؤرخة بيوم الخمس 6 قعدة عام 1003 هـ / 13 يوليوز 1595 أي بعد مرور نحو شهرين على قيام الثورة . يؤكد بأن المنصور كان لا يزال يبادل الملك الاسبانى عبارات الود والمجاملة : امـــا املا فى رده عن مغامرته الخطيرة ، أو ليحمله مسؤولية ما سيقع ، دون أن يغفل عن التعرض لحل بعض مشاكل الاسبانيين بالمغرب (هذا وقد وصلنا كتابك فقابلناه على عادتنا فى كتبك الواردة الينا بوجه البشر والترحيب . . وطالعنا ما ذكرتم عن ولد اخينا الخارج بمليلية وعن اسباب خروجه وحتى خديمكم بلتزاربول ذكر لنا مـــا أمرتموه أن يبثه علينا وينهيه الينا والى هذا فها نحن أجبناه عن ذلك مشافهة وكلمناه بما عندنا مواجهة ومن عنده ان شاء الله تتلقون ما لدينا وتقفون علـــى مـــا عندنـــــا) (17). .

---

14) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 172 .
15) المصدر السابـق .
16) المصدر السابـــق .
17) توجد هذه الرسالة فى (سيمانكاس) اسبانيا . رقم 213

وبديهي أن السفير الاسباني قد حاول اقناع المنصور بعدم مساعدة فيليب الثاني للناصر ، اذ لا شيء أهم عند المنصور والحالة كما نعلم من أن يتعرف على موقف الاسبان من الثورة ، وهل اقتنع المنصور بذلك ؟ ان مجريات الاحداث تثبت لنا بأن المنصور لم يكن يشك قط في أن الاسبان هم المحركون الاساسيون للثـــورة (.. ؟ اعلامكم بأن الناصر حليف الصليب .. كان الطاغية خذله الله قذف به الى جهة مليلية قذف النواة .. وقواه بالاموال) (18) التي لم يكن القصد منها سوى اضعاف المنصور وتشتيت شمل المغاربة الذين اخذت اوضاعهم المتطورة تزعج فيليب الثاني وتؤرقه (لما ءانس من جانب طور عنايتنا الامامية نار العزم تلتهب التهابا .. والهمم كلفت بتجديد الاسطول والاستكثار من المراكب المتكلفة للغزو والجهاد بقضاء كل دين ممطول وعلم أن الحديث في هذا الاحتفال اليه يساق . رام مكايدة الاسلام في ذلك بما أمل ان ينت في عضدنا) (19) . لذا فقد امر المنصور بالقاء القبض علـى السفير الاسباني بمراكش (Balthzar Polo) يوم الجمعة 4 غشت 1595 ووضعه رهن الاعتقال ، وملاحقة الاسبانيين الموجودين بالمغرب (20) ، وذلك كتدابير وقائية لما عسى أن يقوم به هؤلاء من شغب وفوضى لصالح الثورة القائمة بشمالـــي البـــــلاد .

2 — والمظهر الثاني العسكري ، تجلى في خروج المنصور خارج مراكـش (لاول ما طرق الخبر باجلاب الناصر على تازى وعزم على الزحف بنفسه .. فبرز بروزا فخما اوائل شوال عام ثلاثة) (21) مما يدل على خطورة الثورة ، غير أن المولى احمد عدل عن التوجه شخصيا وكلف ابنه المولى محمد الشيخ نائبه علـى فاس بتوجيه حملات عسكرية ضد الناصر ، وظل هو معسكرا في نهر تانسيفت وعلى اهبة الاستعداد للتدخل (وتلوم مولانا .. بعسكره من باب اغمات ريثما استكمل العساكر آهبة السفر فارتحل لنهر تانسيفت) (22) .

ومن فاس ، خرجت قوات جرارة بقيادة ابراهيم بن القائد كتيرس ومحمد ابـــن ابراهيم بن بجة ، وحصلت معارك بين الطرفين كان النصر فيها حليف الثورة لانضمام قسم من هذه القوات المحاربة الى صفوف الناصر . وقد شجع هذا الانتصار

---

18) رسالة المنصور للعالم البكري بمصر (مناهل الصفا ، ص 189)
19) المصـــدر السابــق .
20) م. ص. ت. م — فرلسا — ج 2 — ص 227
21) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 172 .
22) الفشتالي : مناهل الصفا ، 172 .

الناصر على مواصلة الزحف نحو مدينة فاس عاصمة المغرب الشمالى ، وقبل ان يصل اليها خرج اليه الشيخ على راس قوات عظيمة ، وجرت عند سفح جبل مدغرة معركة عظيمة انهزم فيها الناصر وفر ، بعد ان اصيب برصاصة فى ركبته (فاحتمله العرب فى الهودج وطاروا به) (23) ، وقد جرت هذه المعركة يوم الخميس 26 قعدة عام 1003 / 2 غشت 1595 .

وعلى اثر هذا الانتصار الذي احرزه المولى محمد الشيخ ، كاتب المولى احمد المنصور قائدي قواته بالسودان منصور باشا وجوذر باشا يخبرهما الخبر وكيف انتهى امر الثورة بالفشل ، وهذه الرسالة تعد من الوثائق التاريخية المعاصرة التى تلقى الضوء على ثورة الناصر ومدى الجهود التى بذلها المنصور فى سبيل القضاء عليها (الى كبير المماليك المتقدمين لاعمال الممالك السودانية وهما منصـــور باشـــا وجوذر باشا اسمعهم الله من البشائر ما يملأ صدوركم انشراحا . . فكتابنا هذا اليكم من معسكرنا السعيد على نهر تانسيفت . . والذي ننهيه الى جهتكم من الانباء المثيرة للفرح والسرور . . اعلامكم ان الشقى الناصر حليف الصليب .. ولم يكن الا كلا ولا حتى منحه الله الظفر فولى الشقى وجموعه الادبار . . واخذهم الله على يد ولدنا اسعده الله تعالى اخذة رابية . . هذا من بعد ان لم يأل الشقى وجموعه جهدا فى الاحتفال والاستعداد بما لا مزيد عليه عدا وعددا . . وعرفناكم بما سنى الله من هذا الفتح العظيم .. لتأخذوا من السرور بشارته .. وتبثوه الى من هنالكم من عساكرنا المؤيدة بالله والاجناد والى سائر اهل ممالكنا الشريفة بتلك البـــــلاد) (24) .

التجأ الناصر الى (دار ابن مشعل من جبل بنى يزناسن من ايالة الترك معتصما بها) (25) ، وهذا يعد تطورا خطيرا فى سير الثورة لان توجه الناصـــر نحو الجزائر كان لطلب المساعدة التركية اما لتخلى الاسبان عنه بعد انهزامه امام الشيخ بن المنصور ، أو سعيا منه الى تقوية صفوفه بالمساعدة التركية وهل كان بوسع اتراك الجزائر تقديم المساعدة للناصر ؟

ثم ما هى وضعية الاسبان وما العوامل التى حالت بينهم وبين الاستمرار فى تقديم المساعدة والعون لثورة الناصر بشمالى المغرب ؟

---

(23) المصــدر السابــق .
(24) يوجد نص الرسالة فى مناهل الصفا . ص 189 .
(25) الفشتالى : مناهــل الصفــــــا . ص 172 .

ان الجزائر العثمانية منذ ان اصبحت باشوية دخلت في عهد من الفوضى والفتن الداخلية ، وتعد سنة 1595 بداية تطور خطيـر زاد من حدة هذه الفوضـى والاضطرابات : اذ في هذه السنة عزل السلطان محمد الثالث الباشا مصطفى بن قية لفشله في اخضاع ثورة (القبايل) وعين في غشت من نفس السنة خضر باشا للمرة الثانية ، الا انه لم يتمكن كسلفه من القضاء على الثورات الداخلية للتنافس الشديد بين العرب والاتراك ، الامر الذي حدا بالسلطان الى عزل خضر باشا واعادة مصطفى الباشا السابق ولكن بدون جدوى (26) . فاذا كانت هذه هي وضعية الجزائـر الداخلية فمن البديهي أن الاتراك الحاكمين لن يتمكنوا من تقديم مساعدة ما للناصر ، لان الحالة تستدعي الاهتمام ومقاومة الخارجين قبل التفكير في ارسال قوات عسكرية لمساعدة ثورة منيت خلال شهورها الاولى بالفشل والهزيمة . علاوة على أن وضعية السلطان العثماني الحديث العهد بالتولية (محمد الثالث) كانت جد سيئة للانهزامات المتوالية التي لحقت قواته المحاربة بشرقي أوربا سواء بقيادة (فرهاد باشا) أو (سنان باشا) الذي انهزمت قواته عند نهر (الطونا) ، حيث غنم اعداؤه عددا عظيما من العتاد الحربي والمعدات العسكرية ، بالاضافة الى القتلى وعشرات المئات من الاسرى (27) ، مما زاد في قلق السلطان ودفعه الى حصر الاهتمام بهذه المنطقة دون سواها ، وقد بلغ من حرصه ان خرج على رأس القوات المحاربة في شوال 1004 / جوان 1596 واستطاع بعد معارك طاحنة تحقيق انتصارات على الحلف المسيحـي (28) ؟ على أن المساعدات العسكرية التي ارسلتها دول اوربا ، واعمال الخيانة التي وقعت في صفوف القيادة التركية ، مكنت القـوات المسيحية من القيام بهجومات معاكسة ضد القوات التركية انتى تكبدت خسائر فادحة ، ولولا قيام الوزير التركي (جنكالا) بصد الهجوم لحصلت للقوات العثمانية ما لا تحمد عقبـاه (29) .

ولما كان المنصور مطلعا على احداث الشرق وملما بحال الاتراك في الجزائر فانه لم يضطرب لتقرب الناصر من الجزائر وحكامها الاتراك ، فقد (اجمع السلطان . . على النهوض بنفسه بالعساكر والاجناد من مراكش .. وعلى الاقامة بفاس وتجهيز العساكر منها مع ولي عهده ايدهم الله الى اقتحام جبل بني يزناسن علـى

---

(26) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام . ص 360 .
(27) ابراهيم افندي : المصباح الساري . ص 146 .
(28) المصدر السابـق . ص 147 .
(29) ابراهيم افندي : المصباح الساري . ص 147 .

الناصر غير مكثرت باولى الايالة عاملا على الاجلاب عليهم وعليه أن رامؤا النصرة له والوقوف للدفاع دونه واحتفل له احتفالا عظيما) (30) .

وبالرجوع الى الوثائق التاريخية التى بين ايدينا نتأكد من ان المنصور قد ظل حريصا على مسالمة الاتراك ، بل ان دور اسبانيا فى مساعدة الحلف المسيحى لاوربا الشرقية وفى تأييدها لثورة الناصر بالمغرب ، قد قارب بين العثمانيـــين والسعديين ودفعهم الى التفاهم لصد الاخطار الخارجية ، وذلك كما تثبت الرسائل التي تبودلت بينهم : فقد بعث المولى أحمد سفارة خاصة لاصطامبول للتعزية فى وفاة مراد الثالث ولتقديم التهانى لابنه محمد الثالث (فالذي يحيط به علمكم اننا قد كنا لحين ما الم بنا نبأ ذلك النبأ الفاجع من قبل ورود كتابكم وموافاة خطابكم بادرنا بازعاج ارسالنا الى أبوابكم برسم التعزية والتهنئة) (31) .

وعندما وصلت السفارة التركية الى مراكش لتخبر المنصور رسميا بتوليـــة محمد الثالث حملها المولى أحمد خطابا يعكس مدى حرصه على الود وحسن الجوار (وعندنا من موالاة ذلكم الجناب بجميل الود والمحبة المحكمة الربط والعقد والمصافاة القديمة العهد والمواخاة الاسلامية الموروثة عن الاب والجد ما لا تزال لدينا على الدوام سورة تتلى) (32) . فالظروف العامة للامبراطورية العثمانية والاوضاع المضطربة لباشوية الجزائر حالت جميعها دون الاستفادة من ثورة الناصر وتلبيـــة مطالبه : بالمساعده ضد المنصور (الى ما تضمنه كتابكم . . الاعلام بأولئكم الاشخاص الواردين عليكم من اصحاب ذلكم المخذول وما كان من عدم التفات مكانكم المكين اليهم وعدم الاصغاء لما لديهم وايعازكم مع ذلك الى أصحابكم بتلمسان بسد باب القبول فى وجهه وعدم اسلام الجيش الى الالتفات اليه والالتفاف عليه) (33) .

وقبل أن يأمر المنصور بمهاجمة الناصر فى شرقى المغرب كاتب الوالـــى خضر باشا مخبرا اياه بما قر عليه أمره (فلما رايناه تقاعس عنكم لم نرد اقحامه الا بعد مفاوضتكم واعلام مكانكم . . فنحن ان شاء الله على الاجلاب عليه بعساكرنا حتى نستخرجه من نفقه ونستأصل بعون الله ما كانت ابقت من رمقه) (34) .

---

(30) النشتالى : مناهل الصفا . ص 172 .
(31) رسالة المنصور الى السلطان محمد الثالث . دار الوثائق — الرباط — مخطوط — ك 278 . ص342
(32) المصـــدر السابـــــق .
(33) رسالة المنصور الى حضر باشا — (رسائل سعدية . ص 254)
(34) رسالة المنصور الى خضر باشا . رسائل سعدية . ص 254 .

وبالنسبة للاسبان لقد اشتدت وطأة الحروب الدينية بأوروبا الغربية بين المعسكرين : الكوثوليكي والبروتستانتي وازدادت حدة الصراع في فرنسا وفي الاراضي المنخفضة كما امعنت بريطانيا في مضايقة المستعمرات الاسبانية أن بأمريكا أو الهند والشرق الاقصى : وفي انزال الخسائر بالسفن الاسبانية العائدة من الشرق والغرب ، بالاضافة الى التأييد الانجليزي للامير البرتغالي دون كريستوف بعد وفاة والده دون أنطونيو (جوان 1595) في المطالبة بالعرش البرتغالي ، وقد انتهى الامر باحتلال الانجليز لمدينة قادس في يوليوز 1596 (وفي هذا التاريخ صمد اليه اسطول بلاد نكلطيرة في مائتي مركب ونيف مشحونة بجيوش وافرة وعساكر النار على احتفال عظيم يقدمها دون كشطوبان . . فأجلبت على مدينة قادس من مدن سواحل قشتالة وهي الباب الاعظم الى ممالك الطاغية ومثوى التجائر الثقيلة من بلاده ومحط رحال الاموال الطائلة من ارضه ومرسى اسطوله وفرضة المجاز الى ممالكه . . وقد تصاعد اسطول الانكليز لهذا العهد من بعد تخريب قادس مع بحر الزقاق للعيث في سواحل الطاغية وتدمير أرضه والاجلاب على ممالكه والتضييق عليه) (35) . وفي هذا يكمن سر تراجع الاسبان عن الاستمرار في تأييد ثورة الناصر الذي وجد نفسه في الاخير وحيدا في الميدان أمام المنصور الذي لم يستصغر مع ذلك شأنه ، بدليل الاستعدادات العظيمة التي اتخذها لمواجهة الثورة والقضاء عليها : فقد انجد ابنه الشيخ بالقوات المسلحة (جهز ايده الله . . مسعود بن مبارك في جيش من عساكر النار) (36) ، وأمر ابنه المولى زيدان عامل تادلا بقطع طريق سجلماسة على الناصر (ان رام النهوض اليها من دار بن مشعل) (37) ، كما (وجه عن عساكر السوس ؟ للاجلاب على الناصر ان زلت به الاقدام الى الانحدار للسوس) (38) .

ومن اجراءاته العسكرية ايضا الاوامر التي وجهت الى غزاته (بحاحة وبلاد دكالة وتامسنا وسائر العساكر المتفرقة في الممالك) (39) لتكون على اهبة الاستعداد (فتوافت الاجناد وتوالت الامداد . . فتكاملت الاهبة وعظم الاحتفال من الاستعداد) (40) .

---

35) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 194 .
36) المصدر السابق ، ص 173 .
37) المصدر السابق ، ص 177 .
38) المصدر السابق ، ص 177 .
39) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 178 .
40) المصدر السابق .

اما الناصر فقد دخل فى حروب دامية مع قوات المنصور ، واحرز فى الاصطدامات الاولى انتصارا بسبب تراجع بعض القبائل عن المولى محمد الشيخ ، الا ان هذا الاخير سرعان ما اعاد الكرة ضد الناصر للامدادات العسكرية التى وصلته من مراكش وجرت معارك حاسمة دارت فيها الدائرة على الثائر الذي حاول الفرار ولكن القى عليه القبض وصحبه وسيق الجميع الى فاس (فقبضوا عليه واستاقوه لفاس فوجه ولى العهد برأسه وجثته لامير المومنين . . بمراكش فنصب الراس حتى شاهده الناس تنكيسا للفساد واخمادا لنار الفتنة الناشبة بسببه) (41) وتم بذلك القضاء على هذه الثورة التى دامت سنة كاملة (9 ماي 1595 حتى 21 ماي 1596) .

ويكفى لاظهار خطورة الثورة أن المنصور قد امر باقامة مظاهر الفرح ، وجلس لقبول التهانى وسماع قصائد الشعراء (فكان ذلك اليوم . . مما عم الناس من السرور وشمل من الفرح .. وبرز مولانا الى فسطاطه الاعظم المعد للديوان العام ذو التاج المذهب الفاره اللامع البروق لشمائمها على بعد نجلس للتهنئة وانثال الناس عليه من العساكر والاجناد واهل الحضرة . . وبرزت أرباب آلات الغناء من الحضرة على اختلافها وقرعت الطبول وارتفعت أصوات آلات الملك) (42) .

وكاتب المنصور بعد ذلك جميع ولاته فى الداخل (43) يعرفهم بالنصر والقضاء على الثورة وبعض الشخصيات البارزة فى العالم الاسلامى : الدينية منها والسياسية ، مستغلا الفرصة المناسبة لابراز قوته وعظمته ومدى حرصه الشديد على الدفاع عن الاسلام وديار المسلمين ، وليطلب من كبار العلماء فى الشرق الاسلامى الدعاء له بالنصر والفتح (أن يويدنا الله على عدو الدين . . ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها) (44) . فهل

---

(41) المصدر السابق .
(42) المصدر السابق .
(43) المصدر السابق .
(44) رسالة المنصور الى العالم المصرى البكرى (مناهل الصفا ص 189)

كـان المولـى احمد المنصـور يرمى مـن وراء ذلـك الـى العمـل علـى استغـلال الظروف لكسب شهـرة واسعـة فـى العالـم الاسلامـى فى الوقت الذي كان السلطانى العثمانى محمد الثالث يعانى الامرين من جراء حروبه فى أوربا الشرقية وبسبب الثورات والفتن التى عمت معظم ولايات الامبراطورية العثمانية ؟ وهل كان جادا فى تحقيق أمل المسلمين المنشود وانجاز ما عجز بنو عثمان عن القيام به وهو استرادا الاندلس وهزم أكبر قوى أوربية مسيحية : قوة اسبانيا وملكها العظيم فيليب الثانـى ؟

الفصل الخامس عشر

المنصور بين التحالف مع الإنجليز والتفاهم مع الأسبان

اذا كانت هنا كمن صفات يمكن ان تتميز بها أعمال فيليب الثانى ملك اسبانيا خلال السنوات الاخيرة من حكمه ، فهى : الفشل والخيبة وتوالى الهزائم ، وان الانهزام فى حملة الارمادا قد ترتبت عنه سلسلة نكبات فى كل من الاراضى المنخفضة وفرنسا والمغرب والجديد فى الامر هو ان المولى احمد المنصور قد اندفع نحـو التعاون الجدي مع المعسكر البروتستانتى الذي طالما سعى جادا الى جر المغرب فى محالفات عسكرية ضد اسبانيا لموقعه الهام ولاستراتيجية شواطئه التى تسمح بالتحكم فى المواصلات البحرية الاسبانية مع الشرق الاقصى . وهذه نتيجة حتمية طالما ان الخطر الاسبانى كان يهدد جميع هذه البلدان .

ويهمنا بصفة خاصة : ان نتعرف على أهداف المنصور وعلى نوع الاتصالات التى اصبحت له مع حلفائه الجدد ، وأن نقف على مدى استعداد كل من المتحالفين وامكانيـاتهـم .

كان المولى احمد وهو يندفع الى التعاون مع المعسكر البروتستانتى، تحدوه رغبة العمل ضد فيليب الثانى بالدرجة الاولى ، كرد فعل لما قام به من تأييـد ومساعدة لثورة الناصر ، ولان احتلال الانجليز لمدينة قادس فى يوليوز 1596 م ابطل اسطورة اسبانيا القوية المنيعة ، واظهر حقيقة أوضاعها المضطربة ، كمـا شجع فى نفس الوقت خصوم اسبانيا ــ وما اكثرهم ــ على التحالف لقهر الخصم العنيد فيليب الثانى واقتسام امبراطوريته الواسعة الغنية التى لا تغيب عنهـا الشمـس .

فتهالكوا لهذا العهد في مضايقته ووقفوا له بمدارج النفس فضاق منهم مخنقه، وتكالبوا عليه مع صاحب بلاد نكلطيرة كل من جهتــه) (1) .

والحقيقة هو أن فيليب الثاني قد اغرق بلاده في بحار واسعة من الدماء لاعمال الاضطهادات الداخلية ، وللحروب الطويلة المستمرة والمتعددة الواجهات التــي خاضتها القوات الاسبانية ، كما عرض اقتصاديات اسبانيا الى الخطر وحمــل الخزينة ما لا تطيق من النفقات المتزايدة ، دون أن يحسب حسابا للدول الاوربيــة النامية التي اخذت تطور أوضاعها السياسية وتعمل جاهدة لارساء قواعد اقتصاد قوي ومتين وتفكر ايضا في التوسع الخارجي وتأسيس المستعمرات .

واعتمادا على ما أصدره الكورتيز (Co rtès) الاسباني خلال هذه الفترة (1594) نتأكد من أن اسبانيا قد ساءت احوالها المختلفة اقتصاديا واجتماعيــا : اذ تدهورت الزراعة وتربية المواشي وتأخرت الصناعة والتجارة ، ولم يعد هناك من منطقة في اسبانيا لم تفتقد الكثير من سكانها الى درجة ان العديد من المنازل قد اصبحت مغلقة وغير مسكونة ، وباختصار : لقد اضمحلت المملكة الاسبانية (2) .

لقد أعرب المنصور منذ الايام الاولى للقضاء على ثورة ابن أخيه الناصر ، عن عزمه وصادق نيته في العمل ضد اسبانيا الى ان تكلل جهوده بفتح الاندلس واسترداد فردوس الاسلام المفقود (. . ان يويدنا الله على عدو الدين بفضله وينجز لنا وعده الصادق في اظهار دين الحق على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها واحياء أطلاله الدرس حتى ينطلق لسان الدين فيها بكلمة الله التي طالما سكت منها بدائه وخرس وشرق بريقه فغص واحتبــــس) (3) .

وقد ظهر هذا العزم في توجيه المنصور ثلاث سفن مسلحة ومحملة بالمؤن ، انضمت يوم 25 يونيه 1596 (4) الى الاسطول الانجليزي والهولندي الذي كان يحاصر قادس تحت قيادة (Charles Haward) ليؤكد للمعسكر البروتستانتي مدى حرصه وصدق نيته في محاربة اسبانيا وليعمل على استعادة ثقة ايليزابيــت

---

1) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 195 .

2) مجموعة Clio القرن 16 م . ص 287 .

3) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 191 .

4) م. ص. ت. م — فرنسا ج 2 — ص 299

ملكة انجلترا بوجه خاص (اهتم أيده الله بالجهاد واخذ الاهبة له والاستعداد بمجازاة عدو الدين على كل ما اعتمل فيه من كيد الاسلام وتفريق كلمته) (5) .
ثم عجل بارسال سفارة خاصة الى قادس لتعرب للامير البرتغالى دون كريستوف عن تأييد المنصور واستعداده التام لامداده بالقوات المسلحة وكل ما يطلبه منه (6) ، وهذا يعد اعترافا من المنصور بسلطنة الامير البرتغالى وتأييدا صريحا منه ضد فيليب الثانى ملك اسبانيا . وقد انطلقت فى الوقت نفسه قوات من الاسطول المغربى لغزو جزر كناريا (وما زال أيده الله تتوالى بها نزواته على أرض الكفر وطواغيث الشرك فتقتاد السبى والاثقال ولا كالجزائر الخالدات التى ضرستها بانيابها واضحت مثمرات اليد بما تستاق كل عام من سبيهـــا) (7) .

ومن جهة اخرى استقبل المنصور فى بلاطه بمراكش بعثتين سياسيتين أرسلتا من هولندا وفرنسا للقيام بمهام سياسية واقتصادية لدى المنصور :

— فالوفد الهولندي وصل الى مراكش فى اكتوبر 1596 ليقترح على المولى احمد بصفة خاصة عقد معاهدة تجارية تمكن التجار الهولنديين من التعامل مـــع الموانىء المغربية وتسمح لهم بالاستيراد والتصدير (8) . وقد وجد الوفد الهولندي حسن استقبال من المنصور طالما أن الهولنديين كانوا من أشد أعداء اسبانيـــا وانهم لن يتوانوا عن تزويد المنصور بكل ما يحتاج اليه من ذخيرة وسلاح . وقد كانت هولندا تهدف فى الواقع الـــى :

1 — فتح الموانىء المغربية فى وجه سفنها الذاهبة او العائدة من الشرق الاقصى وحمايتها من اخطار القرصنة الاسبانية ، خصوصا وقد اصبحت للهولنديين مستعمرات فى غينيا بغربى افريقية وجاوا بالشرق الاقصى .

2 — اتخاذ الموانىء المغربية الاطلسية نقط انطلاق ضد السفن الاسبانية العائدة من الشرق الاقصى لنهب خيراتها وقطع الطريق عليهـــا .

واما السفارة الفرنسية فقد وصلت الى المغرب يوم 13 ديسمبر 1596 بقصد تهيء تعاون عسكري ضد اسبانيا (9) ، ومعلوم أن فرنسا فى عهد هنري الرابـــع

---

(5) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 187 .
(6) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 96
(7) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 197 .
(8) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 1 — ص 27
(9) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 160

قد دخلت فى حروب متواصلة دفاعا عن اراضيها ولمقاومة التدخل العسكـــري الاسبانى ، ثم لافساد خطة فيليب الثانى الرامية الى ضم العرش الفرنسى بدعوى توحيد قوى العالم المسيحى الكاثوليكى (واتصل اهل افرانصه وانضم بعض الى بعض فقويت شوكتهم واستفحل أمرهم وتعاظمت صولتهم فسمت همتهم الـــى استرجاع ملكهم ومعاودة سلطانهم وشمروا لمغالبة طاغية قشتالة على ما يليهم من ممالكه فصمدت عساكرهم الى باريز فنازلوها واجلبوا على أعماله وممالكــه وزاحموه بالمناكب ولاحت لهم بوارق الظهور عليه) (10) .

وفى نطاق سياسة المنصور الجديدة راسل الملكة ايليزابيت فى ديسمبر 1596 فى شأن تحرير اسير كان يعمل بقادس لصالح المنصور ، مبديا استعداده لافتدائه (11) فعادت بذلك — نوعا مـــا — الاتصالات المغربية — الانجليزية بعد انقطاع شبـــه تام استمر خمسه اعوام تقريبا . ودخل ايضا فى اتصالات مع عدد من الاجانب الذين كانوا بالمغرب ، ومن هؤلاء (Pedro Ferreira) البرتغالى الاصل ومن مرافقى الامير دون كريستوف عندما كان لاجئا بالمغرب (12) ، واستنادا الـــى المذكرة التى بعثها البرتغالى المذكور بتاريخ 30 يناير 1597 (13) ، فان المولى احمد قد تذاكر معه غداة احتلال الانجليز لمدينة قادس وانه ابتهج لهذا الفتح ووجد فيـــه عزاء للخسائر الجسيمة التى نزلت بالمغرب من جراء ثورة الناصر . ثم يذكر صاحب المذكرة بأن المنصور :

1 — اعرب له عن نيته فى أن يقوم الانجليز باحتلال جزر آصور ، وذلك لما تمتع به هذه الجزر من ستراتيجية وسط الحوض الشمالى للمحيط الاطلســـى كنقطة هامة للمواصلات التى تربط اسبانيا مع مستعمراتها بالعالم الجديد .

2 — لم يخف المنصور عن محدثه البرتغالى الامال التى يعلقها على قيام تعاون عسكري مغربى — انجليزي ضد فيليب الثانى ولفتح اسبانيا ، اذ ان احتلال قادس قد اعطى الدليل على امكانية فتح هذه البلاد متى توحدت الجهود واتخذت كل الاستعدادات .

---

10) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 194 .
11) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 137
12) المصـــدر السابـــق ص 110 .
13) المصـــدر الســـابـــق .

3 — لقد اكد المنصور للمبعوث البرتغالى كامل استعداده لخوض غمار الحـــروب الى جانب الانجليز ، وانه يضع جميع ثرواته الطائلة من اجل ذلك تحت تصرف ايليزابيت ملكة انجلتـــرا .

اما مدى استجابة الانجليز وحلفائهم لمقترحات المنصور ، فالوثائق المعاصرة تثبت بأن بوادر تحالف عسكري يضم المغرب وبريطانيا وفرنسا وهولندا قد اخذت تلوح فى الافق ، خصوصا وان المعسكر البروتستانتى كان قد بيت العزم علـــى انزال الضربة القاصمة بالاسبانيين واستغلال بعض جوانب الضعف والتدهور فى سياسة فيليب الثانى لاحراز انتصارات سياسية واقتصادية ، متخذين من مدينة قادس قاعدة انطلاق نحو قلب اسبانيا ، ولقطع طريق التجارة والمواصلات البحرية الاسبانية ولقد أبدع الفشتالى وزيـــر المنصور فى تصوير الصـــراع الانجليزي — الاسبانى ، وفى التعرض الى النتائج الهامة التى ترتبت عن احتلال قادس . (وفـــى هذا التاريخ صمد اليه اسطول سلطانة بلاد نكلطيرة فى مائتى مركب ونيف مشحونة بجيوش وافرة وعساكر النار على احتفال عظيم . . فأجلبت على مدينة قـــادس من مدن سواحل قشتالة وهى الباب الاعظم الى ممالك الطاغية ومثوى التجائـــر الثقيلة من بلاده ومحط رحال الاموال الطائلة من أرضه ومرسى اسطوله وفرضة المجاز الى ممالكه . . وقد تصاعد أسطول الانكليز لهذا العهد من بعد تخريب قادس مع بحر الزقاق للعيث بسواحل الطاغية وتدمير أرضه والاجلاب على ممالكه والتضييق عليه والمبالغة فى نكايتـــه) (14) .

وأول ظاهرة تؤكد استجابة الانجليز لمقترحات المنصور ، ما جاء فى الوثيقة المؤرخة بشهر مارس 1597 بأن الملكة ايليزابيت قد بعثت تطلب من المولى أحمد ان يقوم بتخريب المناطق الزراعية الموجودة حول مراكز الاحتلال الاسبانى بالمغرب وان يفرض عليها حصارا اقتصاديا شديدا (15) . فهل كان ذلك تنفيذا لسياسة حصار اقتصادي تعقبها هجومات عسكرية ضد اسبانيا ؟ وهل ادرك فيليب الثانى وساسة الايسكوريال مدى الخطورة التى اصبحت عليها وضعية اسبانيا الداخلية والخارجية وان عليهم تدارك الامر ؟ ان الذي يبدو من دراسة الاحداث وتطوراتها هو ان الاسبانيين قد شعروا بظروفهم الحرجة وادركوا ان عليهم القيام باحبـــاط مساعى خصومهم حتى لا تحل باسبانيا ما لا تحمد عقباه : ولاجل ذلك أصـــدرت

---

14) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 194 .
15) م. ص. ت م — بريطانيا — ج 2 — ص 121

الحكومة الاسبانية عفوا شاملا عن الساسة البرتغاليين الذين كانوا يتعاونـــون مع اعداء اسبانيا (16) ، وقد كان ذلك ولا شك لكسب جانب عدد من البرتغاليين الذين كانوا يخدمون مصالح الاميرين دون انطونيو ودون كريسطوف ، وتسخرهم ايليزابيت ضد اسبانيـــا . كما أثار الاسبانيون المسيحيين الكاثوليك بايرلندا ضـــد انجلترا ، وقد اشتعلت ثورة دينية خطيرة بالجزيرة تحت زعامة (هيواونيل) و (ايرل تيرون) ، دامت عدة سنوات ، ارتكب خلالها الانجليز من اعمال الشـــدة والبطش ضد الايرلنديين الكاثوليك الشيء الكثير ، بما فى ذلك جماعة الرهبان الكاثوليك الذين تعرضوا للطرد والملاحقة ولم يسمح بالبقاء الا للمسجلين فى سجلات الحكومة وللذين ادوا يمين الولاء للدولة الانجليكانية (17) .

ومن جهة أخـــرى قبل الملك الاسبانـــي فيليب الثانـــي وساطـــة البابـــا (كليمان الثامن) وعقد مـــع هنري الرابـــع معاهدة (Vervins) 1598 م . التـــي خففـــت بعـــض العـــبء عـــن كاهـــل الاسبـــان وأحدثت نوعـــا من الانفـــراج فى سياستهم الخارجيـــة . ولكن وفـــاة فيليب الثانى يوم 13 سبتمبر 1598 وتولية ابنه فيليب الثالث الذي لم يكن كأبيه قوة وحزما حيث سلم أمور الدولة الى (دون فرنسيسكو غوميث دي ساندربال) المعروف بـــ (Le Duc de Larmes) ، الذي كان همه فى جمع الاموال وبيع المناصب والذي ابتدا فى عهده ما يعرف بمؤامرات البلاط ، قد زاد من سوء الاحوال الداخلية باسبانيا وجعل الاوضاع العامة تتدهور بشكل خطير كما لاحظ ذلك الاسبانى المعاصر الشهير (سرفانطيـــس) :

وحتى فى هذه الحال ، لم تساعد الظروف على القيام بعمل ما ضد اسبانيا لان الثورة الايرلندية قد ارغمت الانجليز على توجيه عناية كبرى للقضاء عليها ، ولان هنري الرابع اهتم بتضميد جروح فرنسا وبناء ما هدمته الحروب الدينية وخاصة بعد اصدار مرسوم (نانط) (18)

والمغرب بدوره اجتاحه داء الطاعون واثر على اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية مما لم يعرف له مثيل من قبل (الطاعون هو وباء استطال وطال من عام سبعـــة

---

16) المصـــدر السابـــق . ص 110
17) مجموعـــة Clio القرن 16 م . ص 387 .
18) مجموعـــة Clio القرن 16 م . ص 289

والف الى عام ستة عشر والف وعم سهل المغرب وجباله حتى افنى اكثر الناس ومات جمع من الاعيان) (19) . ومن الرسائل المعاصرة الاولى التى اشارت الــى انتشار الوباء بالمغرب ، رسالة مؤرخة بشهر يونيه 1598 جاء فيها بأن المولــى احمد المنصور قد أصبح يعيش فى خيمة خاصة وان خيمته تنظف كل عشرة أيام (20) مما يدل على أن الطاعون قد استفحل بشكل خطير اضطر معه المولى احمد المنصور الى مغادرة مراكش والتخييم بضواحيها . وقد تضاربت الارقام التى سجلها الاجانب عن عدد ضحايا هذا الداء فى كل يوم وان لم يكن هناك خلاف بأن نسبة الوفيــات كانت مرتفعة فى المدن والاماكن الآهلة بالسكان اكثر مما هو الحال فى البوادي والمناطق النائية وبسبب انتشار الطاعون اضطربت اقتصاديات المغرب للتأخير الذي حصل فى ميادين الزراعة والصناعة بالداخل ولتوقف الاجانب عن المتاجرة مع المغرب وهذا زاد من حدة الفتن الداخلية واغرى الطامعين والمستائين على الخروج والمجاهرة بالعصيان . ومن مضاعفات الطاعون بصفة خاصة أن الشركة البربرية التى كان الانجليز قد اسسوها سنة 1585 للمتاجرة مع المغرب قد اعلنت فى هذه السنة افلاسها كنتيجة لبيعها بالدين ولمضاربات التجار الاجانب والمهربين منهم خاصــة ثم لاضطراب الاوضاع الاقتصادية العامة (21) .

ويبدو أن حدة الوباء قد خفت فى السنة الثالثة من ظهوره وخاصة فى مراكش مما جعل المولى احمد يعود الى عاصمته (واما اهل مراكش . . فكان اكثر وقوعه بهــم .. ثم لم يزل يعود اليهم سنة بعد سنة .. وقد شاهدنا من ذلك ما الله اعلم بـــــه) (22) .

وفى مراكش استقبـــل المنصور خلال ماي 1599 سفارة انكليزية حملــت اليه خطابا من الملكة (ايليزابيت) ترجوه فيه أن يحرر بعض الاسرى (الفلمانكيين) الموجودين بالمغرب ، وان يسمح لرعايا دولتى هولندا وزيلندا بالمتاجرة مع المغرب وحق افتداء أساراهم (23) . وهذا يؤكد بأن الهولنديين كانوا لا يزالون يسعـــون الى الحصول على امتيازات من المنصور للمتاجرة مع المغرب ولاستغلال موانئــه

---

(19) عبد الرحمان التامنارتى : الفوائد الجمة . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . د 1420 . ص 31

(20) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 137

(21) م. ص. ت. م — فرنسا — ج 1 — ص 445

(22) التامنارتى : الفوائد الجمة . ص 31 .

(23) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 137

المتوسطة والاطلسية لارساء سفنهم فى الذهاب والاياب من الشرقين الاوسط والاقصى وللقيام بأعمال القرصنة ضد السفن الاسبانيـــة .

وقد استجاب المنصور لمطالب الملكة ايليزابيت ولاسيما فيما يرجع الى تحرير بعض الاساري الهولانديين والزيلانديين ، واستغل وجود السفارة الانجليزيـــة بالمغرب وفاتح بعض اعضائها بنيته فى اقامة تحالف عسكري مغربى ـ انجليزي ضد الاسبان . واستنادا الى المراسلة الهامة التى وجهها Jasper Tomson الى لندن بتاريخ 4 يوليوز 1599 م (24) فان المنصور قد كلف وزيره القائد عزوز بالتباحث معه فى شأن اقامة تحالف عسكري ضد اسبانيا ، وكان مما استفسر عنه الوزير المغربى : هل فى نيةالملكة ايليزابيت التعاون مع المنصور لفتح اسبانيا ، لان قيام تحالف بين البلدين كفيل بتحقيق ذلك .

الا أن الدبلوماسى الانجليزي اجابه بأنه لا يعرف شخصيا شيئا عن ذلـــك وان الملكة الانجليزية ليست لها نية فى غزو اسبانيا ، ومن الافضل ان يوجه المغرب سفارة خاصة الى لندن لمناحتة المسؤولين عن ذلك . وتضيف المذكرة بأن القائد عزوز الح فى الاستفهام عن مقترحاته هذه وطلب من (طومسن) أن يستقصى نيـة الملكة والحكومة الانجليزية بوجه خـــاص .

وفى مارس 1600 م قصدت سفارة مغربية لندن ومعها عدد من أسرى هولندا وزيلندا (واعلمى أن النصارى الفلامنك الذي كتبت فيهم لعلى مقامنا وكانوا فـــى اسرنا ها هم يصلونكم صحبة خدامنا وقدامتنا عليهم لاجل رغبتك ورعايـــة جنابـــك)(25) .

وقد كانت السفارة المغربية مكونة من السفير عبد الواحد بن مسعود بن محمد ابن عنوري وعضوية التاجرين الحاج ميسا والحاج يهنت ، والترجمان عبد اللـــه دودور الاندلسى الاصل . وعندما وصل الجميع الى (دوفـــر) يوم (8) غشت 1600 رفقة الانجليزي (توماس جيرارد) رئيس تجار الانجليز بالمغرب ، قصدوا لندن التى دخلوها يوم 15 غشت حيث استقبلوا بحفاوة . وفى يوم 22 غشـــت حظى الوفد المغربى بالمثول بين يدي الملكة ايليزابيت بقصر Nonsuch (26)

---

24) المصـــدر السابـــق ، ص 142 .
25) رسالة المنصور لايليزابيت مجلة تطوان : عدد (3 ، 4) ، ص 55 .
26) م. ص. ت. م ـ بريطانيا ـ ج 2 ـ ص 197

اما المهمة التى كلفت بها هذه السفارة فهـــى :

1 ـ التاكيد للملكة بأن المنصور حريص على تلبية كـلمطالبها (ان جميع ما يكـــون لكم من الاغراض فىبلادنا وفى ممالكنا الشريفة . . فهو مقضى) (27)

2 ـ اعتماد السفارة المغربية والركون الى ما يتقدم به السفير عبد الواحد (هذا وانه يرد على مكانك المكين حامل هذا الخطاب الكريم خديم مقامنا العلـــى الكاتب الا نجد الاثير عبد الواحد بن مسعود بن محمد عنوري وقد حملناه من الامور ما يلقيه اليكم ان شاء الله مشافهة ويبثه عليكم مكالمة ومواجهـــة وعرفناكم لتعلموا أننا حملناه القاء ذلك اليكم وأمرناه ببثه عليكم والمراد أن تصغوا الى ما استودعناه تبليغه ان شاء الله جملة وتفصيلا حتى يتقرر لكم ذلك تقريرا أصيلا فتطالعونا حينئذ ان شاء الله بما لديكم الى أن نكون على بصيرة من كل ما عندكـــم) (28) .

3 ـ مطالبة الملكة بنقل وفد مغربى الى حلب للقيام بمهمة خاصة (هذا والذي اوجبه لمكانك المكين انه يرد على مملكتك خدامنا حملة هذا الكتاب الكريـــم الذين وجهناهم الى حلب لقضاء بعض مآربنا مما عن من اغراضنا وقد اخترنا لهم أن يكون مرورهم علـــى بلادك للمحبة التى بيننا وبينك . . نحـــب أن تستوصوا بهم خيرا واحسانا فى طلوعهم مع سفن بلادك الى تلك الجهة وتوصى بهم اهل السفن .. كما نريد منكم ايضا أن تعطوهم كتابك فى أيديهم الى تجار بلادك الذين يسافرون الى تلك الجهة) (29) .

ولعظم المسؤولية التـــى انيطت بالسفارة ثم لتريث المسؤولين الانجليز فى الامر ، استقر الوفد المغربى بلندن زهاء ستة أشهر فى ضيافة الحكومة حيث لم يغادر لندن الى المغرب الا فى مطلع يناير 1601 . ونحن يهمنا بالدرجة الاولى أن نتعرف على الاقتراحات التى تقدم بها المغاربة الى الانجليز وان نحاول الوقوف على الاهداف التى كان المنصور يتوخاها من ارسال وفد خاص الى حلب ببلاد الشام .

اما مقترحات الوفد المغربى فقد تضمنـــت :

1 ـ التعريف بامكانيات المنصور العظيمة : فهو يملك قوات مسلحة ويتوفر علـــى

---

(27) رسالة المنصور الى ايليزابيث . تطوان . عدد (3 ، 4) ص 55
(28) المصـــدر السابـــق .
(29) المصـــدر الســابـــق .

كنوز وأموال ودخـ ـ ، علاوة على وفرة الاخشاب الصالحة لبناء الاساطيل مما يجعل بوسع المنصور تموين الاسطول الانجليزي بكل ما هو بحاجة اليه من رجـــال ومـــــؤن ·

2 ــ اقتراح تعاون عسكري مغربى ــ انجليزي ضد اسبانيا · والمولى احمد يرى مهاجمـــة الاسبانيين فى :

أ ــ المراكز التى يحتلونها بالمغرب ، حيث يقوم المغاربة بتموين كل الاماكن التى ستتمكن القوتان من تحريرها بشواطىء المغرب ·

ب ــ نقل الحرب الى اسبانيا وغزو الاسبانيين فى عقر دارهم ·

ج ــ الهجوم على المستعمرات الاسبانيـــة فى : غربى افريقية وجزيــــرة Arguin وفى جزر الهند الشرقية والغربية (30) ·

وأما هدفه من توجيه الوفد الى حلب ، فيبدو واضحا بعد التعرف على احداث الشرق الاسلامى وما كان السلطان العثمانى محمد الثالث يلاقيه من حروب وثورات لقد استمرت حروب الاتراك فى اوربا الشرقية وتكبد العثمانيون خسائر فادحـــة وبالاخص لما استولت القوات النمساوية ــ المجرية على قلعة (رعب) الحصينة والستراتيجية · ومما زاد من سوء احوال السلطان أن روح التخاذل والتآمــر قد دبت فى نفوس قادة الانكشارية ودفعتهم الى التمرد والعصيان وابرز الامثلة : ما قام به عبد الحليم قره يازيجى قائد فرقة السكبان الانكشارية ، حيث أعلن خروجه على السلطان واحتل سنة 1599 مدينة الرها ، واصبح يشكل خطرا قويا علـــى الباب العالى الذي لم يجد بدا من مفاوضته والتنازل له عن ولاية اماسية لاستمالته، ولكن ذلك لم يزد الثائر الا امعانا فى خروجه ، وقد استفحل خطره بعد الانتصارات التى حققها على ولاة كل من دمشق وبغداد سنة 1600 م ·

وهذه الاحداث الداخلية الخطيرة تردد صداها فى المناطق المختلفة مـــــن الامبراطوريـــــة :

ــ فقد قامت (ثورات العربان ضد حلب وواليها احمد مطامن باشا · · لما قام به الانكشارية فى حلب من أعمال الظلم والنهب والقتل والحرق) (31) ·

---

(30) م. ص. ت. م ــ بريطانيا ــ ج 2 ــ ص 222

(31) محمد كرد على : خطط الشام . ج 2 . ص 243 .

— وجرت حروب اهلية بين الامراء المحليين (ابن معن) و (ابا سيفا) فى نهر الكلب ، وبدأت قوة فخر الدين المعنى الثانى تبرز فى بلاد (كسروان وبيروت) .

— وفى مصر (حصل فناء بالطعن والطاعون عم الامصار والقرى ومكث مدة) (32) فكانت نتيجة ذلك سوء الاحوال الاقتصادية والاجتماعية الى جانب تعسف الباشوات والمسؤولين .

— اما فى الجزائر فقد استبد قادة الانكشارية بالسلطة واصبحوا يقومون بتعيين حكام البلاد من بينهم ، وهذا زاد من فوضى الداخل وساعد زعيما محليا وهو احمد مقران سيد بجاية على الثورة ضد الاتراك فى نواحى حمزة والساحل الجزائري (33) .

وكل هذه التطورات قد الم بها المنصور الذي كان حريصا على (معرفة اخبار الافاق الشاسعة والاقطار البعيدة والاطلاع على انباء الملوك من اضداده واوليائه وبث اصحاب الاخبار فى البلاد دانيتها وقاصيتها وافكاء العيون فى سائر الجهات) (34) ، فهل كان المولى احمد يهدف الى الاستفادة من الظروف السيئة للسلطان العثمانى ؟ وما موقف الملكة الانكليزية من هذا التدخل ؟ والى أي حد كانت اوضاع المنصور الداخلية تساعده على ذلك ؟

استقبل المنصور سفارة انجليزية برئاسة (Henry Parnnell) فى اكتوبر 1600 م حملت اليه اجوبة الملكة على المقترحات المغربية السابقة :

1 — تشكر المنصور على استجابته لرغبتها فى اطلاق سراح الاسرى الفلامنك .

2 — تعتذر له عن عدم تمكنها من ارسال الوفد المغربى الى حلب .

3 — تعتمد الضابط المذكور وترجو المنصور ان يتعرف منه على اجوبة الحكومة الانكليزية على مقترحاته السابقة .

اما عن اعتذارها عن حمل الوفد المغربى الى الشرق الاسلامى فالامر لا يحتاج الى تعليق اذ سبقت الاشارة الى احوال السلطان العثماني الحرجة وكيف أصبحت

---

(32) محمد بن اسحاق : لطائف اخبار الاول . ص 35 .
(33) عبدالرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام . ص 361 .
(34) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 207

ثورة عبد الحليم تهدد الحكم التركي في الاناضول وفي شمالي سوريا وسواحلها ، ولما كان الانجليز قد أصبحت لهم مصالح بالشرق العربي وبالتالي ارتباطـــات اقتصادية وسياسية مع صطامبول يمكن تسخيرها ضد خصمهم العنيد : فيليب الثالث فان ايليزابيت قد رفضت طلب المنصور ، حفاظا على مصالحها وروابطها مـــع الاتراك (35) ، وبالنسبة لجواب الملكة على مقترحات المنصور بشان التحالــف ضد اسبانيا : فانها لا توافق على مهاجمة اسبانيا او قواعدها المنبتة بشواطىء المغرب في الوقت الذي تقترح على المنصور امدادها بقرض قيمته مائة الف جنيه (36) لتهيىء حملة عسكرية ضد الهند ، احدى المستعمرات الاسبانية ، لاهميتها الاقتصادية ولان الانكليز كانوا يسعون الى تركيز نفوذهم في الشرق الاقصى .

كاتب المنصور الملكة الانكليزية من جديد بتاريخ 23 شعبان 1009 هـ الموافق لاوائل ماي 1601 م وشكرها على عنايتها بالوفد المغربي :

(هذا وانه ورد على مقامنا خدامنا القافلون من جهتكم فاثنوا عن جنابكم المكين كل خير جزيل وصنع جميل وشكروا ما عاملهم به مكانكم الاصيل من جميــل الرعى الذي تعرفوه في كل حال وفي المقام والترحال وتلقينا منهم من صميم محبتكم في هذا الجناب العلي الامامي ما لا نزال نتعرفه منكم في جميع الاحوال وكل هذا مشكورا لمكانكم المكين ووردكم الواضح المستبين) (37) .

كما أعرب لها عن قبوله اعتذارها لعدم توجيه الوفد المغربي الى حلب (وأما ما اقامه مكانكم من العذر عن عدم تجهيز اصحابنا الى جهة حلب فقد قبلنا في ذلك عذركم وارتضيناه وباحسن التأويل تاولناه) (38) .

واكد لها في الاخير بان جوابه عن مقترحاتها الاخيرة ستتعرف عليه من السفارة المغربية (وكل ما لدينا من الجواب عن الامور التي تضمنها الزمام الواصل لمقامنا العلي مع كتابكم هذا هو مفصل في الزمام الوارد عليكم ان شاء الله صحبة هـــذا المكتوب الكريم لتتلقوا ذلك اجمالا وتفصيلا) (39) واعتمادا على وثيقة معاصرة فان المولى احمد قد ربط تقديم القروض المالية بمشاركة القوات المغربية في غـــزو

---

(35) البحر المتوسط : (Brandel) ص 467
(36) مجلة تطوان . العدد الثامـــن . ص 45 .
(37) مجلة تطوان . ك 8 — ص 81 .
(38) المصـــدر السابـــق .
(39) المصـــدر السابـــق .

المستعمرات الاسبانية وبالتالى اقتسام الاراضى المفتوحة بينهما (40) .

وامام اصرار المنصور على مواقفه بعثت الملكة ايليزابيت تطلب منه السماح لجموعات من الاندلسيين الموجودين بالمغرب بالتوجه الى انكلترا لتستخدمهم فى حروبها ضد الاسبان (واما ما اشرتم اليه فى مسألة من هنا من بنى فلان ببلادنا وعمالكم من الغرض فى عبورهم لبلادكم وجوازهم ان امكن الى قطركم وارضكم (40) مما يؤكد عدم ثقتها بجدية المنصور فى مواقفه العدائية لفيليب الثالث ويعكس فى الوقت نفسه التجاوب القائم بين الاندلسيين والانجليز ضد خصومهم الاسبانيين . فهل كانت النية مبيتة لجمع افواج المهاجرين الاندلسيين الموجودين بالمغرب والشمال الافريقى وانكلترا وغيرها لاستخدامهم فى الحروب الانجليزية ضد اسبانيا ؟ ويؤكد هذا كون السفير الخاص الذي حمل مقترحات الملكة الانجليزية الى المولى احمد كان اندلسيا (وقد ورد على مقامنا العلى فلان الاندلسى وقرر لنا كل ما حمل من تلقائكم من المقاصد والاغراض التى القيتموها اليه وقصصتموها عليه تقريرا اصغينا اليه فيها بالاذن الواعية حتى فهمناها جملة وتفصيلا ووعينا كل ما قرر تم له تقريرا اصيلا) (40) .

غير ان المنصور رفض هذا الطلب بحجة ان عددهم قليل لا يفى بالحاجة المطلوبة وان نقلهم محفوف بالاخطار (وهؤلاء المذكورين ان امرنا بعبورهم وجوازهم نخشى ما يؤدي اليه الحال من التغرير بهم وربما يجد العدو فيهم فرصة ينتهزها فنعرضهم الى الخطر ونحن لا نريد ارتكاب وجوه الاخطار والغرر بهم لانهم لا يكفون ايضا فى هذا الشأن وحدهم) (40) .

ولمواجهة هذا الخصم القوي الذي (هو عدونا وعدوكم وهو كما تعلمون عدو كبير وقدره بين ملوك كذا قدر معتبر وشأنه عندهم فى قوة المملكة واتساعها عظيم) لابد من القيام باستعدادات ضخمة هائلة (ولا يكفى لاجل ذلك فى مسألته الا الاحتفال العظيم والعدد الكثير والجمع القوي والعمل الكبير ؟ . ولا اقل فى ذلك من مائة الف بين الخيل وعساكر النار كلها مقاتلة) (40) .

وقد اكد المولى احمد للملكة الانكليزية استعداده التام الى حد اعلان الجهاد المقدس (ولو رفعنا النداء بالجهاد لنهض المغرب بحد افره سهولة وجباله عربه وبربره بجموع تملأ الارض وتغطى بسوادها الاعظم الشمس) (40)

---

(40) رسالة المنصور الى ايليزابيت — دار الوثائق بالرباط — مخطوط — ك 278 . ص 195

وامكـ ـ الواسعة للانفاق على جميع القوات المحاربة (لا يخفاكم ان هذا العدد العد ـم الذي به تخضد شوكة العدو ويتصم ظهره ويثل عرشه وينتقض من أصله ركنه يحتاج الى الاموال الوافرة ولا يقوم بتجهيزه واعطياته وعونه واثقاله الامال عريض ووفر قوي وجهد عظيم) (41) شريطة الاحتفاظ بالبلاد المفتوحة (واذا تيسر ذلك وعلم المسلمون ان البلاد اذا فتحت تبقى لهم فان هذا الامر بحول الله وقوته اهون شيء علينا وعليهم بخلاف ما اذا كانت البلاد تستفتح ولا تبقى لهم فان فقهاءنا وعلمائنا لا يساعدون على ركوب الاخطار بالمسلمين واقتحام الاموال العظيمـــة لهم الا اذا كانت البلاد يسلم اليهم أمرها ويلقى اليهم حكم ولايتها والنهوض بغيـــر هذا الشرط لا يجوز عندهم فى الدين ولا يساعدون المسلمين عليه واذا حصـــل الوفاق بهذا الشرط فان جيوش المسلمين حينئذ يسرعون الى النهوض لهذا الغرض الجهادي من كل أوب خيلا ورجالا وخفافا وثقالا لانه لا يخفاكم اننا نحتاج الـــى الانفاق العظيم على هذا الغرض واذا كنا ننفق الاموال الطائلة مع أنه ما دعتنا الضرورة الى ذلك ثم لاتكون البلاد مع ذلك لنا فما الفائدة التى تظهر حينئذ للمسلمين فى حركتهم لهذا الامر العظيـــم) (41) .

ومن خلال أجوبة المنصور هذه يبدو أن الملكة الانكليزية قد واعدته بتقديم أسلحة وعتاد حربى مقابل السماح بهجرة الاندلسيين ، غير ان المولى احمـــد اكد لها مدى استعداداته العسكرية وانه لا يحتاج الا لبعض قطع الاسطول (واما مـــا ذكرتم عن ارسال العدة فلا نحتاج لذلك فان كل شيء هنا والحمد لله ببلادنـــــا ونعرفكم حاجتنا الى ستة سفنمن اكبر ما يكون وأردنا منكم الموافقة علىجلبها من عندكم ان شاء الله واذا وافقتم نوجه اليكم الستة من الرياس برسم هذه السفن مع من يتوجه معهم من خدامنا ونحن لا نحوجكم فى هؤلاء الرياس ولا فى هؤلاء الخدام الـــى كلفة من الكلف لاننا نمدهم من عندنا بمال لنفقاتهم حتى يرجعوا ولا نحتاج منكـــم الا الوقوف لهم حتى يحيزوا ان شاء الله بتلكم السفن فما تمكن استعماله منها جديدا يستعملوه وما تمكن شراؤه واتفا موجودا يشتروه ، وهذه المسالة من أوكد أمورنا عندكم تتفنون لنا فيها اجمل الوقوف الموافق لصدق محبتكم فى جانبنا العلى حتى تكملوا لنا فيها البغية والمـــراد) (41) .

وفى (مناهل الصفا) للفشتالى — وزير المنصور — تأكيد للسياسة الجديدة

---

41) رسالة المنصور الى ايليزابيت — المصدر السابق .

الرامية الى تقوية الاسطول المغربى وتطويره ليتمكن من مواجهة الاسبان وغزوهم فى ديارهم وللقيام بالفتوحات البعيدة (وهو اليوم ايده الله لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل رغبة فى الجهاد والاستظهار على عدو الدين قوي الاسر بحمد اللـــه وافر العدد والمدد مراش الجناح بما اتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية الغنية بخراجها المستبحر ومعادن الذهب على التوسع فى الانفـــاق الذي لا يخشى عيلة ولا فقرا وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها على تسخيـــر المجاذيف الثقيلة بالاساطيل كاجنحة الطير خفقانا وسرعة وطيرانا . . حتى يبلغ أمل الاسلام فى الجهاد ويفتح من أرض الاندلس اقصى البلاد والاقطار البعاد بعزتــــه وقدرتــــه) (42) .

فهل حققت الايام امانى المنصـــور ؟

اهم ميزة تطبع الفترة الاخيرة من حكم المولى احمد ، هو ذلك التحول الذي طرا على سياسته الخارجية او بعبارة أوضح : عودة المنصور الى سياسته التقليدية : سياسة التفاهم مع الاسبان وملكها فيليب الثالث . فما هى ظروف المغرب الداخلية خلال السنوات الثلاث الاخير من عهد المنصور ؟ وما العوامل والاسباب التـــى جعلت المولى احمد ينقلب من خصم لدود الى صديق حميم للاسبان ؟

كان للاوضاع الداخلية المتدهورة نتيجة انتشار الطاعون اكبر الاثر فى مجرى الاحداث التى عرفتها الفترة الاخيرة من حكم المنصور ، فهو لم يتمكن من مواصلة اتصالاته السرية مع الانجليز للمرض الخطير الذي الم به فى صيف 1010 هـ / 1601 م وقد ازداد الامر تعقيدا وبدات الاحوال تنذر بافدح العواقب . وتعكس رسالـــة التهنئة بالشفاء التى وجهت الى المنصور من فاس فى يوم 15 جمادى الثانية 1010 هـ المخاوف التى انتابت القوم بسبب ذلك (وعلمنا أن الله لطف بنا اللطف الخفـــى وانه بنا حفى حين دافع عن مولانا واهدى له الشفاء والراحة . . وفى راحتكـــم نصركم الله راحة العباد وفى ضمنها النعم الواكفة لصلاح البلاد . . ولولاه لعظمت الاوجـــــال) (43) .

ويبدو أن المامون ، ولى عهد المنصور ونائبه على فاس ، قد وجد فى الاوضاع المضطربة من جراء الطاعون وفى مرض والده ، فرصة مناسبة للاستبداد بالسلطة

---

(42) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 197

(43) رسالة اهالى فاس للمنصور توجد بروض القرطاس للمقرى . ص 96 .

ومحاولة الخروج على والده ، وعندما كاتبه المنصور فى جمادى الاولى 1011 هـ / ماي 1602 م كان أمره قد استفحل بدليل ما جاء فى هذه الرسالة : (44)

1 ــ استمالته لكثير من القبائل التى كان المولى احمد المنصور قد نكبها بسبب تأييدها لثورة الناصر ، مثل : أولاد طلحة ، الخلط واولاد حسين وقبائل الجبال . (بلغنا أنه قد استخدمتم هناكم جماعة من أولاد طلحة . . وهؤلاء انما يبحثون على الغرة وعورة المملكة . . وكأنكم نسيتم ايضا ما عمل أولاد حسين بالامس دون بعد من النهب وما اضرموا من نار الفساد والعيث فى البلاد) .

2 ــ قيام الشيخ بتسليحهم (واعلم ان من جملة ما بلغنا ايضا ان الخلط رجعوا كلهم رماة على يد مصطفى مع حديث عهدهم بالفساد والخلاف وكنا انتشبنا معهم بالعمودات فاذا بهم اليوم بالمدافع وعدة النار) .

3 ــ اغداقه العطايا الجزيلة على كبار القادة ورؤساء القبائل (واعلم أن مما نحتاج أن ننبهك عليه مسالة القواد الذين يريدون أن يحملوك اثقال اولادهم . . وعملت لهم خمسمائة اوقية .. وانك قد فرضت لهم فى اعطياتهم نحو خمسة آلاف . .)

4 ــ لقد كانت لبعض القبائل التى أخذ الشيخ يتعاون معها حظوة كبرى واتصال وطيد بالاتراك فى الجزائر ، مما يؤكد صلة الشيخ بالاتراك (والذي شق علينا اعظم من هذا كله واستنكرناه ولم نجد له صبرا هو ما وجدنا قد اطلع عليه اولاد طلحة . . فى أخباركم والفيناهم قد توصلوا من ذلك الى ما لم يتوصل اليه والله أحد من كبار خدامكم . . فاذا بكم تستخدمونهم بطانة واصدقاء وتطالعونهم على اموركم واحوالكم ، مع أن القوم ما زالوا ببلد العدو وبين اظهره والذي يطلعون عليه تقطع وتجزم بأن الترك قد اطلعوا عليه حتى كأنهم شاهدوه ووقفوا عليه بأنفسهم . . وبالجملة فقد أحرقتنا هذه المسئلة وتفطرت لها أكبادنا وصارت قلوبنا مطعونة) (45) .

5 ــ لقد كان المنصور يشعر بأن شيئا يدبر ضده فى الخفاء وأن الشيخ يتمادى فى طريق الغى والضلال ، فبعث اليه أبوه مستفسرا عن ذلك (واي مصلحة

---

44) رسالة المنصور الى ابنه المامون . الافرانى . ص 147
45) رسالة المنصور الى ابنه المامون . الافرانى : ص 147 .

لك فى استخدام هؤلاء القوم . . بل ما فى ذلك الا الفساد البين لان هذا الذي فرضتم لا يفى به ولا يقوم معه بكم شىء) .

6 ــ وقبل اقدام المولى احمد على اي اجراء ضد ابنه ، حاول اصلاح حالــه بكل الوسائل ولكن بدون جدوى (ان الحال كان انتهى فى معالجة امره التــى تجاوزنا فى وجه الخير اليه حد الاستقصاء واتينا فى محاولة استصلاحه مــن احوال السياسة المرجوة النجح ما لا يحصى . وقد جرب المنصور ايضا ان يبعد الشيخ عن مقر سلطانه وقوته بفاس بأن اضاف اليه ولايتى سجلماسة ودرعة وسمح له بالذهاب اليهما لجمع خراجهما (الى ما كنا سوغناه من ولاية سجلماسة بخراجها وخراج درعة . . وابحنا له التوجه اليها بجملتــه وجمعه) ولكن عبثا ، لان الشيخ رفض الخروج من فاس والابتعاد عنها .

7 ــ لذا فقد قــر راي المنصور على ارسال قوات عسكرية ضد ابنه الشيخ بقيادة مومن بن ملوك ولكنه تراجع لما راي ابنه يزداد تقربا من الاتراك ويستعــد لمقاومة قوات ابيه (. . لان خروج القائد مومن الخارج الآن مــا كــان الا اليهـــــم) (46) .

8 ــ اما الخطوات الاخيرة لقمع حركة الشيخ وتمرده فقد اتصفت بالتجاء المنصور الى وسائل الدهاء والحيلة بأن بعث اليه كتابا يستنكر تصرفاته ويرجوه الاقلاع عن غيه ، وذلك بعدم التعاون مع القبائل السالفة الذكر وتسريح الموجود منها ضمن قواته المسلحة . ثم الاهتمام باصلاح الادارة واختيــار الحاشية والمساعدين من أصحاب الكفاءة والنزاهة . وقد كان المنصور يهدف من مراسلته الاخيرة كسب عنصر الوقت والتلميح للشيخ بأنه : على الرغــم من كل تصرفاته ، لم ييأس من أصلاحه ، حتى لا يندفع الشيخ بعيدا فى تمرده ويعلن الخروج والثورة والتعاون مع الاتراك . وعلى حين غفلة ، خرج المولى احمد من مراكش فى قوات مسلحة اوائل جمادى الاولى عام 1011 هـ / منتصف اكتوبر 1602 وحاصر ابنه ، الذي لم يتفطن الى خروجه من مراكش ، والذي لم يجد بدا من الخروج فارا من فاس يوم الخميس 15 جمادى الاولى مــن نفس السنة والالتجاء الى زاوية الشيخ ابى الشتاء ببلاد فشتالة فى جبال

(46) رسالة المنصور الى ابنه ابى فارس ـ الافرانى : ص 155 .

الاطلس . (فتلاحق به رماته الانكشارية ومتفرقة سماسرة الفتن وطلائع الشؤم والمحن جمع عظيم وعدد جسيم (47) .

ولم يستسلم الشيخ لابيه الا بعد انهزام قواته « فداهمتهم بعد ذلك عساكرنا المظفرة بالله في مصافهم دونه ودارت بين الفريقين حرب عظيم فخدمت النار من وقت الظهر الى اوان العصر فاظهر الله منة الحق على منة الباطل) (47) .

اما الشيخ فقد القى عليه القبض وحمل اسيرا الى مكناسة (وقد حصل في القبضة كما سبق به في القضاء والقدر واجبر بمكان الاحتياط عليه بمكناسة الزيتون) (47) .

وذلك قبل العشرين من جمادى الاولى اذ في هذا التاريخ بعث من فاس الى ابنه ابي فارس بمراكش يبثه الخبر السار :

1 ــ اذا كان تمرد الشيخ بفاس قد فشل لتدخل المنصور السريع ، فان النتائج التي ترتبت عنه قد تركت ابعد الاثر في المواقف التي اتخذها المولى احمد خلال السنة الاخيرة من حكمه .

فرغم محاولة الحاكم التركي بالجزائر سليمان باشا التظاهر بما ينفي عنه كل صلة له بأحداث فاس وعرضه الوساطة لاصلاح ذات البين بين المولى أحمد وابنه ، فان المنصور الذي كان يدرك نوايا الاتراك منذ أمد بعيد لم يزد على أن شكر الباشا التركي (فتعرفنا منه . . ما كان من عزمكم لاول ما بلغكم هذا الطارق على الكتب الى على مقامنا بالاستعطاف وبمقابلة جانب ولدنا بوجه الصفح وجميل الالطاف) (48) ومدى الصرامة والقسوة التي واجه بها المتمردين (واما الشرذمة المفسدة فحكمنا فيهم السيف واذقناهم مرارة الثبور والحتف) (48) .

ومن جهة أخرى ، هل يمكن القول بان تدخل الاتراك ضد المنصور بفاس كان من قبيل رد الفعل لما يقوم به المولى أحمد من اتصالات مع خصوم الاتراك بالجزائر وخاصة أمير كوكو عمر بن عمر ابن القاضي بالاضافة الى ايوائه الامير الزياني محمد الواثق ؟

---

47) رسالة المنصور الى ابنه أبي فارس . الافراني . ص 155 .

لقد اطلع سليمان باشا احمد المنصور على انتصاراته العسكرية ضد امير كوكو عمر بن عمر ابن القاضي واكد له عزمه على مواصلة الحرب ضـــده (واما ما عرفتم به من حال ابن القاضي صاحب كوك وصلة يده بيد الطاغية صاحب اسبانية . . فيحيط بعلمكم ان هذا الخبر كان قرع اسماعنا الكريمة على السنة العوام فلم نصدقه .. الى ان جاء كتابكم فزال الشك والريب) (48) فهل يفهم من هذا أن المنصور كانت له صلة ما مع امير كوكو ؟

2 ـ هناك ما يدعو الى احتمال وجود هذه العلاقات :

1 ـ ان امارة كوكو في مجاجة قرب الاصنام المنطقة الجبلية الوعرة ، يرجع فضل تأسيسها الى قاضي بجاية الشيخ احمد ابن القاضي الزواوي ، احد القادة المجاهدين ضد الغزو الاسباني ومن مهدوا لنشـــــر النفوذ التركي بالجزائر ، وعندما اغتاله الاتراك عام 933 هـ / 1527 تزعم ابناؤه المقاومة ضد الحكم التركي وربطوا لاجل ذلك صلات مـــع الاسبـــــان .

2 ـ لقد ظلت امارة كوكو تقاوم الحكم التركي بالجزائر وتعددت الاصطدامات العسكرية بين الجانبين ، وهذه الامارة غير بعيدة عن الحدود الشمالية الشرقية لمنطقة تيكورارين المغربية ، فلا يستبعد أن تكون للمنصور صلات بهذه الامارة والا فما الداعي لاطلاع سليمان باشا المولى احمد على انتصاراته على الامير عمر بن عمر ابن القاضي ؟

3 ـ ومما يزيدنا يقينا بهذا الاحتمال ان المنصور قد ظل ياوي عددا من أمراء بني زيان ومنهم محمد الواثق الذي كان يجد في المنصور كل عون ومساعدة على مهاجمة خصومه الاتراك بالجزائر (السلطان الاجل . . فيليــب . . كتبها محمد الواثق الشريف الزياني ابن صاحب امارة المغــرب الاوسط .. وتولى مولاي احمد .. ومات أبي فخلفت انا الحروب التي كانوا يحاربوا اهلنا مع الترك وجهزت لهم محلة في حياة مولاي أحمد وأخذت لهم ناحية من البلاد وكانت الحرب مرة علينا ومرة عليهم كعادة

---

48) جواب المنصور للباشا التركي بالجزائر . الافراني . ص 166 .

الايام وكنت مع مولاي احمد كأحد اولاده على وجه الضيافة وكان لي نصيب في طاعة المغرب من بلاد واقامة وغير ذلك) (49) .

فاذا كان تدخل الاتراك بفاس من قبيل التعامل بالمثل فان عبارات التهاني المتبادلة بين المنصور والباشا التركي تؤكد بأن كلا منهما قد انسد على خصمه محاولة التدخل ضد الآخر (ووقفنا على ما وصفتم لمقامنا العلى في نهوضكم أولا الى صاحب كوك وتخريب بعض بلاده . . وتصميم عزمكم ثانيا على الكرة اليه . . جعله الله خروج خير وسعادة) (50) . .

3 — ان حادثة تآمر الاتراك مع الشيخ بفاس زادت من شكوك المنصور ، خاصة وان البلاد لا تزال تعيش ظروفا صعبة قاسية بسبب داء الطاعون ومضاعفاته الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة ، وقد زاد من خطورة الوضع ما اظهره الانجليز من حرص على اغتنام الفرصة المناسبة لاقتطاع مناطق مغربية كبلاد سوس التي كانت تمثل في نظرهم اغنى مناطق المغرب لوفرة قصب سكرها وتعدد معادنها ولستراتيجيتها في المواصلات مع السودان التي يتدفق منها الذهب مصدر قوة المنصور وغناه ، يشجعهم على ذلك روابطهم الجديدة مع السلطان العثماني محمد الثالث والباشوات الاتراك بالجزائر .

وكنتيجة للوضع الجديد ، نجح الانجليز في فتح الجبهة الجزائرية ضد الاسبان في محاولة منهم لتخفيف الضغط الاسباني على الاراضي المنخفضة والبرتغال وارلندا ، ودفعوا السلطان العثماني الى مطالبة المنصور بالتخلي لهم عن ميناء اكدير ليتخذوه قاعدة لهم (51) .

فهذه الاحداث جميعها اكدت للمولى احمد مدى خطورة الاوضاع القائمة ودفعته من جديد الى التفاهم مع خصمه التقليدي ملك اسبانيا الذي اسرع الى التجاوب معه للظروف التي كانت تحياها بلاده :

1 — الحروب المتعددة في الواجهات المختلفة من أوروبا الغربية .

2 — اعمال القرصنة المتزايدة ضد السفن الاسبانية العائدة من أمريكا الجنوبية والشرق الاقصى .

---

49) نص الوثيقة في (المجلة التاريخية المغربية) تونس . عدد 2 . ص 125 .
50) رسالة المنصور الى الباشا التركي بالجزائر . الافراني : ص 142
51) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 267

3 — وكان الملك الاسبانى يقدر اهمية الجبهة المغربية والفوائد التى تعود على بلاده متى ضمن حياد المغرب وبالاحرى انضمامه لاسبانيا

لقد قاربت الاحداث المختلفة بين المنصور وفيليب الثالث وعاد ثانية الى سياسته التقليدية فى التقارب مع الاسبان والدخول معهم فى مشروعات الاحلاف العسكرية لمواجهة الاخطار الخارجية ومن ذلك مشروع التحالف الجديد الموقع يوم 2 غشت 1602 (52) .

اي ان المولى احمد المنصور قبل ان يخرج من مراكش للقضاء على تمرد ابنه الشيخ المتآمر مع الاتراك بفاس خلال شهر جمادى الاولى عام 1011 هـ الموافق لاكتوبر 1602 كان قد وقع مع الاسبان مشروع حلف عسكري ضد خصومه التقليديين : الاتراك العثمانيين ولصد اطماع الانجليز فى سوس . واعتمادا على ما جاء فى وثيقتين مؤرختين بيوم 16 غشت 1602 فان قطعا من الاسطول الاسبانى المرابط بالموانىء الايطالية قد تحركت نحو السواحل المغربية لمساعدة المولى احمد المنصور (53) .

غير ان الايام لم تمهل المولى احمد المنصور طويلا اذ اشتد عليه المرض وشعر بد نواجله كما يبدو من آخر رسالة وجهها الى ابنه ونائبه فى مراكش ابى فارس بتاريخ 4 ربيع الاول 1012 هـ (والله سبحانه وتعالى يرعاكم ويتولى حفظكم انتم واولادكم وقد استودعناكم الله الذي لا تضيع ودائعه . . والله سبحانه وتعالى خليفتى عليكم .. وان يعافى البلاد والعباد بمنه وفضله) (54) .

---

52) م. ص. ت. م — فرنسا — ج 2 — ص 318

53) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 216

54) رسالة المنصور الى ابنه أبى فارس الافرانى . ص 156 .
دفن المنصور بفاس بعد صلاة عصر يوم الاثنين 16 ربيع الاول 1012 — 24 غشت 1603 م ثم نقلجثمانه الى مراكش فيما بعد ودفن بمقبرة الشرفاء السعديين . وعلى شاهدة قبره توجد الابيات الاتية :

هذا ضريح من غدت	به المعالى تفتخر
أحمد منصور اللوا	لكل مجد مبتكر
يا رحمة الله أسرعى	بكل نهر تستمر
وباكر الرمس بها	ان رضاه منهمر
وطيبى ثراه من	ند كذكره العطر
وافق تاريخ الوفاة	.(دون تعسر) ذكر
مقعد صدق داخلا	عند مليك مقتدر

(الافرانى : نزهة الحادى — ص 170)

وكانت ايليزابيت ملكة انجلترا والمعاصرة له قد توفيت قبله ببضعة أشهر من نفس سنة 1603 ، ولحق بهما السلطان العثمانى محمد الثالث فى يوم 22 ديسمبر 1603 ، وطويت بذلك صفحة مجيدة فى مطلع العصور الحديثة .

وفى ليلة الاثنين 16 ربيع الاول عام 1012 ، 24 غشت 1603 انتقل المولى أحمد المنصور الى الرفيق الاعلى فطويت بموته صفحة مشرقة ذهبية لما عرفته البلاد بعده من محن واهوال تجلت فى ثلاثى خطير : الطاعون والمجاعة والحروب الاهلية (وفى سنة اثنى عشرة والف بلغنى وفاته بمدينة فاس . . فنزل الارض بذلك ما نزلها من الفساد والفتن ما نالها طاش لها الوتور . . ووضع النفيس وارتفع الخسيس ونشى العار وخان الجار ولبس الزمن البؤس وجاء بالوجه العبوس وأوردنا الاختلاف وانضب ماء الوجوه والائتلاف وطاطا الحق راسه واخفى المحق نفسه وتبرقعت الحسنى . . ووردت المهالك وسدت المسالك وعم الجوع .. فانا لله وانا اليه راجعون فيالهـا من مصيبة ما أعظمهـا . .) (55)

---

55) التامنارتى : الفوائد الجمة . مخطوط . ص 194

الفصل السادس عشر

مظاهر الحضارة المغربية أيام السعديين

تتميز المراحل المختلفة التى عرفتها الدولة السعدية منذ تاسيسها عـــام 916 هـ / 1510 م بالعمل المتواصل على : اقرار دعائم الدولة الناشئة والسعـى الى توحيد الصف الداخلى ثم قيادة المجاهدين لمحاربة قواعد الاحتلال الاجنبـــى بالشواطىء (فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك فى حق الله حق جهاده حتى استخلصوا من ايدي الكفار رقاب عباد الله وحصون بلادهم واسسوا لدين الله قواعد واركانا وملكوا من المغرب بلادا معتبرة واوطانا) (1) .

وعندما تمكن القادة السعديون من القضاء على الوطاسيين وفرضـــوا سلطانهم على معظم البلاد ، وجدوا انفسهم امام الزحف التركى فى الشرق والخطر الاسبانى والبرتغالى فى الشمال والغرب ، فاندفعوا الى مواصلة العمل على تدعيم اسس دولتهم وصد كل الاخطار عنها ، وتكيفوا بسبب ذلك مع الظروف المختلفة لمواجهة التهديدات الخارجية . وبهذه الطرق والوسائل حافظت الدولة السعديـــة على كيانها اتجاه قوى الشرق والغرب ، وتعززت وضعيتهم الداخلية فى وادي المخازن عندما انتصروا على البرتغال ، احدى القوى الرئيسية الثلاث فى العالم :

فالسعديون خلال الثلاثة ارباع القرن تقريبا بذلوا اقصى الجهود لتقوية دولتهم سياسيا وعسكريا وتطويرها اقتصاديا ، وانفقوا من الاموال لشراء الاسلحـــة النارية الحديثة ما جعل هذه التجارة تحتل المرتبة الاولى فى ميدان المبادلات التجارية بين المغرب وغربى اوربا ، بل وان كل علاقة للحكام السعديين مع الدول الاوربية كانت تقاس بما تستطيع هذه الدولة أو تلك أن تقدمه من اسلحة وعتاد وذخيرة وما ترسله للمغرب من خبراء مهرة فى صناعاتهـــا .

---

1) الافرانى : نزهة الحادى ، ص 65 .

فلا مجال والبلاد معسكر كبير ترابط فى واجهاته العديدة قوات المجاهدين من جميع فئات العامة أن نبحث عن مظاهر حضارية خاصة للدولة الناشئة (كانت سيرة الخلفاء رضوان الله عليهم من أول الدولة الى أيام المتوكل عفا الله عنه ، سيرة مطلقة لم تحفظها قوانين ولا قيدتها ضوابط بل كانت الامور مسترسلة وجارية على مقتضيات الحال بما كانت الدولة عربية شاذجة غير مرتاضة للقوانين التى تملك زمامها وتمسك عن الاسترسال عنانها الى أن صار الملك والخلافة للمولى عبد الملك أمير المومنين المعتصم رحمه الله فجنح بالدولة الى السيرة العجمية . . وحمل الناس عليها حملا عنيفا فشق عليهم ذلك لتنافر الطباع ، واضطربت الاحوال لتغيير العادة واينناس الامور الغير المعتادة . ثم جاء الله من مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله بالطبيب الماهر والحكيم المدبر الباهر . . فلم الشعث وجبر الصدع وسكن الهيعة ورتب الالقاب وواخى بحسن سياسته وحميد سيرته . . وجعل بين العرب والعجم رحم الخدمة الواصلة وقربى الصداقة الجامعة وندب لكل منهم أهل بلواه من الصنفين) (2) .

فما هى المميزات العامة لمظاهر الحضارة المغربية أيام المولى أحمد المنصور الذهبى ؟

نظم الحكم وبناء القوات العسكرية

قامت الدولة السعدية منذ تأسيسها أوائل القرن السادس عشر ، على أساس النظام الملكى الوراثى ، وقد حاول القائم بأمر الله المؤسس الاول لهذه الدولة أن يسن قاعدة لتوارث الملك ، بحيث يتولى الحكم كبير الاسرة بعد وفاة الملك (كان مولانا محمد الجد الاكبر عهد لاولاده مولانا أحمد ومولانا محمد الشيخ واخوانهما الا يتولى الخلافة منهم ولامن أولادهم الا الاكبر فالاكبر فالتزموا ذلك) (3) . ولكن ذلك لم ينفذ لان كل ملك كان يسعى الى ابعاد الآخرين من اخوته وابناء عمومته ليخلو الجلو لابنه ، الامر الذي أدى الى قيام فتن وثورات داخلية ، وعرض بالتالى البلاد لتدخلات خارجية كادت فى بعض الاحيان أن تتسبب فى انهيار الاسرة الحاكمة وتقضى على كيان المغرب ووحدته .

---

2) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 200 .
3) الافرانى : نزهة الحادى . ص 65 .

1 ــ الحكومة المركزية : وفى مقدمتها اولا البلاط المنصوري : مقر الحاكم ودواوين أعضاء الحكومة والكتاب ، وبه تنعقد الجلسات الخاصة مع المسؤولين وكبار المستشارين ، وهو يمثل الادارة المركزية والسلطة العليا فى كل الامبراطورية المغـــربيـــــة .

والمولى احمد منذ الساعة الاولى لتوليته ، تسمى بالخليفة المنصور ، تخليدا لانتصار المسلمين فى معركة وادي المخازن من جهة ، ولان الحكام السعديين لاصلهم العربى ونسبهم الشريف ــ كانوا يعتبرون دولنهم من جهة ثانية بعثا وتجديدا للخلافة الهاشمية المنقرضة ، وبانهم احق بخلافة المسلمين من الاتراك العثمانيين الذين هم من (جملة المماليك والموالى الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للاسلام . . وقلدوا الامر فى الحقيقة نيابة وامانة يؤدونها الى من هو احق بها واهلها وهم موالينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلادنا المغرب الذين شرفت بهم الامامة والخلافة) (4) .

وقد اتخذ المولى احمد كل القاب الخلافة ، فهو (أمير المومنين وامام الجماعة . . وركن الامامة .. والخليفة المخصوص بثرات الرسالة ومالك امرة المومنين) (5) واستعمل جميع شاراتها من ذكر اسمه فى خطب المساجد ايام الجمع والاعياد ، وضربه على السكة والنقود ، ثم الجلوس على اريكة الملك ولبس ابهى الحلل وافخمها ، كما أعطى لبلاطه وحكومته من المظاهر والصفات ما يؤكد قوته وعظمته ، ويجعله جديرا بامامة المسلمين وخلافتهم العظمى (حتى اذا جاء الله بهذه الدولة العلوية والدعوة الكريمة النبوية وانبعثها لتجديد الدين ونصرة الملة ووراثة الارض واحياء معالم الخلافة الدائرة) (6) .

ثانيــا : الهيئة المسؤولة ، وقد كانت تضم رجالا (ممن يوثق به فى المحافظة على اسراركم ، والى هذا فلابد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرك واصحاب مشورتك وصاحب المظالم كما هو عندنا) (7) . اي أن الهيئة المسؤولة كانت تتكون من رجال سياسيين وقادة عسكريين :

---

4) النفحة المسكية فى السفارة التركية للتامجروتى . ص 76 .
5) مناهل الصفا للفشتالى ص 1 .
6) المصدر السابق : ص 108 .
7) نزهة الحادى للافرانى ص 147

أ ــ فالسلطة السياسية كانت تتكون من :

الحاجب : المسؤول الاول فى حكومة المنصور ، (حاجب الامامة الكريمـة وكبير الدولة الصدر القائد أبو محمد عزوز بن سعيد بن منصور الوزكيتى) (8) والواسطة بينه وبين بقية الوزراء والكتاب (وكتبت لحاجب الباب أعرفه بالقصة ليقيم المعذرة عند السؤال عنى) (9) ، وهو موضع ثقة المنصور (وانتهى معهـم لهذا الموضـع تشييعا حاجب الامامة الكريمة و . . استكفاه من مولانا الامام .. لم يستتم فيها الا لمثله من علية الخدام الاكابر الثقات) (10) .

كاتب الســـر : الذي يحافظ على سر الدولة حتى لا (يطلع عليه الاجانب وان كانوا احب من كل حبيب واقرب من كل قريب) (11) ، ويؤمن الاتصال بين الخليفـة وجميع الولايات ومن الولاة الى الخليفة (وهو الذي يتولى قراءتها ويعرفكـم مضمنهـــا) (12) .

اصحاب المشورة : اي الهيئة الاستشارية التى كانت تتكون من (طبقات الاجناد وذوي الحل والربط واولى البصيرة والحنكة وخبرة الامور) (13) . وقد كان المولى أحمد يلجأ الى عقد مجالس الشورى لاخذ راي من يهمهم الامر من كبار دولته فى بعض الامور التى ينوي الاقدام عليها ، وذلك كما حصل عند تفكيره فى غزو بلاد الســـودان .

صاحب المظالــم : وهو الذي يتلقى شكاوي المظلومين ويرفعها الى المنصور للبث فيها ، وغالبا ما كان الخليفة ينظر فيها بعد صلاة يوم الجمعة (واذا كان يوم الجمعة صلى أيده الله بالمسجد الجامع . . ربما جلس هنالك لسماع المشتكين والنظر فى المظالم) (14) ، وقد ينيب عنه ولده للقيام بذلك .

ب ــ والقيادة العسكرية : تتكون من عناصر عربية واعجمية (فقد اختص رؤساء العرب واكابر الدولة منهم بالمشورة والتدبير وقيادة عساكر الخيــل . .

---

8) مناهــل الصفــا : ص 134
9) نفس المصـــدر . ص 232 .
10) المصدر نفســـه . ص 134 .
11) الافرانى : نزهة الحادى . ص 149 .
12) نفس المصدر . ص 162 .
13) المناهــــــل . ص 126 .
14) المنـــاهــــل . ص 206 .

واصطفى من العجم موالى انبتثهم نعمته ودربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة) (15)
وقد كانت القيادة العسكرية العليا زمن المنصور تضم (منصور (باي لارباي)
لفظة عجمية معناها قائد القواد . . شرفه أمير المومنين وميزه بتسميته تنويها لما
رقاه لهذا العهد من قيادة الانكشارية .. وقائد جيش اهل السوس من عساكـــــر
النـــار) (16) ، والى هذه الهيئة يرجع أمر تنظيم الجيش وضبط وحداته وجنوده
ممن (ضمه الحجر المتخذ لهم بايوان الخلافة العلية) (17) ، ومن الجدير بالذكر
أن عوامل داخلية وخارجية قد تضافرت على ابراز دور القوات المسلحة المغربيـــة
وساعدت قيادتها العسكرية على الشعور بأهميتها خلال عهد المنصور : فالمولى أحمد
تولى غداة معركة وادي المخازن ، وتعرضت بلاده فى الايام الاولى من حكمه للتدخل
العسكري العثمانى ، كما قامت ضده فتن وثورات خطيرة ، وظل شعور القلـــق
والخوف من هجوم خارجي اسبانى او عثمانى يساوره طوال حكمه .

واكثر ما برز دور القوات المسلحة وقيادتها العسكرية فى الفتوحات بالصحراء
المغربية وبلاد السودان الى الحد الذي اضطر معه المنصور الى جعل الاقاليم المفتوحة
النائية تخضع لسلطان القادة العسكريين الذين كانوا مطلقى التصرف فى سلطاتها
السياسية والعسكرية ، فكان أن تميزت هذه الولايات بالطابع العسكري عـــــن
غيرها من ولايات الامبراطورية المغربية .

2 ـــ الجهاز الاداري : نظم المنصور منذ توليته الادارة المغربية وضبطها بما
لم يكن معروفا من قبل ، فقد كانت (سيرة الخلفاء رضوان الله عليهم مـــن اول
الدولة الى ايام المتوكل عفى الله عنه سيرة مطلقة لم تحفظها قوانين ولا تيدتها
ضوابط بل كانت الامور مسترسلة وجارية على مقتضيات الحال بما كانت الدولة
عربية سائجة غير مرتاضة للقوانين التى تملك زمامها وتمسك عن الاسترسال
عنانها الى أن صار الملك والخلافة للمولى . . الامام المنصور . . رتب الالقاب وواخى
بحسن سياسته وجعل بين العرب والعجم رحم الخدمة الواصلة وقربى الصداقة
الجامعـــــة) (18) .

---

15) المناهـــــل . ص 201 .
16) المنـــاهــــل . ص 201 .
17) المصدر السابق . جاء فى الرسالة التى وجهها التاجر الانجليزى George Tomson سنة 1600 من مراكش بان الهيئة العسكرية العليا للمنصور كانت تضم القواد عزوز والمومـــن بوكرزية وبنكوز وعبد الصادق وعبد الواحد بن سعيد واخوه والباشا جوذر واحمد بن منصـــور . م. ص. ت. م ـــ بريطانيا ـــ ج 2 ـــ ص 230
18) مناهل الصفا للفشتالى . ص 201 .

فما القوانين والضوابط التى أحدثها المنصور ؟ وما الاهداف المتوخاة منها ؟

لقد كانت القوانين التى وضعها المنصور تتسم بالطابع الاسلامى بما كانت الدولة عربية مسلمة ، ولان المولى احمد والحكام السعديين لم يفتئوا ينادون بأحقيتهم فى الخلافة وامامة المسلمين (ما فى الارض اليوم مملكة جاءت على حكم طريق العدل وقوانين الشرع ومناهج السنة أحسن من مملكته) (19) وكانت ترمى الى اضفاء الصفة التنظيمية على مختلف النواحى الادارية فى المغرب لتقوية جانب الدولة ولاحكام الصلات بين الحكومة المركزية وباقى الولايات من جهة أخرى ، الامر الذي من شأنه ان يعزز وحدة البلاد السياسية ويزيد من سيطرة المنصور على كل اجـــــزاء امبراطوريتـــه المترامية الاطـــراف .

ومن أولى مظاهر هذه التنظمات ، ان المنصور قد حدد أياما سماها (أيـــام الديوان وهى التى يجلس فيها للجمهور والوفود واحكام الجند ومناولة أمور المملكة بالنقـــض والابرام وخص بذلك يوم السبت ويوم الاثنين ويوم الاربعاء) (20) . فاذا كان أحد أيام الديوان (جلس أهل الايوان وأرباب المناصب واكابر الدولة الذين عليهم مدار الامور يرقبون خروج أمير المومنين . . فاذا جاز وقت الزوال أو كاد يخرج للجلــــوس .. فيحضر خواص بساطه الكريم وكاتب سره ويناوله ما ورد على أبوابه الكريمة من الكتب من سائر الاقطار لكتب ما يخصه منها وتفريق غيره علـــى الكتبة وتعرض عليه القضايا ومهمات الملك ، ثم يوذن لسائر الاكابر والكتـــاب واولى المناصب فى الدخول فيأخذ عند ذلك ايده الله فى العلامة ان كان اليوم يومها فتارة بيده الكريمة ان كانت الكتب أجوبة أو ظهائر وتارة بالطابع ان كانت مظالم أو براوات الاشغال والعطاء أن يأخذ فى املاء الاجوبة على الكتبة أو فى سماع ما يرفعه أهل الديوان من المسائل مناوبة يستمر ذلك حتى يصلى الظهرين غالبا يـــوم الناس فيدخل الى قصره أيده الله ويتفرق الديوان) (21) .

واتخذ المولى احمد ايام الجمع فى الغالب لسماع المظالم ، فاذا ما رفع اليه القوم ظلاماتهم سعى الى انصافهم (بأن يؤتى بالعمال أيام قعوده للفصل مقرنين فى الاصفاد حتى تقضى منهم حقوق الرعايا بمجلس الحكم) (22) . وأثناء غياب المنصور

---

19) المصـــدر نفســه . ص 197
20) الفشتالى : المناهــل . ص 205 .
21) المنـــاهـــــل . ص 205 .
22) المنـــاهـــــل . ص 200 .

عن مراكش كان ينيب عنه ابنه أبا فارس للنظر فى أمور الدولة كما كان يكلفه بالنيابة عنه لسبب من الاسباب (ودفعه الى النيابة عنه فى مغيبه عنها وسماع المظالم والقعود للجم الغفير بايوان الخلافة متى عن للامام فى بعض الاحيان ما يوجب العكوف فى قصوره عن مصالح المسلمين) (23) .

أما فى الولايات والاقاليم فالمنصور كان ينيب عنه أبناءه ومن يتمتعون بثقته ، وحسب ما أورده الاسير البرتغالى المجهول — وهو معاصر — نعلم بأن المولى احمد قد قسم امبراطوريته الى اثنى عشرة ولاية : مراكش ، سوس ، تادلة ، مكناسة ، فاس ، تامسنا ، درعة ، تافيلالت ، الصحراء ، تيكورارين ، الطوارق والسودان (24)

ونظرا لاهمية بعض الولايات من الناحية الدينية والعلمية او السياسية والستراتيجية فقد اقام بها المنصور ابناءه والمقربين الثقاة : (وقسم بينهم الممالك .. فأما كبيرهم .. المولى الامير ابو عبد الله محمد الشيخ .. قلده الخليفة الامام ايده الله ولاية العهد .. وعقد له على فاس وسائر ممالكها .. فاما المولى ابو فارس .. فعقد له على السوس وسائر ممالكه .. واما المولى ابو الحسن فعقد له على مكناسة وعقد للمولى زيدان اصغرهم على تادلا) (25) .

درج الملوك السعديون منذ تأسيس دولتهم على اتخاذ فاس مقرا لولى العهد، لاهميتها الدينية والعلمية وكمركز حضاري هام لا يقل اهمية عن العاصمة مراكش، لذا فقد عين المنصور منذ توليته ابنه محمد الشيخ وكان لا يزال صغيرا (26) على ولاية فاس وجعل معهمن يساعده على تدبير الامور ، ولما كبر أصبح المتصرف المطلق فى المدينة واقليمها ، وبديهى أن الغاية من ذلك تدريب ولى العهد على ممارسة شؤون الادارة والحكم وتهيؤه لتحمل المسؤولية الكبرى فى المستقبل .

اما باقى الاقاليم فقد عين عليها عددا من ابنائه وكبار موظفيه ، وكلماتم تعيين شخص للقيام بادارة اقليم او تحمل مسؤولية ما ، أصدر المنصور بذلك ظهيرا صورة مطلعة (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، ثم كانت العلامة الكريمة المباركة المذهبة المنيرة المشرفة التى اختطت فيها يمين الامام وبنان سبط النبى عليه السلام اسمه الشريف المبارك الكريم بتدبيج يبهر العيون

---

(23) المناهل . ص 93 .
(24) م. ص. ت. م — فرنسا — ج 2 — ص 236
(25) المناهل . ص 93 .
(26) يوجد نص ولاية العهد فى مناهل الصفا . ص 82 .

حسنا ورواء وفخامة ويسع منفسح البياض المعد لذلك ما بين البسملة ومبـدا الخطاب الكريم) (27) ثم يبين الظهير نوع المسؤولية وحدودها (هذا ظهير كريم . . أمر به عبد الله امير المومنين ابو العباس احمد المنصور بالله . . لولده الاحظـى .. الامير أبى الحسن وقد اقمر هلاله .. فقلدناه امارة حضرة السوس الاقصـى وجميع أفقها السهل والجبـل وفوضنا لـه فيها التفويض المطلق فى القـول والعمل) (28) ، ويعدد ما يلزمه من قوات مسلحة للسهر على الامن والنظـام (والزمناه لحياطة تلك البلاد والاستعداد لتلبية داعى الجهاد الفى حصان معدودا فيها من استقر به فى الحال هنالك قراره) ، ثم يلزم من يهمهم الامر بتطبيـق مقتضياته (فمن وقف عليه فليعمل بمقتضاه ولا يتعدى ما أحده وأمضاه) .

ومن هذا يبدو أن الولايات التى يتولاها ابناء المنصور ، كانت تتمتع بصفات خاصة ابرزها ان الامير كان مطلق الصلاحيات ، وان ادارته كانت تشبه الـى حد كبير ادارة والده المركزية بمراكش (والى هذا فلابد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرك واصحاب مشورتك وصاحب المظالم كما هو عندنا) (29) وان الامير كان يجند قوات مسلحة يتخذها من قبائل اقليمه للمحافظة على الامن وتسيير الشؤون (بلغنا أنه قد استخدمتم هناكم جماعة من أولاد طلحة . . وبلغنا ايضا أن الخلط رجعوا كلهم رماة . . بالمدافع وعدة النار) (30) ، ولانجاد والده عند الملمات (وتزيدون للقائد . . الف رام ليستوفى بهم الغرض) (31) .

وبالنسبة لبعض الولايات النائية كبلاد السودان مثلا ، فقد جعلها المنصور (باشوية) وولى عليها قادة عسكريين حمل كل منهم لقب (الباشا) ، بيدهم كل السلطات العسكرية والسياسية ، فاتخذت ولاية السودان لاجل ذلك طابعـا عسكريا محضا . وعن الاشخاص الآخرين الذين كانت تناط بهم مسؤوليات ادارية وسياسية فى المدن والاقاليم ، هناك :

القاضـى : لتطبيق الشريعة وفق الكتاب والسنة (عن أمر عبد الله تعالى . . يستقر هذا الظهير الجليل .. بيد الفقيه .. قضاء قبائل سجتانة .. عصابة

27) المناهـل للفشتـالـى . ص 74 .
28) رسائـل سعديـة . ص 217
29) نزهة الحادى : الافرانى . ص 150 .
30) المصـدر السابـق .
31) نفـس المصـدر . ص 151 .

القاها على جبينه وعهدة جعل زمامها بيمن علمه ودينه . . والاستضاءة بمصباح مشورة الائمة الاعلام فى غياهب مشكلات النوازل والاحكام . . فجملة القبائل بالكون عند امره والانقياد لاحكامه) (32) .

وقد كانت للقاضى مطلق الحرية فى ممارسة احكامه (وكان أيده الله قـد سوغ للقاضى توجه الحكـم على من يتعـين عليه حـق فى داره الكريمة) (33) .

المفتـى : (وأولا قاضى الجماعة بحضرتهم ثم المفتى بها) (34) .

العامـل : الذي يتولى حكم عمالة خاصة باسم الخليفة فى المجالين السياسـى والأداري (عن أمر عبد الله تعالى . . يستقر هذا الامر الكريم .. بيد القائد الاجل .. ولما كان وفقه الله من مقلة الدولة مكان انسانها .. اقتضى النظر الامامى ايده الله . . أن يعصب جبينه وفقه الله بتاج ولايتهـا .. ناصبا له بمنصبها المعتبر عام النظر فى البدو من اطرافها والحضر موكولا من لدنه أيده الله الى ما خبر من تثبته واناته واقامـة قسطاس العدل ورسوم سيره المستحسنة فى كل حالاته معهودا اليه فى اتباع الحق .. واجتناب الحيف .. امرا خلد الله سلطانه .. لمن شملته الولاية المذكورة من الخاصة والجمهور .. بالكون عند اشارته .. كمـا حذر ايده الله عن المخالفة والصدوف والخروج فى السواد عن السبيل المعـروف) (35) .

ولم يكن المنصور يتوانى عن معاقبتهم اذا ما حادوا عن الطريـق القويم وظلموا الرعية (ومن مشهور مآثره فى العدل .. غلظته على جبابرة العمال المشهورين بالحيف وارتكاب الجور وشمولهم بأنواع العـذاب والانتقام وقذفهم فى السجون والمطابق مقرنين فى الاصفاد ومصـادرة أموالهم) (36) .

---

(32) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 14
(33) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 204 .
(34) المصدر السابـق .
(35) المجموع المخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 30 .
(36) الفشتالى : مناهل الصفـا . ص 200 .

صاحب الشرطة : وهو الذي يترأس جماعة من الجند تناط بهم مسؤولية المحافظة على الامن والسهر على سلامة العامة ، ثم القبض على الجناة والمجرمين وتنفيذا لعقوبات الصادرة بحقهم ، (وعقد على الشرطة لمولاه القائد ابى عبد الله محمد بن سالم) (37) وكثيرا ما قام المنصور بمعاقبة الظالمين منهم (كما فعل ايده الله . . بأصحاب صاحب الشرطة كان بالحضرة . . وكان رجلا منبوذا عند الناس بارتكاب الجور والحيف واستحلال اموال الرعايا .. حتى شهر بذلك وجلب اليه مقتا أوجب منابزته واطراحه واقعد به عن الاستعمال فى الخطــط) (38) .

شيخ القبيلة : فقد كلف المنصور رؤساء القبائل بالسهر على (تأمين الطرق وكل شيخ ضمن ما يضيع فى ترابه واخذ العهد على رؤساء القبائل بذلك) (39).

مسدد الناحية : المكلف بتطبيق حدود الشرع فى البادية (وقد كان من حق مسدذ الناحية .. ان يقيم الحد على الفاسق ويستعين على حده بمن يعينه علــى ذلك كشيخ الناحية وأعيانها) (40) .

وفى نهاية التسلســـل الاداري هنــاك :

أمناء الحرف : المكلفين بحل خلافات اصحاب حرفتهم .

ومقدمى الحارات : من (اهل الخير والدين كل على حومته) (41) .

وعند التساؤل : هل كانت هناك شروط معينة تؤهل لتولية منصب ما فى الدولة ؟ وهل كان الحكام فى دولة المنصور يتمتعون بحصانة مـــا ؟

نجد بأن الامر كان يتوقف على مكانة الشخص العلمية و (وفور عقله وصحة نبله وذكائه) (42) وعلى مدى المقدرة والكفاءة فى تسيير الاعمال والاستقامـــــة والاخلاص للخليفة المنصور ، الى جانب ما يحققه المسؤول من نجاح وتوفيق فى أعماله (وانجحت مساعيه فجذب ذلك بضبعه عند امير المومنين ورقاه عند وصوله

---

37) المصـــدر السابــق . ص 48 .
38) المصـــدر السابــق . ص 199 .
39) ابن القاضى : المنتقى المقصور . ص 95 .
40) ابراهيم الجيلالى : تنبيه الولدان . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . د 571 . ص ذ
41) المناهــــــل . ص 300 .
42) المنـــاهــــــل . ص 63 .

من القلم الى السيف فجعله اولا قائد محلاته السعيدة .. ثم رقاه الى قيادة القواد عند ولى عهـده) (43) .

وقد كان المولى احمد المنصور يخلق لمساعديه جوا من الحرية فى العمـل ويشعرهم بنوع من الثقة والطمأنينة ، حتى يتمكنوا من ممارسة أعمالهم ، وليكونوا مسؤولين عن اعمالهم وكل تصرفاتهم (ولقد سمعته ايده الله مرارا يقول ويقسم على ذلك انه ما علم من نفسه اعتمد قط السطو بأحد او تصدى الى نكبته لمجرد غرض نفسه وحظه او وتر له قبلـه) (44) .

وعندما يتأكد المنصور من زيغ أحد حكامه او قواد جنده فانه يسرع الى عزله ومحاكمتـه او يأمـر بقتله ومصادرتـه ، (سرح الـى قتلـه عظيـم الدولـة القـائد ابـا اسحـاق ابراهيـم بـن محمـد السفيانـى وانفـذ معه الفاتك احمد الزواوي وقريعه حدو الزواوي وعبد العزيز بن يخلف اليفرانى وعبد الله التلمسانى وكلهم قواد عشائرهم زواوة وعصابة الشراقة من جيوش النار . . وجعل يختل سيفه .. حتى أمكنته الفرصة فاخترطه وأغرى احمد الزواوي بالذغالى فاوما بسيفه العضب الى سالفته وهو مستلق فطارت هامته لضربة واحدة وشد ابو اسحاق هو على محمد بسيفه فعصب جبينه . . واحتزوا راسه وحمل مع رأس عمه فى مخالة حتى وضعا بين يدي امير المومنين) (45)

كما كان يلزم الولاة الذين ثبت ظلمهم وتعديهم برد ما أخذوه (الزامه العمال غرم ما تحلف عليه الرعايا انهم جاروا عليهم فيه وانتهبوه منهم حيفا من غيـر احتياج الى اقامة بينة احتياطا منه ايده الله على الرعايا وكسرا لشوكة العامل) (46) .

وعن اتصال الحكومة المركزية فى مراكش بباقى الولايات والنواحـى ، نذكر بأن ذلك كان يتم عن طريق المراسلات التى كانت مستمرة بين المنصور وابنائه وجميع ولاته ، وما أن ترد على (كاتب سره ويناوله ما ورد على أبوابه الكريمة من الكتب من سائر الاقطار لكتب ما يخصه منها وتفريق غيره على الكتبة . . حتى يأخذ فى املاء الاجوبـة) (47) .

---

43) المنـاهـل ، ص 63 .
44) المنـاهـل ، ص 212 .
45) المنـاهـل ، ص 212 .
46) المنـاهـل ، ص 200 .
47) المنـاهـل ، ص 206 .

وقد كانت هناك جماعة خاصة من المستخدمين تناط بهم مهمة تبليغ اوامر المنصور الى جميع الجهات فى الامبراطورية (الشواش وهم الطائفة التى تتولى الكتب الى الجهات والاقطار بانهاء خبر او نفوذ امر أو تقريع ظالم او جائر او تصفيد خارج ولها مكان فى المناوبة بين الطبقات المرتبة لملازمة ابواب الخلافة العليـة) (48) .

ولشدة حرص المولى احمد المنصور على اسرار الدولة وسرية التعليمات الموجهة الى الامراء والولاة ، وحتى لا يطلع عليها أحد مهما كان (أحب من كل حبيب واقرب من كل قريب) (49) ، عمد الى (اختراع اشكال من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الاطلاع عليه من أسراره ومهمات أموره واخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير بذلك الكتاب ملمعا مستغلقا فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه الى فتح شيء من معانى الكتاب ولا الوصول الى فهم سر من اسراره حتى لو تلف الكتاب أو سقط أوضاع او وقع فى يد عدو لامنت غوائل الاطلاع علـى اسراره . . ثم نوع أيده الله هذا الخط الى انواع يخص ولى عهده منها بنوع يرجع اليه فى فك معمى كتبـه) (50) .

كما أنه لشدة حزمه وصرامته فى تطبيق جميع تعليماته ، ولضبط امبراطوريته وسلامتها (بث أصحاب الاخبار فى البلاد دانيتها وقاصيتها واذكاء العيون فى سائـر جهات ممالكه من داره الى اقصى المغرب بل والى قاصية السودان . . فله من رجاله المصطنعين على كل مرقبة رصدة وعلى كل ثنية نقباء وفى كل خلوة او جلوة عين اذكاها موكلين بنقل ما يحدث من خبر أو قصة او يدور على الالسنة . . ولا يكاد يخلو له يوم من ورود وارد بخبر على بر او بحر) (51) .

3 — القـوات المسلحـة :

وحتى يتمكن المولى أحمد المنصور من اقرار دعائم الطمأنينة بالبلاد ، وليضبط شؤون الادارة والدولة ، اولى اهتماما كبيرا بالقوات المسلحة وزودها بالمعـدات الحربية الحديثة كما جعلها رهن اشارته باعتباره القائد الاعلى وبيده مقاليد الامور.

---

48) المناهـل ، ص 202 .
49) الافرانى : نزهة الحادى ، ص 147 .
50) المنـاهـل ، ص 208 .
51) المنـاهـل ، ص 207 .

وقد كان الجيش المغربى زمن المنصور على غرار (الانكشارية) عند الاتـراك العثمانيين ، حيث عمد الى تدريب العلوج والاندلسيين والسودانيين وكون منهم قوات نظامية تمكن بفضلها من اقرار الاوضاع الداخلية وقمع كل الثورات التى قامت ضده ، وتحقيق الكثير من امانيه وخاصة المتعلقة منها بالتوسع فى غربى فريقيـة وبلاد السودان (اصطفى من العجم موالى انبتثهم نعمته ودربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فتى الا اضخم حالا واعظم شانا وجلالا . . وقسم الجند الى اقسام واصناف وانواع وعلى كل قائد يسوس امرهم ، واخترع الالقـاب والاسماء ليمتاز بها البعض من البعض وجعل الجيش والقواد طبقات متفاوتات فى الحظوة وعين لكل من الاقسام والطبقات محلا ومكانا يقف به وعملا يخصه) (52) .

وقد كان القواد وكبار الجيش ضمن حاشية المنصور ، أما الجنود فيوجد عدد مهم منهم بالعاصمة مراكش حيث قدر السفير الانجليزي (Henry Robert) فى تقريره المؤرخ بيوم 3 افريل 1603 عددهم بنحو اربعين الف مقاتل موزعين بين العلوج والاندلسيين وزواوة والاتراك والمخازنية وغيرهم (53) والباقى موزع بمختلف المدن والولايات وفى القلاع والحصون ، وهؤلاء الجنود يأخذون رواتبهم كل أربعة اشهر ، وفى زمن الحرب يحصلون على تعويضات خاصة والدولة هى التى تتكفل لهم بالملابس وتوزعها عليهم سنويا (54) . والقلاع الموزعة فى انحاء المغرب كانت ماوي الحامية المنتقاة من جيش النار ودار قائدهم وخزائن العدة والسلاح والبارود والرصاص واهراء الطعام وجبات المياه . . مستكثرا فيها من الانفاط القاذفة بمارج البارود وشواظ النار والاكوار المعدنية والصخرية التى تذر الجبال كثيبا مهيلا) (55) والجند بصفة عامة يخضعون لتدريبات خاصة (وتوضع لهم دراهم معدة لذلك فمن أصاب الغرض بسهمه وقرطسه شاد بذكره المشيد وصدع باسمه فيتناول الحصة المعلومة لذلك فتنبعث المنافسة الواقعة بين القوم فى ذلك على مزيد التدريب والتخريج فى الرمايـة) (56) .

---

(52) المنـاهـل : ص 201 .
(53) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 463
(54) مجلة (Hesperis)
العدد — (3 و 4) . لعام 1957 . ص 179 .
(55) المنـاهـل . ص 264 .
(56) المنـاهـل . ص 174 .

وكثيرا ما كان المنصور يحضر استعراضات عسكرية فى المناسبات المختلفة (ولما تكامل الاستعداد . . اضطربت المحلات ضاحية بظاهر الحضرة . . فبرزت العساكر الامامية من الحضرة . . وانتظموا فى أوعب ترتيب . . انجفلت الدهماء لمشاهدتهم وغصت بهم فوهاء الشوارع) .

وقد اناط المنصور ببعض فرق الجيش مهمة حراسة البلاط الامبراطوري والسهر على سلامة الخليفة والاسرة المالكة ، كما اتخذ منهم حرسه الخاص ولمواكبة الموكب الملكى اثناء تجواله وخلال تنقلاته ، وفى الحفلات والمواسم والاستقبالات الرسمية ، مما كان يضفى على المنصور مظهر الابهة والعظمة (وانتقاهم للتصرف بين يديه وخدمة بساطه . . وموالات ركابه .. واتخذ من هنا الجنس الذي هو جنس العجم ايضا الصنف المسمى البياك . . والسلاق .. وبردروش) (57)

اما القوات المحاربة فتتكون من (جيش الاصباحية من جيوش النار) و (جيش الموالى المعلوجى من عساكر النار المعروف بجيش الانكشارية) و (جيش الاندلس من جيوش النار) وكانت تخضع لتسلسل فى الرتب العسكرية هى : (الباشوات والقواد والكواهى والمقدمون والباشوظات وبلكباشيات والضباشيات ولضاش والاجناد) (59) . وقد أبدى حرصا شديدا على تزويدها بأحدث وسائل القتال واسلحة النار (وعساكرنا قاذفة بشواظ النار وحصباء البندق المنهل بسحائب من البارود مركوم تزجيه الرعود القاصفة والصواعق الراجفة تتبعها الرادفة) (60) وعلى أن تكون دوما على اهبة الاستعداد حتى لا تخلد الى الراحة (من اصلائها نار الحرب ورميها المنازق الجلاد دؤبا على الدربة بها وارتياضا على صدق المصاع فى ضنك المواقف وخوض غمرات الهيجاء وبعيدا عن الاخلاد الى الراحة والركون والسكون الى الدعة لما يؤدي اليه ذلك من وهن عزائمهم ولين عرائكهم وفل شبى شوكتهم عند الحاجة اليهم) (61) ومتشبعا بروح الطاعة والامتثال (وسار ذلك الجيش على وثيرة الانضباط . . ولما مدنوا عليه من الانضباط .. حتى لو سيمو اسم الخياط لوسعهم مجالا .. سيرة دربوا عليها حتى صارت

---

57) المناهل . ص 202 .
58) المناهل . ص 201 .
59) عبد الله كنون : رسائل سعدية . ص 118 .
60) المناهل . ص 126 .
61) المصدر السابق .

لهم سجية وغريزة طباع) (62) . وقبل التوجه الى القتال (.. عقد الراية المنصورة بالله فى وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله حملة القرآن مائة ختمة وصحيح البخاري وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام علـــى البشير النذير والدعاء له وللاسلام بالنصر والتمكين والفتح الشامل الشامـــخ المبيـــن) (63) .

وقد برزت قوة هذا الجيش فى جميع حروبه الداخلية والخارجية (فلم يرعهم عند انقضاض بازي الصبح على غراب الليل الا ابيضاض الارض بما جللها مـــن القباب ومحميات الاجناد ولمعان الافق ببريق السيوف ووميض الدروع وشهـب الخرصان وخفق الرايات ثم هدرت الطبول وارعدت رعود النار اشعارا بالبلوغ فاهتزت الارض وربت وضج الافق من هول اليوم وصواعقه فظن اهله أن القيامة قد تـــامت) (64) .

ومن المعارك ايضا (فزحفوا اليهم وترجل سائر الفرسان والابطال من جيش الاسل يومئذ عن خيلهم واستلاموا وتظاهروا فى دروعهم ونصبوا الدرق امامهـم واشهروا سيوفهم وسابقوا الرماة من عساكر النار حتى وقفوا لصق سور قصبتهم فارعدت رعود النار وضج الافق من صواعقها الهاطلة بالرصاص المنهل انهلال المطر وحصى الحيد المنبعث من افـــواه الانفاض الذي يدك الجبال ويصـــدع الصخـــــر) (65) .

ومن حسن التدبير ، وتلاف لكل استبداد بالسلطة ، جعل المولى احمد مسؤولية قيادة الجيش المكلف بالغزو أو الفتح بيد جماعة من كبار القادة العسكريين والزمهم بالمشورة فيما بينهم قبل الاقدام على اي اجراء عسكري (وعقد مولانا الامام . . على هذه العساكر لملوكه الشهم .. جودر باشى .. وشد مولانا الامام .. ازر مملوكه .. بثقات من كفاته وحماته من قواد الاسل اولى الدهاء والرأي المطبق لمفاصـــل الخطوب .. يرجع اليهم فى مجال المفاوضة شدا لاواخى الحـــزم) (66) .

ويدخل فى هذا المجال تغيير القيادة واستبدال القوات المحاربة والمرابطـــة فى منطقة ما من الامبراطورية بقوات أخرى ، كلما مرت فترة من الزمن (.. بنقل

---

(62) المنـــاهـــــل . ص 134 .
(63) الافرانـــى : نزهة الحادى . ص 65 .
(64) المناهـــــل . ص 79 .
(65) المناهـــــل . ص 78 .
(66) المنـــاهـــــل . ص 130 .

قبائل المغرب اليها وانزالهم عليها وادالة العساكر الاولى بالاخرى لاراحتها من طول المغيب ومعانات الحـــروب .. لمدة من ثلاثة أعوام) (67) .

وهكذا كانت للمنصور امكانيات عسكرية قوية مستعدة دوما لتنفيذ أوامره ، يعززها كرديف لها قوات (عرب الدولة) وهم القبائل الموالية للدولية ، وحسب تقدير السفير الانجليزي فى مراكش (Henry Robert) فان هذه القبائل كانت على أهبة الاستعداد دوما لانجاد المنصور بقوات من الفرسان والمشاة يصـــل تعدادها الى مائتى الف مقاتل (68) وكان عرب الدولة قد (تميزوا بشعار الجندية ولبسوا شارتها والحق روساءهم بطبقات القواد واقطعهم ما شاءوا من البلاد) (69) ويضاف الى هذا القوات المغربية فى السودان (فان نهاية الرجال الذين صرفهـــــم والده فى الحملات من لدن الباشا جودار الى الباشا سليمان ثلاثة وعشرون الفـــا من خيار جيشه وهى مقيدة فى الزمــــام) (70) .

وقد كانت القوات المغربية موزعة فى المدن والاقاليم للمحافظة على الامـــن والاستقرار ، ولتدعيم سلطان المنصور وتوطيد اركان دولته ، (فالدولة استفحلت .. واستطال جناحها واتسع نطاقها وضاقت حواضر ممالكها وثغورها القاصيـــــة والدانية بما تراكم فيها من الجند وتوفر فيها من الحامية) (71) بحيث كانت تقيـــم فى قلاع وحصون ذات مواقع استراتيجية : ففى الشرق وعند الحدود الجزائريـــة يوجد حصن تازة (وليس الحصن الذي اختص أيده الله تعالى على بلاد تازى ببعيد من هذه الاثار الضخمة والحصون الفخمة تشييدا وتوطيدا ومنعة وتحصينا) (72) .

وفى الشمال بفاس خاصة ، يوجد (المعقلان الضخمان اللذان انشاهما . . بالجانب الشرقى .. وبمقابلته بالجانب الغربى .. قريعه لابل كبيره الذي يلفه على عظمته .. ذو العمل الضخم .. فجاء بها آية الاعجاز توطيدا وتشييدا وتحصينا .. ماوي الحامية المنتقات من جيش النار ودار قائدهم وخزائن العدة والسلاح والبارود والرصاص .. مستكثرا فيها من الانفاط القاذفة بمارج البارود وشواظ النار والاكوار المعدنية والصخرية التى تذر الجبال كثيبا مهيلا) (73) .

---

67) المنـــاهــــــل ، ص 164 .
68) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 463
69) المنـــاهـــــل ، ص 192
70) السعيدى : تاريخ السودان ، ص 97 .
71) المنـــاهــــل ، ص 75 .
72) المناهـــــل ، ص 265 .
73) المنـــاهـــل ، ص 264

وفى الغرب أقام عدة قواعد بحرية فى :

ا ــ العرائش (واذا انتهيت الى الاثرين العظيمين .. والحصنين الضخمين . . بمرسى العرائش العديمة النظير فى مراسى المعمور سعة وانفساحا . .) (74)

ب ــ فى اصيلا وازمور وآسفى (واما ما اصلحه ايده الله تعالى ورمه وزاد فيه فتممه بمدينة آسفى وبلدة آزمور . . ومدينة اصيــلا وسائر الاطــراف والثغـــور ..) (75) .

والى جانب القوات البرية ، هناك الاسطول البحري الذي وان لم يبلغ شاوا عظيما لعوامل مختلفة ، فان المنصور قد حاول خلقه وتطويره ، وكان من المؤمل ان يعظم امر الاسطول المغربى لولا :

1 ــ اهتمام المنصور المتزايد بالقوات البرية لاقرار الاوضاع الداخلية ولصد اي خطــر خارجــى .

2 ــ احتكار الانجليز خاصة تجارة المغرب الخارجية وتزويدهم المنصور بكل مــا هو بحاجة اليه من عتاد واسلحة علاوة على قيامهم فى الغالب بنقل السفارات المغربية والوفود من المغرب الى اوربا وبالعكس .

3 ــ وجود مراكز احتلال اجنبى بسواحل المغرب وهى موانىء هامة ذات مواقع استراتيجية ولما كانت علاقات المهادنة فى غالب الاحيان قائمة بين المنصور والاسبان فانهم استفادوا من ذلك للمتاجرة مع المغرب والقيام بعمليــات التصديــر والاستيــراد .

4 ــ انتشار عمليات القرصنة فى عرض البحار ، الامر الذي كان يتسبب فى كثير من المشاكل ويعرض علاقات الدول للخطر والتوتر وقيام الحروب .

5 ــ ان خصوم المنصور من اتراك واسبان بالدرجة الاولى هم الذين كانوا يهددون البلاد بين آونة واخرىبالهجوم والتدخل العسكري ، اي ان المولى احمد كان بحاجة الى قوات دفاعية لصد اي تدخل خارجى بالدرجة الاولى .

وعندما انهزم الاسبان فى الارمادا (Armada) وتحطم القسم الاعظم من الاسطول الاسبانى ، ثم لما انشغل الاتراك العثمانيون بحروبهم فى اوربــــا

---

(74) المناهــــل . ص 265

(75) المناهــل . ص 265 .

الشرقية ، سعى المنصور الى اغتنام الفرصة المناسبة لتأسيس اسطول مغربي قوي (وهو اليوم (عام 1596 م) ايده الله لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل رغبة فى الجهاد والاستظهار على عد والدين .. وافر العدد .. بما أتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية المعينة بخراجها المستبحر ومعادن الذهب على التوسع فى الانفاق . . وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها على تسخير المجاذيف الثقيلة بالاساطيل كأجنحة الطير خفقانا وسرعة) (76) .

وقد عمد المولى احمد المنصور من اجل تحقيق ذلك الى :

1 ـ بناء الدور لصناعة السفن (ثم صرف همته الى اتخاذ الاسطول برباط سلا امنه الله فتعددت مراكبه) (77) .

2 ـ تحصين بعض الموانىء المغربية الصالحة لرسو الاسطول (لما كمل بناء حصن الفتح من مرسى العرائش نقله اليه وأنزله به) (78) ، ومن بين قطع الاسطول المسلحة كانت (القطائع والشوانى) (79) .

3 ـ تنظيم قيادة الاسطول بان (عقد على رياسته لرجل من أهل المغرب يدعى الرايس ابراهيم الشط المثل المضروب فى الشجاعة والمعرفة بأحوال البحر) (80) وبعد الرايس الشط تولى قيادة الاسطول (الرايس شعبان فهو اليوم (عام 1596 م) قبطان الاسطول الامامى الجهادي ورئيس الجماعة من رؤساء المراكب الجهادية والقطائع البحرية) (81) .

ومن الملاحظ ان فاعلية هذا الاسطول قد برزت بصفة خاصة عند الفتح المغربى للسودان ، وذلك لصعوبة التنقل وحمل آلات الحرب والقتال فى البر ، فاستغلت القوات الفاتحة نهر النيجر لنقل القوات والعتاد وللتوغل بعيدا فى أقصى مناطق بلاد السودان وفرض سلطان المنصور عليها (وارسلت فى النيل ارسال الاجادل المنقضة تقطع انفاس الرياح وتستقل بالفيلق الجم والاوقار الثقيلة من البضائع .. وكانت الاساطيل التى اتخذت سبيلها فى البحر القاها اليم بالساحل من كاغو .. فارسلت على نفق الشقى المخذول فانكفا اليها فالقاها تتلمظ فاغرة أفواه الحتف اليه

---

76) المناهل ، ص 197 .
77) المناهل ، ص 204
78) المناهل ، ص 205
79) المناهل ، ص 205 .
80) المناهل ، ص 205
81) المناهل ، ص 205 .

جالبة أسباب الحين عليه (82) وكذا فى مهاجمة كناريا (وما زال أيده الله تتوالـــى بها نزواته على أرض الكفر وطواغيث الشرك فتقتاد السبى والانتقال ولا كالجزائر الخالدات التى ضرستها بأنيابها واضحت مثمرات اليد بما تستاق كل عام مـــن سبيهـــا) (83) . فهل كللت جهود المنصور لتنظيم ادارته الداخلية بالنجاح ؟ والى اي حــــــد ؟

لقد نجح المولى احمد المنصور بفضل حزمه وحسن ادارته من ضبط البلاد ونشر الطمأنينة بها (فسكن زعازع هوله أولا واقتلع جرثومة اهل البغى والشقاق من اجناده ثانيا واستأصل شافة الخوارج والثوار على الدولة ثالثا وطاب الجنى وذرت اخلاف الجباية فامتلات بيوت المال وغصت بالحبوب مخازن الاقوات ثـــم جاء نصر الله فذرت الفتـــوح واتسع نطاق الملـــك وبلغت الدولة الى أشـــرف نصـــابهـــــــــا) (84) .

4 ــ ولايـــة العهـــــد :

كان المولى احمد المنصور يعتبر ان تسمية من يخلفه فى امامة المسلمين بعده حق من حقوقه الشرعية كأمير للمومنين ، لذا فقد اعلن بيعة ابنه المولى محمـــــد الشيخ ، مما يؤكد حرصه على استمرار العرش السعدي وسلامة الدولة المغربية ، وحتى لا تختلف الكلمة وتتفرق الجهود بعد وفاته ويحصل ما لم يكن فى الحسبان ؟ وقد تمت بيعة المولى الشيخ بالمصافحة اذ (ازدحم الناس على تقبيل يده ومصافحته بالبيعة واقتضيت منهم الايمان) (85) ، ثم لما كبر ابناء المنصور جدد البيعة لابنه الشيخ واخذ من بقية ابنائه عهودا بذلك (فسمعوا واطاعوا واوقعوا على الرسم علامتهم بالتزام البيعة والرضى والقبـــول) (86) .

وبالنسبة لجمهور العامة (امرنى ايده الله بالقيام على رؤس الاشهاد برسم البيعة فرفعت بقراءته عقيرتى ليتادى الى الناس فهمه . . وقام الى جنبى قاضى الجماعة .. مفسرا لما اشكل من احكام البيعة التى تضمنها الرسم الكريم . . ونادى

(82 المناهــل . ص 118 .
(83 المناهــل . ص 197 .
(84 المناهــل . ص 151 .
(85 المناهــل . ص 60 .
(86 المناهــل . 82 .

الناس بالسمع والطاعة والرضى .. واندفعوا للبيعة واعطاء صفقة الايمان) (87)
ويعد نص البيعة بولاية العهد من الوثائق التاريخية الهامة المتعلقة بتاريخ الخلافة السعدية فى المغرب (88) .

5 ـ التبادل الدبلوماسى :

بعد انتصار المغاربة فى معركة وادي المخازن سنة 1578 م ، وقضائهم على الجيش البرتغالى دخل المغرب فى صلب السياسة الدولية وظهر السعديون كحكام اقوياء يمكن الاعتماد على تحالفهم والركون الى جانبهم . وازدادت اهمية المغرب الخارجية بعد تطور الصراع العثمانى ـ الاسبانى واشتداد الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت بأوربا الغربية ، بفضل موقعه الاستراتيجى وتحكمه الى حد بعيد فى طريق الملاحة البحرية والمواصلات بين أوربة الغربية والشرق الاقصى .

واذا كانت للمولى أحمد المنصور من صفات يتميز بها ، فان ابرزها حسن دهائه السياسى وبراعته فى اغتنام الفرص وارغام الخصم على التسليم له بمكاسب مادية وسياسية (فجرد أمير المومنين أيده الله صارم عزمه . . وارهف لذلك حد تدبيره . . فلم يزل أمير المومنين يسدي فى أمرها ويلحم ويسرج ويلجم ويوعد ويعد وبنى ذلك على أساس من المكائد كأنها لحصانتها بكل مفان الفتل شدت ليذبل) (89)
وبعد فتح السودان وتأسيس الامبراطورية المغربية ، ذاع صيت المولى أحمد المنصور واصبح من الحكام العظماء لا يقل قوة وغنى عن معاصريه فى : صطامبول ومدريد ولندن .

واتسعت بذلك مجالات اتصالاته الخارجية واصبح له تبادل دبلوماسى مع اعظم الدول المعاصرة فى الشرق والغرب . وتشهد الوثائق التاريخية ورسائل المنصور العديدة التى بين ايدينا على عظم اتساع افق الدبلوماسية المغربية ، مما يمكن اعتباره بداية للتمثيل السياسى فى تاريخ المغرب الحديث .

فما الاعراف الدبلوماسية المغربية التى كانت فى عهد المولى احمد المنصور ؟

1 ـ اعتماد السفراء المغاربة :

لقد تبادل المنصور مع الملوك المعاصرين له السفراء والبعثات

---

87) المناهل ، ص 82 .
88) المناهل ، ص 82 .
89) المناهل ، ص 114 .

الدبلوماسية ، وعرف قصر البديع بمراكش نشاطا سياسيا متزايدا لكثرة ما ورد على المنصور من وفود أجنبية من المشرق والمغرب . وكانت العادة أن يعجل المولى احمد بارسال الجواب دليلا على حرصه واهتمامه ، مع سفير مغربي يذهب في الغالب صحبة الوفد الاجنبي العائد الى بلاده (برز الاذن السلطاني .. فتوجهنا .. مع الرسل ووردنا على الابواب العثمانية بالقسطنطينة) (90) ، والمنصور هو الذي كان يتولى اختيار سفرائه ، وغالبا ما كان ينتقيهم من طبقة العلماء النابهين (فاهتز السلطان (العثماني) لذلك .. واستنبل فيه احوال القاضي وحسن تلطفه في الابانة عن اغراضه واستدل بذلك على شرف مرسله وهمته في انتقاء امثاله للسفارة عن ابوابه) (91) .

وقبل أن يسافر المبعوث الدبلوماسي المغربي يتسلم من المنصور كتاب اعتماده ، يتضمن التعريف بالسفير ومدى حظوته ومرتبته العلمية والسياسية (هذا وانه يرد على مكانك المكين حامل هذا الخطاب الكريم خديم مقامنا العلي الكاتب الانجد الاثير ..) (92) ويلتمس من الملك المرسل اليه ان يعتمد على السفير المغربي ويستمع الى اقواله (وقد حملناه من الامور ما يلقيه اليكم ان شاء الله مشافهة ويبثه عليكم مكالمة ومواجهة ، وعرفناكم لتعلموا اننا حملناه القاء ذلك اليكم وامرناه ببثه عليكم والمراد ان تصغوا الى ما استودعناه تبليغه ان شاء الله جملة وتفصيلا) (93) . هذا فيما اذا كانت المهمة التي كلف بها السفير تستلزم السرية التامة ، واحيانا يصرح المنصور في رسائله بكل ما يرغب في اطلاع مخاطبيه عليه (هذا وقد وصلنا كتابك .. وطالعنا ما ذكرتم عن ولد اخينا الخارج بمليلية وعن اسباب خروجه وحتى خديمكم .. ذكر لنا ما امرتموه أن ينثه علينا وينهيه الينا) (94) .

وجميع مراسلات المنصور الخارجية كانت تفتتح بالبسملة والتصلية ثم الاشادة بالخلافة السعدية الشريفة وذكر المدينة التي صدرت عنها ؛

---

(90) النفحة المسكية في السفارة التركية . التامجروتي . ص 25 .

(91) المناهل للفشتالي . ص 66 .

(92) من رسالة للمنصور الى ايليزابيت ملكة بريطانيا — مجلة تطوان — عدد 8 — ص 80 .

(93) المصدر السابق .

(94) من رسالة للمنصور الى فيليب الثاني ملك اسبانيا — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط رقم 257

وتخلص بعد ذلك الرسالة الى اعتماد السفير المغربى والتعرض الى الغرض المقصود ، وفى الختام نجد تاريخ صدور الرسالة باليوم والشهر والسنة .

ومن الجدير بالملاحظة ان المولى احمد كان يطلع سفراءه على رموز شيفرة خاصة كان قد ابتدعها وذلك لاتخاذها اساسا فى المراسلات بينهم (كتابــــة الفقيه عبد الواحد بن مسعود عنون وجدنا فى براءة بخطه رمز فيها بأخبار لمولانا ابى العباس احمد المنصور المعروف عندهم بالذهبى عن اخبار سلطانة النصــــارى .. ببلاد الاندريس فى عام تسع والف) (95) .

2 ــ استقبــال الوفــود الاجنبيـــة :

وجد السفراء والبعثات السياسية من المولى أحمد المنصور كل الحفاوة وكرم الضيافة وحسن الاستقبال ، وقد جرت العادة أن يقام حفل خاص يقدم خلاله السفير أوراق اعتماده وكتب ملكه الى المنصور ، ومن ذلك الحفل الذي اقيم لسفير مملكة برنو وملكها ادريس الثالث (الوما) ، اذ (جلس لهم أميــر المومنين افخم جلوس بالقبتين التوامتين .. واستوقف الموالى والمماليــك سماطين من التوامتين الى القبة العربية .. فغودي بالرسول يخترق السماطين حتى انزل بالديوان وكان الملامن اكابر الدولة وصدور المملكة جلوسا به . . فجلس الرسول هنالك مليا ثم غودي به على سبيل الترقى الى القبة العربية فتلبث بها ريثما جاء الاذن الكريم بايصاله الى مقر الامامة الكريمة .. فغودي به الى التوامتين فمثل بين يدي أمير المومنين .. فادى الرسالة وقضى فرض التهنية وسنة الهدية (96) .

واستنادا الى ما ذكره السفير الانجليزي فى المغرب Henry Robert فانه قد وجد فى استقباله عندما رست سفينته بميناء آسفى قائد المدينة الذي أرسل رسولا خاصا الى مراكش ليعلم المنصور بوصوله . واثناء اقامته بآسفى وضعت تحت تصرفه دار فخمة وأنيقة وعدد من الجنود لحراسته . ولما جاء امر المنصور بالتوجه الى مراكش هيأ له القائد خيولا ليركبها وصحبه وبغالا لحمل الاثقال ثم خرج نحو العاصمة مخفورا بقوّات مغربية .

(95 مجلــة (Hesperis) : لعام 1927 . ص 221 .

(96 المنــاهــل . ص 67 .

وفى الطريق وعلى ضفاف نهر تانسيفت أقاموا له خيما تحت اشجار الزيتون كما خرج لاستقباله عدد من التجار الاجانب . وفى مراكش انــــزل السفير فى دار جميلة بالملاح (حى اليهود) ثم استدعى لمقابلة المولى احمد المنصور بعد ان استراح ثلاثة أيام ، وتسليم كتاب الاعتماد الذي اعتمدته به الملكة ايليزابيت سفيرا لدى المنصور وليبلغه مطالبها (97) .

ومن الاعراف الدبلوماسية فى هذا العهد أيضا :

1 ــ ما يشبه كتاب (الامتزاج) عند الرغبة فى تعيين السفير الجديد الذي يستحسن أن يكون ممن عرف البلاد وعاداتها ويتوفر على خبرة وتجربة (لما مرت عليه هنا فى هذه البلاد سنون عديدة .. حصلت له بسبب ذلك . دروبة وممارسة .. ولاحت له مخايل النجدة والنجابة .. فاخبرناكم بأهليته) (98) .

2 ــ العناية بالسفراء الاجانب وتيسير مهامهم (ثم نثنى اليكم أن رسولكم الاثير المرعى .. الذي هو الآن بدارنا واستقر به العز والاكرام فى كريم جوارنا) (99)

3 ــ التنويه بالسفير عند نجاحه فى مهامه (ولقد شهدنا له من خصال نصحكم وقيامه بواجب حقكم .. فانه لا ينفك عن أبواب مولانا امير المومنين .. مجتهدا فى اغراضكم التى نهج فيها جادة السداد والصلاح) (100) .

4 ــ التعجيل بالجواب الا اذا حصل ما يستوجب التاخير ، وفى هذه الحالــــة توجه رسالة خاصة تعلم بذلك (ثم عنت لنا بعض امور تجددت لدينـــا . فاشغلنا تقاصيها وتدبيرها الى هذا التاريخ عن المبادرة بتشييعه لكم فى الفور كما هو المراد فكان المقتضى لتاخيره ما عن لنا من هذه الاسباب كما أنها ايضا سببت فى تأخير هذا الجواب) (101) .

5 ــ تمكين بعض المبعوثين الاجانب من رسائل توصى مرسليهم بهم والانعــــام عليهم (هذا وموجب اصداره اليكم .. أن خديمكم القبطان .. مد لعلائقنـــا الرغبة فى ان نكاتبكم فى شأنه لتفسحوا له من قبولكم محل المراعاة وتبوءه من

---

97) م. ص. ت. م ــ فرنســا ــ ج 2 ــ ص 510
98) نص الرســالة فى مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد . ص 257
99) المصـــدر الســـابـــق .
100) المصـــدر السابـــق .
101) المصـــدر السابـــق .

ملاحظتكم وموالاتكم مكان الرعى والمبالاة فاسعفنا رغبته . فعاملوه بما يناسب قصده) (102) .

6 — وعند انتهاء مهام السفير يتوصل المنصور بخطاب خاص يعلمه بذلك (وانه اتصل بنا كتابكم .. فوقفنا منه على ما قصدتم اليه .. من استدعاء توجيه رسولكم .. اليكم واشخاصه نحوكم) (103) .

وقد كان السفراء الاجانب يتمتعون فى المغرب بحصانة دبلوماسية تشمل اشخاصهم ومنازلهم وكل ما يتعلق بهم (وأنه اتصل بنا من قبلكم كتاب .. ووقفنا منه على ما كتبتم فيه لعلى مقامنا من ابقاء الحرمة على دار الباشدور دون فرنشيشا و .. والى هذا فاماحرمة الدار فما زالت عنها ولاحالت بل أبقيناها عليها كما كانت) (104) .

كما كان هناك ايضا القائمون بالاعمال ولهم نفس امتيازات اسفراء (وما ذكرتم عن بلتزاربول وانه فى هذه الساعة يكون هو الذي يبلغ الينا كتبكم ويعرفكم بما نامره وانكم ما زلتم تبعثون الينا رجلا آخر يكون فى مكانه ليستوفى غرضنا واغراضكم فعلى بركة الله فها نحن ننزله بهذه المنزلة الى أن تبعثوا ان شاء الله من يكون فى مكانه كما ذكرتم) (105) .

ومن الاعراف الدبلوماسية التى جرى بها العمل زمن المصور : ان يتقدم السفراء المسلمون على غيرهم للسلام على المولى أحمد (وكانت ارسال بنى عثمان ملوك القسطنطينية العظمى وارسال طاغية تشتالة حاضرين .. فأذن لهم فى السلام .. فتقدمت للسلام اولا ارسال بنى عثمان لمزية الاسلام) (106) .

وان تحضر البعثات الدبلوماسية الاجنبية فى المغرب الحفلات الرسمية (.. حضر جمعه العظيم رسول عظيم الملة النصرانية طاغية تشتالة بما كان ساعتئذ بمراكش سفيرا الى حضرة أمير المومنين من عند ملكه فاستأذن المقام العلى الامامى ايده الله فى البروز يوم اللقاء لمشاهدة شعار الاسلام فاسعف الى ذلك وسار من الحضرة الى مخيم عساكر المسلمين) (107) .

---

102) المصدر السابق .
103) المصدر السابق .
104) رسالة المنصور — سيمانكاس 197
105) المصدر السابق .
106) المناهل . ص 99 .
107) المناهل . ص 60 .

وقد حصل نفس الامر بالنسبة للسفراء العثمانيين (وكانت الارسال الوافدة من جهة بنى عثمان بالقسطنطينية مقيمة بفاس .. فاذن لهم يومئذ بالصعود على سطح الدار المعدة لنزولهم بالرياض من البلد الجديد لما سالوا ذلك) (108) .

وفيما يتعلق بطريقة المراسلة التى كانت تتم بين المولى أحمد المنصور وبقية الملوك المعاصرين له ، تؤكد وثيقة معاصرة بأنها كانت تجرى وفق قواعد خاصة وطرق معروفة متفقا عليها . ومن ذلك :

1 — استعمال خط معروف (ثم ان الذي ينهيه اليكم ونقرره لديكم ان هذا الكتاب الواصل من تلقائكم قد تأملناه فوجدنا خطه مخالفا للخط المعتام من كتبكم) (109)

2 — ان يختم الكتاب بطابع خاص (وطابعه أيضا مخالف لطابعكم) (110) .

3 — وحتى طريقة الكتاب كانت تتم على صورة خاصة (وحتى طيه غير الطى الذي يأتى من عندكم) (111) .

اما لغة المخاطبة ، فالمولى احمد المنصور لم يكن يستعمل فى رسائله الا اللغة العربية ، وفى دار الوثائق الاسبانية اليوم بسيمانكاس (Simancas)

يوجد العديد من رسائل المنصور الى فيليب الثانى باللغة العربية ومعها ترجمة اسبانية مما يؤكد بأن رسائل المولى احمد كانت تترجم بالايسكوريال قبل تقديمها الى الملك الاسبانى للاطلاع عليها (113) .

وبالمقابل كان الباب العالى يخاطب المنصور باللغة العربية ، بينما ملوك اوروبا يراسلونه بلغاتهم الوطنية (جاءنا اصحابكم ووفدوا على أبوابنا العلية بكتبكم .. الواردة بخطوطكم .. وبحسب ذلك كتبنا من عندنا لخديم مقامنا .. ليتولى كتبه الينا بخطوطنا لكى نفهمه) (114) كما كان السفراء الاجانب يحادثون المنصور بواسطة الترجمان الخاص (115) .

---

108) المناهل . ص 99 .
109) نص الرسالة . سيمانكاس — اسبانيا — رقم 197
110) المصدر السابق .
111) المصدر السابق .
112) على بعد 12 كم من مدينة (الوليد Villadolid) بالشمال الغربى من اسبانيا توجد قرية (سيمانكاس Simancas)التى تضم خزانتها الوطنية ازيد من ثمانية ملايين وثيقة .
113) فى المكتبة الوطنية بمدريد مجموع مخطوط لترجمان الملك الاسبانى الخاص يضم مسودة احدى وخمسين رسالة للمنصور الى فيليب الثانى .
114) نص الرسالة . بالمكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257 .
115) م. ص. ت. م — فرنسا — ج 2 — ص 512

أما مدى نجاح المولى احمد فى دبلوماسيته ، فقد (جرد امير المومنين أيده الله صارم عزمه .. وارهف لذلك حد تدبيره .. فلم يزل أمير المومنين يسدي فى أمرها ويلحم ويسرج ويلجم ويوعد ويعد وبنى ذلك على أساس من المكائد كأنها لحصانتها بكل مغان الفتل شدت ليذبل (116) الامر الذي مكنه من تحقيق مكاسب سياسية عظيمة وجعل له مكانا خاصا بين معاصريه (ومكث هو فى تلك الامر سبعة وعشرين عاما ونصفا فخرج فيها عجائب وغرائب من الذكاء والمعرفة بجميع الاشياء والهمة العلية والسعادة الدنيوية ومواتاة الليالى والايام حتى قال انه ما هم بشيء قط الا يأتيه وفق ما أراد بل فوق ما نوى) (117) .

---

116) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 114 .
117) السعيدى : تاريخ السودان ، ص 208 .

الفصل السابع عشر

المظهر الاقتصادي

اظهر المولى أحمد المنصور منذ توليته حرصا كبيرا على توطيد دعائم الامن فى البلاد ، وظل طوال حكمه حريصا على ذلك ، لما للاستقرار من اثر فى ازدهار الحياة الاقتصادية وتطورها . وقد حقق المنصور بفضل الامن النسبى الذي كان يعم دولته الكثير من المنجزات داخل البلاد وخارجها ولاسيما فى المجالات الاقتصادية المختلفة (الى أن جاءت دولة امير المومنين أيده الله فرفض التقليد واتسع التوليد والاختراع .. وعظمت الانفة من الاقتصار على الكفاية فجاءت الآثار بادرار الفتوح ونبالة الصنائع وتحكم الحضارة ولطف الاختراع والتوليد وسعة الدرع وضخامة الشكل بحيث لا تشبيه بينها وبين ما تقدم زمانها) (1) .

وعند البحث عن العوامل التى ساعدت الى حد بعيد على ازدهار اقتصاديات المغرب زمن المولى أحمد المنصور ، نجـد :

أولا ــ انتعاش الباديـة المغربيـة :

وقد حصل ذلك بفضل الاهتمام بالزراعة والري اذ ادرك المنصور دور الزراعة الرئيسى فى الاقتصاد المغربى لسببين أساسيين : وجود الاراضى الخصبة الواسعة المنتشرة فى مختلف المناطق المغربيـة ، ثم النسبة العظيمة من السكان فى البوادي الذيـن يعتمدون عليها ، لذا فقد أولـى عناية كبرى بالاراضى الفلاحية والفلاحة بوجه عام ، وظهر ذلك فى مظاهر اربـع :

---

1) المناهل ص 209 .

1 ـ تنظيم الزراعة ومختلف انواع المزروعات من حبوب وغلل وفواكه وخضر وزيتون وكرمة ونخيل وغير ذلك من المنتوجات التى دفعت السفير الانجليزي (Henry Robert) فى المغرب الى الاشادة بها والتنويه بخصوبة الاراضى المغربية وامكانياتها الانتاجية الواسعة (2) .

2 ـ الاعتناء بالماشية من قطعان البقر والغنم والماعز للاستفادة من عائداتها والخيل والجمال والبغال التى تستخدم للاسفار وحمل الاثقال ، الى جانب الحيوانات الداجنة . وقد أشاد بها السفير الانجليزي أيضا ونوه بثروة المغرب الحيوانية العظيمة (3) .

3 ـ الاهتمام بالري وسقى الاراضى الزراعية عن طريق استغلال الاودية العظيمة والشبكة المائية الغزيرة التى تتوفر عليها الاراضى المغربية : ففى اقاليم مراكش ، كان الفلاحون يستغلون الاودية التى تنحدر من جبال الاطلس الكبير لسقى أراضيهم ، وذلك بحفر مجار مائية خاصة واقنية تحت الارض بما يعرف بالخطارات .

وفى السودان قام المغاربة بتنظيم واسع لعمليات ري الاراضى الزراعية (فمحمود باشا أخذ فى انشاء نهر اجتلبه من غمره واقتطفه من تياره ويمكن ذلك فى غير ما موضع منه ، وعن قريب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزهو على جلق وشط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتمير القاصى والدانى من اقاليم السودان) (4) .

4 ـ السهر على توزيع الاراضى الزراعية على القبائل لزراعتها والاهتمام بها الى الحد الذي كان يجبر معه احيانا بعض القبائل الرحل فى البادية على سكنى الارض والاشتغال بالزراعة (فيسكنها أهل البادية وأجرى لهم على ذلك من اقطاع الارض ما يكفيهم) (5) . وقد وزعت الاراضى على المهاجرين الاندلسيين أيضا (واقطعتهم الدولة أراضى فسيحة بالجانب الغربى من فحصها الافيح فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات وحصلوا

(2) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب : انجلترا . ج 2 ص 325 .
(3) المصدر السابق . ص 327 .
(4) المصدر السابق ص 167 . الفشتالى : مناهل الصفا . ص 167
(5) ابن القاضى : المنتقى المقصور . ص 95

من استغلال ذلك الى اليوم على ما انساهم ذكر وطنهم واعتاضهم ممـــا فـــاتهـــم بـــــه (6) .

فازدهرت الحياة الزراعية وتعددت منتوجاتها وكثرت قطعان الماشية كمـا نشط العمران بظهور مراكز حضارية فى البوادي المغربيـة .

ب ـــ فتح مجالات اقتصادية واسعة للكسب امام سكان البادية : اذ زيادة على أعمالهم الزراعية ، عمد المنصور الى تنشيط الناحية التجارية لدى سكـان البادية وتشجيعهم على أعمال البيع والشراء ، فقد كلف سكان المراكز الحضاريـة فى القرى المستحدثة بالبادية ، بتقديم كل ما يلزم المسافرين من طعام وشـراب وبالسهر على خدمتهم ، مقابل تعويضات مادية يدفعها المسافرون (وأمرهم ببيع الشعير والطعام واللحم والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج اليه المسافرون ودوابهم) (7) . وفى هذا مكسب مادي لسكان البادية وتشجيع هام للتجارة الداخلية ومحاولة لاقرار دعائم الامن فى البوادي المغربية من جهة أخرى .

ج ـــ اقامة قرى صناعية فى البادية ، وذلك نتيجة الاهتمام المتزايد بزراعة قصب السكر وما تطلب ذلك من اقامة للعديد من معاصير السكر ومصانعـه : (وهى الامور التى انفرد أيده الله بتدبيرها فجاء للناس منها بنايات الاعجاب) (8) وقد ازدهر العمران بهذه القرى الصناعية الناشئة (لكثرة ما ضمته من العملة وحشرته من الخلق ولا تسل عن هولها ولغط الاصوات بها على عظمة شأنهـا وضخامة أحوالها على ضخامة الملك وسعة ذرع الدولة) (9) .

وبانتعاش البادية المغربية بوجه عام للعوامل التى اسلفنا (طاب الجنى وذرت اخلاف الجباية فامتلأت بيوت المال وغصت بالحبوب مخازن الاقوات) (10) .

وقد لمس العديد من المعاصرين الاجانب ما بلغته البوادي المغربية زمـن المولى أحمد المنصور من ازدهار وانتعاش فى مجالات الزراعة وتربية المواشى والدواجن ومدى تأثير الاحوال الاقتصادية المتطورة على أحوال البلاد وتزايد عدد السكان فى المدن والبــوادي (11) .

---

6) المناهل . ص 42
7) ابن القاضى : المنتقى المقصور . ص 95 .
8) المناهــل . ص 297 .
9) المناهــل . ص 40 .
10) المناهل . ص 209 .
11) م. ص. ت. م ـــ بريطانيا ـــ ج 2 ـــ ص 437

د ــ وتجلى تشجيع المنصور للبادية المغربية فى حذفه لضرائب كانت تثقل كاهل الفلاح ومن أهمها (النائبة التى ثقل لمخالفتها للشرع على الاذان سماعها وخرجت عن حـــد السنة أوضاعها) (12) .

ثانيــا ــ اتســـاع نطـــاق الحياة الاقتصاديـــة :

فقد تطورت الصناعة وازدهرت بصفة خاصة : الصناعات التى كانـــت الدولة المغربية تقوم باستغلالها وتدر عليها أرباحا عظيمة .

ومن اهم تلك الصناعات : صناعة السكر ، صناعة الاسلحة ، عمليـــات استخراج المعادن ومختلف الصناعات اليدوية والحرف المحلية .

أ ــ صناعـــة السكر وتأسيس معامل للدولـــة :

فقد نمت هذه الصناعة بفضل ازدهار زراعة قصب السكر والتوسع فيها (ثم انطلق العمل وعم الاغتراس بالقصب الاوطان) (13) .

واهم مزارع قصب السكر كما اثبتت المصادر المعاصرة وايدتها الحفريات الحديثة : وادي القصوب عند مدينة الصويرة ، سهل سوس ، وفى غربـــى تارودانت ، ثم فى وادي ماسة وضواحى كولمين (14) .

علاوة على مزارعه بضواحى طنجة وسبتة وسلا (15) . وهذه المزارع كانت تسقى بفضل شبكة ري خاصة وحرصا من المنصور على تصنيع قصب السكر ، أمر بتوسيع عمليات غرس القصب السكري (وهو اليوم . . . قوي العزم علـــى الاستكثار من المعاصر حتى ينمو العدد ويتضاعف الخراج) (16) .

انشأ المولى احمد مصانع سكرية عديدة من اهمهـــا :

اربع مصانع شمالى الاطلس الكبير عند مدينتى شيشاوة والصويرة ، وعشر مصانع بسوس وتارودانت وما حولها (من أعظم آثاره . . . المعاصر السكرية التـــى

---

12) عبد الله كنون : رسائل سعدية . ص 145 .
13) المناهل . ص 209 .
14) مجلة البحث العلمى . العدد الاول . ص 33 .
15) المصـــدر نفســـه .
16) المناهـــل : ص 210 .

ابتدع رسومها واخترعها ببلاد حاحة وشوشاوة من عمل مراكش . . . وشأن هذه المعاصر شأن الخوارق الخارجة عن طوق البشر جناء وعظمة وتوطيد او تشييدا ، ما شئت من برك رحيبة وجفان كالجوابى وقدور راسيات ولوالب فلسفيات وحركات هندسيات . . . فانطلق العمل وعم الاغتراس بالقصب الاوطان المرتادة له . . . ثم اجرى لاستدارة رحاها العظيمة الاخشاب الجائية الاجرام النهر المعروف بأسيف انوال) (17) .

وجميع مزارع السكر ومصانعه كانت بيد الدولة التى تتعاقد لاستغلالها مع الذميين لمدة معلومة وحسب قدر من المال (وقد قطعت معاقدة الكراء فيها اليوم لطائفة من اهل الذمة حسب مبلغ سنوي) (18) .

ب ــ مصانع الاسلحة :

لحاجة القوات المسلحة الى الذخيرة والعتاد الحربى ، اهتم المنصور بانشاء هذه المصانع وتطويرها ، واهم هذه المصانع تلك التى كانت بالقصبة الملكية بمراكش (واما ما يفرغ مع الايام من مدافع النار ومكاحلها بدار العدة الماثلة قرب ابوابهم العلية من قصبتهم المحروسة المذكرة بزفير الاكيار وزير الحديد لفح جهنم) (19) .

وندرج ضمن مصانع الاسلحة : دور صناعة السفن التى عمل المنصور على تاسيسها بالموانىء المغربية ، املا منه فى خلق الاسطول المغربى (ثم صرف همته ايده الله الى اتخاذ الاسطول برباط سلا امنه الله فتعددت مراكبه . . وهو اليوم . . لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل) (20)

ج ــ استخراج المعادن :

هناك بعض المعادن التى كانت تصنع بالمغرب ، وبعضها الآخر الذي كان يصدر خاما الى الخارج ، ومن اهمها : ملح البارود ، ومعادن النحاس والحديد والرصاص ثم ملح الطعام . . . (واذا وصلت الى هضاب الاكر الحديدية والحجرية

---

17) المناهل للفشتالى ص 209 .
18) المصدر السابق . ص 210 .
19) المصدر نفسه . ص 210 .
20) المصدر نفسه .

والرصاص المائل كالجبال الراسية والبارود المنبث فى الدهاليس الندية والمغابن الرحيبة رأيت ما يبلد الفكر ويوجب البهت) (21) . ولقد استغل المنصور معـــادن الملح المستخرج من الصحراء وتغازي بوجه اخص استغلالا عظيما (ووظف على هذا المعدن منها مثقالا على كل حمل على جميع الابل التى ترده وتؤمه من سائر الافاق وتقصده ، وكانــت بحرا لا ساحل لــه)(22) وكذلك مناجم الذهـــب بالسودان (واوعز مولانا . . . الى مولاه وعامله على البلاد جوذر باشا بملاك أمر معادن الذهب الثلاثة التى اكتنفتها هذه الممالك وأمره بالبناء عليها واختطــاط الحصون الجاثمة عليها وترتيب الجيش فيها لحياطتها) (23) .

د ـ الصناعـــات اليـــدويـــة :

لقد عرفت الحياة الاقتصادية بوجه عام تطورا ملموسا بفضل نشاط الزراعة والصناعة ، وشمل الازدهار الحرف والصناعات اليدوية كالنجارة (جمع لها ايدي العملة من صناع النجارة) (24) والخياطة (واعلم أنى تركت عند أولائك المعلمين اعنى بركاض السلاتى برسم ابنتنا) (25) . ومطاحن الحبوب ومعامل الشموع (ويعكف على خدمة رياض الشموع التى تجلوا محاسن هذه الدعوة الجهابذة الذين يبارون النحل فى نسيج اشكالها لطفا وادماجا) (26) ومعامل الحسك (واستحضر من انواع الحسك أمام الحضرة كل قوراء مصنوعة من النشب) (27) وآلات البخور (ومثلث امام الحضرة الامامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشكل فضيــة الصـــوغ بديعـــة النقـــش) (28) .

وتؤكد الوثائق المعاصرة بأن المولى احمد كان يحرص على استقدام المهرة من الصناع الاجانب مما ساعد على ادخال بعض الصناعات الحديثة الى المغرب لتعدد مشروعاته العمرانية والحربية (حشد له الصناع وارباب الحكمة من كل ارض حتى من بلاد الافرنجة فكان يجتمع فيه كل يوم من أرباب الصنائع ومهرة

---

21) نفــس المصــدر .
22) المناهــل . ص 120 .
23) المناهــل . ص 165
24) المناهــل . ص 129 .
25) الافرانى : نزهة الحادى . ص 162
26) المناهل . ص 237 .
27) المناهــل . ص 238 .
28) المناهـــل . ص 238 .

الحكمة وجهابذة البناء وأولى المعرفة والكفاية فى التنميق والتشييد ومن سائر الفعلة واساري الدولة خلق عظيـم) (29) .

ويجدر بنا التعرض فى هذا المجال الى الملاحظة القيمة التى اوردها احمد المقري فى (نفح الطيب) وهو معاصر ، عن ازدهار الحياة فى البوادي والحواضر ، وعن الدور العظيم الذي قام به المهاجرون الاندلسيون الى المغرب فى سبيل ذلك (ان أهل الاندلس تفرقوا بعد الفتنة فى المغرب الاقصى . . . فمال اهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار واحدثوا الارحى الطاحنة بالماء وعلموا اهل البادية اشياء لم يكونوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الخيرات . ومال أهل الحواضر الى المدن فاستوطنوها ففاق اهل الصنائع اهل البلاد وصيروهم اتباعا لهم ومتصرفين بين ايديهم ومتى دخلوا فى شغل عملوه فى اقرب مدة وافرغوا فيه من انواع الحذق والتجويد) (30) .

3 ــ نمــو التجــارة الداخليــة والخارجيــة :

1 ــ التجــارة الداخليــة :

نمت بفضل الامن والاستقرار ، وليس من شىء يهيب بالتجار الى توسيع نشاطهم التجاري وأعمال الاستيراد والتصدير ، كاستقرار دعائم الامن والطمأنينة . والمغرب فى عهد المنصور عرف امنا منقطع النظير لما ابدته الدولة من حزم وسلطة وبفضل ازدهار الزراعة فى البادية ثم بسبب نمو الصناعات بالمدن ، حصل تبادل بين هذين القطاعين : فانتعشت التجارة الداخلية وظهرت فى تزايد عدد القيساريات والفنادق فى المدن ، والاسواق الاسبوعية والمواسم الفصلية والسنوية فى البوادي (فقد عمل على تمهيد الطرق على المسافرين بعمارة المنازل والاماكن المخوفــة) (31) .

واعتمادا على شهادات معاصرة فان الاسواق التجارية بكبريات المدن المغربية كفاس ومراكش ، كانت مزدحمة بالدكاكين المملوءة بالبضائع والمنتوجات المختلفة ، وان الشوارع الرئيسية لهذه الاسواق كانت مغطاة ، وذلك لوقاية الزبناء والبضاعة

---

(29) المناهل . ص 254 .
(30) المقرى : نفح الطيب . ج 2 . ص 764 .
(31) ابن القاضى : المنتقى المقصور . ص 95 .

من امطار الشتاء وحرارة الصيف . وفى البوادي كانت الاسواق تقام فى المراكز الهامة حيث تباع فيها الحبوب والماشية والجلود وانواع البضائع والمنتوجات . وقد كان التجار يتومون بالتجوال بانتظام فى مختلف أسواق البادية ويقصدون بوجه خاص المواسم الفصلية والسنوية التى تشبه تماما المعارض العامة وذلك للبيع والشراء ولتبادل المنتوجات والبضائع على نطاق واسع جدا (32) (وكثر البيع والشراء فى أيامه) (33) .

وهكذا وبفضل جهود دولة المنصور ، اخذ دور التاجر المغربى يبرز تدريجيا كدليل على تطور مرافق الحياة الاقتصادية بالبلاد (وما زال يبيع منها فى كل عام بآلاف من الذهب العين حتى صار بذلك فى عداد الاغنياء واهل الثروة والرفاهية) (34) وغير خاف بأن الطبقة البورجوازية المغربية الناشئة كان لها دور رئيسى فى أعمال التوسع والفتوحات الخارجية التى قام بها المنصور فى الصحراء المغربية وبلاد السودان :

1 — لقد اشاد المنصور بالتاجر المغربى ، اثناء المناقشة التى دارت فى مجلس الشورى قبيل فتح السودان ، وقوة جلده وصبره (ثم هؤلاء التجار الخائضون لغمارها المختلفون اليها يعبرونها بأوقار البضائع الثقيلة واحمال المتاع الجمة بين صدر وورد) (35) . وكان من بين افراد الحملة العسكرية كأدلة ومرشدين عدد من التجار المغاربة (الذين اخلقوا بردة الغمر وانفقوا عينها فى التردد فى هذا الطريق جيئة وذهابا) (36) .

وبعد فتح الصحراء المغربية وبلاد السودان ، اتسع نطاق التجارة المغربية لتنوع منتوجات الاقاليم المغربية والصحراوية والسودانية : فأصبح هؤلاء التجار يتأجرون بمزروعات المغرب ومصنوعاته ، وبملح الصحراء ثم بذهب وتوابل السودان ورقيقه . (وهكذا استفحلت الدولة اليوم لعهده الكريم وتفرقت التجارة) (37) .

---

32) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 367
33) المناهل : ص 229
34) المناهل : ص 127 .
35) المناهل : ص 127
36) المناهل . ص 128 .
37) المناهل . ص 114 .

2 — وبتاثير البورجوازيين المغاربة ، دخلت دولة المنصور فى منافسة وتسابق حاد مع الاسبان الذين احتلوا جزيرة Arguin القريبة من الراس الابيض عند مصب نهر السينغال ، لان هذه المنطقة تمتاز بستراتيجيتها كنطقة اتصال بين المغرب والسودان وبغناها الوافر الزراعى والمعدنى وخاصة معادن الذهب والتبر وقد كان الاهالى فى هذه السواحل الصحراوية يحملون المعادن الثمينة الى المغرب أو الى تمبوكتو بالسودان ، ولكن احتلال الاسبان للجزيرة واتصالهم بالقبائل الصحراوية المجاورة لها ، قد اخذ يفسد على المغاربة استغلالهم لهذه الخيرات . واعتمادا على ما بين أيدينا من وثائق معاصرة فان المنصور قد دخل مرارا فى مفاوضات سرية مع الانجليز للقيام بحملة مشتركة ضد القواعد الاسبانية بغربى فريقية وضد هذه الجزيرة بصفة خاصة وهو الآن ايده الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين واقف على قدم الاهبة والاستعداد . . . من جهاد المشركين واغزاء ارضهم فى الجنوب .. بعساكره الامامية) (38) .

3 — كانت الطبقة البورجوازية المغربية تعلق آمالا واسعة على نشر النفوذ المغربى فى بلاد السودان واواسط فريقية ، واكثر ما كانت تهدف اليه هو وضع اليد والتحكم فى الطريق التجاري الهام الذي كان يربط بين بلاد السودان والمغرب مع افريقية الشرقية ومصر ، سعيا الى استغلال هذا الطريق لتصريف منتوجات بلاد السودان الخصبة بالدرجة الاولى أي لايجاد أسواق خارجية (وعن قريب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزهوا على جلق وشط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتمير القاصى والدانى من بلاد السودان) (39) .

4 — ومما يبرز تأثير الطبقة الغنية الناشئة ، ما قام به المنصور من حذف لجميع الحواجز الجمركية الداخلية (وقد رفع فى اقطار ملكه عن رعيته أنواع الامكاس كلها كاشعار السلع فى المراسى والابواب وغير ذلك من الوظائف السلطانية التى عمت البرايا وعظمت بها الرزايا وكثرت بها البلايا كما هو فى سائر البلاد من الامصار والاقطار) (40) .

---

38) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 44 مناهل الصفا : ص 81 .
39) المناهل . ص 167 .
40) ابن القاضى : المنتقى المقصور . ص 28 .

وبين الآونة والاخرى ، كان الحكام السعديون يوجهون نداءات الى ارباب التجارة يحثونهم فيها على التقيد بقوانين الشرع الاسلامى فى كل أعمال البيع والشراء (كتابنا الكريم هذا اسماه الله تعالى نعهد به لكافة التجار اهل حضرتنا فاس حرسها الله تعالى ، معتمدي حوانيت القبة الكبرى من قيسرتها والقبة الصغرى والشماط وما بها من الروائع والجهات ومن يتعاطى الحياكة ونسج البز وثيات الحرير والمتسببين فى اصناف السلع وانواع التجارات أن تكون فعالهم على مناهج الشريعة سالكة . . . وان يقتفوا آثار الشرع العزيز فى بياعاتهم وشراءاتهم ويسيروا على طريقه المستقيم فى كل تصرفاتهم ومعاملاتهم ويتجنبوا الخداع وكتمان العيب ولا يتعاطوا من الامور ما فيه شائبة الشك والريب . . . ولا يرتكبوا الربا ولا ما يجر الى حرام) (41) .

اما عن طرق المواصلات فقد كانت منظمة ومضبوطة تربط بين اهم المدن والاقاليم ومن شواطىء البحر المتوسط شمالا حتى اقصى السودان جنوبا (فالمفاوز والقفار لم يتعذر بها السلوك من كل وجه بل هى سابلة للتجار ومدرج غلهم . . . وهم فى كل صدر يصدرونه يجلبون من الرقيق صنوفا وضروبا . . . وهم يقطعون عرض هذه السباسب سعيا على الاقدام . . . ويعبرونها باوقار البضائع الثقيلة واحمال المتاع الجمة بين صدر وورد) (42) .

وجميع طرق المواصلات الداخلية ، استطاع المنصور — والى حدما — ان يضبطها ويجعلها صالحة للسفر وآمنة للمسافرين وقوافل التجارة (فقد عمل على تمهيد الطرق على المسافرين بعمارة المنازل والاماكن المخوفة بانزال اهل اخصاص وخيام امر بسكناها على الطريق وبين المنزلة والمنزلة ما يقرب من اربعة وعشرين ميلا فيسكنها اهل البادية واجرى لهم على ذلك من اقطاع الارض ما يكفيهم ثوابا على سكناهم هنالك وامرهم ببيع الشعير والطعام واللحم والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج اليه المسافرون ودوابهم . . . وان باتت عندهم قافلة يحرسونهم طول الليل ويحوطون أمتعتهم وان ضاع شىء منها عندهم ليلا ضمنوه لربهم فيما بينهم . . . وان كان ضياعه فيما بين المنزلتين نهارا ضمنه اقربهما منه . . . فتجد المسافر فى حالة ذهابه وايابه كأنه فى بيته وبين اهله وقرابته فى

---

41) محمد ميارة : نصيحة المغترين . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 923 . ص 25

42) المناهل : ص 127

بلاده . . . وان الانسان يكون فى احماله من التبر والياقوت عدد عديد فلا يخشى عليها فى الطريق شيئـــا) (43) . ويدخل ضمن تنظيم المواصلات الداخلية : بناء الجسور والقناطر على الاودية وفى الممرات الصعبة (ومنها بناء القناطر المتعددة كقنطرة تانسيفت كنت بمراكش حين ذهب السيل بنحو الاربعة اقواس منها فبناها نصره الله . . . وكذا قنطرة ام الربيع السفلى وكنت أيضا هنالك حين ذهب بهـــا السيل . . . وكذا قنطرة بين المدن بمحروسة فاس بناها ايضا فى هذه السنـــة واخبرت ايضا أنه مشتغل هذه الايام ببناء القنطرة العظيمة على وادي سبو) (44) .

اما المواصلات مع السودان وغربى افريقيا فقد كانت تتم بصفة خاصـــة بواسطة الطرق الساحلية التى تنتهى بمدينة المحمدية (تارودانت) ومنها نحو باقى البلاد . وعندما اصبح للمغرب اسطول بحري ، ساهم بدور فعال فى ميـــــدان الاتصالات الخارجية مع الشرق والغرب .

والحديث عن التجارة الداخلية وطرق المواصلات يجر الى التساؤل عـــن وسائل السفر : فقد تطورت وسائل المواصلات باستعمال العربات (وأعمل فى نقلها العجل) (45) واتخاذ الابل (اذ هى ملاك السفر البعيد) (46) . وكثيرا ما كان التجار والاجانب منهم خاصة يستأجرون ترجمانا مغربيا يكون دليلا لهم فى نفس الوقت ومعه خيم وعدد من المساعدين للسهر على خدمة هؤلاء المسافرين الاجانب ولحراستهـــم (47) . وهناك ايضا وسائل السفر فى البحر والانهر وتعتمد على السفن ، وقد استخدم المغاربة فى السودان السفن للتنقل بين ضفاف وادي النيجر وروافده ، كما كان السفراء المغاربة والبعثات الدبلوماسية يستقلون سفنا عثمانية او انجليزية واسبانية وغيرها فى ذهابهم للقيام بأعمال السفارة فى الشرق والغرب (خرجنا من فاس . . فوردنا ثغر تطاوين . . وأقمنا بالثغر ثلاثة اشهر ننتظر ورود السفينة علينا من الجزائر . .) (48)

اما المولى احمد المنصور فقد كان يستعمل فى أسفاره (افراك وهو القصر المعد لمنازلهم أيدهم الله بمحلاتهم السعيدة ذو السياج المحيط بالخيام والقباب من

(43) ابن القاضى : المنتقى المقصور . ص 95 .
(44) المقرى : روضة الاس . ص 22 .
(45) المناهـل : ص 129 .
(46) المنـاهـل : ص 129 .
(47) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 495
(48) التامجروتى : النفحة المسكية . ص 13 .

كتان مترف) (49) ، ويستعمل أيضا (السياح وهو قصر اتخذه مولانا الامام . . من الخشب المؤلف ذات الالواح بعمل عجيب مموه فيرتمل به فى الاسفار القريبة (50) وقد كانت العادة أن تتكفل المنطقة إلتى يرحل اليها المنصور بجميع حاجياته (فهذه تمام النازلات التىينزل فيها سيدنا . . . وكل نازلة يدفع فيها أهلها المؤونة حتــى يقــوم منهــا) (51) .

ب ــ التجــارة الخارجيــة :

كان للعلاقات السياسية الواسعة مع الخارج اثر كبير فى نمو تجارة المغرب الخارجية ، حيث اقبل التجار الاجانب من جميع أقطار أوربا الغربية الى المغرب ، يشجعهم على التعامل معه انتشار الامن والطمأنينة ورغبة المنصور الملحة فــى الحصول على الذخيرة الحربية ومختلف أنواع الاسلحة (الى ما يجلب مع الاحيان على يــد المعاهدين من تجار الحربيين من السيوف الهندية والقسى الروميــة والمكاحل النارية) (52) ، وفى تنمية التجارة الخارجية بوجه عام لعائداتها العظيمة على خزينة الدولة ، بالاضافة الى مشروعات المنصور العمرانية وما تطلبته من استيراد لبعض مواد البناء كالرخام مثلا لاستعماله فى مبانى قصر البديع بمراكش . فقد جلب المولى أحمد (المرمر الكثير العدد الضخم المعمد الصافى الجوهر الناصع البياض المعتام من المعادن النفيسة تتبارى التجار من اهل الحرب فى نقله وجلبه طوع اقتراح مولانا . . . من قاصية بلاد البنادقة متهالكين فى تجشم المشقة البعيدة وتحمل الاعباء الثقيلة ولقيا العنت برا وبحرا فى نقل أجرامه الجانية التى يودي حملها السفن الضخمة حتى لربما غرق بعضها) (53) . وقد عقد لاجل ذلك اتفاقا تجاريا مع (دوق طوسكانا فرانسوا الثانى) لجلب المرمر وللاستعانة بالمهندسين والفنيين الايطاليين فى أعمال بناء البديع (54) .

ويدخل فى هذا المجال : الامتيازات التى كان يمنحها لبعض التجار الاجانب : (هذا الظهير السلطانى . . بيد حامله المتمسك به التاجر افرنسشق برير . .

---

(49) المناهــل . ص 178 .
(50) المناهــل . ص 215
(51) مخطوط خــــاص .
(52) المناهل . ص 210
(53) المناهــل . ص 260 .
(54) مجلــة (Hesperis) — العدد (3 — 4) لعام 1957 . ص 204 .

اننا اضفينا عليه من ارادة اماننا ما يصوغ له ايراد بلادنا والنصرف بتجائره فى مدننا وحدود ملكنا . . . ولا تمد اليه يـد الاساءة فيما يتعاطاه من مآربه) (55) .
وفى سماحه للتجار الانكليز بتأسيس شركة خاصة عرفت (بالشركة البربريـة) لتنظيم أمور التجارة بين المغرب وانكلترا ، وضبط أحوال التجار الانكليز بالمغرب . وقد بلغ الامر بهذه الشركة ولما يمض غير وقت قليل أن اصبحت تحتكر تجـارة المغرب الخارجية تقريبا وبالاخص تجارة السكر الذي كان تدر منه أرباحا طائلة .

وبالرجوع الى الوثائق العديدة المعاصرة نجد أن التجار الانجليز كانوا ينقلون الى المغرب : مختلف الثياب الرفيعة ذات اللون الازرق الغامق (برناطا Bernatha والازرق الفاتح (برايـا (Bria) ، التى كان المغاربة يصنعون منهـا انواعا خاصة من الملابس : كالبرنس (السلهام) والجلابة للرجال ، و (القفطان) للنساء ، وان هذا الثوب اصبح رمزا للطبقة الموسرة وكلون محلى خـاص (56) .

وبالاضافة الى الثياب هناك الطرابيش الحمر وانواع الاسلحة والاخشاب اللازمة لصناعة المعدات الحربية والسفن بوجه خاص (57) .

وبالمقابل فقد كان التجار الانجليز يستوردون من المغرب : السكر الناعـم والغليظ والتمور والشموع ومختلف الحبوب ثم الزرابى ومعادن الذهب وملـح البارود والنحاس وغيرها (58) ، وقد أكد وزير المنصور فى (مناهل الصفا) نشاط التجار الانكليز الواسع فى المغرب (بما أمدها (أي المنصور لايليزابيت) به من النحاس لتفريغ مدافع النار وأطلق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وامدادها بالمعادن التى اعوزتها ببلادها) (59) ، والامتيازات الكبيرة التى أصبحت لهم الى حد أن النشاط التجاري قد طور العلاقات السياسية بين البلدين (وتوكات (اي ايليزابيت) على منساة الاسناد الى عالى جنابه والاعتضاد بتعظيم سلطانه والاستمداد من شريف ايالته وضخامة ممالكه) (60) .

وقد ضبط المولى أحمد المنصور التجارة الخارجية بشكل انه كلما اشترت الدولة من اي تاجر اجنبى بضاعة مـا ، سلم اليه المسؤولون المغاربة وصـلا

---

55) المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط رقم 257 .
56) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 1 — ص 237
57) المصدر السابـق .
58) المصـدر السابـق ص 239 .
59) المناهـل . ص 193 .
60) المناهـل ص 194 .

يثبت ذلك (الحمد لله قبض بدار العدة من التاجر النصرانى ارتوس الانجليز ستة آلاف ومائتين وأربعة وخمسين درعا من النخلى لتفصيل الاخبية لزامات الجند المنصور وقيده للبيان فى الثانى والعشرين من محرم اثنين وتسعين وتسعمائة) (61) على أن يتم الاداء فيما بعد .

واذا ما رفع التجار الاجانب شكوى ظلم واعتداء ، أمر المنصور باجراء تحقيق فى ذلك (ومما نعرفكم به ان رجلا هنا مما ينتسب الى التجارة من أهل بلادكم قد تعدى طوره ودخل امورا لا تعنيه من اسباب الفساد . . . فسبب ذلك امرنا بسجنه) (62) . والتجار الاجانب عندما كانوا يفدون على المغرب ، يتصدون فى الغالب الملاح ، وهو الحى الخاص باليهود والموجود بالقرب من القصبة الملكية ، او يحلون فى الفنادق الخاصة المعدة لذلك ، حيث يدفعون واجب الجمارك : والديوانة عبارة عن فندق كبير به مخازن عديدة وفسيحة وله أبواب عظيمة تفتح نهارا وتغلق ليـــــــلا (63) .

وفى الملاح او الفنادق يتم اتصال التجار الاجانب مع السماسرة الذين كانوا فى الغالب اندلسيين او يهود لهم معرفة والمام باللغات الاجنبية ، وعن طريقهم تتم عمليات بيع البضائع والمصنوعات الاجنبية الى تجار الجملة والتجزئة المغاربة الذين يحملونها بدورهم الى الداخل لبيعها فى المدن والقرى وفى الاسواق والمواسم بـــالباديـــــة .

واهم الموانىء التى كان التجار الاجانب يحلون بها عند قدومهم الى المغرب : آسفى كميناء للعاصمة مراكش ، واكادير بالنسبة لبلاد سوس حيث تزدهر زراعة قصب السكر ، والعرائش كمنفذ للمنطقة الغربية على الاطلسى وبالنسبة لفاس عاصمة الاقليم الشمالى ، وقد كانت تطوان تعد ايضا ميناء لمدينة فاس وشمالى المغرب . وهناك ايضا موانىء الرباط وسلا واصيلا وازمور وغيرها على المحيط الاطلســـــــــى .

وعن العملة المغربية خلال هذا العهد ، تؤكد الوثائق المعاصرة من جهة ، وما بين أيدينا فى متحف النقود بمدينة مراكش من جهة أخرى ، بأن المولى احمد المنصور

---

(61) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 1 — ص 431

(62) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 198 .

(63) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 370

قد ضرب نقودا ذهبية وفضية وبرونزية ، فى عدة مدن مغربية وخلال سنوات عديدة من حكمـــه :

1 ـــ فبالنسبـــة للنقود التى ضربت زمن المنصور ، هناك :

ا ـــ الدينار الذهبى ونصفه : اذ كان (ببابه كل يوم اربع عشرة مائة مطرقة تضرب الدينـــار) (64) .

ب ـــ الدرهم الفضى : (فكان يتمشى له فى كل شـهر من لدن مقدمه الى حين منصرفـــه تسعمائة درهم) (65) .

ج ـــ النقـــود البرونزيـــة .

2 ـــ وبالنسبة لمراكز ضرب النقود ، نجد : فاس ، مراكش ، المحمدية ، لاكتاوا ، سجلماســـة ودرعـــة (66) :

3 ـــ اما تواريخ ضرب هذه النقود فهناك السنوات التالية الهجرية : 986 ـــ 989 ـــ 992 ـــ 993 ـــ 995 ـــ 996 ـــ 997 ـــ 998 ـــ 999 ـــ 1000 ـــ 1001 ـــ 1002 ـــ 1003 ـــ 1004 ـــ 1005 ـــ 1006 ـــ 1007 ـــ 1008 ـــ 1009 ـــ 1010 ـــ 1011 (67) .

4 ـــ وعـــن بعض مـــا جاء فى هـــذه النقـــود :

ا ـــ غداة معركة وادي المخازن واثر دخول المنصور الى فاس ، ضربت نقود خاصة باسمه بقيمة الدينار ونصف الدينار الذهبى ، وقد جاء فى هذا الدينـــــــار : (بسم الله الرحمن الرحيم ، عن امير المومنين المجاهد فى سبيل الله امير المومنين ابى العباس ، ضرب بمدينة فاس عام ستة وثمانين وتسعمائـــة) (68) .

---

64) نزهة الحادى . الافرانى . ص 157 .

65) المناهـــل 234

66) Contribution à l'histoire du Maroc par les recherches numismatiques. (J. D. Brethes) Casablanca page 202

67) المصـــدر السابـــق .

68) المصدر السابق . ص 202 . يحمل هذا الدينار رقم 1450 . وزنه 3,80 غ

ب — وفى سنة 992 هـ ضرب المنصور بمدينة المحمدية دينارا ذهبيا ، جاء فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم عبد الله الامام ابو العباس احمد المنصور بالله بن الامام الخليفة محمد الشيخ المهدي بن الامام القائم . يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت . ضرب فى المحمدية عام اثنين وتسعين وتسعمائة) (69) .

ج — وفى سنة 998 هـ ضرب المنصور بمراكش دينارا بـه :

(بسم الله الرحمن الرحيم عبد الله الامام ابو العباس المنصور بالله امير المومنين . لا اله الا الله . الامر كله لله . لا قوة الا بالله) (70)

د — وضرب المنصور فى عام الف للهجرة بمراكش دينارا يتضمن :

(بسم الله الرحمن الرحيم عبد الله الامام ابو العباس احمد المنصور بالله امير المومنين ابن الامام أبى عبد الله محمد الشيخ المهدي بن القائم بأمر الله الشريف الحسنى . ضرب بحضرة مراكش عام الف) (71

هـ — وفى عام 1004 هـ ضرب المنصور بمدينة لاكتاوا نصف دينار ذهبى جاء فيه :

(عبد الله احمد المنصور بالله امير المومنين بن الامام المهدي امير المومنين . ضرب بحضرة الكتاوا عام اربعة والف) (72) .

و — ومن الدراهم التى ضربها المنصور تلك التى صنعت بمراكش من الفضة ، وبها :

(لا اله الا الله محمد رسول الله . أبو العباس احمد المنصور بالله امير المومنين) (73) .

---

69) نفس المصدر . رقم العملة 1466 . وزنه 4,5 ج

70) نفس المصدر . رقم العملة 1482 . وزنه 2 ج .

71) نفس المصدر . رقم العملة 1484 . وزنه 4,5 ج .

72) نفس المصدر . رقم العملة 1499 . وزنه 1,9 ج .

73) نفس المصدر . رقم العملة 1524 . وزنه 6 ج .

ز ـ وكأمثلـــة عن النقود البرونزيـــة تلك التى ضربـــت بمراكش عـــام 1007 هـ (74) .

4 ـ الادارة الماليـــة فى دولة المنصـــور :

لقد سعى المولى احمد ، ونجح الى حد كبير ، فى توطيد أركان الامن فـــى امبراطوريته الواسعة ، وحرص على فرض سلطانه عليها ، كما أمن وصول جميع العائدات من مختلف الولايات الى خزانته بالبلاط الملكى فى مراكش .

ومن جهة أخرى فقد أوجد تنظيما دقيقا وجهازا ماليا محكما اناط بـــه مسؤولية القيام بالادارة المالية والسهر على تسيير شؤونها ، ومن أهم عناصره :

1 ـ (صاحب خزائن الدار) (75) : وهو المشرف على أموال الدولة بالقصـــر الملكى والساهر عليها بما يشبه وزير المالية .

2 ـ الامناء : فى المدن والاقاليم ، وقد كان المنصور هو الذي يعينهم وهـــم مسؤولون أمامه وحده ، ولا يخضعون لسلطة الولاة والعمال فى الاقاليم وكثيرا ما كان يولى هذا المنصب أحد التجار (أنما وقع الاحسان اليه لامرين الاول الذمة لانه بماله فلا يخشى ان شاء الله على مالنـــا) (76) .

3 ـ عمال الخراج : المكلفون من قبل المنصور بجمع خراج المناطق (رجع . . . الى مراكش بمال عظيم الذي حصل من خراج الارض فى ثلاثة أعوام) (77) .

4 ـ عمـــال مخازن الاقـــوات .

5 ـ حفظـــة أخمـــاس الغنائـــم .

---

(74) نفس المصدر . رقم العملة 1509 . وزنه 8ر5 ج .
كان الدينار الذهبى المغربى خلال القرن (16) يســاوى (10) ريالات اسبانية من فضـــة او (14) درهما مغربيا من فضة (21 درهما فى آخر القرن) .
وعن اثمان بعض الحاجيات كما اورد ذلك Diego de Torres البرتغالى الذى اسر بالمغرب بعد معركة وادى المخازن :
50 كيلو من القمح بقيمة دينـــارين اثنين .
50 كيلو من الشعير بدينار واحد .
ثمن الكبش الواحد عشرة دراهم .
مجلـــة Hesperis - Tamuda لسنة 1974 . ص 127 .

(75) المناهـــل : ص 201 .

(76) المناهـــل : ص 67 .

(77) السعيدى : تاريخ السودان . ص 97 .

6 — المكلفون بدواوين أرزاق الجنــد (78) .

وجميع الاعمال المالية كانت تدون فى دفاتر خاصة (فلما وصل اليه القائد . . . عرض عليه الجرائد راى فيها كثيرا من الاموال فسأله عنها بعدما دفع لــه ما معه منها) (79) . ولم يكن المنصور يولى هذه المناصب الا للثقاة دون أن يغفل عن مراقبتهم (وفوض له الاشراف على ما يورده الجباة والعمال ببيوت الاموال ومخازن الاقوات وافتقادها فى كل الاوقات ومحاسبة حفظة اخماس الغنائم . . . وضبط دواوين ارزاق الجند والخـــراج) (80) .

اما واردات بيت المال فاهمهــا :

1 — غنائم معركة وادي المخازن :

فقد غنم المغاربة الكثير من الكنوز والنفائس ومختلف المعدات الحربية والمؤن والذخيرة بعد انهزام الحملة البرتغالية ، ولعل اهم ما غنمته دولة المنصور آلاف الاسرى من مختلف الاجناس الاوربية (وناهيك من يوم اجلى عن . . . ثمانين الفا من المشركين ما بين قتيل واسير حسبما تقرر فى موضعه) (81) . ويأتى فى طليعة الاسرى كبار القوم البرتغال (أكابر دولتهم واقتاتهم وبطارقتهم وقمامستهم واساقفتهم) (82) الذين افتدى البعض منهم مقابل اموال عظيمة (الى خديــم ابوابنا العالية القسيس مرين . . . هذا وان موجب اصداره اليكم يصلكم التاجر افرنسشق برين وصاحبه افرنسشق بوطشطه تعطونهما احدى وعشرين الــف أوقية وخمسمائة أوقية وخمس وستين أوقية . . . تعطونهما ذلك من قابل ما ترتب لنـــا بذمتكـــم) (83) .

ويمكن القول : ان الامجاد التى شيدها الملوك البرتغال طوال قرنين والثروات العظيمة التى تكدست خلالهما فى خزائن لشبونة قد اضاعها (دون سباستيان) فى معركة وادي المخازن وما تبقى منها دفع كتعويض لافتداء أسرى المعركة فى المغرب .

---

78) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 77 .
79) السعيدى : تاريخ السودان . ص 97 .
80) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 77 .
81) المناهل . ص 39 .
82) المناهــــل . ص 170 .
83) المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط رقم 257 .

2 ــ عائدات البلاد المفتوحة وبالاخص بلاد السودان (وهو اليوم ايده الله لهذا العهد . . . قوي الاسر بحمد الله وافر العدد والمدد مراش الجناح بما اتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية المعينة بخراجها المستبحر ومعادن الذهب على التوسع فى الانفاق الذي لا يخشى معه عيلة ولا فقرا) (84) .

واعتمادا على ما حفظته لنا المصادر المعاصرة ، فان استغلال المنصور لبلاد السودان قد ظهر فى عدة نواحـــى :

فعند انهزام أسكيا اسحاق الاول طلب الصلح من المنصور وقدم (بين يدي نجواه هدية مولانا الامام المنصور . . . وهى تشتمل على عشرة آلاف مثقال ذهبا ومائتـــين من الرقيـــق) (85) .

وعندما استولى محمود باشا على مناطق واسعة من السودان (جمع من الاموال والمتاع والاثاث اللاتى لا يحصيها الا الله . . . ولم يبعث للسلطان مولاي احمد الا مائة الـــف ذهبـــا) (86) .

وتوصل المنصور ايضا من الباشا محمود (باثنى عشر مائة مملوك مـــن الجواري والغلمان واربعين حملا من التبر واربعة سروج من الذهب واحمالا كثيرة من العاج والبينوزوكور غالية وقطوط الغالية وذخائر السودان فتذخر من ذلك مولاي أحمد الذهبى وقوي ملكه وبقيت جباية السودان ثابتة كل سنة) (87) .

ولما رجع القائد الحسن بن الزبير حمل معه خيرات كثيرة (رجع الامين القائد الحسن بن الزبير الى مراكش بمال عظيم الذي حصل من خراج الارض فى ثلاثـــة أعـــــــوام) (88) .

أما جودر باشا فعند عودته نهائيا الى مراكش بعد غياب طويل بالسودان ، حمل معه (عشرة آلاف عبد وعشرة آلاف جارية كلهن فى سن البلوغ واربعمائة حمل من التبر والف حمل من عظم الفيل وكسوة السودان وطرفه واربعة افيال . . . فكان دخول جودر باشا لمراكش يوما مشهودا) (89) .

---

84) المناهــل . ص 197 .
85) المناهـــل ص 147 .
86) السعيدى : تاريخ السودان . ص 79
87) المصدر السابق . ص 83
88) المصدر السابق . ص 87
89) الافرانى : نزهة الحادى . ص 197 .

ووجه منصور باشا حاكم السودان الى المنصور سبايا كثيرة وغنائم عظيمة لا تحصى (ونؤكد عليكم أن تنظروا فيما عليه استوليتم من ذخائر العبد نوح وأثاثه ، وجميع أمتعته وآلاته ، فكل ما يليق من ذلك بمقامنا العلى توجهه لابوابنا الشريفة وتسديه لمثابتنا العلية المنيفة بحال الفور والبدار . . . وأولاد سكية فالذكور منهم ابعث بهم كافة لمقامنا العلى واما الاناث . . . وكان فيهن من تليق بمقامنا العلى ابعثها والا فــلا) (90) .

وقد شمل الاستغلال المغربى لبلاد السودان الميادين الزراعية أيضا ، اذ زرعت الاراضى الخصبة (التى تغل ضروب المزارع وتنتظم عليها الحدائق الغلب من البساتين ومعروش الشجر والثمار والادواح الاشبه ملتفة الاغصان والرياض المفوفة الخمائل الموشحة البرود بضروب الزهر الغض والرياحين التى يمكــن اتصالها فراسخ وبردا فتعفى على واسطة الاقاليم زكاء نبت وكرم تربة وجموم اقوات وحبوب وفواكه جنية وقطوفها دانية) (91) .

وهكذا انطلق المنصور بعيدا فى استغلال خيرات السودان و (حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لا يعطى فى الرواتب الا النضار الصافى والدينار الوافى . . . ولاجل ذلك لقب بالذهبى لفيضان الذهب فى زمانــــــــه) (92) .

3 ــ استثمـــار المناجـــم المختلفـــة : ومـــن أهمهـــا :

أ ــ بالسودان : مناجم الذهب التى (اكتنفتها هذه الممالك . . . واختطــاط الحصون الجاثمة عليها وترتيب الجيش فيها لحياطتها) (93) .

ب ــ بالصحراء : مناجم ملح الطعام فى تغازي وغيرها (فقد وظف على هذا المعدن منها مثقالا على كل حمل على جميع الابل التى ترده وتؤمه . . . وتضاعف خراج المعادن) (94) .

---

90) دار الوثائق بالرباط . مخطوط ــ ك 278 . ص 180 .

91) المناهل . ص 167 .

92) الافرانى : نزهة الحادى . ص 184 .

93) المناهل ص 165

94) المناهــل ص 120

ج ــ بالمغرب : معادن النحاس والحديد والرصاص وملح البارود وغيرها (بما أمدها بــه من النحاس لتفريغ مدافع النار واطلق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وامدادها بالمعادن التى اعوزتها ببلادها) (95) .

4 ــ عـــائـدات مصانـــع السكـــر :

وقد كان الذميون هم الذين يقومون باستغلالها مقابل قدر معلوم من المال فى كل سنة (وقد قطعت معاقدة الكراء فيها اليوم لطائفة من اهل الذمة حسب مبلغ سنوي) (96) ولعائداتها الواسعة انشأ المنصور العديد منها (وناهيك من امام يستنتج بسديد رايه . . . هذا القدر من الخراج الوافر الذي لا يزال بيت المـــال هنيئا بمري اخلافه مع الايام ان شاء الله بباب دار الملك . . . عفوا من غيـــر احتياج الى مـــا تحتاج اليه الجباية من تجهيز العساكر المعينة على انتـــزاع نواجدهـــــــا) (97) .

5 ــ مداخيـــل الديوانـــــة والمكـــوس :

وقد وصلت الى 30 ٪ على الواردات و 10 ٪ على الصادرات (98) ، وفى الداخل ما قيمته ربع دينار عن حمل (وان الانسان يكون فى احماله من التبـــر والياقوت عدد عديد . . . ولا يعطى على ذلك كله الا ربع دينار عن كل حمل فى بـــاب المدينـــة فقـــط) (99) .

6 ــ الـــتـــلـــزيـــــم :

اذ كان المنصور يعمد الى تلزيم الولايات (لاكن انما وقع الاحسان اليـــه لامرين الاول الذمة لانه بماله قلا يخشى ان شاء الله على مالنا الثانى ان خراج درعـــة سهـــل معلـــــوم) (100) .

---

95) المناهـــل ص 193

96) المناهـــل ص 210 .

97) المناهـــل ص 210

98) م. ص. ت م ــ بريطانيا ــ ج 1 ــ ص 347

99) ابن القاضـــى : المنتقى المقصـــور . ص 96 .

100) الافرانى : نزهة الحادى . ص 162 .

7 ـ الخراج أو عشر المنتوجات الفلاحية :

وقد كانت تدفع من نوع المحصول ، ويدخل هنا (عشر الزيت . . . لاستئثار خزانة السلطان بها فى سائر الافق المراكشى) (101) .

وهناك الضرائب المختلفة المفروضة على انواع التجارة من حوانيت وارحية وافران ودور معاصير الزيت والجنات والعيون والسواقى وملازم الابواب والرحاب وملازم التجارة وضريبة الكانونة (فرض عليهم بيضة الدجاجة لكل كانونة . . . ثم جعل خمسة عشر كانونة الدخان بسرجة ليسهل طريق المخزن على عماله وعلى الدفع . . . وفرض السلطان الذهبى على القائد ثمانى موزونات لكل سرجة عام بعام) (102) .

ونشير فى هذا المجال الى ان المولى احمد كان قد قام بالغاء بعض الضرائب واعمال السخرة التى منها (النائبة التى ثقل لمخالفتها للشرع على الاذان سماعها وخرجت عن حد السنة اوضاعها . . وبحسب هذا راينا . . أن نجري وظيفتها اللازمة على قوانين الشرع . . . ذلكم بأن يكون سبيلها فى الفرض على اقطاع ما تحت ايديكم من الارض حتى تنتهى الى ما انتهت بحسب الفريضة على الارض اقسامها) (103) .

ومن اصلاحاته فى هذا المجال ايضا انه (رفع فى اقطار ملكه عن رعيته انواع الامكاس كلها كاعشار السلع فى المراسى والابواب وغير ذلـ كمن الوظائف السلطانية) (104) حرصا منه على تطوير الاقتصاد المغربى ولاسعاد عامة الناس .

أما اوجه صرف هذه الاموال : فالمنصور كان مطلق التصرف فى الانفاق ، وجميع اموال الدولة بين يديه يصرف منها على حاجياته ولتسيير امور الدولة ثم لتجهيز القوات المسلحة المغربية الساهرة على سلامة البلاد وتدعيم اسس الامن بأقطارها .

---

101) المناهل ، ص 229 .
102) مخطوط خاص معاصر .
103) رسائل سعدية ـ ص 145
104) ابن القاضى : المنتقى المقصور . ص 28 .

ومن أوجه صرف الاموال ايضا المشروعات الكثيرة التى قام بانجازها فـــى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة وفى المنشآت العمرانية المختلفة فى شتـــى المدن ، والتحصينات العسكرية التى لا تحصى ولتشجيع العلم والعلماء .

ويضاف الى جميع ذلك انفاقه الواسع على الرعية فى مختلف الظـــــروف والمناسبات (وكان لمولانا امير المومنين ايده الله صدقات فاشية واسعة عظيمة الفائدة يجريها على ايدي ثقات من رجاله فمنها الاموال التى يخرجها ختم كـــل رمضان ويعم بها ذوي الحاجات . . . ومنها المهرجان الذي يقيمه يوم عاشوراء كل سنة لختان ذرية ضعفاء من مساكين الحضرة واحوازها . . . واما ما يجرى على يده ايده الله فى سائر الاوقات من انواع البر والصدقة ووجوه الاقتراب والزلفى من مال فى سبيل التوسعة على الفقراء يقسمه وطعام فى اوقات المجاعة يخرج وديون غرماء مفاليس تقضى ورقاب أرقاء تفك واساري تفتدى فلا يدخل تحـــت ضبـــــــط) (105) .

❋ ❋

وهكذا وبفضل حزم المنصور وحرصه على تنظيم ادارته السياسية والاقتصادية اجتمع له ما لم يتوفر لغيره : جاه وعظمة وغنى ، مما ساعده على تحقيق الكثير من مشروعاته فى الداخل والخارج : اذ ازدهرت احوال البلاد فى شتى النواحـــى الاقتصادية وانعكست تأثيرات ذلك فى معالم الغنى والرفاهية التى اخذت تشمل نواحي مختلفة من مظاهر الحياة الاجتماعية والعمرانية وبالنسبة لمختلف طبقات الشعب المغربى ، الى الحد الذي لقب معه المولى احمد (بالمنصور الذهبى) واتصفت دولته بانها (قد اثرت العديم واكسبت المحروم) (106) .

---

105) المناهل . ص 303 .

106) المناهل . ص 146 .

ولم يخرج المنصور فى سياسته الاقتصادية بوجه عام عما كانت عليه دول أوربا الغربية المعاصرة فقد كانت فلسفة العصر الاقتصادية تهدف الى استغلال الاقتصاد لتقوية الدولة اي (الاقتصاد للقوة) (107) . ولتكون الدولة قوية يجب أن تتوفر على ثروات عظيمة من الذهب والفضة والمعادن الثمينة ، وان تسعى بشتى الطرق لجمع هذه المعادن والحيلولة دون خروجها من البلاد . وهذا عين ما هدف اليه المولى احمد : اذا استغل اقتصاديات المغرب لتقوية دولته : وكنز الذهب والفضة لتبقى الدولة عظيمة وقوية وليحسب لها الجميع كل الحساب ، فيرهبها العدو ، ويطلب الصديق ودها وعطفها (كان جماعا للمال مستكثرا من ذخائر الملك مولعا باقتناء نفيسها طامح العين الى كل مرمى بعيد) (108) .

---

107) تاريخ المذاهب الاقتصادية ص 67

108) المناهل ، ص 25 .

الفصل الثامن عشر

الأحوال الاجتماعية

كان للامن والاستقرار النسبيين اثرهما الكبير فى ازدهار معالم الحياة الاقتصادية فى المغرب وبالتالى فى تطور مظاهر المجتمع المغربى زمن المولى احمد المنصور ، اذ امتزجت تيارات حضارية مختلفة : تركية ، اندلسية ، أوربية وسودانية مع مظاهر الحضارة العربية الاسلامية التى كانت تطبع المغاربة فى كثير من نواحى حياتهم .

وقد نتج عن هذا الاتصال أن اخذت انماط الحياة الاجتماعية تتطور وان كان ذلك لم يحصل فى كل البلاد للتباين الحاصل بين المدن والقرى . واكثر ما ظهرت هذه التاثيرات الخارجية فى المدينة والمدن الكبرى المغربية بوجه خاص .

وسنحاول التعرف على الخطوط الكبرى للتيارات الخارجية التى اثرت فى المجتمع المغربى وبرزت بعض معالمها زمن المنصور أولا ، ثم ننفذ منها الى دراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة ثانيا ، وذلك للوقوف على الكثير من معالم المجتمع المغربى وكشف النقاب عنها .

1 ـ التاثيرات الخارجية :

أ ـ فالاتراك العثمانيون بلغوا أوج مجدهم السياسى خلال القرن السادس عشر ، وقد تطورت لذلك مظاهر حضارتهم وكانت القسطنطينية تعد من أهم عواصم العالم مجدا وحضارة . وعندما زار المولى احمد الجزائر العثمانية كلاجىء سياسى زمن حكم ابن أخيه محمد المتوكل ، تعرف على الكثير من نواحى الادارة والحكم والحضارة عند الاتراك ، وسعى بعد توليته الحكم الى ادخال عدد كبير منها الى المغرب (كانت سيرة الخلفاء من اول الدولة الى ايام المتوكل سيرة مطلقة لم

تحفظها قوانين ولا قيدتها ضوابط بل كانت الامور مسترسلة جارية على مقتضيات الحال بما كانت الدولة عربية سادجة غير مرتاضة للقوانين التى تملك زمامها وتملك عن الاسترسال عنانها الى أن صار الملك والخلافة للمولى . . . المنصور ايده الله . . فأحال الصبغة والف الطباع ولم الشعت . . وجعل بين العرب والعجم رحم الخدمة الواصلة) (1) .

فما هى التاثيرات التركية ؟

لقد اختلفت التاثيرات التركية وتعددت مظاهرها ، واكثر ما تجلت فى الميدان العسكري لان المنصور هدف منذ توليته الى تكوين جيش مغربى حديث على غرار الجيش التركى (الانكشارية) فقد (اصطفى من العجم موالى انتتهم نعمته وربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فتى الا أضخم حالا وأعظم شانا وجلالا) (2) ، اي أن المنصور قد عمد الى تربية الصغار على غرار ما كان الامر عند الاتراك بالشرق وكون منهم فرقا عسكرية نظامية اتخذها من الاتراك والاندلسيين والعلوج والسودانيين . وما دام المولى أحمد قد اقتبس النظم المتبعة عند الانكشارية ، لذا فقد اخذ عنهم بعض الالقاب والرتب ، انما الملاحظ هو وجود القاب خاصة عند الجنود المغاربة ، فهل المنصور هو الذي ابتدعها ؟ (واخترع الالقاب والاسماء ليمتاز بها البعض من البعض) (3) .

وفيما يتعلق بوضعية الاتراك داخل المجتمع المغربى ، نلاحظ بأن هؤلاء كان لهم فى مدينة مراكش العاصمة حى خاص نظرا لعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم الخاصة ، ولكن مع الايام أخذوا يتفاعلون مع السكان تدريجيا لعامل الدين الاسلامى الذي يجمع بينهم ، فاخذ عنهم المغاربة نظما وعادات فى المأكل والمشرب والملبس وفى ميدان البناء والعمران ، ولا تزال حتى اليوم بعض المناطق بمراكش تحمل أسماء تركية مثل (حى الدباشى) نسبة الى القائد الدباشى التركى أحد قادة المنصور (4) .

---

1) مناهل الصفا للفشتالى . ص 200
2) المناهل . ص 201 .
3) المصدر السابق .
4) (دوفردان) : مراكش ص 267 Deverdun : Marrakech . . . P 267

ب ــ امــا الاندلسيــون :

فقد كانت تأثيراتهم اعظم من اي عنصر خارجى آخر ، بحكم عامل الدين الاسلامى اولا ، والجوار ثانيا ، ولان المغرب والاندلس تبادلا التأثيرات السياسية والحضارية منذ الفتح العربى الاسلامى . وعندما اخذت اوضاع الاندلس تضطرب ، قصدت المغرب وفود المهاجرين الاندلسيين وتزايدت هجراتهم بعد النكبة الكبــرى وسقوط غرناطة (1492 م) . اذ انتشروا فى جميع المدن والقرى واستقــروا خاصة فى بعض المدن مثل تطوان وفاس ومراكش والرباط وغيرها ، وقد آواهم المغاربة وتفاعلوا معهم الى حد بعيد (لما انقرضت دولة الاسلام بالاندلس . . . نجا من استنكف من ذل الكفر . . الى بلاد المسلمين بالعدوة . . واقطعتهم الدولــة اراضى فسيحة بالجانب الغربى من فحصها الافيح فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات وحصلوا من استغلال ذلك الى اليوم على ما انساهم ذكر وطنهم واعتاضهم ممــا فاتهم بــه) (5) .

وكحقيقة تاريخية هامة نشير الى ان وجود الاندلسيين بالمغرب قد اثر كثيرا على حركات الجهاد التى عمت المغرب فى اواخر القرن الخامس عشر وخلال القرن التالى فى البــر والبحر وغداة الغزو الاجنبى الاسبانى ــ البرتغالى للسواحل المغربية بوجه خاص ، وكان للاندلسيين ايضا دور فى قيام الدولة السعديـــة وتوطيد دعائمها فى المغرب ، سيما وان الحكام السعديين ما فتئوا يعلنون عن عزمهم على استرداد الاندلس : فردوس الاسلام المفقــود .

واذا كان مــن الصعب استقصاء جميع التأثيرات الاندلسية فى المجتمــع المغربى ، فاننا نكتفى بالاشارة الى ان العديد من مقومات المجتمع المغربى الحديث ترجع فى أصولها الى المهاجرين من الاندلس ، (ان اهل الاندلس تفرقوا بعد الفتنة فى المغرب الاقصى . . . فمال أهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار واحدثوا الارحى الطاحنة بالماء وعلموا اهل البادية أشياء لم يكونــوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الخيرات ، ومال اهل الحواضر الى المــدن فاستوطنوها ففاق أهل الصنائع أهل البلاد وصيروهم أتباعا لهم ومتصرفين بيــن

---

5) المناهل ، ص 42

أيديهم ومتى دخلوا فى شغل عملوه فى اقرب مدة وافرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد) (6) .

ج — وعن التاثيرات الاوروبية :

نذكر بأن المغرب زمن المنصور قد دخل فى السياسة الاوربية للدور الهام الذي لعبه المولى احمد فى حفظ نوع من التوازن بين الشرق والغرب من جهة وبين دول الغرب الكاثوليكية والبروتستانتية من جهة اخرى ، ففتحت لذلك ابواب المغرب امام الاجانب الاوربيين من مختلف الجنسات ، الذين وصلوا بصفة سفراء وبعثات دبلوماسية او متفاوضين ، ثم بشكل تجار نظاميين أو مهربين ، كما قام البعض منهم بالرحلة الى المغرب للمغامرة والتجسس ، فى حين أن قسما آخر قد تعاقد مع الدولة للعمل بالمصانع والمعامل . وهناك الاسرى ورجال الدين المسيحيين الذين كانوا يقومون بعمليات انتكاك الاسرى وتبادل المسجونين .

وبفضل هؤلاء الاجانب الذين زاروا المغرب خلال عهد المنصور لسبب من الاسباب ، ثم بفضل ما كتبوه عن دولة المولى احمد وعصره فى مختلف النواحى ، استطعنا التعرف على الكثير من مظاهر الحياة المغربية وان كان ذلك يتصف احيانا بالمبالغة او التحامل ، ويدل من جهة اخرى على جهل كبير بحقيقة الامور ، غير أن مقارنة ما كتبوه غالبا ما تساعدنا على الوصول الى حقائق هامة وتكشف لنا النقاب عن خطأ بعض الاخبار وعدم صحتها .

فالدبلوماسيون الاوروبيون كانوا يجدون من المنصور وحكومته كل ترحاب وحسن استقبال مما جعلهم يشيدون بالاعراف الدبلوماسية المغربية التى تضمن لهم حصانة تشمل اشخاصهم ومنازلهم وسائر مرافق حياتهم (انه اتصل بنا من قبلكم كتاب . . ووقفنا منه على ما كتبتم . . من ابقاء الحرمة على دار الباشدور . . . فأما حرمة الدار فما زالت عنها ولا حالت بل ابقيناها عليها كما كانت) (7) .

وأما التجار فقد كثر عددهم بالمغرب للارباح الطائلة التى كانوا يجنونها من متاجرتهم مع المغاربة ، وبحكم التعامل اليومى فان هؤلاء التجار الاجانب قد

---

6) المقرى : نفح الطيب ، ج 2 ، ص 764

7) المكتبة الوطنية بمدريد — مخطوط رقم 257

تعرفوا على عادات مغربية كثيرة وتقاليد مختلفة ، كما أن المغاربة بدورهم قد إطلعوا على مظاهر حضارة أوربية — وان كان ذلك فى نطاق خاص — وتعلم بعضهم لغات اجنبيـــة أيضـــــــــــا .

ومن الاوربيين الذين استعربوا فى المغرب : الفرنسى Arnoult de Liste (8) الذي استقر بالمغرب بين 1588 — 1599 م ، وتعلم اللغة العربية الى درجـــة انه أصبح استاذا للغة العربية فى Collège de France بباريز ، ثم الفرنسى Etienne Humbert (9) الذي وصل الى المغرب سنة 1598 وتعلم العربية واتقنها ، ولما عاد الى فرنسا حمل معه كثيرا من المخطوطات العربية الهامة كما أصبح استاذا للعربية بكلية الطب فى باريــــز .

على أن الاوربيين الذين اختلطوا كثيرا بالمغاربة : هم أولئك الذين كانوا يعملون فى المصانع ومختلف المعامل كخبراء وصناع مهرة وعمال (حشد له الصناع وارباب الحكمة من كل أرض حتى من بلاد الافرنجة) (10) ، والاسرى بحكـــم استخدامهم وتسخيرهم فى شتى مرافق الحياة المغربية ، ومهما قيل عن معاملة المغاربة للاسرى الاجانب فقد امتازت بكثير من التسامح ، مما لم يكن له نظيـــر فى أوطانهم بأوربا حيث التعصب الدينى الاعمى ، واعمال الذبح والقتل لمجرد الشك والريبـــــــة .

د — امـــا التأثيـــرات الســودانيـــة :

فانها لم تترك أثرا حضاريا لتخلف البيئة السودانية ، ومع ذلك فان عشرات الالاف من السودانيين الذين حملوا الى المغرب ، قد أحدثوا نوعا من التغيير فى المجتمع المغربى ، اذ اخذنا نجدهم كمستخدمين فى المنازل والمتاجر والمصانع ، وكاماء وجواري ، ثم كجنود فى صفوف القوات المحاربة ، علاوة على استغلالهم بضاعة عند تجار الرقيق (. . . وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها على تسخير المجانيف الثقيلة بالاساطيل) (11) .

---

8) مراكش : دوفردان . ص 342
9) المصدر السابق ص 343 .
10) المناهـــــل . ص 254 .
11) المناهـــــل . ص 197 .

ومن تاثيرات السودانيين فى المغرب : عادة التدخين (. . وبسبب دخولهم . . ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة تبغة لان السودان الذين قدموا . . . يشربونها ويزعمون أن فيهـــا منافع فشاعت عنهم فى درعة ومراكش وغيرهما من بقـــاع المغـــــــــرب) (12) .

هذه هى أهم العناصر الخارجية التى تفاعلت مع المجتمع المغربى ، وبديهى أن هذه التاثيرات لا تظهر للعيان الا بعد اجيال ، وليس تعرفنا عليها الا للتاكيد بان المجتمع المغربى فى عهد المنصور لم يكن منعزلا عن التيارات الخارجية التى تفاعل معها وتاثر بها . وبان المغاربة قد امتازوا بالتسامح والرغبة فى الاتصال بغيرهم والسعى الى طلب المعرفة للنهوض بالبلاد ولتطوير شؤون حياتهم . فما هي أهم مظاهر المجتمع المغربى ؟ وما الاعراف والتقاليد التى كانت سائدة بالبلاط المنصوري والمتبعة فى المناسبات الرسمية والحفلات الخاصـــة ؟

يعد المؤرخ المجهول (لتاريخ الدولة السعدية) من الذين انفردوا بوصف المولى أحمد المنصور ، فقد ذكر بانه (كان أسمر اللون غائر العينين وافر اللحية له شرطات على خده الايسر غليظ الجسم جهير الصوت له لثة فى كلامه يبدل الشين المعجمة سينا مهملة ، وافر الثياب يسحبها بالارض حتى تغطى اقدامه ، يكـــاد فى مشيه أن يطأ على كعبيـــه) (13) .

كان الخليفة المنصور يحيى فى بلاطه وبين افراد عائلته حياة خاصة كأمير للمومنين تدين لطاعته شعوب واجناس عديدة ، وكامبراطور قوي وغنى تخضع لسلطانه كثير من الولايات والاقطار فى غربى فريقية وبلاد السودان .

ففى داخـــل القصر الملكى هنـــاك :

— ترمانية الدار : وهى المكلفة بالاشراف على الاماء والجواري اللواتى يقمن بخدمة نساء القصر (الحريم) . (واستدعوا أم المان ترماينة الدار واعطه برسم دارنا وأمرها أن تعطيه لهـــن) (14) .

---

12) نزهة الحادى . الافرانى . ص 146
13) تاريخ الدولة السعدية . المؤرخ المجهول . ص 64
14) نزهة الحادى : الافرانى . ص 162 .

— صاحبة بيت الثياب : المسؤولة عن خزائن ثياب القصر وعن الادوية أيضا (. . . أن يخرج لك من عند صاحبة بيت الثياب القدر المحتاج) (15) .

— كبير الموالى العبدي : المكلف بالاشراف على الخدم الموجودين بالقصر (. . . الى قائد القصر وكبير الموالى العبدي بأبواب دور الخلافة عنبر الخصى) (16) .

— قائد الرواء : وهو الذي يسهر على خيول القصر (عثروا على بغل رجل عليه سمة دواب أمير المومنين . . . فرفعوه الى قائد الرواء) (17) .

— خدام القصر : المكلفون بالسهر على خدمة الخليفة داخل القصر (واستكفائهم فى خواص أمور الملك والثقة بأمانتهم على المهجة وانتقاهم للتصرف بين يديه وخدمه بساطه) (18) .

وقد كان خدام القصر على مراتب باعتبار المهام التى يقومون بها ، فهناك :

الشنشرية : (وهم الذين يتولون مناولة لطعامه وضعا ورفعا وغسلا ومسحا) (19) .

القبجية : (وهم حفظة الابواب وحراسها . . . وخدمة سريره الكريم وانماط جلوسه وسدنة كرسيه) (20) . وتناط بهم أيضا حراسة (الابواب ليلا وتطوف على مسايف السور المحيط بقصور الخلافة) (21)

الشواش : (وهم الطائفة التى تتولى ضبط . . . ولها مكان فى المناوبة بين الطبقات المرتبة لملازمة أبواب الخلافة) (22) .

اما قاعة عرش المنصور ، فيوجد بها سرير الملك (ذو التاج المذهب الفاره اللامع البروق لشمائمها على بعد) (23) .

---

15) المصدر السابق .
16) المناهل . ص 200
17) المناهل . ص 198 .
18) المناهل . ص 202
19) المناهل . ص 202
20) المصدر السابق
21) المصدر السابق .
22) المناهل . ص 178 .
23) المناهل . ص 202 .

وعندما يخرج المنصور من القصر للذهاب الى المسجد الموجود داخل القصبة الملكية او للتجوال داخل حدائقها ، يحمل المظلة العظيمة قائد فرقة البياك (وهم اهل القالنس الصفرية المذهبة ذوات الاعراف من ريش النعام الملون) (24) ، وتسير عن يمينهم وشمالهم فرقة السلاق (وهم اهل القلانس الطويلة البينة) (25) ، ثم الفرقة المعروفة (بلبردروش وهم اهل اللتاقيف وهى رماح قصار غليظة العصى مغشاة بالحرير . . . ومرصعة بمسامير بيض) (26) .

اما عند خروج الخليفة الى صلاة الجمعة او العيدين او لحفل رسمى ، فان العساكر تمتد (أمام موكبه العظيم حبلين يتقدم الحبلين لواء من كل واحد منهما عند منتهى الحبل وكل قائد من قواد عساكر النار يقف عند انبعاث حبل جيشه تحت الويته محفوفا بجيش من رؤساء جنده اهل الخيل الذين يدعون باكباشيات فاصلا بذلك بين جيشه وجيش من يردفه من خلفــه) (27) .

وقد جرت العادة (أن يتقدم اولا جيش السوس ثم يردفه جيش الشراقة . . . ثم يردفهما العسكران العظيمان : عسكر الموالى المعلوجى . . وعسكر الاندلس . . وترفع على رأس كل واحد . . الالوية والرايات . . ثم يتصل بهذين العسكرين الداخلة . . المؤلفة من الساك والسلاق ولبردروش . . فاما البياك فهم الذين يلون ركاب أمير المومنين يحف به بعضهم يمينا وشمالا . . . ومنهم صاحب مظلته العظيمة المرفوع على رأسه كالغمامــة) (28) .

وأمام الموكب يتقدم (جيش الاصباحية . . . ويرفع اللواء العظيم الابيض الذي هو علامة على شعار الدولة المدعو باللواء المنصوري على رأس أميــر المــومنيـــــــــن) (29) .

ويضم الموكب الملكى ايضا (الطبل العظيم الذي يسمع دوي صوته على البعد ومن خلفه الطبول الاخرى التى تقرع مع المزاميــر) (30) .

---

(24) المصــدر السابـــق .
(25) نفــس المصـــــدر .
(26) نفس المصـــدر .
(27) المناهـــل . ص 203
(28) المناهـــل . ص 203 .
(29) المصــدر السابـــق .
(30) نفس المصـــــدر .

ومن العادات أيضا عند سفر المولى أحمد ، اقامة حفل ديني خاص يحضره (الفقهاء ومشيخة العلم والطلبة من المدينة (وقريء البخاري سردا في المصحف بين يدي أمير المومنين على الرسم المتعارف في ذلك عند الخلفاء رضوان الله عليهم عند ارادة الاسفـــار) (31) . واثناء الطريق ، يخرج لاستقباله الامراء والولاة الذين يمر الموكب الملكي بأراضيهم (فارتحل ايده الله لتادلا وتلقاه باطرافها ولده اميرها المولى ابو الحسن في جيش عرمرم من جندها واستاق اليه هدية من العين والجياد والبغال وخيم بمحلاته على نظير منهـــا) (32) .

وقبل أن يصل المنصور الى فاس ، يلتحق بموكبه وفد من علماء القوم وعليتهم لمرافقة الركب الملكي (وتلقاها وفد اهل فاس من مشيخة العلم والاشراف يوم ارتحاله من حواته واعتسفوا اليه الشقة البعيدة وتجشموا الامطار المسترسلة . . . فلقاهم بالبـــر والترحيب) (33) .

اما استقبال الامراء ابناء المنصور لوالدهم المولى احمد ، فيتم في حفل عظيم ، ومن ذلك استقبال ولي العهد المولى محمد الشيخ لابيه في تامسنا (ولما كان يوم وصول ركابـــه العالي . . فوقف في الاجناد واقبـــل المولى الامير . . في كتائبـــه . . في أفخم زي وأحسن ابهة . . وانبرت الكتائب تتسرب للسلام على أمير المومنين فوجا من بعد فوج . . وتدافع المولى ابو عبد الله في موكبه . . ولما هوى الى الارض ساعيا على اقدامه الطاهرة للثم الركاب العلي الامامي . . وقضاء فرض التحية راجلا برز أمير المومنين . . وتقدم وحده للقائه مرحبا وشفيقا ومتبسطا حتى امكنه من لثم قدمه . . وحنى متطأطأ من صهوته على راسه حتى قبله واستركبه الى جنبه وسارا معا في الالوية والعساكر) (34) .

وعن استقبال العامة وجمهور الشعب للمولى احمد ، فابرز صورة نثبتها في هذا المجال الفرح الذي خامر المغاربة لما علموا بشفاء المنصور من المرض الخطير الذي الم به (وتسامع الناس بخبر ظهوره فنسلوا اليه من كل حدب . . . فتهافت الناس عليه ايده الله تهافت الفراش وكادوا أن يختطفوه شوقا اليه وشغفا به . . . فازدحموا على رويته وتقبيل بساطه ولثم اطرافه) (31) .

---

31) المنـــاهـــل . ص 66 .
32) المنـــاهـــل . 98 .
33) المصـــدر السابـــق .
34) المناهـــل . ص 60 .
35) المنـــاهـــل ص 53

واخيرا لقد كان من عادة المنصور أن يخرج فى فصل الربيع الى النزهة فى نواحى مراكش (وتلوم شهرين أو نحوهما يتقلب فى البسيط الممتد من الحضرة لاغمات حتى تقضى وطرا من النزهة وتملى من الراحة) (36) .

2 ـ امـا المجتمـع المغربـى :

فقد كان يتكون من فئتين متباينتين : سكان المدن وسكان البوادي :

أ ـ سكـان المدن : وقد كانت نسبتهم ضعيفة بسبب قلة عدد المدن ، وهذه المدن قسمان :

فى القسم الاول : مراكش العاصمة السياسية وفاس العاصمة العلميـة والمحمدية بسوس .

وفى القسم الثانى : بقية المدن الاخرى المتطورة .

وقد حفظت لنا بعض المصادر والوثائق المعاصرة معلومات قيمة عن العواصم الرئيسية الثلاث :

فمدينة فاس بها مدينتان : فاس البالى والجديد (المدينة البيضاء) ، وفى هذه الاخيرة توجد القصبة والقصر الملكى ومنازل كبار القوم والمتاجر والديوانة .

وفى فاس البالى توجد العدوتان : عدوة الاندلس وعدوة القرويين التى تمتاز بالمسجد العظيم الذي به مئات من الاعمدة الرخامية وعدد من الابواب يفضى كل منها الى حـى خـاص .

وفى مدينة فاس توجد عدة احياء : بعضها للتجارة حيث الخانات الفخمة المزينة بالنوافـذ والشرفات وذات الغرف الواسعة والاروقة الطويلة ، وحيـث القيساريات الواسعة ذات الشوارع المنظمة التى تصطف حولها عشرات الدكاكين، وقد غطيت لوقاية الزبناء والبضائع المعروضة .

وهناك احياء للسكن ، وقد امتازت دور فاس عامة بالاناقة وجمال المظهر ، وغالبا ما تتكون من طابقين ، ويخترقها جميعا وادي فاس الشهير) (37) .

---

(36) المنـاهـل . ص 221

(37) م. ص. ت. م ـ بريطانيا ـ ج 2 ـ ص 491

أما اليهود فلهم حى خاص (الملاح) ، حوله سور وليس له الا باب واحد يتناوب على حراسته حراس مغاربة ، وبالقرب منه مقبرة خاصة بسكانه اليهود (38) .

ولما كانت مدينة فاس البالى تمتاز بتعدد مساقط المياه لاختراق وادي فاس المدينة ، فان ذلك قد ساعد على ظهور العديد من المطاحن المائية التى تعد من مميزات هذه المدينة (39) .

وبين الاحياء توجد عدة جسور حجرية لمرور الناس ولعبور العربات والدواب .

ومما كان يثير انتباه الرحالة فى فاس : العدد العظيم من المساجد والزوايا والكتاتيب ، الى جانب الحدائق الغناء الجميلة (40) والمستشفيات التى يوجد بها اطباء مهرة وانواع من الادوية لمعالجة المرضى .

أما العاصمة مراكش ، فحسب التقارير العديدة : تقع فى سفوح الجبال المكللة بالثلوج ، وذلك فى سهل عظيم وبين اشجار النخيل والحدائق الجميلة ، وتنحدر اليها أودية كثيرة يستفاد منها فى سقى المزروعات (41) .

وبمراكش القصبة الملكية التى تعتبر وحدها مدينة مستقلة ، وهى تقع فى جنوبى المدينة ومن أهم محتوياتها : قصر البديع مقر الخليفة المنصور ، وهو يقع فى الزاوية الشمالية الشرقية من القصبة ، وملحقاته العديدة ثم حدائقه الجميلة التى تحيط به شرقا وجنوبا ، علاوة على مسجد القصر الواقع فى الزاوية الشمالية الغربية من القصبة (42) .

وبالقصبة ايضا دار الديوانة : دار كبيرة بها مخازن عظيمة يحل بها التجار مع بضائعهم عند الاستيراد والتصدير ويؤدون بها واجب الجمرك ، وقد أوكل المنصور أمر الديوانة الى اشخاص انيطت بهم مهمة السهر على التجار الاجانب وسلامة بضائعهم التجارية (43) .

---

38) المصدر السابق .
39) مجلة تطوان . العدد العاشر . ص 115
40) المصدر السابق .
41) مجلة Hesperis العدد (3 — 4) لسنة 1957 . ص 204 .
42) المصدر السابق .
43) مجلة تطوان . العدد العاشر . ص 118 .

ومدينة مراكش تنقسم الى احياء تجارية : تضم عددا كبيرا من الفنادق الشاهقة المحاطة بالاسوار حيث يضع التجار بضائعهم ، وأخرى للسكن تقيم بها عناصر السكان : الاندلسيين ، العلوج ، الاتراك والاجانب . بالاضافة الى الملاح الحى الخاص باليهود . ولا تزال حتى اليوم بعض الاحياء بمراكش تحمل اسماء ترجع الى عهد المنصور ، مثل حمام الذهبى . ودرب بوشنتوف ودرب الدمـاشـى . . . (44) .

وقد لاحظ الاجانب المعاصرون الاختلاف الواضح بين الاحياء الخاصة بكبار القوم والاغنياء ، عن غيرها من الاحياء الشعبية :

فالاولى امتازت بشوارع منظمة . حولها دور جميلة شاهقة مزينة بالشبابيك الزجاجية والمزخرفة بأنواع التاشانى والجبص والزليج .

أما الاحياء الشعبية فضيقة تكثر بها الاوحال فى الشتاء . ومنازلها مبنية من التراب والجير ، وهى صغيرة ومنخفضة .

ومما اتصفت به العاصمة ايضا وجود الحدائق العامة . وحدائق الحيوانات ، والمستشفيات والمساجد التى لا تحصى ودكاكين لبيع الادوية . واعتمادا على مادونه العلامة احمد بابا السودانى المعاصر عن مراكش (رايت اسباب السعادة بها متيسرة وازمة الامانى فيها مبذولة غير متعسرة) (45) .

اما مدينة المدمدية (تارودانت) فهى (من مشيدات مولانا الامام المهدي رضي الله عنه قاعدة بلاد سوس وام القرى والامصار وملاك باب السودان ذات القصور المشيدة والاواوين الموطدة والرباط المفوفة والانهار المطردة والمساجد المزخرفة والمآذن المترطة بلآلىء النجوم المشنفة الى معاصر السكر الجاثمة حواليها جثوم اهرام مصر . . . اذا ذكرت المحمدية لف كل منهما راسه استحياء وحسبما شهادة العيان) (46) .

ب ــ واما سكان البادية :

فيكونون الاغلبية العظمى فى المجتمع المغربى ، لانتشار الحياة القبلية وبسبب

---

44) دونردان : مراكش . ص 267

45) أحمد بابا السودانى : ذيل الابتهاج . ص 1

46) المناهــل . ص 254 .

اعتماد البلاد على الزراعة وتربية الماشية كمورد اساسى للحياة . ولقد اهتم المنصور بالبادية اهتماما متزايدا ظهر فى الحرص على نشر الامن وتوزيع الاراضى الزراعية على القبائل لزراعتها ثم اجبار بعض القبائل على سكنى الارض وفلاحتها بدلا من الاستمرار فى حياة الترحال . فازدهرت الحياة الزراعية وكثر العمران بالبادية بشكل قرى ومداشير لانتشار البيوت الحجرية . ومن اهم العوامل التى ساعدت على تطوير العمران فى البادية ظهور انواع ثلاثة من القرى :

1 ــ القرية الزراعية : التى اقامها المنصور فى البادية (فيسكنها اهل البادية واجرىلهم على ذلك من اقطاع الارض ما يكفيهم ثوابا على سكناهم هنالك) (50) وقد ازدهرت الزراعة لذلك واتسع العمران .

2 ــ القرية التجارية : فقد اوجد المنصور لسكان البادية المقيمين مجالات اقتصادية هامة تدر عليها ارباحا وتعود عليهم بأعظم الفوائد ، اذ (امرهم ببيع الشعير والطعام واللحم والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج اليه المسافرون ودوابهم) (51) .

3 ــ القرية الصناعية : للاهتمام المتزايد بزراعة قصب السكر وما تطلب ذلك من اقامة للعديد من معاصير السكر ومعامله التى انتشر حولها العمران (لكثرة ما ضمته من العملة وحشرته من الخلق ولا تسل عن هولها ولغط الاصوات بها تدل على عظمة شانها وضخامة احوالها على ضخامة الملك وسعة ذرع الدولة) (52) .

وهكذا انتعشت البادية المغربية وتطور عمرانها وازدادت مظاهر النعم والترف بها (طاب الجنى وذرت أخلاف الجباية فامتلأت بيوت المال وغصت بالحبوب مخازن الاقوات) (53) ، وقد لمس ذلك الاجانب ودونوه فى مختلف تقاريرهم كما اشادوا بالامن والطمانينة التى كانت تعم دولة المنصور .

وهناك مظهر آخر فى البادية المغربية : القبائل الرحل التى كانت تنتقل الى

---

(50) المنتقى المقصور . ابن القاضى . ص 95 .
(51) المصدر السابق .
(52) المناهل . ص 210 .
(53) المناهل ص 40 .

حيث الكلأ والعشب والمياه والتى كانت تستعمل الخيم وتهتم بالماشية وتربيتها ، وحسب انطباعات بعض الرحالة الاوربيين فان سحب الخيام السوداء كانت تغطى مساحات واسعة من السهول الخصبة ، وبأن قطعان الغنم والماعز كانت تنتشر فى الحقــول والمراعـــى (54) .

ترجع القبائل المغربية الى اصول مختلفة عربية وبربرية ، نال بعضها الحظوة لدى الدولة بأن (الحقهم بديوانه فتميزوا بشعار الجندية ولبسوا شارتها والحق رؤساهم بطبقات القواد واقطعوا ما شاءوا من البلاد) (55) بما كان يعرف (بعرب الدولة) (56) فى حين ان البعض الآخر لكثرة الاضطرابات والتمرد تعرض للمحـــن وتوالى النكبات بأن (انتزع خيلهم وارجلهم كافة وضرب عليهم الخراج ونظمهم فى سلك الرعايا الغارمة جزاء بما اتوه من شنيع احدوثة فى الغدر) (57) .

فهل بالامكان وضع تصنيف عام لطبقات المجتمع المغربى ؟ وما مميزات كـــل منهـــــــــــا ؟ :

1 — فى قمة الهرم الاجتماعى نجد البلاط الملكى وافراد الاسرة السعدية الحاكمة ، وقد كان المنصور يولى البعض منهم مهام سياسية او يقطعهم ولايات خاصة مع الاحتفاظ بهم فى بلاطه وبين يديه (ثم عقد على مكناسة لداود بن اخيـــه المولى الامير عبد المؤمن وجعل امرها الى نظرة ورتب بها من انتقاه للنيابة عنه فيها من الخدام وصحبه هو لمراكش واسكنه بها بازائه) (58) .

2 — ثم طبقة كبار القوم من الحكام السياسيين والقادة العسكريين الذين كانوا يحيون حياة خاصة للانعامات والهبات المتوالية التى يغدقها المنصـــور عليهم فى مختلف المناسبات والظروف (ومن كرمه الذي كاد أن يكون كالسنة الجارية الصلات والعوائد التى يصل بها أيده الله خاصته وأهل بساطه) (59) ثم للاقطاعات التى كانت تقدمها لهم الدولة ، مما جعلهم يحيون حياة الترف

---

54) م. ص. ت. م — انجلترا — ج 2 — ص 437
55) المناهـــــل . ص 191 .
56) نفـــس المصــــــــدر .
57) المصـــدر الســـابـــق .
58) المناهـــــل ص 56 .
59) المنـــاهــــــل ص 229

(هذا وايامه الهنية على جناب مريح وحمى منيع ورياض أريضة ودنيا عريضة) (60) . ويدخل هنا فى هذه الطبقة رؤساء القبائل ومشايخها من عرب الدولة (والحق رؤساءهم بطبقات القواد واقطعوا ما شاء ومن البلاد فبهت بذلك احوالهم وكانت لهم به المزية الظاهرة على سائر اقيالهم) (61) .

3 — والطبقة الثالثة من المجتمع كانت تتكون من (شرفاء وقضاة وفقهاء وكتاب وشعراء . . . واجناد ورؤساء واشياخ نبهاء وعمال) (62) .

وتلى هذه الطبقة : جماعة التجار المغاربة ممن كانوا يكونون نواة الطبقة البورجوازية الناشئة وقد اخذت هذه الطبقة فى الظهور بفضل ازدهار اعمال التجارة الداخلية والخارجية ولتشجيع المنصور المتواصل ، فتكدست الاموال بيدها (حتى صار بذلك فى عداد الاغنياء واهل الثروة والرفاهية) (63) .

ويرجع الى الطبقة البورجوازية المغربية بعض الاثر فى اعمال الفتوحات التى قام بها المنصور فى الصحراء وبلاد السودان ، وفى اقرار دعائم الامن والاستقرار بكل انحاء البلاد بل وفى تأسيس مراكز تجارية ومحطات للتجار وقوافلهم (وامرهم ببيع الشعير والطعام . . . مما يحتاج اليه المسافرون ودوابهم . . . وان باتت عندهم قافلة يحرسونهم طول الليل ويحوطون امتعتهم وان ضاع شىء منها عندهم ليلا ضمنوه لربهم فيما بينهم . . . فنجد المسافر فى حالة ذهابه وايابه كانه فى بيته وبين اهله) (64) . وقد ابدت طبقة التجار المولى احمد المنصور فى اعمال الفتوحات وفى بلاد السودان بوجه خاص ورافق عدد منهم القوات الفاتحة كأدلاء ومرشدين ، وبالمقابل احدث المنصور اصلاحات داخلية لصالح هذه الطبقة مثل حذف الحواجز الجمركية بين المدن ومختلف الاقاليم .

4 — اما قاعدة الهرم الاجتماعى فكانت تضم فئات العامة من ارباب الحرف وطبقات الجند وجمهور الشعب فى المدن والبوادي وفى السهول والجبال . وقبل أن نتعرض الى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية من عادات وتقاليد يهمنا بوجه

---

(60) المناهل ص 28

(61) المناهل ص 192

(62) المناهل ص 237 .

(63) المناهل ص 229

(64) ابن القاضى المنتقى المقصور ص 95 .

خاص أن نتعرف على وضعية الجماعات الغير المسلمة وانماط معيشتها داخل المجتمع المغربـي ، فهنـاك :

اليهـــود :

وقد هاجر عدد عظيم منهم من الاندلس الى المغرب بعد سقوط الاندلس ، ونتيجة أعمال الاضطهاد والتعسف التى قام بها الملوك الكاثوليك فى اسبانيـا والبرتغـال . ولاجل حماية اليهود كذميين بنت لهم الدولة أحياء خاصة حصينة للاقامة بها (الملاح) لا تبعد كثيرا عن مقر الحاكم . وقد كانوا يمارسون بكـل حرية طقوسهم الدينية كما كانت لهم مقابر خاصة . ولما كان هؤلاء على جانـب هام من الثقافة ومعرفة باللغات الاجنبية ولهم خبرات واسعة فى أعمال التجارة فقد اصبحوا يقومون بدور الوساطة فى الاعمال التجارية والسياسية بين المغاربة والاجانب ، وفى عمليات انتكاك الاسرى . واعتمادا على تقرير بعثه الانجليزي (George Tomson) من مراكش سنة 1600 م فان المنصور كان له مستشار خاص من اليهود يعتمد عليه كثيرا ويستشيره فى بعض القضايا وهو ابراهام بـن واش (65) .

وعن نشاط اليهود التجاري تؤكد الوثائق المعاصرة بأن ادارة معامل السكر التى اقامتها الدولة المغربية كانت تدار فى الغالب من قبل اليهود (وقد قطعت معاقدة الكراء فيها اليوم لطائفة من اهل الذمة حسب مبلغ سنوي) (66) ، كما كانوا يتولون شؤون املاك الامراء وكبار القوم . وهذه الوضعية بمجموعها فتحت أمام اليهود مجالات واسعة للاتصال بالطبقة الحاكمة وبالاجانب على مختلف المستويات والاجناس وساعدتهم على تكوين ثروات ضخمة استغلوها فى نواح عديدة مـن النشاط الاقتصادي . ولعل احوالهم هذه تفسر لنا أسباب الحقد والغيرة التـى طالما اعرب عنها الاجانب من دبلوماسيين وتجار وغيرهم . اذ لم يتمكن هؤلاء الاجانب من الصمود طويلا فى وجه المنافسة اليهودية وحتى التجار الانكليز الذين اسسـوا (الشركة المغربية) سنة 1585 م سرعان ما فشلت تجارتهم واعلنت شركتهـم الافلاس سنة 1598 للمضاربة اليهودية بوجه خـاص . (67) .

---

65) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 230
66) المناهـــل . ص 210
67) م. ص. ت. م — انجلترا — ج 2 — ص 476

الاجانـــب المسيحيـــون :

لقد اختلفت وضعية هؤلاء فى المغرب اذ كان منهم السفراء والدبلوماسيون والتجار والرحالة وكان منهم رجال الدين الرهبان والاسرى . واكثر ما يهمنا فى هذا المجال التعرف على موقف الطبقات العامة المغربية من هؤلاء الاجانب المسيحيين والذين كانوا يحتكون بهم فى حياتهم اليومية لسبب من الاسباب . ومن بين الوثائق التى تتحدث عن ذلك رسالة لرحالة انجليزي زار شمالى فريقية مع جماعة من التجار الاجانب : فقد ذكر بأن المعاملة الحسنة التى لقيها هو وصحبه من الاهالى المغاربة لم يحظوا بمثيل لهـــا فى الباشويات التركية المجاورة (68) .

وهؤلاء الاجانب على مختلف مستوياتهم غالبا ما كانوا يقيمون بالملاح ، فى حين أن الاسرى المسيحيين كان لهم حى خاص به كنيسة للصلاة ومقبرة لدفـــن موتاهم . وقد اشاد بعض هؤلاء الاسرى بالروابط القوية التى كانت لليهود معهم ، وكيف أن اليهود كانوا يعملون على تحريرهم ونقل الاموال لافتكاكهم كاليهوديـــن ابراهيم جيبر وبن حليم اللذين نقلا اموالا من طنجة وايطاليا الى مراكش حيث كانت الاغلبية العظمى من الاســـرى .

وقد ساهم فى عمليات الافتكاك ايضا رجال الدين الرهبان والاباء الفرنسيسكان منهم بوجه خاص . الذين كانت لهم مطلق الحريات فى القيام بشعائر الديانة فـــى الكنيسة مما كان يخفف بعض الاسى والالم عـــن الاســـرى ويبعـــث فى نفوسهـــم الامـــــــل (70) .

أما الاعمال التى كان الاسرى المسيحيون يقومون بها فعديدة كل حســـب اختصاصه وحرفته ؛ وكانوا يسخرون ايضا فى اعمال البناء والعمران وفى المصانع والمعامل ؛ ومن مهامهم حمل الشموع ليلة عيد المولد النبوي الكريم (والافلاك المؤلفة من الاخشاب لحمل جذوعها يحملها اساري الدولة) (71) .

العـــادات والتقـــاليـــد :

اهم ميزة تطبع المجتمع المغربى : التمسك بالاسلام والتحمس له خاصة وان

(68) المصـــدر السابـــــق

(70) المصـــدر السابـــق .

(71) المنـــاهـــل . ص 236 .

حركات الجهاد التى انطلقت مع الغزو الاجنبى للشواطىء المغربية قد توجت بالفوز فى معركة وادي المخازن :

وعن العادات والتقاليد التى عرفها المجتمع فى عهد الدولة السعدية :

لبس البياض (ثم يقتعد اريكة تبته وسرير ملكه وعليه خلع البياض شعار الدولة الكريمة) (72) واستعمال الطيب (ولم يزل فى خلال دولة الانشاد يختلف الظرفاء من الخدام على الناس لاخضال الملابس بماء النعيم المصعد من نثير الورد والازهار الإرجية يسكب عليهم رشها بطاقات الرياحين والآس سكبا عدقا فى الحجور والارذان) (73) والبخور (مثلت امام الحضرة الامامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشـكـل) (74) .

ثم من العادات استعمال الزيت والشموع للاضاء والتنوير (واصطفت امام القبة جذوع الشموع المبارية للاذان والنخيل) (75) .

والاعتناء بالطعام والشراب (ثم تنهل على الحفل عارض النعمة من ابواب القصور الكريمة ويخص بالجفان والاخونة والصحون والطيافير الرحيبة الاقطار جامعة لالحم المسارح وأنواع الطير ودواجن البيادن . . . فلا تسئل عن التفنن فى المطابخ والتنويع فى المآكل والارضاخ فى النعمة . . . ويشرح مجمل الارضاح بانسكاب الحلاوي المتنوعة والمربيات المتفننـة) (76) .

ومما عرف به المغاربة الاعتناء بالحيوانات والسهر على تربية الخيـول (واوصيكم . . أن تتفقدوا فرسنا الاحمر . . ولا تتركهم يعطونـه القصيـل ليـلا يكثر لحمه . . بل انظر له من يركبه كل يوم) (77) . وقد جرت العادة أيام المنصور أن تقذف المدافع طلقات خاصة فى العيدين وعند ورود البشارة (واذا استهلت رعودها فى العيدين عند العود من المصلى أو لورود بشارة عظمى . . .) (78)

---

72) المناهـل . ص 236 .
73) المنـاهـل . ص 236 .
74) المناهـل . ص 237 .
75) المناهـل . ص 237 .
76) المنـاهـل . ص 237 .
77) الافرانى : نزهة الحادى ص 162
78) المنـاهـل . ص 264 .

وان تقام الحفلات فى المناسبات الخاصة (فأمر بالمفرحات غدوة وعشيا ثلاثة ايام فرحـا) (79) ويتقبل المنصور تهانىء كبار القوم (واتاه . . القواد . . والعلماء . والامنـــاء . . يهنئونــــه) (80)

ومن العادات فى عصر المنصور اقامة الاستعراضات العامة فى الشوارع حيث يجتمع (عالم من النظارة فى سماطين بحا فى الطريق . . . قد جللوا جنبتى الطريق وركبوا الاسوار والاسطاح وبرزت ربـات الحجال من اعلى المنـازه والصـــــروح) (81) .

وفى المناسبات تقام حفلات خاصة كما هو الحال عند التوجه الى بيت الله الحرام لاداء مناسك الحج (82) وخلال شهر رمضان (83) . وفى يوم عاشوراء يقيم المنصور حفلا (لختان ذرية ضعفاء من مساكين الحضرة واحوازها وذوي الحاجة من أهلها يدخل بذلك ايده الله السرور على اولاد المومنين . . . وتجاوبت الالحان واصطحبت أصوات المزاهر . . . وتقدم الصبية افواجا افواجا فكل من تناوله الختـان اعطيت له أذرع من الكتان وحصـة من الدراهيم وسهم مـن اللحـــم) (84) .

أما الاحتفال بعيد المولد النبوي الكريم فيمتاز عن غيره من المناسبات ، اذ توجه (الرقاع الى الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية من المؤذنين . . . فيهوون للدعوة من الاماكن النائية) (85) ويقام ليلة العيد استعـراض عـــام للشموع (حتى اذا كان ليلة عيد الميلاد الكريـم . . . . وحضر وقـت زفاف العذارى من رياض الشموع الى الابواب العلية الشريفة وحضرت الآلة الملوكية . . . انتظم عالم من النظارة سماطين بحـا فى الطريق . . . وبرزت جذوع الشموع كالعذاري . . . فارتفعت أصوات الآلة وقرعت الطبول وضج الناس بالتهليل والتكبير والصلاة على النبى الكريـم) (86) .

---

(79) تاريخ الدولة السعدية . المؤرخ المجهول . ص 67 .
(80) المصـدر السابــق .
(81) المنـاهــل . ص 130 .
(82) المنـاهــل . ص 188
(83) المنـاهــل . ص 172 .
(84) المنـاهــل . ص 252
(85) المنـاهــل . ص 237 .
(86) المصــدر نفســه .

أما في يوم العيد (فاذا حضرت صلاة الفجر برز مولانا أمير المومنين ايده فيصلي بالناس ثم يقتعد أريكة قبته . . وتسايل الناس من البلد على طبقاتهم . . تقدم اهل الذكر والانشاد . . ثم حضرت دولة انشاد الشعراء . . ولم يزل في خلال دولة الانشاد الظرفاء من الخدام على الناس لاخضال الملابس بماء النعيم . . . ثم تنهل على الحفل عارضة النعمة . . . ويشرح مجمل الارضاخ بانسكاب الحلاوي المتنوعة . . ثم يختم بالشكر والدعـــاء . .) (87)

ومن العادات الحميدة التي تميز بها عهد المولى أحمد المنصور ، وزادت من تعظيم الطبقات الشعبية ومحبتها له ، ما كان يخرجه من (صدقات فاشية واسعة عظيمة الفائدة يجريها على ايدي ثقات من رجاله فمنها الاموال التي يجريها ختم كل رمضان ويعم بها ذوي الحاجات . . . وما يجرى على يده أيده الله في سائر الاوقات عن أنواع البـــر والصدقة ووجوه الاقتراب والزلفى من مال في سبيل التوسعية على الفقراء يقسمه وطعام في أوقات المجاعة يخرج وديون غرماء مفاليس تقضى ورقاب أرقاء تفك وأساري تفتدي . . .) (88) .

ومن جهة أخرى فقد كان المنصور ينعم على البعض من كبار القوم والشرفاء والوجهاء بظهائر التيقير والاحترام التي تخول لهم امتيازات اجتماعية واقتصادية خاصة أبرزها : اعفاؤهم من جميع الضرائب والتكاليف المفروضة على (أصولهم ببلادهم . . . وحوانيت وأرحية وافران ودور ومعاصر للزيت وجنات وعيـــون وسواقي . . . كما يحاشون من جميع الوظائف المخزنية والكلف السلطانية ومـــن الطوائف والحركات والسخر البدنية وسائر الاشغال العملية وملازم الابـــواب والرحاب . . ومن ملازم التجارة . . ويوكلون في تفريق عشر معشراتهم من الحبوب بعلا وسقيا وخرص مخرصاتهم من الغلل والثمار على الفقراء وذوي الحاجة الى المعروف من أمانتهم والمألوف من ديانتهم . . . بحيث لا يطالبون عن ذلك ولـــو بمجرد الاشراف على ما لديهم والاطلاع على ما يفيء الله عليهم) (89) .

ولما كان ركب الحجاج المغاربة يتوجه سنويا الى الحجاز لاداء مناسك الحج ، فقد جرت العادة بتسمية رئيس الوفد (يستقر هذا الامر الكريم . . . بيد الشيـــخ

---

87) المصـــــدر نفســـــــــه .
88) المنـــاهـــــــل . ص 252 .
89) مجمـــوع مخطـــوط بدار الوثائـــق بالربـــاط . ك 278 . ص 42 .

الاجل . . فقلده ادام الله امره . . شياخة الركب الحجازي يقتصر على نظره المستقيم امـوره) (90) وتكليفه بحمل رسالة خاصة الى شريف مكة والمدينة (91) .

ويدخل فى هذا المجال قيام البعض من الموسرين المغاربة بتحبيس بعـض ممتلكاتهم على اوجه البـر والاحسان (وتنافس الاشراف والافاضل فى اقتناء الاماكن السنية وانشاء المساجد الدينية . . فكان ممن حاز فضيلة السبق . . مملوك المقام العلى . . انشا مسجده المبارك السعيد . . بالحومة المدعوة .. بحضـرة مراكش .. وجعل من تحبيسه عليه جميع نصف العين الذي كان ملكه خارج باب .. من ابواب مراكش .. مع ما احتوى عليه من الغرس والاشجار . . جعل ذلك كله حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا على مسجده المذكور يصرف خراجه فى مصالحه من مرتب امامه ومؤذنيه والقراء به والقيم بمصالحه . . وما يحتاج لاصلاحه . . وعلى أن يكون نظر ذلك كله . . موكلا الى نظر . . قاضى القضاة بالحضرة) (92)

على أن هناك عادات اجتماعية ظهرت لدى بعض الفئات من طبقات العامة بسبب انتشار الجهل الذي فسدت معه الاخلاق وساءت بالتالى احوال النـاس الدينية والدنيوية ، من ذلك مثلا : انتشار اعمال المجون والتدجيل والاقبال على الوشام ثم التعامل بالربـا (93) . . . ولطالما استنكر المصلحون والدعاة هـذه العادات واستقبحوها وحملوا فى الوقت نفسه الحكام والعلماء مسؤولية مـا عليه طبقات العامة وحثوهم على مقاومتها والضرب على ايدي القائمين بها .

فهل كان لنداءات الوعظ والارشاد والترغيب من اثر فى الرجوع الى الطريق

---

90) المصدر السابق . ص 46 .
91) مناهل الصفا : ص 187 .
92) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 91 .
93) جاء فى الفية الامام الهبطى وهو معاصر : (مخطوط فى ملك الاستاذ محمد المنونى)

ومـن اتاهـم بالمحـال الواضـح ... قالـوا تعالـوا نحـو هـذا الصالح
مـا فيهـم مـن كـذب الكهـان ... بـل كلهـم انـوه حيـث كـان
فلو رأيـت مـا لهـم فى الاعـراس ... مـن كـل حالـة تعـين الانجـاس
علـى فسـاد الديـن والايمـان ... كرقصهـم اذن مـع النسـوان
قـد جـوزوا الكفـوف والـزاهـرا ... والشطـح والغنـا اذن جهـارا
وان دهـاك مـا سمعت من كـلام ... فابـن أنـت مـن حديـث الـوشام
علامـة دلـت بـلا تـوان ... علـى فسـاد العقـل والايمـان
اباحـت الربـا علـى الاطـلاق ... لديهـم فى جملـة الاسـواق
قـد جهلـوا الحـلال والحـرام ... والتـزمـوا الغبـاوة التـزامـا
أو مـن لنـا بعالـم رشيـد ... يدعـو الى الصـلاة والتوحيـد
أو مـن لنـا بسيـد الصوفيـة ... يدعـو الـى الهـدى بصـدق النيـة
فكـان ما تـرى مـن الفسـاد ... والظلـم والجـور على العبـاد

المستقيم (اهل . . هذا وانه منذ استرعانا الله النظر فى أموركم . . كلما لمحنا صدعا فى جانبكم من أمر دينكم أو دنياكم تلافينا جبره أو تراءى لنا صنـــم بدعـــة بادرنا بمعاول السنة كسره أو ميلا عن الصراط المستقيم اخذنا بنواصيكم الــى محجته . . . أو اهمالا لبعض الشرائع ندبناكم اليها ثم حملناكم طوعا أو كرها عليها حرصا على الامة أن لا تضل ولا تشقى وعلى معالم الدين الا تبلى) (94) .

ولا يفوتنا فى مجال الدراسة عن الاحوال الاجتماعية فى عهد السعديين ان نشير الى ما كان يصيب البلاد والعباد بين الاونة والاخرى من اوبئة وانـــواع الطاعون ، ومهما كانت هناك من اسباب لهذه النكبات ، فان من اهمها : الحروب الداخلية وما تسببت فيه من قتل لآلاف الضحايا وخاصة ما وقع منها فى الربـــع الاخير من القرن السادس عشر حيث بلغ معدلها حربا واحدة كل ثلاث سنوات تقريبا . ومن اشد الحروب الداخلية : ثورة الناصر التى دامت سنة كاملة (95 ـ 1596) والتى عم البلاد اثرها طاعون خطير (ولما وقع هذا الطاعون بالمغرب سنة خمس الى سنة ست عشرة والف . . كان أول ما وقع بالحواضر . . واما اهل مراكش وتارودانت فتفرقوا فى البادية والجبال فكان اكثر وقوعه بهم وانقرض جل أعيانهم حتى استولى الخراب من ذلك على الحاضرتين . . . وقد شاهدنا من ذلك مـــا الله أعلم بـــه) (95) .

ونتيجة انتشار الطاعون اضطربت الاوضاع الاجتماعية بشكل خطير ومخيف (ولما تتابع الوباء على مدينة تارودانت من عام ستة بعد الف الى ست عشرة تفرق الناس منها وخلت جوامعها وأسواقها وتعطلت مرافقها الدينية والدنيوية خرجت لبلدنا نائجة تمنرث وطال بها مكثـــى) (26) .

وقد بذلت حكومة المولى احمد المنصور جهودا متواصلة لمواجهة الداء :

1 ـــ باتخاذ كل وسائل الوقايـــة .

2 ـــ باستعمال الادوية الناجعة وقد نشطت لذلك ابحاث الاطباء ومهرة الصيادلة

---

94) عبد الله كنون : رسائل سعدية . ص 262 .

95) عبد الرحمان التامنارتى : الفوائد الجمة . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 1420) . ص 31

96) المصدر السابـــق . ص 164 .

3 ـ استدعاء اطباء أجانب .

4 ـ امداد الجهات المتضررة بكل المساعدا ت(97) .

ولعل ابلغ وصف للمضاعفات الخطيرة التى أحدثها انتشار الطاعون فى المغرب ، ما جاء فى مخطوط (الفوائد الجمة) للتامنارتى وهو معاصر للاحداث : (ولما دخلت الحاضرة (تارودانت) فرايت مجالس الكبار وملاعب الصغار خاوية كساها الايحاش . . . ورأيت ملعب صبية حومتنا بقبلة الجامع الكبير بها فاقد انسه وملحق عبرة يومه بعبرة امسه وكان اكثر ما وقع الوباء فى الشباب . . . فخنقتنى الدموع . . .) (98) .

العمران فى عهد المنصور :

(همم الملوك اذا ارادوا ذكرها فبألسن الشعراء والبنيان) (99) .

أول ما ينصرف اليه الذهن عند محاولة التعرف على مآثر المنصور العمرانية : (قصر البديع) العديم المثال : (ايروم اللسان وصفا لشىء ما له فى الدنيا مثال وشبه) (100) .

فقد اختار المولى احمد الزاوية الشمالية ـ الشرقية من قصبة مراكش التى كانت تغطيها الحدائق منذ أيام الموحدين ، لبناء قصر البديع ، وشرع فى البناء خلال شهر شوال من عام 986 هـ اي فى الشهر الخامس لتوليته ، واستمر العمل (الى هذا العهد وهو عام اثنين وعشر مائة لم يتخللها فترة) (101) . وسبب بنائه (انى اذا نظرت الى اثار سلفنا الكريم أجد آثار الموحدين . . وبنى مرين . . وافقت لاهل النبوءة ان يكون الفضل والشفوف لاثار من دونهم من الدول على آثارهم فلم ارض الا بما يعفى على آثار الدولتين) (102) .

وقبل ان يشرع فى البناء (حشد له الصناع وارباب الحكمة من كل أرض حتى

---

97) الافرانى : نزهة الحادى . ص 156 .
98) التامنارتى : الفوائد الجمة . ص 196 .
99) المناهل . ص 252
100) المناهل . ص 253
101) المناهل . ص 254
102) المناهل . ص 253 .

من بلاد الافرنجة فكان يجتمع فيه كل يوم من أرباب الصنائع ومهرة الحكمة وجهابذة البناء وأولى المعرفة والكفاية فىالتنميق والتشييد ومن سائر الفعلة واساري الدولة خلق عظيم) (103) والمولى احمد المنصور هو الذي أعطى القصر الجديد اسم البديع (لاحتوائه على كل نوع من أنواع البدائع وغرائب العجائب) (104) .

كان مدخل قصر البديع يتسم بكل مظاهر الروعة والعظمة اذ (يشرع اليه من الايوان فى مدخل عظيم عريض المسلك تسافر فيه الخطى وتكل القوى بعيد الشقة يسبح منه العابر فى بحر المديد الطويل لا تحصى لياته وتعاريجه ، والمدخل المفضى من الباب الاقصى لهذا القصر الكريم . . . عنوان المحاسن وترجمان العجائب . . . ويسحر بمحاسنه العيون والالباب) (105) .

وأول ما يواجه الزائر لهذا القصر (الدار الكبرى مثوى الامام نفسه . . . فهناك يخرس اللسان وتحار الاذهان ويملك الدهشة الجنان) (106) وهذه الدار (بديعة الشكل متناسبة الاوضاع متقابلة المحاريب والتماثيل تزخر من بركها الخمس بحار طامية العباب قد مثلت فى رؤوسها دوائر المرمر المختلفة الالوان العظيمة الاجرام ترقص فيها المياه الغزيرة على ايقاع طيور الادواح المفوفة ويخترق صحنها الفسيح لها رجاء من هذه البرك البركة العظيمة المرموقة الارجاء بنجوم الفواقع الطافية من اضطراب احشائها . . . وعلى ضفة هذه البركة سماطان حافلان من ادواح النارنج الباسق الافنان . . . بمماشى الزليج المنمنم الواشى) (107) .

وتضم هذه الدار عشرين قبة (وتنتهى قباب الدار الى عشرين قبة) (108) الا أن الاربع المتقابلة منها هى أعظمها :

1 — فى الناحية الشرقية : قبة الزجاجيات التى (تختص بسقف الزجاج الملون . . . وقد تبدع مستقفها الى سبع قباب تفننت فيها الصنائع المقربسة الخشبية والمسطحة وتلومت بها آلات النقش تعميقا وتكريشا . . . وتزهوا هذه

---

103) المناهل . ص 254
104) المناهل . ص 254
105) نفس المصدر .
106) نفس المصدر .
107) المناهل . ص 254
108) المصدر نفسه

القبة ببهوها المتبرج الزينة البديع النظرة الى المشتهى الروض المنظـــوم بالبديـــع شرقـــا) (109) .

2 ــ فى الناحية الغربية : القبة الخمسينية التى هى (انموذج الكمال وعنوان سعة الهمم مثلت بين القباب مثول عقيلة القصر المتربعة على كرسى الجمال وضخامة الجلال ابرزها الاتقان وحيدة فى مصانع الدنيا جفاء ووصفا وتأنقا وتقنا وزخرفا . . . وتبرز هذه القبة بسقنها البالغ أقصى مبالغ الجفوة والفخامة يملك الدهش الناظر اليه . . حتى عام فى بحر من الجص . . وتماجنت النقوش وتفننت الصنائع .. وتحرشفا وكتابة .. ويتصل بشط هذا البحر مـــن اسفل نطاق المرمر الفضى .. مدبجا بالشعر فى وصف البناء واضح الكتابة بمرمر سيحى اللون قد بين فيه الخط الابيض من الخط الاسود وساح تحته الزليج البراق الملون .. ويشق القبة بركتان انيقتان بين فوارات لجينيه وتماثيل مذهبة ومفضضة ما بين اسود فاغرة الافواه تقذف بأغصان اللجين اشكالا . . وبهو هذه القبة الرحب الفناء ذهب بمحاســن البناء تمويهـــا وزخرفـــا وابوابها المتربسة المموهة ومضاربها الضخمة تذكر سد ياجوج جفوة وعظمـــا .. مسيل الوادي المتدافع يغور فى الارض من تحتها ومعبر على جســـر من المرمر متعدد القسى تكتنفها من عن يمينها وشمالها بركتان عظيمتان قام جنافيهما سماطان من أدواح النارنج المتفىء الظلال) (110) .

ومما تمتاز به القبتان : قبة الزجاجيات والقبة الخمسينية (تيجان متلعـــة الجيد ضخام العمائم المعتامة اكوار نحاسية تراكب الذهب والابريز علـــى سطوحها فيكاد سنا برقه يذهب بالابصار) (111) .

3 ــ وفى الشمال : قبة النصر (الآية المحكمة والمثل المضروب فى مصانع الارض جفاء ورحبا وزخرفا ونقشا وتمويها وصبغا لا تتناهى أوضاعها واغراضها من محاريب وتماثيل ومقاصر وخزائن ومساجد ومخازن ومغابن ومنافيس . . . ابرت بسقف بهوها المعتام من منحوت العاج والابنوس وبسقفها الضخم . . .

---

109) المصـــدر نفســـه .
110) المناهـــل ص 256 .
111) المناهـــل . ص 256 .

بالصنائع المقربسة التى تحار فيها . . . وفى زليجها المنظوم الازر بالفرش تحـــار الاذهـــــان) (112) .

4 ــ أما فى الجنوب فتوجد قبة التيجان (ذات الابهاء الرحبة الفنان فى طلــق .. وتتميز هذه بشعار شفف الخشب الذي عقد سماواتها منه بالصنائــع المقربسة .. الى محاريب وتماثيل ومقاصير ومساجد وخزائن بادية التنميق رافلة فى حلل الاتقان) (113) .

وعن حدائق هذه الدار التى تتوسط القباب الاربع ، فقد غرست بها (الاشجار ومنابت الدوح فلا يرى اهلها الا الغصون الملد وغلائلها الخضر وزهرها الغـــض وثمارها الدانية القطاف قد افترشت مماشى حدائقها الغاب المتحفضة عن الدار وارض القبو الهائل الواصل بين أجزاء الدار بالزليج .. ترقص الفوارات المرمرية بالمياه السلسالة بحيث يرى المنحدر اليها دنيـــا من تحت الارض قد تـــوارت محـــاسنهـــــا) (114) .

أما عن الفرش ومختلف التحف التى احتواها البديع ، فقد (مهدت فيــه فرش الوان الحرير ونظرت فيه المراتب التى لم ينظر مثلها فى بيت وصففت فوقها النمارق . . وتدلت الاستار . .) (115)

وحول البديع توجد حدائق ورياض غناء أهمها : المشتهى (الروض المنظوم بالبديــــع شــــرقـــــا) (116) .

وبستان النهر (الروض الاخذ ما بين لابتى سور القصبة قبلة . . . النهر الذي اخذ أيده الله فى اجرائه الى قصوره الشريفة . . عريض المسلك . . يشق ما بين أدواح هذا الروض المفوف صفوفا بشجر النارنج والاس متدافع السيل . . . حتى ينتهى الى قرابة من القبر المعد له تحت القبة الخضراء بروض المجاز ومركــب السفيــــــن) (117) .

---

112) المناهـــل ، ص 256
113) المناهـل ، ص 257 .
114) المناهـل ، ص 257 .
115) النفحـة المسكيـة ، التامجروتى ، ص 158
116) المناهـل ، ص 257 .
117) المناهـل ، ص 257 .

اما المسرة فهو الروض (المنتظم ببستان النهر) (118) وقد وضع علـــى شكل يثير الدهشة (رايت العجب العجاب . . . وعدد ما اشتملت عليه من اشجار النارنج ستة عشر الفا فاذا كان هذا العدد نارنجا فما بالك بغيره ، وبها صهريـــج عظيم لا نظير له عظما وعليه مبانى مؤنقة) (119) .

وتحيط بالدار الاولى ديار عديدة ، من أهمها تلك التى توجد بشرقى البديع (واذا بلغت الديار التى يفضى اليها من البديع من على يمين الخضراء متصاعدا مع الدرب المالك لابوابها حتى تنتهى الى اقصاها من الجانب الشرقى رايت برنامج المحاسن فى انموذج الكمال . . . فانتظمت دوائرها المتركبة بعضها على بعض فى الهـــواء) (120) ، وقد كانت هذه الديار الشرقية مخصصة لسكنى المنصور وبها نساؤه وأهل بيته (فاصبحت هذه الديار مكملة الاراء متممة المآرب قد ختم عليها التحصين والمنعة وارخى عليها الاحتجاب سدوله بحيث لا يخلص اليها الطيف) (121)

ومن مبانى المنصور فى هذه الناحية (المصريه الشامخة الانف الغريبة الشكل المستوية على عمد المرمر الشامخ فيها بحكم الجص حتى فى الشابيك البديعة . . . ذات الغرف الاثيرة والمجالس الكريمة . . . بالاطلال على بستان النهر الذي تسافر معه العين الى رياض وبساتين الملـــك التى تسرج خلالها القصور المنيفـــــة كالنجوم) (22) و (الديار المنظومة . . . فى حلل الزين اللائذة بالمقيلة الكريمة من قبة النصر التى سمت عليها ذيول عزها وانامتها من خلفها تحت خفارة الســـور الاعظم الطامح الغرف المحيط باقطار الدار) (123) .

واخيرا هناك الحمام الذي امتازت به مبانى قصر البديع بمراكش (حمام هذا القصر العظيم الذي تبوأ مقعد العز وشرف المنزلة الدالة على حسن الاختبار . . . ذو الابواب الاربعة التى يفضى منها الى قصر مولانا . . . ثم الى حمى المقيلة الكريمة قبة التيجان ثم الى باب البديع ثم الى باب القصر . . .) (124)

---

118) المنـــاهـــل . ص 257
119) المقرى : روضـة الاس . ص 25 .
120) المناهـــل . ص 254
121) المناهـــل . ص 254
122) المنـــاهـــل . ص 254
123) المناهـــل . ص 254
124) المناهـــل . ص 254

ولقد امتازت منشآت المولى احمد بمراكش وانفردت بعدة صفات :

1 ـ استعمال الرخام على نطاق واسع جدا (فلقد دارت قوراء الدار الكبرى من قصوره الشريفة خمسمائة عمود مرمرية ماثلة كالجبال الرواسي ضخامة وجفاء وتسموا القباب وبراطيلها على مائة منها . . . ثم يتوزع الاربعمائة الجدار المحيط بأقوار الدار ما بين المثلثات الاشكال والمفردات النابتة تحت السواري الازرية لصق الجدار الى اعمدة ضخمة الاجرام زمردية الالوان . . . واما ما تضمنت الحمامات والمساجد والمجالس والقباب والديار والمصانع فلا يعد ولا يحصى . . من بيضائها وصفرائها وخضرائها . . رافلة من ذلك في محاسن تكل العين عنهـا) (125) .

2 ـ مد انابيب المياه الباردة والحارة الى جميع منشآت القصر (وتمتاز المياه الدافقة بالبارد والسخنمنالحمام المنتظم ببنيتها شرقا ذيالبركةالعظيمة المفروغة للوقود من تحتها . . . تنتابها القواديس الفاغرة الافواه اليها من كل جانب فتملأ حواصلها وتسافر بها لهذه الديار وقد اخذت الاهبة لمصبها في النقر المرمرية بكل دار من انبوبين ينبجس احدهما بالبارد والاخر بالسخن . مندين بلوالب تنجذب عند الفتل طوع اليـد) (120) .

3 ـ انها كانت عالما خاصا بها لعظمة مبانيها واتساع رقعتها وتعدد منشآتهـا (فأصبح البديع السعيد من هذه الاثار الفخمة نسيج وحده في مصانـع الارض) (127) .

وعن هندسة قصر البديع وزخرفته ، فبالاعتماد على أوصاف المعاصرين ، ذو اصل عربي اندلسي ، لم يفرق في مخططه العام عن قصور الاندلس الشهيـرة كالحمراء بغرناطة مما يؤكد التاثير القوي الذي كان للمهاجرين الاندلسيين في المغرب، مع تاثيرات اوربية وايطالية بوجه خاص ، وذلك لوجود العدد الكبير من الفنيين المهرة في فن البناء ، الذين جلبهم المنصور من فلورانسا (فقد حشد له الصناع وارباب الحكمة من كل ارض حتى من بلاد الافرنجة) (128) وتأثيرات أخرى غير

---

125) المناهـل . ص 254 .
126) المناهـل . ص 254 .
127) المناهـل . ص 255
128) المناهـل . ص 254 .

ذلك . والملاحظ فى هذا المجال هو أن المولى احمد المنصور كثيرا ما كان يتبادل الاراء مع كبار المهندسين والبنائين حول تصاميم البناء وطرق العمل (أحضر عرفاء المبانى فاقترحها لهم واخذ ايده الله يرشدهم بحاسة الوصف الى اشكالها التى تصورها فلم يكونوا ليهتدوا حتى تولى لهم رسمها ببنانه الكريم فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ... ثم قاموا بتشييدها وفق الاقتراح الكريم) (129) .

ولو قدر لقصر البديع أن يعمر طويلا لكان من اعظم المآثر العمرانية فـــى تاريخ المغـــرب الحديث (130) .

وبالنسبة لبقية المظاهر العمرانية فى هذا العهد نلاحظ بأن الامراء وكبـــار القوم واغنياءهم قد قلدوا المنصور فاشادوا الدور الجميلة الشاهقة البنيان والمزينة بالشبابيك الزجاجية ، وذات الزخرف البديع بأنواع القاشانى والجبص والزليج . وقد كانت هذه الدور فى معظمها تتكون من دورين علوي وسفلى وباحة واسعة فى الوسط مع رياض عناء خاص ملحق بها (131) .

وقد انعكست آثار النعمة والرفاهية على مختلف نواحى الحياة اليومية فى الملبس والمشرب والمأكل حيث كانت الطبقة الموسرة تلبس الفاخر من الثياب الانجليزية ذات اللون الازرق الغامق (Bernatha) والازرق الفاتح (Bria)

وتصنع منها البرنس (السلهام) والجلابة للرجال و (القفطان) للنساء (132) وقد اوجد المنصور اللباس المعروف (بالمنصورية) حتى اليوم : (وهو لباس من ملف لم يكن مستعملا قبله وهو اول من اخترعه واضيف اليه فقيل : المنصورية) (133) .

وبرزت تطورات المجتمع ايضا فى اقامة الحدائق العامة وفى الخروج الـــى المنتزهات طلبا للراحة . ولم يخف الرحالة الاجانب المعاصرون اعجابهم بمظاهر التطور العمرانى فى المغرب زمن المنصور ، التى برزت بصفة خاصة فى بعـــض كبريات المدن المغربية ، مما حدا ببعضهم الى تشبيه فاس بغرناطة ومراكش

---

129) المناهـــل . ص 253 .

130) يعد قصر الايسكوريال (Escorial) باسبانيا من القصور المعاصرة للبديع اذ بناه فيليب الثانى كما بنت ايليزابيت بانجلترا قصرها التاريخى . Hardwicke Hall

131) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 257

132) المصـــدر السابـــق .

133) الافرانى : نزهة الحادى . ص 128 .

باشبيلية ، وفاس ومراكش في مصاف العواصم الكبرى في العالم الاسلامي مثــل اصطامبول ودمشق والقاهــرة . . . (134) .

وقد شملت ظاهرة التطور العمراني مناطق واسعة في البادية المغربية بفعل توزيع الاراضى على القبائل والزامها بزراعة الارض والاقامة حولها واقامــــة المراكز والمحطات التجارية ومعامل السكر ومصانعه ، اذ ظهرت تجمعات بشريــة ومراكز عمرانية بشكل قرى زراعية وتجارية وصناعية ، واخذت ظاهرة البيــوت الحجرية تعم هذه النواحي دليلا على الامن والاستقرار واتساع العمران .

وهكذا ازدهرت الحياة بوجه عام في البوادي والمدن وتحسنت احوال الناس على مختلف اوضاعهم وازداد عددهم الديموغرافي ، حيث اوصل عدد الاجانــب سكان كل من فاس ومراكش الى المليون نسمة فلا عجب والحال كما ذكرنا اذا ما وصف الوزير الفشتالي دولة المنصور بأنها الدولة التي (اثرت العديم واكسبــت المحـــــــــــروم) (135) .

ومن منشآت المنصور العمرانية ايضا المسجد العظيم بحارة ياسر بمراكش والقبة العظيمة بصحن جامع القرويين والخزانة العليا به (بعث الخصة العظيمة لجامع القرويين مع كرسي من المرمر توضع عليه وزنهما مائة قنطار وهذه الخصة هي التي تحت منار الجامع المذكور) (136) . ثم الحصون العديدة بفاس وتــازة والعرائش والقناطر على تانسيفت وأم الربيع ووادي فاس . واخيرا هناك مقبرة السعديين بمراكش وقد جاءت آية في الفن المعماري مما لا يزال دليلا قويا علــى مدى الروعة في الزخرف والتأنق في عصر المنصور الذهبي .

---

134) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 357

135) الفشتالي : المناهل . ص 178 .

136) الافراني : نزهة الحادي . ص 144 .

الفصل التاسع عشر

الحياة الثقافية

ازدهرت الناحية الفكرية بوجه خاص زمن المولى احمد المنصور ازدهارا عظيما تجلى فى تزايد معاهد العلم والدراسة ، وفى كثرة العلماء وطلبة العلم وتعدد مجالات اختصاصاتهم .

واذا كانت الثقافة العربية الاسلامية فى المغرب قد حافظت على اسسها ومعالمها ، فانها نظرا للتغييرات التى شملت مختلف نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، قد أخذت تعرف نوعا من التطور ، مما يتلاءم والوضعية الجديدة التى كان المنصور يعمل لها ويهدف الى تحقيقها اي نهضة البلاد فى جميع مظاهرها لتساير ركب الدول الحديثة المعاصرة .

فطالب العلم يلقن اولا مباديء القراءة والكتابة ثم يشرع فى حفظ كتاب الله العظيم ، وبعد آن ، يأخذ فى دراسة مختصر خليل ، الرسالة ، مقدمة بن آجرم ، الفية بن مالك ، لامية الافعال ، علم الحساب علم العربية ، الالفية ، اصول الدين ، كبرى السنوسى ، حاشية الصغرى ، حاشية الكبرى ، شرح بن زكرياء الكبير والصغير ، ايساغوجى والشمسية فى المنطق ، علم العروض ، تلخيص المفتاح والايضاح ، الكتب الخمس ، الحديث والفقه المالكى . . . (1) (وانفقت فى صحبتهم من العمر الطارف والتلاد وقطفت ازهار دروسهم وجنيت من ثمار غروسهم ما راق السمع والبصر والفؤاد ولقطت من درر علومهم ولآلىء حكمهم ما انجد الحقائب واثقل الاكتاد وسمعت من مروياتهم وطالعت من مستنداتهم ما لا يقال الا بافلاذ الكباد وكنت معهم فى وقت الطاب ارى واسمع واتانق واجمع

---

1) مناهل الصفا . الفشتالى . ص 265 .

ووجه التهانى يشرق ويلمع حتى انظم الجزع ثاقبه وابصر الجمل طالبه وتفتح للرغب بابه وتنفجر على الطالبين عبابه) (2) .

وبعد الدراسة والتحصيل تسلم لطالب العلم اجازة خاصة (وقرات عليه اوائل الكتب الخمس بل البخاري والترمذي ومسلم واجازنى فيها وفى باقى الكتب الخمس بسند متصل مذكور فى فهرسته التى كتب برسمى واجازنى فيها بكل ما له من مقرو ومسموع) (3) .

ونص الاجازة كما جاء فى بعض الوثائق المعاصرة (الحمد لله وحده والصلاة على من لا نبى بعده ، وبعد فقد أجزت لك أن تروي عنى جميع ما يجوز لى متلفظا بها بشرطه المعتبر عند أهلها وكتبه محمد بن احمد بابا بن أحمد . . . بـاذن والـده) (4) .

ولاخذ صورة واضحة عن الدراسة والجو العلمى فى بعض كبريات المدن المغربية زمن المولى احمد المنصور ، نرجع الى ما دونه ابراهيم الجلالى فى مخطوطه القيم عن فاس ومعاهدها العلمية الكبرى ، وهو معاصر لهذه الفترة :

1 — فيما يتعلق بأهم مراكز العلم بفاس ، هناك :

جامع القرويين (من جامع القرويين شرفها الله بدوام ذكره) (5) .

جامع الاندلس (كان رحمه الله . . . يقراه بجامع الاندلس) (6) .

مدرسة العطارين (وكان بيده كرسى المرادي بمدرسة العطارين) (7) .

المدرسة المصباحية (وكان يقريء تهذيب البارdعى للمدونة بقبة المدرسة المصباحية) (8) .

مدرسة الحلفاوين (ثم يسير الى مدرسة الحلفاوين يقريء مدونة أخرى) (9)

---

2) الفوائد الجمة : للتامنارتى . ص 95 .
3) المناهل . ص 266 .
4) الفوائد الجمة : التامنارتى . ص 45 .
5) تنبيه الولدان : ابراهيم الجلالى . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 571 . ص 16
6) نفس المصدر . ص 17
7) نفس المصدر . ص 18
8) نفس المصدر . ص 18
9) نفس المصدر . ص 22

وقد كان لكل جامع ناظر يشرف على شؤونه (اتى ناظر القرويين . . .) (10)
وامام يؤم الناس فى اوقات الصلاة (وكانت بيده امامة مدرسة العطارين) (11) .

2 ــ كراسى العلم والتدريس والاساتذة القائمون بها واوقات دراساتهم :

فاعتمادا على المخطوط المذكور ، كان بجوامع فاس خمسة عشر كرسيا للتدريس ، يسهر على القيام بكل كرسى منها عالم من العلماء الاجلاء ، تعددت اختصاصاتهم ، ولكل منهم زمن معين واوقات خاصة يحاضر خلالها :

1 ــ (من جملتهم رئيس المحقيقين فى وقته . . . ابو العباس سيدي احمد بن على المنجور . . قرا رحمه الله احباسه شتوة ذلك العام . . وكان رحمه الله يقرا التفسير على الكرسى الكاين عن يسار الداخل من البآب المقابل لباب القرافين من جامع القرويين) (12) .

2 ــ (. . . .وكان رحمه الله يقرا صبيحة يوم الخميس ويوم الجمعة قصيد ابن زكري فى التوحيد على الكرسى عن يمين الطالع للمستودع الكاين من باب الحفا لجامع القرويين) (13) .

3 ــ (وكان بين المغرب والعشاء يقريء صحيح مسلم على الكرسى القريب من باب الكتبيين من الجامع المذكور) (14) .

4 ــ (وكان له كرسى يقرا عليه بعد صلاة الظهر اسفل السبع الكاين عن يسار الداخل من مسجد الجنايز للجامع المذكور) (15) .

5 ــ (وكنت فى ذلك اليوم ملازما لمجلس شيخنا سيدي محمد الشريف . . . التلمسانى فى رسالة الشيخ بالكرسى الكاين بظهر الخصة من الجامع بعد صلاة الصبح كل يوم) (16) .

---

10) نفس المصدر . ص 20
11) نفس المصدر . ص 18
12) المصدر السابق ص 18
13) المصدر السابق ص 18
14) المصدر السابق . ص 18
15) تنبيه الولدان . لابراهيم الجلالى . مخطوط ص. 16
16) المصدر السابق ص 16

6 — (وكان شيخنا سيدي يحيى السراج حينئذ يقرأ التفسير على الكرسي الكائن عن يمين الداخل من باب عقبة السبطريين للقرويين . . .) صباحا) (17) .

7 — (تولى سيدي ابو القاسم بن سودة الكرسي الكائن عن يمين الداخل من باب مسجد الجناير بعد صلاة الظهر كان يقرأ مختصر ابن الحاجب وصغرى الشيخ السنوسي) (18) .

8 — (وتولى ابو النعيم الكرسي الكاين عن يمين الطالع للمستودع الكائن عن يمين الداخل لباب الحفا من القرويين وكان يقرأ عليه بين المغرب والعشاء صغرى الشيخ وبعض الرسالة ، وبعد صلاة الخميس والجمعة قصيدة ابن زكري رحمه الله) (19) .

9 — (كان الشيخ سيدي عبد الواحد الحميدي يقرأ التفسير على الكرسي المستند لظهر الجامع عن يمين الخارج من الباب المقابل لدرب ابن حيون بانحراف) (20) .

10 — (ومن جملة من ادركته حيا الفقيه الحافظ . . . سيدي أحمد بن على الزموري رحمه الله كان رحمه الله . . . له تفسير يقرأه بجامع الاندلس عدوة الصباح عن يمين الداخل من الباب المقابلة لمدرسة الوادي وعن يسار الداخل من الباب المقابلة للمدرسة الصغرى هنالك) (21) .

11 — (وكان له فى القرويين كرسي السير خلف ظهر الصومعة) (22) .

12 — (وكان بيده كرسي المرادي بمدرسة العطارين بعد صلاة العصر) (23) .

13 — (ومن جملة من ادركته حيا وقرات عليه . . العالم العلامة . . ابو محمد سيدي عبد الواحد بن أحمد . . . كان رحمه الله فى فصل الشتاء يقرا

---

17) المصدر السابق ص 16
18) المصدر السابق ص 17
19) المصدر السابق ص 17
20) المصدر السابق ص 17
21) المصدر السابق ص 17
22) المصدر السابق . ص 18
23) المصدر السابق . ص 18

التفسير على الكرسى الكائن عن يمين الخارج من الباب المقابلة لوجه الخارج بانحراف يسير لدرب ابن حيون) (24) .

14 — (ومن جملة من ادركته حيا من شيوخ فاس مفتى بلاد المغرب فى حينه . . . ابو زكرياء . . . وكان رحمه الله يقرأ التفسير لما مات سيدي احمد المنجور انتقل لكرسيــه) (25) .

15 — (وكان رحمه الله فى فصل الشتاء . . . يمشى لمدرسة العطارين يقريء هنالــك المدونة على الكرسى المقابل وجه الداخل لقبتها) (26) .

ومن الملاحظ ، هو انه كانت من بين هذه الكراسى العلمية ، كراسى محبس عليها ، ويقوم الساهرون عليها بتدريس موضوعات خاصة وفق رغبات المحبسين ، ومنهـــــــا :

1 — (قرأ رحمه الله احباسة شتوة ذلك العــام) (27) .

2 — (وكانت قراءته للتفسير المذكور بتفسير الامام الفخر لكون الحبس عليه كــذلــــــك) (28) .

3 — (ثم يسير الى مدرسة الحلفاويين يقريء هنالك مدونة أخرى لــه عليهــا حبـــــــــس) (29) .

3 — وهناك حلقات علم ودراسة لا كراسى خاصة بها ، منها :

1 — (وكان الشيخ اذا فرغ من الرسالة ينزل للارض يقرأ صغرى الشيـــخ السنوســى من الطلبة من ينصرف ومنهم من يجلس) (30) .

2 — (ومن جملة من ادركته حيا الفقيه الحافظ . . . سيدي يعقوب البدري رحمه

---

24) تنبيه الولدان . ص 18
25) المصـــدر السابــق . ص 21
26) المصـــدر السابق . ص 21 .
27) المصـــدر السابــق . ص 15
28) المصدر الســابق . ص 17
29) المصـــدر السابــق . ص 22
30) المصـــدرالسابــق . ص 16

اللـــه . . . يخرجه اصحابه لاقراء الرسـالة بين النداء بأول الظهر وصلاتها عند باب مسـجد الجنايـــز . . . وجلوسه على الارض) (31) .

3 ـــ (وكان رحمه الله يقريء مختصر الشـيخ مع جماعة من الطلبة يجلس بالارض عن يمين الداخل من باب الشماعين للقرويين بالموضـع المنسفل هنالك من نداء اول الظهـــر الى الصلاة) (32) .

4 ـــ (كان رحمه الله يقرأ مختصر ابن الحاجب الفرعى زمان المصيف بالارض بموضـع كرســــى تفسيره) (33) .

5 ـــ (وكان رحمه الله يقرأ بعد تفريق مجلس تفسيره مختصر الشـيخ قرب باب المقصورة مسندا ظهره الى حائط القبلة من ناحية الخزانة) (34) .

4 ـــ أمـــا حلقات العلم وكيف يتم التدريس بهـــا :

فالعالم الاستاذ يجلس على الكرسى او فوق بساط فى الارض مسـندا ظهره الى حائط او سارية ، وحوله الطلبة مجتمعون على شـكل دائره ، حيث يقوم احد الطلبة البارزين بالسـرد ثم يشـرع العالم الشـيخ فى الشـرح والتفسير (وكان قاريء مجلسـه فى المدونة والمختصر . . . عبد الرحمن بن احمد بن عثمان المكناسى) (35) .

ولحلقة العلم احترام وآداب يراعيها الطلبة كثيرا : فعليهم ان ينتبهوا الـــى العالم المحدث وان يدونوا اقواله ، ويمنع عليهم الكلام أثناء التدريس اذ ان مجرد اللغو قد يعرضـهم الى غضب الاستاذ وسخطه (وكان كثير الصياح على من تكلم فى مجلسـه) (36) . ويستحسن عدم الاسئلة الا بعد أن يأذن لهم الاستاذ بذلـك (ومن جملة ما وقع له مع الشـيخ . . . انه اراد سؤال الشـيخ المذكور وهو فى أثناء تقريره وتعبيره فأشـار له الشـيخ بيده اليمن ان اصبر فسكت حتى فرغ الشيخ من مراده فبحثه عن سـؤاله) (37) . وللطلبة كامل الحرية فى مناقشـة اساتذتهم بعد

---

31) المصـــدرالسابـــق . ص 17
32) المصـــدر السابـــق . ص 18
33) تنبيه الولدان . ص 20
34) تنبيـــه الولـــدان . ص 21
35) تنبيـــه الولـــدان . ص 19
36) تنبيـــه الـــوالدان . ص 21
37) تنبيـــه الوالـــدان . ص 16

الانتهاء من الدرس (وكان كثير البحث مع الشيخ . . . حتى يقع ملل الطلبة مـــن ذلـــــــك) (38) .

ويبدو أن العادة قد جرت بأن يكون الاستاذ العالم المحاضر حسن الهندام وان يلبس الجلابة والبرنس والعمامة وان يجلس متربعا فوق الكرسى أثناء التدريس (وكانت صفة جلوسه على الكرسى مخالفة لجلوس غيره من الفقهاء وذلك انه كان يجلس على محل الجلوس منه ويضع رجلاه على درجة الكرسى كجلوس الامام على المنبر ولا ادري هل تلك عادة أو أن ذلك لضرر به وكان الطرف المحنك به من عمامته الكائن تحت ذقنه يقربه من فمه) (39) .

وهذه الحلقات العلمية لم تكن وقفا على الطلبة ، بل كان يحضرها عامة الناس أيضا ، وقد كانت نسبة الحاضرين من الطلبة والعامة تختلف باختلاف موضوعات التدريس وحسب مقدرة المحاضر وفصاحته (وكان رحمه الله فقيها مطلقا بارعا أديبا . . . حاز درجة السبق فى العلم والرياسة ذا وجاهة عند الخاصة والعامة) أو ضعف صوته وكبر سنه (وكان رحمه الله لا يجلس لسماع مجلسه فى ذلـك الا القليل من الطلبة والعامة وكان ضعف صوته ومن عادته الاشتغال بتحقيق النقل وتدقيق معانيه وتنقيحه ونفوس العامة تنافر من ذلـك) (41) .

وفى الحلقات التى يتم خلالها ختم تفسير كتاب الله عز وجل يحضر المـلأ العظيم من الطلبة وجمهور الناس واحيانا بعض أكابر القوم وعليتهم (وبه خرجت ختمة تفسير رحمه الله حضر خروجها الخاص والعام) (42) .

وتعظيما من المولى احمد المنصور للعلم ورجاله وطلبته ، فقد كان يحضـــر مجالس الدراسة بالقرويين عند حضوره الى فاس ويكرم القائمين على ذلك (ولما تدم مولانا احمد رحمه الله من مراكش عام الثلجة (اي عام 1589) قدم معه جماعة من طلبة مراكش . . . وكان يحضر المجلس المذكور مع فقهاء اهل فاس) (43) .

---

38) تنبيـــه الوالـــدان . ص 16
39) تنبيـــه الولـــدان . ص 16
40) تنبيـــه الولـــدان . ص 18
41) تنبيـــه الولـــدان . ص 15
42) تنبيـــه الولـــدان . ص 21
43) تنبيـــه الـــولـــدان . ص 20

ولم يقتصر عمل العلماء المحاضرين على التدريس بجامع معين ، بل ان بعضهم كان يدرس فى جوامع عديدة بفاس (وكان من عادته رحمه الله فى فصل الشتاء اذا فرغ من اقراء المختصر حيث ذكر يمشى لمدرسة العطارين يقريء هنالك المدونة على الكرسى المقابل وجه الداخل لعتبتها فاذا فرغ يرجع الى المقصورة ثم يسير الى مدرسة الحلفاويين يقريء هنالك مدونة اخرى له عليها حبس) (44) كما كان البعض الاخر يقوم الى جانب التدريس بالافتاء (وبعد نزوله عن الكرسى المذكور صباحا ينصرف الى السارية القريبة لمقصورة فتياه فيجلس هناك مستدبر الحائط القبلة) (45) او بمهمة الخطابة (تولـــى الخطابة فى الاعياد بمولانـــا السلطان) (46) ، وامامة الناس فى اوقات الصلاة (وكانت بيده امامة مدرســة العطارين) (47) ، كما كان البعض الاخر يكلف بحضور ايام الديوان (وغالب امره انه كان لا يقرا يوم الاربعاء من اجل حضوره ديوان السلطان وكان فى بعض الاوقات يقوم لديوان السلطان يوم الاثنين او يوم الاربعاء فى زمن الربيع للدار البيضاء ويرجع من وقته الى باب المدرسة ينزل عن فرسه ويبعثها ويدخل الـى الاقـــراء) (48) .

وقد كان لهؤلاء العلماء الافاضل بالقرويين مثلا مكان خاص للاجتمـــاع والتذاكر فيما بينهم (وكانت عادة جلوسه فى غير الاقراء داخل باب الصغـــر الخارجة لعتبة السبطريين كان يجتمع هناك مع أصحابه) (49) .

وعندما تحصل وفاة احد كبار العلماء من أصحاب الكراسى ، فان النابهين من طلبتهم هم الذين يخلفون اساتذتهم (كان رحمه الله يقرا التفسير كما قدمنا لما مات سيدي احمد المنجور انتقل لكرسيه) (50) او ان العالم الشيخ عندمـا يشعر بالضعف والاعياء لكبر سنه او مرضه يختار من بين طلبته من يخلفه فى مهام التدريس (وكان له فى التدريس كرسى السير خلف ظهر الصومعة فولاه لتلميذه شيخنا وبركتنا سيدي على بن عبد الرحمن بن عمران السلاسى) (51) .

---

44) تنبيـه الولـدان . ص 22
45) تنبيـه الولـدان . ص 16
46) تنبيـه الولـدان . ص 22
47) تنبيـه الـولـدان . ص 18
48) تنبيـه الولـدان . ص 20
49) تنبيـه الولـدان . ص 16
50) تنبيـه الولـدان . ص 21
51) تنبيـهالولـدان . ص 18

وقد كان العلماء الاجلاء يحظون باحترام كبير لدى الطلبة اذ من جهتهم يقدرون الطلبة ويسعون الى تعليمهم وتثقيفهم (وكان رحمه الله حريصا على محبة الطلبة ونفعهم بعلمه ودنياه) (52) بل ويعطفون على ذوي الحاجات منهم (وكان الشيخ . . . حريصا على محبة الطلبة مشفقا عليهم ويشتري في أول فصل الشتاء عـدة عديدة من الحياك ويفرقهم على الطلبة بقبة المدرسة وغيرها) (53) .

وبالمقابل فقد كان الطلبة يكنون كل الاحترام لاساتذتهم ، وكانت عامة الناس تشاطر الطلبة هذا التعظيم والتبجيل (وكان رحمه الله . . . ذا وجاهة عند الخاصة والعامـة) (54) . وأكثر ما يتجلى هذا التجاوب عندما يمرض العالم او يتوفاه الله اليه (وكان يوما عظيما خلت الديار من النساء والاولاد فضلا عن الرجال لحضور جنازتـه حتى كاد الناس أن يقتتلوا ازدحاما) (55)

ومن مظاهر احترام الطلبة ايضا الاستجابة لمطالب اساتذتهم والحرص دوما على رضاهم (ولما وصلت حاشية الامام اللقانى على لحادي ابن هشام الـى مدينـة فاس وكانت عزيزة الوجود كلفنى رحمه الله نسخها له فكتبتها له ويوم اكملتها أتيته بها ففرح بذلك وقال لى رحمه الله ان الكاتب اذا كتب ولم يقابـل كان كالشـهد اذا شـهد ولم يؤد ، فكلفنى مقابلتها معه فقابلتها معه وهو آخذ بالاصل في داره بالمعـادي) (56) .

اما الوافدون على فاس ، فقد كانوا يقيمون في أحياء خاصة او في بعض المدارس المهيأة لاقامتهم ، واعتمادا على مخطوط ابراهيم الجيلالى فـان من بـين تلك المدارس ، هنـاك :

— المدرسة المصباحية (واستوطنت معه بيتا في المدرسة المصباحية) (57) .

— مدرسة الحلفاوين (وكان ماواه حينئذ بمدرسة الحلفاوين . . . وكلهم كان ماواهم بالمدرسة المذكورة مع جماعة غيرهم ممن لا معرفة لنا به اذاك) (58)

---

52) تنبيـه الولـدان ، ص 19
53) تنبيـه الولـدان ص ، 20
54) تنبيـه الـولـدان ، ص 18
55) تنبيـه الولـدان ، ص 21
56) تنبيـه الولـدان ، ص 18
57) تنبيـه الولـدان ، ص 15
58) تنبيـه الولـدان ، ص 16

— زاوية الشيخ سيدي يوسف الفاسى (. . . كان ساكنا بمدرسة الحلفاويين قبل انتقاله منها الى زاوية الشيخ سيدي يوسف الفاسى بالمخفية) (59) .

— مدرسة العطارين (وكان ايضا من الملازمين للمجلس المذكور . . . المستوطن بمدرسة العطارين) (60) .

اما فى العاصمة مراكش فان كبريات مساجدها قد شهدت نشاطا علميا واسعا مثل جامع الشرفاء الذي كان يدرس به ابو العباس احمد بابا السودانى (لما تصدر للقراء بجامع الشرفاء بمراكش ورد مجلسه لسماع الحديث واخذ الرواية عنه اكابر فضلاء مراكش وصدور العلماء) (61) . وقد غدت عاصمة المنصور السياسية بفضل حركتها العلمية (منبع العلم فى الديار المغربية . . . معمورة بالعلم مأهولة . . . وسوقا للمعارف نافذة) (62) .

ومما امتازت به مراكش ايضا فى المجال الثقافى حلقات الدرس التى كانت تعقد خلال شهر رمضان المعظم (ومنها قيام رمضان واحياء لياليه المباركة . . . ينتقى لذلك مشيخة القراء والاساتيذ المبرزين فى السبع وحسن الاداء والتلاوة ويستنفرهم لشهود رمضان معه . . . ثم يبرز صباح كل يوم من ايامه لسماع الحديث الكريم ايضا وسرد الجامع الصحيح للبخاري بين يديه يعقد لذلك مجلسا حافلا من اهل العلم ومشيخته برسم المذاكرة والتفهم فى اسرار الاحاديث النبوية ويحضر لذلك من كتب الفن بقصد الرجوع اليها فيما اشكل) (63) .

ومما اشتهر به المولى احمد تشجيعه العلم والعلماء وطلبة العلم : فالعلماء يؤثرهم المنصور (بالمواكلة معه فى مائدته متى عن حضور بعضهم . . . ويتاحفهم بهداياه . . . وكل ذلك اجلالا للعلم ومحبة فى اهل الخير وتوددا لاهل الدين) (64) .

واما طلبة العلم فيشجعهم على الاقبال على العلم داخل المغرب وخارجه ، بتقديم المساعدات المختلفة (وتضعيف الجرايات لهم وايثار المجتهد ذوي الفهم منهم بمزيد العناية والاقبال) (65) وبتوجيهم الى الشرق الاسلامى ومصر خاصة

---

59) تنبيه الولدان . ص 19
60) تنبيه الولدان . ص 16
61) الفوائد الجمة فى اسناد علوم الامة . التامنارتى . مخطوط . ص 45
62) ذيل الابتهاج . احمد بابا السودانى . مخطوط . ص 3
63) المناهل ، الفشتالى . ص 213 .
64) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 225
65) المصدر السابق .

طلبا للعلم (ووجهنا اليكم . . الفقيـــه . . القادم على تلكم البلاد بنية طلب العلم ولقاء مشيخته ورواته وجلب الذخائر الثمينة من مصنفاته) (66) .

وقد أخذت سياسة تشجيع العلم والعلماء والطلبة تؤتى أكلها (اذ تنافس الناس لهذا العهد الكريم من اجل ذلك فى اقتناء العلم والاحتراف بصناعتـــــه الشريفة لاعتزاز اهله وسعة ارزاقهم حتى كثر حاملوه واستبحر جهابذته فتعددت المشايخ وكثر التلميذ ونبغ التاليف فى التصنيف) (67) . وفى روضة الآس لاحمد المقري وهو معاصر عاش فترة من الوقت فى فاس ومراكش زمن المنصور ، نجد تراجم لاربعة وثلاثين عالما مغربيا نبغوا فى علوم الدين والحديث واللغة وفى ميادين الطب والهندسة والحساب والتنجيم وباقى فنون الاداب والمعرفة (68) .

ومن مظاهر تشجيع المنصور للعلم ، حثه العلماء على التاليف فى شتى أنواع المعرفة (وشحد امير المؤمنين ايده الله الهمم واغرى بكل فن اهله وجذب بضبع كل فهامة فتنافس الناس ونبغ التاليف فى ايامه السعيدة) (69) . وقد كان المولى أحمد من الذين ألفوا تآليف عديدة (تسامت همته الشريفة ايـــده الله الى تدوين كتاب فى علم السياسة . . . وسمى ايده الله هذا التاليف الشريف بكتاب المعارف فى كل ما تحتاج اليه الخلائف) (70) .

وقد دل هذا التاليف على مدى النزعة العلمية التى كان يتمتع بها المنصور ومدى تجاوبه مع واقع بلاده وظروف عصره .

وهكـــذا كان لحـــرص المنصـــور علـــى :

1 — تنظيم دولته والسهر على شؤون ادارتها وجميع مرافقها اثـــر كبيـــــر فى القيام بأبحاث ادارية هامة (انه ايده الله رءا كل من تعرض الى التدويـــــن فى هذا الفن قصاراه الوقوف عند السياسة العلمية · الراجعة الى المصطلح فى الوزير والنديم المشير وتنمية الخراج والعدل فى الرغبة وسيره الملكة فى

---

66) رسائل سعدية ، ص 33

67) المناهـــل ، ص 225

68) المقرى : روضة الاس العاطرة فيمن لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس .

69) المناهـــل ، ص 216

70) المناهـــل ، ص 238 .

المركب والملبس ونحو ذلك . . . وكل اكتفى بالقول واضرب صفحا عـــن العمل . . فأرى ذلك مولانا . . أن يجمع بين الفائدتين) (71)

2 ـــ وللرغبة فى تجهيز وسائل الدفاع الكفيلة برد اي خطر خارجى عن بـــلاده قام بأبحاث تتعلق باقامة الحصون والقواعد العسكرية ومختلف وسائـــــل التحصين و (حياطة البلاد لما يفيد من المعرفة التامة بتحصين الحصـــون واختطـــاطهـــــــــــا) (72) .

3 ـــ ومن اجل تعبئة القوات المحاربة وتدريبها على انواع القتال بما فى ذلـــك المدافع واسلحة النار حرص على التأليف فى ذلك (وتعبئة الحروب ومكائدها وآلاتها وخدعها وانواعها والحصار وآلاته والرمى وادواته ومعرفة انواع مدافع القذف والرجم واسمائها والقابها وكيفية عملها طولا وقصرا وخفاء وتفريغ ذلك ممن يقتضيه غرض الرمى الى البعد اي القرب او الى السماء او الى الارض والى الاستقامة والى الانحراف . . . والتى يرمى بها شواظ النار وتعداد انواعها وقسمتها الى الحجرية والمعدنية وغير ذلك مما تقتضيه السياسة العلمية والعملية حتى فى اقامة الحدود) (73) .

وقد جاء فى مطلع الكتاب قول المنصور : (نحمدك اللهم على ما اثلت من رياسة وعلمت من سياسة ووهبت من ملك ونظمت من سلك . . . وبعد فبنا حاجة الى تكميل نفوسنا فى قواهـــا البشرية باستعمالهـــا فى حقائق المعلومـــــات العمليـــــــــــة . . .) (74) .

وتجلت عقلية المنصور التنظيمية فى الميدان المعماري ووضع تصاميم البناء (احضر عرفاء المبانى فاقترحها لهم واخذ ايده الله يرشدهم . . . ثم تولـــى رسمها لهم ببنانه الكريم فى قرطاس فلمسوه بأيديهم) (75) . كما ظهر بنوغه فى اشكال الحروف التى اخترعها (كشيفرة) خاصة للتراسل مع ولاته وسفرائه واكابـــر دولته (اخترع اشكالا من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الاطلاع عليه من اسراره ومهمات اموره واخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير

---

71) المصـــدر السابـــق .
72) المصـــدر السابـــق .
73) المصـــدر السابـــق .
74) المناهـــل . ص 302 .
75) المنـــاهـــل . ص 258

بذلك الكتاب ملمعا مستغلقا فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه الى فتح شيء من معانى الكتاب ولا الوصول الى فهم سر من اسراره) (76) . وقد كانت (الشيفرة) عبارة عن (اشكال على ترتيب ابجدي) كما اكدت وثيقة معاصرة ذلك .

ومن جهة اخرى فقد بذل المولى احمد جهودا متواصلة مع ملك اسبانيا لنقل التراث الاسلامى بالاندلس الى المغرب (77) كما قام باحياء المخطوطات العلمية بأن أمر بنسخها (ومات الشيخ رحمه الله وتركه منتبذا فى مسودته بين أوراق خزانته ولم يبرزه للناس فتلا فى مولانا الامام . . امره وبحث عنه . . فتوجهت اليه العناية الكريمة فانتظم جمعه . . من لفيف الاهمال وانقاذه من لهوات التلف) (78) فنشطت لذلك صناعة النسخ وحرفة الكتابة .

وهناك ظواهر اخرى برزت فى الناحية الثقافية خلال حكم المنصور ، تستوقف بعض التوقف ، وهى : اهتمام المولى احمد بتعريب العلوم ، وبالاختراعات العلمية التى ظهرت فى بعض دول أوربا الغربية الناهضة :

أولا — ففيما يتعلق بحركة التعريب التى ظهرت زمن المنصور :

نشير الى أن عوامل هامة قد ساعدت على ظهورها وتطورها ، فبالاضافة الى رغبة المنصور العالم والاديب ، هناك : وجود العدد العظيم من الاندلسيين الذين هاجروا الى المغرب بعد نكبة الاندلس ، والذين كانوا على مستوى عال من الحضارة والثقافة وعلى اطلال واسع على بعض اللغات الاوربية ، ثم الجاليات الاجنبية والاوربية منها بوجه خاص كسفراء وتجار ورحالة واسرى واحتكاكهم بالمغاربة على مختلف المستويات ، مما احدث تأثيرات متبادلة . ونضيف الى ذلك مراكز الاحتلال الاسبانى والبرتغالى المنبثة على طول السواحل المغربية وتعاملها اليومى مع المغاربة ، ووجود العدد الكبير من الاسرى المغاربة فى مختلف مدن اوربا ، واخيرا حرص المنصور على الاستفادة من النهضة العلميه بأوربا الغربية . وما بين أيدينا من مصادر ووثائق يؤكد بأن حركة علمية نشيطة قد ظهرت بالمغرب

---

76) المناهل . ص 258

77) مجلة الاندلس . عدد (23) لعام 1958 . ص 19 .

78) المناهل . ص 303 .

فى هذا العهد ، حيث شجع المنصور تعريب هذه العلوم وحث اصحاب الاختصاص على التأليف فيها . وقد نشط الاندلسيون بصفة خاصة فى هذا المجال وقاموا بترجمة كثير من المؤلفات العلمية الاوربية وتعريبها : فقد عرب ابو القاسم الغساني الشهير بالوزير الاندلسى الفاسى للمنصور (جملة تآليف رفعها الى المقام الاحمدي المنصوري العلوي منها : مغنى اللبيب عن كتب اعداء الحبيب ، ذلك انه قدم على امير المومنين بعض اكابر الروم فأتحفه بهذا الكتاب مكتوب بالقلم الاعجمى فعربه الشيخ ابقاه الله وجعل له خطبة وزاد فيه زيادات واسماه بما ذكر) (79) . وعرب العالم الاندلسى الشهاب احمد الحجري فى هذا العهد كتابا تحت عنوان : (كتاب العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع) (80) تعرض فيه الى اختراع البارود والالات الحربية ، وعدد انواع المدافع النارية والحجرية وطريقة صنع قنابل المدافع .

ثانيا :

وأما حرص المنصور على الاطلاع على المخترعات العلمية بأوربا الغربية والاستفادة منها ، فيؤكده التقرير الذي وجهه التاجر الانجليزي بالمغرب (Thomas Bernher) الى العالم الرياضى المخترع الانجليزي بلندن (Edward Wright) بتاريخ 24 يونيه 1600 م ، ذكر صاحب التقرير اهتمام المنصور بأبحاث علم الفلك وجميع التجاريب التى تجرى لكشف المزيد من اسراره ، واكد لصديقه بأن المولى احمد لن يتوان عد تقديم اي مبلغ من المال مهما عظم فى سبيل الحصول على بعض الاختراعات العلمية وطرق استعمالها ، كما نصحه بأن يعرض على السفير المغربى الموجود بلندن آخر اختراعاته مثل : الآلة الفلكية المعدنية لقياس الاميال ، والادوات المتعلقة بأبحاث الشمس والقمر والكرة والساعة وجميع الخرائط المتعلقة بعلم الفلك وحركات السماء ، وبالاخص طرق استخدام الابرة المغناطيسية من اجل التعرف على الجهات الاربع التى ستلقى اهتماما عظيما من المنصور ، سعيا منه الى استخدامها فى الرحلات التى يقوم بها المغاربة الى الصحراء وبلاد السودان (81) .

---

79) المقرى : روضة الاس . ص 127

80) اللسان العربى : ج 1 . يونيه 1964 . ص 67 .

81) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 532

ثالثا — فى مجال الطب والصيدلية :

كان لانتشار الاوبئة وداء الطاعون بين الآونة والاخرى فى المغرب اكبر الاثر فى ظهور عدد من الابحاث الطبية والصيدلية لاكتشاف عقاقير وأدوية تساعد على مقاومة الداء الخطير ، فمن أشهر الاطباء فى هذا العهد : ابو عبد الله محمد طبيب المنصور الخاص ، وقد (كان من مهرة الفن وآية فى العمل والتجريب) (82) ، والحسن المسفيوي الذي (له قدم راسخ فى علم الطب) (83) .

واهم المؤلفات الطبية (حديقة الانهار فى شرح ماهية العشب والعقار) للوزير الغسانى و (مغنى الطبيب عن كتب اعداء الحبيب) للغسانى أيضا ، ثم (القانون المفيد فى علاج الحصى بقول سديد) لابن مسعود (84) . وقد توصل الاطباء الى تركيب أدوية كان لها بعض المفعول فى العلاج من داء الطاعون (لا تغفلوا عن استعمال الترياق فالزموه واذا استشعرتم منه بسلامة بحرارة وتخوفتموها فاستعملوا الوصف من الوزن المعروف منه) (85) .

وعند التساؤل عن مدى استفادة المغرب فى هذا العصر من مختلف الاختراعات العلمية نجد :

1 — معامل الدولة لعصر قصب السكر (وشان هذه المعاصر شان الخوارق الخارجة عن طوق البشر جفاء وعظمة وتوطيدا وتشييدا ، ما شئت من برك رحيية وجفان كالجوابى وقدور راسيات ولوالب فلسفيات وحركات هندسيات . . . ثم أجرى لاستدارة رحاها العظيمة الاخشاب الجافية الاجرام النهر المعروف . . .) (86) .

2 — معامل الاسلحة ودور صناعة قطع الاسطول ، ولا سيما المدافع والبنادق (وأما ما يفرغ مع الايام من مدافع النار ومكاحلها بدار العدة . . .) (87)

---

82) الفشتالى : المناهل . ص 53
83) المقرى : روضة الاس . ص 172
84) المصدر السابق .
85) الافرانى : نزهة الحادى . ص 156
86) المناهل . ص 209
87) المناهل . ص 210

التى كانت تصنع بمراكش ، والسفن التى كانت تصنع بالرباط (ثم صرف همته أيده الله الى اتخاذ الاسطول برباط سلا . . . فتعددت مراكبه) (88) .

3 ــ وظهرت الاستفادة من الاختراعات العلمية فى وسائل مــد انابيب الماء الى مبانى المنصور بمراكش ، وقد كانت هذه الانابيب على نوعين : حارة وباردة (تمتاز المياه الدافقة بالبارد والسخن من الحمام المنتظم ببنيتها شرقا ذي البركة العظيمة المفروغة للوقود من تحتها . . . تنتابها القواديس الفاغرة الافواه اليها من كل جانب فتملأ حواصلها وتسافر بها لهذه الديار وقد أخذت الاهبة لمصابها فى النقر المرمرية بكل دار) (89) . حيث ينتهى كل انبوب بحنفية خاصة (من انبوبين ينبجس احدهما بالبارد والاخر بالسخن مغدين بلوالب تنجدب عند الفتل طوع اليــد) (90) .

4 ــ كما تجلت الاستفادة ايضا فى الفانوس المتخذ بباب دار الحريم (لقد بلــغ الاحتفال مبالغ الاغياء الى اتخاذ منحوت على شكل الفانوس الكبير مغشى بصفيح النحاس الاصفر الصقيل قد مثل بجدار كل دار منه شكل معتام لمناولة ما يرد من المرافق والمآكل والمشارب على الديار يدور بوجهه عند الداعية من الاماء والخدم القائمات بخدمة سيداتها من أهل الحجاب العالى فيلقين فى جوبه من وراء الجدران . . . ثم يدور بوجهه لداخلها لمنزل فتقــع المناولة من غير انتتراءى الى الاشخاص او تبدو منها للعين قلامة ظفــر اغياء فى الاحتجـــاب) (91) .

5 ــ وهناك الميدان المعماري والاستعانة بالمهندسين المعماريين الاوربيين ، ومن فلورانسا خاصة (حشد له الصناع وارباب الحكمة من كل ارض حتى من بـــلاد الافرنجـــة) (92) .

6 ــ وظهرت الاستفادة من الناحية العلمية خلال هذا العصر ايضا فى استعمال الخاتم لطبع المراسلات (فياخذ عند ذلك أيده الله فى العلامة ان كان اليوم يومها فتارة بيده الكريمة . . . وتارة بالطابع) (93) .

---

88) المناهــل . ص 210
89) المناهــل . ص 210
90) المنـــاهــل . ص 259
91) المناهــل . ص 259
92) المناهــل . ص 254
93) المناهــل . ص 232

وقد كان خاتم المنصور على هذا الشكل (كانت العلامة الكريمة المذهبة التى اختطت فيها يمين الامام . . . اسمه الشريف بتدبيج يبهر العيون حسنا وفخامة ورواء) .

7 ــ وهناك أيضا ميدان طبع النقود الذهبية والفضية والبرونزية (كان ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة تضرب الدينار) (95) .

❋ ❋

ولما كان المولى احمد المنصور قد اشتهر بتشجيع العلم والعلماء فان بلاطه بمراكش قد قصده العديد من رجال العلم والادب فى المغرب والمشرق (قد ارتحلت اليها الشعراء من الاقطار الشاسعة وضربوا الى بابه اكباد الابل) (96) . ووجد الجميع منه كل احترام وتكريم (واما صلاته الجزيلة . . . للشعراء ومن يفد على حضرته العلية . . . فأجل من أن يحصى) (97) .

وهناك عدد من العلماء المشارقة الذين لم تساعدهم الظروف على التوجه الى المغرب ارسلوا اليه مؤلفاتهم العلمية واجازه البعض منهم كتابة (98) .

ومن أشهر هؤلاء العلماء (الذين اجازوه ايده الله كتابة ومراسلة من الشرق الى الغرب الشيخ الامام العالم الصدر الكبير الشهير رئيس ائمة العلم بالديار المصرية وقبلة اهل الارض قاطبة علم الطريقة ومركز دائرة الشريعة والحقيقة حجة الاسلام وعلم الاعلام وقدوة الانام الشيخ الامام الاوحد الغوث الربانى ولى الله أبو عبد الله محمد بن ابى الحسن البكري الصديقى) (99) .

---

94) المناهل . ص 131
95) الافرانى : النزهة . ص 157
96) المناهل . ص 267
97) المناهل . ص 267
98) اعتمادا على الوثائق التى تتوفر عليها والتى يتضمنها الملحق الوثائقى للدولة السعدية فان المنصور قد راسل القاضى ابا على حسن خلال عام 990
وبعث يطلب الاجازة من العالم البكرى فى عام 991 هـ
وقد أجاز العالم البكرى المولى أحمد فى شهر ربيع الاول عام 992 هـ
ثم راسل المنصور المؤرخ مصطفى بن حسن فى عام 992 هـ
وطلب الاجازة من العالم القرافى عام 998 هـ
فأجازه هذا الاخير فى جمادى الاولى عام الف هـ .
وفى العام التالى بعث اليه المنصور يشكره أى عام 1001 هـ
واخيرا راسل المنصور العالم البكرى فى ربيع الاول عام 1005 هـ .
99) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 268

والعالم الكبير (الشيخ الامام نخبة الفضلاء الاعلام تاج الملة علم الائمة فخر العلماء الجلة قاضى القضاة المالكية بالديار المصرية الفقيه الجليل العالم العلم الفاضل الشيخ بدر الدين القرافى) (100) .

وقد اثبت أبو فارس عبد العزيز الفشتالى فى (مناهل الصفا) نص الاجازتين ، وهما من الوثائق التاريخية الهامة التى تضمنها الكتاب والتى تعطى صورة عامة وشاملة للنشاط الثقافى والعلوم الدينية فى مصر خلال النصف الثانى من القرن العاشر الهجري (101) .

والمؤلفات الضخمة والعظيمة التى اشتملت عليها خزانة المولى احمد المنصور خير شاهد على ازدهار العلوم فى هذا العصر (وقد اشتملت الخزانة الكريمة العلية الامامية الشريفة اليوم على عدد جم من تصانيف أهل العصر فى كل فن حتى فى الطب والهندسة) (102) . وأهم التآليف العلمية والدينية التى تضمنتها : مؤلفات العالم ابى عبد الله محمد بن أبى عبد الله الرجراجى الذي جمع بين (تقييدي الامامين البسيلى والسلوي عن شيخهما صدر الائمة . . . ابى عبد الله بن عرفة) (103) ومؤلفات الشيخ (أبى العباس أحمد بن على المنجور على رجز ابن زكرياء فى علم الكلام) (104) ومؤلفات (الشيخ الامام الاوحد الفذ الفريد استاذ المغرب فى وقته فى علوم القراءات وسيبويه زمانه فى العربية والنحو الشيخ ابى العباس احمد القدومى) (105) ، وتآليف (الفاضل العلامة . . . الرحالة الحاج ابى جمعة سعيد بن مسعود الماغوسى التى منها شرح لامية العجم املاه بالبلاد المشرقية ورفعه الى حضرة مولانا الامام ايده الله وقد وسمه باسمه الشريف وعليه تقريظات علماء مصر وفضلائها وبعض علماء الشام) (106) ، ثم ديوان (الشريف الفاضل السري محمد بن أبى الفضل المكى وهو الذي جمع فيه مدائحه فى مولانا الامام) (107) .

ومما تضمنته الخزانة الملكية أيضا (الكشاف فى علم التفسير وحواشيه

---

100) المناهل . ص 272
101) المناهل . ص 269
102) المناهل . ص 304
103) المناهل . ص 304 .
104) المناهل . ص 304 .
105) المناهل . ص 305 .
106) المناهل . ص 305
107) المناهل . ص 305

للطيبى وسعد الدين والسيد والفارسى وابن خليل السكونى وللعلامة ابن البناء وتفسير البيضاوي وحواشيه للشيخ زكرياء والحافظ الاسيوطى . . . وكتاب الرضاع على آي المغنى ومراقى المجد الى آي السعد من تاليف العلامة . . . أبى العباس أحمد المنجور . . ومغنى اللبيب فى العربية وحاشية الشمونى عليه وشرح ابن الدمامين وحاشيته . . والارشادات لامام الحرمين فى علم الكلام . . والمعالم الدينية للفخر . . وشامل ابن عرفة الذي حاذى به طوالع البيضاوي والصحائف وشرحها للسمرقندي والمقاصد وشرحها لسعد الدين التفتارانى والمواقف لعضد الملة والدين وشرحها للسيد الجرجانى وحاشية حسن جلبى على شرح السيد والاربعين للامام الفخري والقطب فى علم المنطق على الشمسية . . ومنطق الشفا لابى على بن سينا . . وكافية ابن الحاجب .. وشرح ابن الدمامينى على تسهيل ابن مالك) (108) . ونضيف الى ذلك تآليف العلامة السودانى أحمد بابا مثل (نيل الابتهاج بالذيل على الديباج) وقد ذكر فى مقدمته (بوصولى الى منبع العلم فى الديار المغربية حضرة الامام العلية والمولوية الهاشمية الاحمدية المنصورية . . بادرت الى كتب ذلك الذيل . . وأردت ان اخدم خزانته المشتملة على الطم والرم من كتب العلم اهديته وان كنت فى صنعى كجالب تمر الى هجر أو تارض شعر لدى أهل حضر) (109) .

تآليف أبى فارس عبد العزيز الفشتالى وزير المنصور التى من اجلها (مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفا) (110) . ورغم أن الايام قد اتلفت القسم الاعظم منه ، فان ما بين أيدينا ليؤكد مدى اتساع أفق المؤلف وغزارة علمه وبراعة شاعريته .

ومؤلفات احمد المقري ، وخاصة (روضة الآس العاطرة الانفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس) (111) الذي ترجم فيه للعدد الجم من كبار العلم والسياسة فى عهد المولى أحمد المنصور .

ثم مؤلفات أحمد بن القاضى (112) التى منها (المنتقى المقصور على مآثر

108) المناهل . ص 268
109) حمد بابا السودانى : ذيل الابتهاج . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . د 766 . ص 1
110) ابو فارس عبد العزيز الفشتالى : مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفاء . دراسة وتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم . الرباط 1972 .
111) أحمد المقرى : روضة الاس . طبع فى المطبعة الملكية بالرباط . 1964
112) ابن القاضى : المنتقى المقصور . مخطوط بدار الوثائق بالرباط

الخليفة المنصور) ، و (درة الحجال فى غرة اسماء الرجال) ثم (جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس) وفى خزانة القرويين بفاس اليوم ستة وعشرون مخطوطا فى موضوعات شتى ، وهى ما تبقى من المخطوطات العديدة التى كان المنصور قد أوقفها على هذه الخزانة (حبس عليها نصره الله من غرائب الكتب ما لم يسمع مثله قط) (113) ، ويرجع أقدمها الى أواخر رمضان من عام 1001 هـ وقد جاء فى وثيقة وقف هذا الكتاب (اللامشى فى أصول الفقه) بعد البسملة (حبس مولانا الامام كهف الاسلام ظل الله فى الانام كافل أمة النبى عليه السلام . . مولانا أبو العباس المنصور بالله امير المومنين . . على كل من يقرأ فيه من طلبة العلم) (114) وبأعلى وثيقة الوقف يوجد توقيع المنصور ونصه (المسطر اسفله صحيح وكتب بخط يده عبد الله سبحانه احمد المنصور بالله أمير المومنين . . . خار الله له ولطف به وبجميع المسلمين) (115) .

من خلال ما قمنا به من دراسة للمجالات الثقافية فى عهد المنصور ، نلاحظ بأن بلاط الملك وكبريات المدن المغربية قد استأثرت الى حد كبير بهذا النشاط العلمى الواسع ، فما المستوى الثقافى الذي كانت عليه طبقات العامة وجمهور الناس ؟

لا نملك والاسف الشديد الا القليل المحدود من المصادر المعاصرة التى تعرض البعض منها للنواحى الثقافية عند الطبقات الشعبية فى هذا العصر ، ففى البوادي المغربية كانت توجد جوامع وكتاتيب فى قرى خاصة يعلم بها فقهاء

---

(113) المصدر السابق . ص 75 .

(114) محمد العابد الفاسى : الخزانة العلمية بالمغرب . ص 48 .

(115) المصدر السابق .

يوجد اليوم بخزانة الايسكوريال (Escorial) باسبانيا نحو الف وخمسمائة مجلد عربى مخطوط ، وهى ما تبقى من مخطوطات المنصور التى كانت بخزانته بمراكش . وسبب وجودها بالايسكوريال اليوم يرجع الى الفترة التى أعقبت وفاة المنصور وتنازع أبنائه من بعده ، فقد قام ابنه زيدان بنقل أمواله وكتبه وكتب والده من مراكش الى آسفى وذلك للانتقال منها الى أكادير بحرا واتفق مع بحارة فرنسيين لنقله مع أمتعته الى أكادير ، غير أن بعض البحارة الذين كانت بسفنهم أحمال المخطوطات بدلا من النزول جنوبا نحو أكادير توجهوا شمالا أملا منهم فى بيعها أو ربما اعتقدوها أموالا وكنوزا وذخائر ، وبينما هم فى عرض مضيق جبل طارق اعترضت طريقهم سفن اسبانية وأسرتهم وقام البحارة الاسبان بنقل الكتب خاصة الى الايسكوريال العاصمة السياسية باسبانيا والتى كان فيليب الثانى قد أقام بها قصر الايسكوريال الذى لا يزال حتى اليوم . ولما وصلت الكتب أمر فيليب الثالث بوضعها فى مكان خاص ، وقد بذل الملوك المغاربة السعديون منهم والعلويون بوجه خاص جهودا جبارة متوالية لاستعادة الكتب على أن حريقا قد شب فى الجناح التى توجد به الكتب فاتلف عدة مآت منها ولم يبق اليوم الا نحو 1500 مجلد مخطوط وهى أعظم ما فى خزانة المخطوطات بالايسكوريال وكل اسبانيا بل وفى غربى أوربا بوجه عام .

ومعلمون مبادىء الدين وطرق القراءة والكتابة (قدمت من بنى ورياغل مع اخى وشقيقى سيدي احمد للحضرة الفاسية بقصد القراءة والتعليم فى شهر ربيع الاول من عام أربعة وتسعين وتسعمائة (مارس 1586 م) . . . وكنت حفظت القرآن العظيم والفية ابن مالك والكراريس ببلاديتى) (116) .

على أن الاقاليم النائية والمناطق الجبلية هى التى يظهر أنها قد غالت فى الجهل والضلال وانحطت أحوالها العامة وبالتالى مستواها الثقافى (117) .

وقد ازداد الامر سوءا عندما حل الطاعون بالبلاد وذهب بالعديد من العلماء وطلبة العلم فى مختلف المناطق (تقهقر الزمان وذهب العلماء الاعيان وانقرض الاكابر والاقران ورحلوا عن الدروس الى الرموس وآل الامر من بعد عمارتهم الى الدروس فتعطلت مصادر الطلب وموارده واقوت مجالسه ومعاهده وافلت أو كادت من معظم آفاق المغرب شمسه) (118) .

---

116) ابراهيم الجيلالى : تنبيه الولدان . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ص 15

117) مما جاء فى الفية الامام الهبطى من العامة : (فاى خير يرتجى لقوم ليس لهم قريحة فى علم)

118) التامنارتى : الفوائد الجمة . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ص 96

الفصل العشرون

المغرب بعد المولى أحمد المنصور

(وفى سنة اثنى عشرة والف بلغنى وفاة ابى العباس المنصور ملك المغرب فى هذا العصر رحمه الله وكانت وفاته بمدينة فاس . . . فنزل الارض بذلك ما نزلها ونالها من الفساد والفتن ما نالها طاش لها الوقور . . . ووضع النفيس وارتفع الخسيس ونشا العار وخان الجار ولبس الزمان البؤس وجاء بالوجه العبوس واوردنا الاختلاف وانضب ماء الوجوه والائتلاف وطأطأ الحق راسه واخفى المحق نفسه . . ووردت المهالك وسدت المسالك وعم الجوع . . فانا لله وانا اليه راجعون فيا لها من مصيبة ما أعظمها) (1) .

بهذه الاوصاف عرف عبد الرحمن التامنارتى وهو معاصر الاوضاع التى سادت المغرب بعد وفاة المنصور ، نتيجة تنازع ابنائه وحفدته على السلطة وما رافق ذلك من حروب وفتن واضطرابات فى وقت كانت الاوبئة والطاعون لا يزال يفتك بالعديد من الارواح : فالمولى زيدان بويع بفاس واخوه ابو فارس عبد الله نودي به ملكا على مراكش ، وازداد الامر تعقيدا عندما استطاع الاخ الثالث محمد الشيخ المامون الحاق الهزيمة بزيدان وتنصيب نفسه ملكا على فاس . ودخل بذلك الاخوة الثلاثة وابناؤهم فى حروب دامية استمرت حدتها طوال العشر السنوات الاولى من وفاة المنصور ، الى درجة يمكن معها القول بان هذه الحروب الداخلية استنفذت قوى الامراء السعديين واطمعت فيهم من جهة أخرى كثيرا من الطامعين ، وقد كان من اخطر مضاعفاتها ان مناطق فى الشرق والغرب من البلاد قد تعرضت لهجومات خارجية : فالباشوات الاتراك بالجزائر الذين طالما تحينوا الفرص

1) التامنارتى : الفوائد الجمة . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . (د 1420) . ص 194

للتوسع قدوا تتهم الظروف المناسبة وبسطوا سيطرتهم على مناطق من المغرب الشرقى وتمركزوا بمدينة وجدة بوجه خاص تمهيدا للتدخل فيما جاورها ، واغتنم الاسبان بدورهم فرصة الحروب الاهلية وحاجة المتحاربين الى الاسلحة والعتاد والقوات المقاتلة وداهموا قواعد فى الشواطىء الغربية : العرائش والمعمورة واصيلا ، مما اعاد الى الاذهان عهودا مظلمة سابقة عندما قاد البرتغال والاسبان حملات صليبية ضد الشواطىء المغربية على المتوسط والمحيط الاطلسى .

على أن استقرار الامر نسبيا للمولى زيدان بمراكش منذ عام 1022 هـ مكنه من العمل على اقرار بعض الاوضاع الداخلية المضطربة ، خاصة وان حدة الحروب الاهلية قد خفت أثر مقتل اخويه : عبد الله ابى فارس (1017 هـ) ومحمد الشيخ (1022 هـ) وساعده على تنظيم مقاومة الغزاة الاسبان بالشواطىء المغربية (فسأل السلطان زيدان بن احمد الذهبى عمن يليق بتولية ذلك الثغر والقيام بوظيفته وبنواحيه فقيل له سيدي محمد العياشى فكتب له بالتولية لذلك فنهض باعباء ما حمل من ذلك . . . وكان كلما بعث بما يفتح الله به عليه من خمس الغنائم والاساري الى السلطان زيدان بمراكش ازدادت شهرته وتناقل الناس حديثه) (2) .

وهذه الجهود المتواصلة التى بذلها المولى زيدان لاستعادة النفوذ السعدي الى بعض المناطق المغربية لم تستمر طويلا ، فبعد وفاته عام 1037 هـ سقط ما بقى للسعديين من هيبة فى اعين العامة وبدأ الطامعون يعلنون خروجهم ويستقلون تدريجيا بمناطق نفوذهم .

واذا كان السلطان السعدي قد أخذ ينحصر فى العاصمة مراكش وما حولها خلال الثلاثين سنة الاخيرة من عهد الدولة السعدية زمن حكم عبد الملك (37 — 1040 هـ) والوليد (1040 — 1045 هـ) ومحمد الشيخ (45 — 1064 هـ) وابنه احمد (64 — 1069 هـ) فان المناطق المختلفة من البلاد قد تقاسمها قادة محليون أشهرهم :

1 — (بودميعة) بسوس ودرعة والصحراء وبلاد السودان .

---

2) عبد القاهر بن محمد ابو ملاق : (الخبر عن ظهور العياشى) مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 91) . ص 3

2 — العياشي بالسواحل المغربية الاطلسيــة .

3 — محمد الحاج الدلائي بالمنطقة الوسطى من المغرب .

وبظهور هذه الامارات المتنازعة انقسمت البلاد الى وحدات سياسية وضعفت بالتالي قوى المعسكر الوطني ووحدته واصبح الامر ينذر بأفدح العواقب (بعــد موت زيدان . . . تطاولت ايدي رؤساء القبائل وعمالها الى الاستبداد على الدولة لمرضها وهرمها وشاركهم من له شوكة قوية وصاروا كملوك الطوائف بالاندلس) (3).

ومما زاد الوضعية الداخلية تدهورا حرص بعض الطامعين على التوســع وبسط النفوذ فازدادت لذلك الاصطدامات العسكرية وتعددت واجهات الحــروب بينهم ، وهذا كله ضاعف من تفكك القوى الوطنية واغرى بالتالي الاسبان علــى موالاة الغزو والتوسع (فلا يعزب عن فطنتكم كيدهم وتربصهم بالمسلمين الدوائر عليهم دائرة السوء واذكروا وذكروا المسلمين كيف كان استيلاؤهم على الجزيرة واستيصالهم اياها اعادها الله دار اسلام لهذا العهد وكانت اضخم ملكا من هذه العدوة واكثر عددا وعددا بل هي محشر العساكر فلم يزل ينازلها من اطرافهـــا ويطاول من جهاتها . . حتى انتظمت كلها في سلكهم . . وها هو قد عبر البحــر الينا ومد الصليب بهذه السواحل ذراعيه علينا . . الله الله في الاسلام ادركوه قبل أن يموت وخلصوه قبل ان يفــوت) (4) .

فلا عجب اذا ما توجهت القلوب المومنة الواعية الى السماء تطلب العون والهداية وترجو من الله الخلاص للبلاد والعباد : فالبلاد اصبحت بحاجة الى قيادة جديدة تستجيب لمطالب العامة المؤمنة بوجوب وحدة الصف الداخلي وتعبئة كــل القوى الوطنية المجاهدة للوقوف في وجه الغزاة ولتحرير السواحل المحتلة ، اذ وحدة الصف والقيام بالجهاد شرطان اساسيان لتطور البلاد وازدهار احــوال العباد ، فهل كانت هناك من بواد لظهور القيادة الجديدة المرجوة بعد أن فقدت الآمال في الزعامات المحلية المتنازعة في (زمن اطفأت فيه الضلالة انوار الهداية وذلك حين فسدت الدولة السعدية فذهبت ريح سطوتها القهرية وكثر الثوار في غالب

---

3) بلقاسم الزيانــي : (البستان الظريف) . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 1577) . ص 7

4) عبد القاهر ابو ملاق : (الخبر عن ظهور العياشي) . ص 30 .

الاقطار . . . ولم ييسر الله تعالى لواحد منهم امرا وقد كانت عاقبة أمر بعضهم خسرا) (5) .

ان الامام المتطلع اليه هو (من رفع الصلبان عن الامة وكشف عن الاسلام وقد طالت شكواه لاهله الغمة ، ففتح باب الجهاد للانام الذي طال الاستفهام واجاب بالاقلام والرماح والسنة الصفاح داعية) (6)

وخير الامامة : القرشية الهاشمية (فانكم أردتم معهم من مورتهم من جدهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قرة عيننا وعينهم فانه نهانا عن طلب ما ليس لنا فقال : الخلافة فى قريش والغير متغلب وهم أحق بذلك من قريش فى المغرب) (7) .

نشأة القيادة العلوية :

استقر المولى الحسن الداخل ، الجد الاول للعلويين ، بسجلماسة قادما من الينبوع بالحجاز عام 664 هـ وقد كانت سجلماسة مركزا دينيا وملتقى ستراتيجيا هاما (فهى قاعدة القرى الصحراوية . . . دار علم ودين وصلاح ومستراح القاصدين والواردين ومتجر الارباح) (8) .

ولما كان المولى الحسن الداخل ممن عرفوا بالعلم والصلاح والورع فان العامة قد اقبلت عليه كما ازدادت شهرة عائلته لما قام به ابناؤه من جهاد فى الاندلس كالمولى على الشريف الذي (توجه الى الاندلس برسم الجهاد واقام بها مدة طويلة وعندما عاد الى سجلماسة كاتبه اهل الاندلس يطلبون منه الرجوع اليهم ويحضونه على الاعتناء بأمور الجهاد ويظهرون له ضعف الجزيرة وانها شاغرة ممن تجمع عليه القلوب) (9) .

ومن جهة اخرى فقد كان الشرفاء العلويون بسجلماسة يحظون بعناية السلطات الحاكمة المرينية والوطاسية ، وازدادت مكانتهم زمن حكم أبناء عمومتهم السعديين ، وعندما ضعف أمر الدولة السعدية بعد المنصور وتجزأت البلاد الى

---

5) سليمان الحوات : (البدور الضاوية) . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 261) ص 119
6) عبد القاهر أبو ملاق (الخبر عن ظهور العياشى) . ص 47
7) المصدر السابق . ص 75 .
8) المختار السوسى : ايليغ . ص 137 .
9) الافرانى : روضة التعريف . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (ح 58) . ص 18 .

امارات متحارية ، أصبحت سجلماسة موضع اهتمام الدلائيين والسوسيين وملتقى نفوذهم ، ويبدو أن الجانبين قد أعتبراها بلد الحدود بينهم خاصة وان المولى الشريف العلوي كانت له المكانة الاولى فيها (بايع اهل الصحراء مولاي الشريف وكان يدافع عن بلادهم ويرفع ظالمهم عن مظلومهم ويمهد سبلهم) (10) .

غير أن القائد السوسى (بودميعة) سرعان ما اغتنم فرصة نزاع داخلى حصل بين العلويين وجيرانهم الزبيريين وتدخل بسجلماسة فى محاولة لاخضاعها لنفوذه ، حيث القى القبض على المولى الشريف ونقله اسيرا الى ايليغ عاصمة سوس ، وهذا التدخل المسلح اثار الدلائيين واستنكره رئيسهم محمد بن أبى بكر الذي الح فى مراسلاته مع (بودميعة) على اطلاق سراح الامير الاسير (واما ما قلت من ان نترك سجلماسة للشريف المذكور كغيرها من البلاد التى بيد غيره فلا اتركها) (11) .

وامام اصرار القائد السوسى على التمسك بسجلماسة هدد الدلائيون باستعمال القوة (ولقد كثرت استغاثتهم باخوانهم المسلمين واوجبوا بالشرع انقاذهم واستخلاصهم مما هم فيه . . . وهذه البلاد بينكم وبينها نحو ثلاثين مرحلة وبينها وبيننا ست مراحل) (12) .

اخذ الاهالى بسجلماسة ينظمون امرهم لمقاومة (بودميعة) وجوره (لما ملك الثائر أبو الحسن على . . . بلاد الصحراء لم يترك لاهلها بيضاء ولا صفراء وكان ظاغشوما) (13) ، وقد استمرت الاستعدادات السرية فترة من الوقت الى أن كان عام 1050 هـ / 1640 م حيث اعلنت سجلماسة بيعة المولى محمد بن الشريف اميرا فابتدات بذلك الصفحات الاولى من تاريخ الدولة العلوية . وقد اثبت المولى محمد جدارته عندما واجه قوات (بودميعة) وانتصر عليها فى عمليات عسكرية متوالية انتهت باخراجها من سجلماسة ومن درعة اواخر عام 1051 هـ . ويبدو ان (بودميعة) اضطر الى اطلاق سراح المولى الشريف وقبول الامر الواقع سيما وان

---

10) الزيانى : الترجمان المعرب . ص 369 .
11) البدور الضاوية . ص 119 .
12) السوسى : ايليغ ص 135
13) المصدر السابق . ص 125

سياسة الدلائيين قد تغيرت بتولية محمد الحاج الذي أعلن دعوته جهارا واخـــذ يسلك سياسة استعمال القوة لفرض سلطانه (قام أهل المغرب بدعوته واذعنوا لامره وطاعته وبايعوه بالخلافـــة) (14) .

❋ ❋

من أهم التطورات التى عرفتها السنوات الاولى من بداية النصف الثانى من القرن الحادي عشر للهجرة ، أن الزعامات المحلية قد تبلورت فى :

1 ـ الدلائيون بالمنطقـــة الوسطـــى للمغرب .

2 ـ المجاهد العياشى بالسهول الشمالية ـ الغربية على الاطلسى .

3 ـ (بودميعة) بسوس والجنوب المغربـــى .

4 ـ العلويون بسجلماسة ودرعة .

الى جانب السلطان السعدي محمد الشيخ الذي انحصر نفوذه بمراكش وما حولها . فالقائد (بودميعة) أولى اهتمامه لسوس والصحراء المغربية وبـــــلاد السودان واصبحت له بذلك علاقات خارجية واسعة مع دول غربى أوربا ، باعتبار أن التجار الاجانب قد ازداد اقبالهم على التجارة مع غربى افريقيا وبلاد السودان التى اشتهرت منذ القديم بالذهب والتوابل وتجارة الرقيق . وباتباع (بودميعة) لهذه السياسة ابتعد بعض الشىء عن الاحداث الداخلية بالمغرب .

أما المجاهد العياشى الذي بدأ اعماله الجهادية منذ عام 1020 هـ فقد اتسع نطاق عملياته من سبتة الى البريجة فى البر والبحر واكسبته أعمال الجهاد هـــذه شهرة واسعه (كان أبو عبد الله محمد العياشى اكثر توجهاته مصروفا الى الجهاد والاستعداد له ما استطاع من حشر الاجناد حتى كان له من الفتح المبين ما لـــم يكن لغيره) (15) . وهذه الانتصارات المتعددة التى أحرزها على قوات الاحتلال الاجنبى التى كانت تحاول مهاجمة الاراضى المجاورة زادت من التطلع اليه هو ومن

---

14) المصـــدر السابـــق . ص 229

15) البدور الضاوية . ص 119

معه من المجاهدين (شجعان اهل سلا ورباط الفتح ومن لهم تلا من أهل القصر والهبط والخلط وبنى مالك وطوائف المسلمين رضى الله عنهم اجمعين) (16) .

والذي يثير الانتباه فى مراسلات المجاهد العياشى مع السلطان السعدي الوليد ابن زيدان أن المجاهد قد استنكر تقاعس السعديين عن الدعوة الى الجهاد (فلا يمتري فى تعيين فرضه ووجوب القيام لله تعالى به فى ارضه والخطاب بذلك يعم الامة ويخص بالتعيين الائمة . . .) (17) ، اي ان المجاهد العياشى قد يئس من السعديين بمراكش فأخذ يوجه رسائل الى المدن المجاورة له يحضها على الجهاد ومقاتلة الاعداء . وهذه التطورات الجديدة فى الحركة العياشية اصطدمت بكل من :

1 ــ الدلائيين الذين كانت لهم أطماع فى التوسع بالمناطق الوسطى من البلاد (فقد طرق اسماعنا ان اهل الساحل قد أغروا على من تحت ايالتنا وامرنا) (18) .

2 ــ السعديين الذين توجهوا الى الدلائيين ضد العياشى (وتكفى امر الوافدين من السادات الاشراف السعديين . . . فانهم أرسلوا الينا كتابا افصحوا فيه بأنك ضيقت عليهم وعلى من تحت طاعتهم وغلبت على القبائل المجاورة وعزمت على استئصال شأفتهم وانك تزعم انك تريد الجهاد وليس قصدك الا جمع الاموال وتملك البلاد واستبعاد العباد وطلبوا منا اعانتهم على قتالك) (19) .

تضاعفت حدة الخلاف بين العياشى والدلائيين وتعددت الاضطدامات الدموية بينهم وقد انتهى الامر باغتيال المجاهد العياشى يوم 19 محرم 1051 هـ (قتله بعض اللصوص من قبيلة الخلط غدرا بموضع يسمى عين القصب ودفن بازاء روضة الوالى الصالح سيدي بوشتة) (20) . وبالقضاء على العياشى انطلقت قوات محمد الحاج الدلائى فاتحة وادخلت فى طاعتها معظم النواحى الشمالية والوسطى من المغرب (قام أهل المغرب بدعوته وأذعنوا لامره وطاعته وبويع له بالخلافة فيه) (21) وبذلك فتحت أمام الدلائيين آفاق جديدة نتيجة الاتصالات الواسعة التى اصبحت لهم مع دول غربى أوربا التى كانت تتطلع الى تطوير علاقاتها التجارية مع المغرب .

---

16) اخبار العياشى . ص 15
17) أخبار العياشى . ص 48
18) أخبار العياشى . ص 76
19) أخبار العياشى . ص 76
20) ظهور العياشى : ص 85 .
21) البدور الضاوية . ص 230

ولا شك فى أن الحاكم الدلائى وهو يعمل على تمتين علاقاته مع الخارج كان يقدر مدى الفوائد التى ستعود على دولته الناشئة فى المجال السياسى والاقتصادي فيما لو تمكن من بسط نفوذه على سجلماسة : باب الصحراء والطريق الموصلة الى السودان بلد الذهب والتوابل والرقيق .

انطلق الدلائيون لتنفيذ السياسة الجديدة ومهدوا لذلك باصطناع انصار لهم (كالشيخ مغفر فى اولاد عيسى بالرتب والسيد الطيب فى قصر السوق والسيد احمد ابن على العثمانى فى بنى عثمان من الخنق وقصر تلميمة فى وطن اغريس وسرير فى بلد فركلة) (22) . وكرد فعل لهذا التدخل جرت معركة حاسمة بين المولى محمد بن الشريف ومحمد الحاج الدلائى يوم السبت 18 ربيع الاول عام 1056 هـ (كانت واقعة القارة ويقال لها القاعة بين سيدي محمد الحاج الدلائى وبين صاحب سجلماسة مولاي محمد بن الشريف فوقعت الهزيمة على مولاي محمد ودخل سجلماسة مغلوبا مهزوما وتبعه مولاي احمد الحاج . . . ثم انبرم الصلح بينهما على أن ما حازه جبل بنى عياش الى الصحراء فهو لمولاي محمد بن الشريف وما دونه لناحية الغرب فهو لاهل الدلاء وشرط اهل الدلاء على مولاي محمد خمسة مواضع مما هو تحت يده وجعلوها لهم . . . شرطوا عليه أن لا يتعرض لهم فيها ولا يحرك لهم ساكنا وقبل ذلك مولاي محمد بن الشريف) (23) .

وهكذا اقام الدلائيون بسجلماسة خمسة قواعد تدعم نفوذهم بها وتمكنهم من التوجه نحو الصحراء وبلاد السودان ، غير أن ثورة مدينة فاس ضد محمد الحاج واعلانها بيعة المولى محمد بن الشريف ، جددت الحرب بينهما خلال عام 1059 هـ وبانهزام الامير العلوي انطلق نحو المغرب الشرقى فى محاولة للسيطرة عليه وللوصول الى البحر المتوسط حيث تجار الاسلحة الاوربيون (واما مولاي محمد بن الشريف فانه رد وجهه لنواحى الشرق فتوجه على عمائر الصحراء الى أن دوخها ودخلت فى حكمه ولما بلغ انكاد اجتمع عليه عرب المعقل من الاحلاف وسقونه وبايعوه وتوجهوا به لوجدة حيث كان اهلها متفرقين نصفهم قائمين بدعوة الترك ونصفهم خارجين عنهم فنزل على القائمين بدعوة الترك وحاربهم الى أن غالبهم ودخل وجدة

---

22) المصدر السابق : ص 230
23) البدور الضاوية . ص 250

وملكها وبايعوه ثم توجه الى بنى يزناسن كانوا فى ايالة الترك ... ثم توجه لنواحى تلمســـــان) (24) .

وبتوقيع المولى محمد لمعاهدة الحدود مع الاتراك عام 1064 هـ التى تجعل وادي تافنا حدا فاصلا بينهم دخل المغرب الشرقى فى طاعة الامارة العلوية الناشئة التى امتدت حدودها الشمالية حتى شواطىء البحر المتوسط .

اتخذت الدولة العلوية بعد استقرار الامر للمولى الرشيد بن المولى الشريف عام 1075 هـ فى سجلماسة والمغرب الشرقى طريقا خاصا فى اتجاه الشمال ، وتعززت قواعدها على البحر المتوسط بالسيطرة على الحسيمة فى رمضان عـــام 1076 هـ / مارس 1666 . ومن المغرب الشرقى وجبال الريف انطلقت الدعـــوة الجديدة نحو المناطق الوسطى فدخلت فاس فى طاعتها واستسلمت لها بلاد الهبط بعد انهزام الخضر غيلان الجرفطى عام 1077 هـ . ثم انحدر المولى الرشيد مـــع السهول المغربية الاطلسية بما يشبه عملية تطويق للدلائيين فى الاطلس المتوسط لعزلهم وللحيلولة بينهم وبين موانىء الاطلس حيث تجار الاسلحة الاوربيون ، وتمكن بذلك المولى الرشيد فى اوائل عام 1079 هـ من القضاء على الدلائيين وساعده هذا الفوز على الدخول الى مراكش والقضاء على امارة الشبانات فى نفس السنة . أما آخر امارة دانت له بالطاعة فهى بلاد سوس بعد احتلال عاصمتها ايليغ يوم الاحد 15 صفر عام 1081 هـ .

لقد أعاد المولى الرشيد الى المغرب وحدته الداخلية بعد حروب استمرت سبع سنوات وهى المدة التى قضاها فى الحكم ، فحقق بذلك للعامة أملا منشودا طالما تطلعت اليه ، وهو وحدة الصف الداخلى كمرحلة اساسية للانطلاق نحـــو تحرير قواعد الاحتلال الاجنبى ، ومن أجل النهوض بالبلاد وتطويرها وذلك مـــا سيعرفه عهد الملك العظيم : المولى اسماعيل .

---

24 بلقاسم الزيانى : الترجمان المعرب . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 658) ص 370

المصــادر المخطـوطـة

1 ـ المكتبة الملكية بالرباط .. ..

ـ احمد ابن القاضي : المنتقى المقصور على مآثـــر
الخليفة المنصــــور 1153

ـ احمد ابن ابى محلى : الاصليــت 4009

السلسبيل فى فضل السبيل 4733

ـ عبد الرحمان التامنارتى : الفوائد الجمة فى اسناد
علـــوم الامـــــة 513

ديـــوانـــــــه 5623

ـ مجموع فى الاذكــار للخليفــة المنصور 4911

دار الوثائق التابعة للخزانة العامة بالرباط

— احمد بن القاضي : المنتقى المقصور .. .. د 1057

درة السلـــــوك .. .. د 1428

— احمد بابا السوداني : نيل الابتهاج بتطريز الديباج .. د 766

— الافراني : روضة التعريف .. .. ح 58

— ابراهيم الجلالي : تنبيه الصغير .. .. ك 571

— بلقاسم الزياني : الترجمان المعرب عـــن دول المشرق والمغرب 658

الروضة السليمانيـــة .. .. د 1275

البستـــان الظـــريـــف .. .. د 1577

— ابن عسكر : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر .. .. د 560

— الحسن اليوسي : المحاضـــرات .. .. د 1010

— محمد بن يجبش التازي : جملة مختصرة .. .. ق 336

— مرعى الحنبلي : قلائد العقيان في فضائل آل عثمان ك 2380

نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر مـــن الخلفاء والسلاطين .. .. ك 2347

— محمد بن اسحاق : لطائف اخبار الاول .. .. ك 2409

— محمد الفاسي : مرآة المحاسن .. .. د 567

— محمد الفاسي : ممتع الاسماع في اخبار الجزولـــي والتبـــــاع .. .. د 894

— محمد البكري : نصرة الايمان بدولة آل عثمان .. .. .. د 527

— محمد اكنسوس : الجيش العرمرم الخماسي .. .. د 965

محمد المرداســـى : رياض الورد .. .. د 396

محمد الهبطى : القبة الهبطـــى .. .. في ملك الاستاذ محمد المنونى

محمد بن الامام الهبطى : المعرب الفصيح .. .. مخطوط خاص للاستاذ المنونى

محمد الفاسى : التحفة الصديقية .. .. د 1103

مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية .. .. ك 1006

مؤلف مجهول : تقاييد صوفية .. .. ك 1074

مخطـــوط ســــــوس .. .. خـــاص

ناسخ مجهول : رسائل سعدية .. .. ك 287

عبد الرحمن الصومعى : التشوف الصغير .. .. د 1103

عبد الرحمن الفاسى : زهرة الشماريخ .. .. د 56

عبد الرحمن التامنارتى : الفوائد الجمة .. .. د 1420

عبد القاهر ابو ملاق : الخبر عن ظهور العياشى .. د 91

على التامجروتى : النفحة المسكية .. .. ك 2829

سليمان الحوات : البدور الضاوية .. .. د 261

ا ـ المخطوطـــة

اولا : وثائق الخزانة العامة بالرباط

1 ـ جملة وثائق مصورة عن السعديين .. ..

2 ـ هناك مجامع مخطوطة بها وثائق سعدية هامة

أ ـ رسائل سعدية ـ لناسخ مجهول .. .. ك 278

ب ـ مجموع مخطوط ـ لناسخ مجهول .. .. د 2795

3 ـ أعداد من « الميكروفيلم » لجائزة الحسن الثانى للمخطوطات والوثائق منذ (1970 الى 1977)

ثانيا : وثائق سيمانكاس باسبانيا المتعلقة بعهد المنصور Archivo general de Sumancas

أ ـ بالنسبة للدولة الاسبانية Estado Espana

الوثائق الخاصة بالسنوات ما بين 1578 ـ 1603 ابتداء من الرقم 159 الى 197

ب ـ بالنسبة للدولة البرتغالية Estado Portugal

وثائق هذه الفترة تحمل ارقاما تسلسلية منذ الرقم 395 حتى الرقم 435

ج ـ بالنسبة لافريقية والشرق Estado de Africa y levante

تحمل وثائقها الارقام التالية (489 ـ 213) الى الرقم (493 ـ 214)

د ـ بالنسبة للوثائق العربية عامة Arabes documentos

تحمل الارقام بين 1043 حتى 1165

هـ ـ وبالنسبة للعرب والبربر (المغاربة) Arabes y Berberiscos

تحمل هذه الارقام 1140 ـ 1141

و — ويوجد بسيمانكاس عدد هام من الخرائــــط المحطوطة عن المغرب وشمالى افريقية

1 — عن بلاد سوس وجنوبى المغرب تحت ورقم F137

2 — عن مليليــــة تحت رقم 48 E

رقم 331 F

3 — عن جزيرة بادس بشمالى المغرب رقم 19 F

ثالثا — وثائق الخزانة الوطنية بمدريد : مجموع مخطوط لمسودة Allonso del castillo

به احدى وخمسون رسالة للمنصور رقم 257

ب — الوثائق المطبوعــة

1 — المجموعة الكبرى للوثائق المغربية (لهنري كاستري Henry de Castries

المطبوعة تحت عنوان : المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — السلالة السعدية

(Les sources inédites de l'histoire du Maroc — Dynastie Saâdienne)

1) **محفوظات ومكتبات البرتغال** (Archives et Bibliothèques de Portugal)

المجلد الاول	باريز 1934	من سنة 1486 الى 1516
المجلد الثانى	ا — باريز 1939	16 — 1526
	ب — باريز 1949	27 — 1534
المجلد الثالث	باريز 1948	35 — 1541
المجلد الرابع	باريز 1951	42 — 1550
المجلد الخامس	باريز 1953	52 — 1580

2) **محفوظات ومكتبات اسبانيا** : (Archives et Bibliothèques de l'Espagne)

المجلد الاول	باريز — مدريد 1921	31 — 1552
المجلد الثانى	بــــاريــــز 1956	51 — 1560
المجلد الثالث	بــــاريــــز 1961	60 — 1578

3) **محفوظات ومكتبات فرنسا** (Archives et Bibliothèques de al France)

المجلد الاول	باريــز 1905	33 — 1578
المجلد الثانى	باريــز 1909	78 — 1614
المجلد الثالث	باريــز 1911	17 — 1665

4) **محفوظات ومكتبات انجلترا** (Archives et Bibliothèques d'Angleterre)

المجلد الاول	باريز — لندن 1918	40 — 1589
المجلد الثانى	بــــاريــــز 1925	1590 — 1625
المجلد الثالث	بــــاريــــز 1936	1626 — 1660

5) **محفوظات ومكتبات البلاد المنخفضة** (Archives et Bibliothèques des Pays-Bas)

المجلد الاول	بــــاريــــز 1906	1578 — 1611
المجلد الثانى	باريز — لاهاي 1907	12 — 1616
المجلد الثالث	باريز — لاهاي 1912	17 — 1623
المجلد الرابع	باريز — لاهاي 1913	24 — 1641
المجلد الخامس	باريز — لاهاي 1920	42 — 1654
المجلد السادس	باريز — لاهاي 1923	55 — 1660

المطبـــوعـــات :

احمد ابن القاضي : — جذوة الاقتباس — فاس 1309

— درة الحجال — جزءان — الرباط 1936

احمد المقري : — نفح الطيب — القاهرة 1946

— روضة الآس — الرباط 1964

احمد بن عبد العزيز العلوي : — الانوار الحسنية — المحمدية 1969

ابراهيم افندي : — المصباح الساري — بيروت 1272

ابن عسكر : — دوحة الناشر — فاس 1309

حسين مؤنس : — الشرق الاسلامى الحديث — القاهرة 1938

محمد اليفرنى : — نزهة الحادي — فاس 1307

— صفوة من انتشر — فاس 1309

محمد اكنسوس : — الجيش العرمرم — فاس 1936

محمد داود : — تاريخ تطوان — تطوان 1959

محمد كرد على : — خطط الشام — جزآن .

مختار السوسي : — سوس العالمة — الرباط 1960

— ايليـــغ — الرباط 1966

— علماء لامعون من سوس — الرباط 1960

نور الدين حاطوم : — عصر النهضـــة — دمشق 1968

نيقولا زيادة : — المغرب والسودان فى ايام المنصور الذهبى — بيروت 1967

الناصري : — الاستقصا ج. 5 و 6 — البيضاء 1955

عبد العزيز الفشتالى : — مناهل الصفا — الرباط 1972

عبد الله كنون : رسائل سعدية — تطوان 1954

عباس بن ابراهيم : الاعلام 5 أجزاء — الرباط 74 — 1976

عبد الرحمن السعدي : تاريخ السودان — باريز 1898

مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية — الرباط 1934

محمد العابد الفاسى : الخزانة العلمية بالمغرب الرباط 1960

عبد الرحمن الجيلالى : — تاريخ الجزائر العام الجزائر 1955

عبد الله عنان — نهاية الاندلس القاهرة 1948

سونياي . هاو — فى طلب التوابل القاهرة 1960

فجر التاريخ الافريقى القاهرة 1962

الوثائـــق — العدد الاول الرباط 1976

ليفى بروفنسال : فهرس مخطوطات الاسكوريال باريـــز 1928

المـــراجـــــع

— مجلة تطوان : من زوايا التاريخ المغربى ع 9. 1964 . ص 31

— مجلة تطوان : من زوايا التاريخ المغربى ع 10 . 1965 . ص 7

— دعوة الحق : الممالك الاسلامية فى افريقيا السوداء يوليوز 1962 . ص 26

— مجلة البينة : الفكر الصوفى والانتحالية بالمغرب نونمبر 1962 . ص 37

— مجلة البحث العلمى : قصب السكر العدد الاول . يناير 1964

— مجلة تطوان : تاريخ الموريسكوس ع 1 1956

— مجلة تطوان : وثائق سعدية لم تنشر ع 3 و 4 1958

— مجلة تطوان : السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا ع 6 . 1961

— المجلة التاريخية المغربية ع 2. ص 125 . تونس 1974

— مجلة الاندلس ع 23 ص 19 اسبانيا 1958

— Auguste-Cour : L'établissement des Dynasties des Chérifs au Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la Régence d'Alger. Paris 1904.

— Bekkoucha M. : Epitaphes des Sultans Saâdiens. (France-Maroc) Paris 1923.

— Clio : Henri Séé et Armand Rebillon : Le XVIe siècle. Paris 1950.

— Caillé-Jacques : Le commerce Anglais avec le Maroc pendant la seconde moitié du XVIe siècle. Alger 1940.

Une description du Maroc sous le regne de Moulay-Ahmed El-Mansour (1596). Paris 1906.

— Charles-Penz : Les captifs français du Maroc au XVIe siècle (1577-1699).

— Colin : Une nouvelle inscription saadienne à Marrakech. Hespéris 1945. P. 132.

— Caillé : Le commerce Anglais avec le Maroc pendant la seconde moitié du XVIe siècle (R. Afri) 1940. P. 34.

— Colin : Note sur le système cryptographique du Sultan Ahmed El Mansour. Hespéris. 1927. P. 221.

— Colin : Le commerce Hollandais au Maroc à l'époque Saâdienne. (B.E.P.M.) 1942 P. 142.

— Deverdun, Gaston : — Inscriptions Arabes de Marrakech. Rabat 1956
— Marrakech des Origines à 1912. Rabat 1966.

— Dapper : Amesterdam. 1668. (Pour le Maroc : 1ère partie. P 205-265)

— Drogue, G. : Esquisse de l'histoire Religieuse du Maroc. Paris 1961.

— De Castries, H. : Les signes de validation des chérifs saâdiens. Hespéris 1921. P. 231.

— Esaguy José du : Tanger sous la domination Portugaise (1471-1665). Tanger 1937.

— Encyclopédie de l'Islam. Ley de - Paris. 1913.

— E. Doutte : Les Marabouts. Paris 1900.

— Fernard Braudel : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II - Paris 1949.

— Fagnan : Extraits inédits relatifs au Maghreb. Alger 1924.

— Forneron : Histoire de Philippe II. Paris 1956.

— F. de la chapelle : Histoire du Sahara Occidental. Hespéris. 1930. P. 29.

— Gaunard J. : Histoire des doctrines économiques. Paris 1957.

— Gabriel-Rousseau et Arin. F. : Le Mausolée des Princes Saâdiens à Marrakech. Paris 1925.

— Georges Pianel : Le Maroc à la recherche d'une conquête : l'Espagne ou les Indes. Hespéris. 1953. P. 342.

— Henry De Castries : Les sources inédites de l'histoire du Maroc - Dynastie saâdienne.

— Peuples et civilisations :
Henri Hausser et Augustin Renandet : Les Débuts de l'Age Moderne Paris 1938.
Henri Hausser : La propondérance Espagnole (1559-1660) - Paris 1948

— Histoire des Relations internationales :
Gaston Teller : Les Temps Modernes. T 3. Paris 1953.

— H.G .Catternoz : Tables de concordance des ères chrétienne et hégirienne. 2° édition. Rabat 1954.

— H. Koehler : L'Eglise chrétienne du Maroc et la mission franciscaine (1221-1790). Paris 1934.

— J.D. Brethes : Contribution à l'histoire du Maroc par des recherches numismatiques. Casablanca 1939.

— Jean Baptiste Graunay : Tournau. 1622. (pour le Maroc : P. 127-193)

— Julien A. : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris 1931.

— J. Célérier : le Maroc, pays du sucre et de l'or. (France-Maroc). 1923. P. 72.

— Jacques caillé : Le Maroc et les Pays-Bas. Hespéris. Tamuda 1963. P. 120.

— Lebel Rolan : Le Maroc chez les auteurs anglais du XVIe au XIXe siècle. Paris 1939.

— Levi-Provençal : — Les Historiens des Chorfa. Paris 1922.
— Les manuscrits Arabes de l'Escorial. Vol. III. Paris 1928.

— Lenz O. : Timbouctou. 2 Vol. Paris 1886.

— Le Tourneau, R. : Le début de la Dynastie Saâdienne. Alger 1954.

— Martin A. g. P. : Quatre siècles d'histoire marocaine au Sahara de (1504 à 1902). Paris 1923.

— Massignon, L. : Le Maroc dans les premières années du XVIe siècle. Alger 1906.

— Masson P. : Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique Barbaresque. Paris 1909.

— M. Oclafosse : Relations du Maroc et du Soudan à travers les âges Hespéris. 1929. P. 132.

— Pierre d'Avity : Description Générale d'Afrique. Paris 1643. (Pour le Maroc : P 54-144).

— P. Odinot : La grande route directe de Fès à Marrakech, au XVIe siècle. Rabat 1921.

— Pianel G. : Les préliminaires de la conquête du Soudan par Moulay Ahmed El-Mansour. Hespéris 1953. P. 78.

— Ricard Robert : La côte Atlantique du Maroc au début du XVIe siècle Hespéris. 1927. P. 229.

— R.P. Koehler : La Kasba saâdienne. Hespéris 1940. P. 236.

— Ricard Robert : Le Maroc à la fin du XVIe siècle. Hespéris. 1957. P. 34
La conquête du Soudan par El-Mansour. Hespéris 1923. P. 434.

— Roland Lebeb : Le Maroc dans les relations de voyageurs Anglais aux XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles. Hespéris 1929. P. 139.

— Terrasse, Henry : — Les villes impériales du Maroc : Grenoble 1937.
— Histoire du Maroc. Casablanca 1950.

الجـدول التاريخـي لوثائـق الدولـة السعديـة

اولا : الوثـائـق السياسية

رسالة من المولى احمد الاعرج الى جان الثالث	24 صفر عام 932 هـ	م. ص. ت. م — البرتغال — ج 2 ص 348
هدنة بين المولى احمد والملك البرتغالى	22 حجة عام 932 هـ	م. ص. ت. م — البرتغال — ج 2 ص 367
رسالة من احمد الاعرج الى جان الثالث البرتغالـى	22 جمادى 2 933 هـ	م. ص. ت. م — البرتغال — ج 2 ص 399
رسالة من أحمد الاعرج الى جان الثالث البرتغالـى	23 ربيع 1 936 هـ	م. ص. ت. م — البرتغال — ج 2 ص 495
رسالتان من سليمان القانونى لمحمد الشيخ السعدي	محرم عام 959	المجلة التاريخية المغربية العدد 2 ص125
رسالة من الغالب الى (انطـوان دي بوربون)	أواخر رمضان 966	م. ص. ت. م — فرنسا — ج 1 ص 170
معاهدة الغالب مع فرنسا	أواخر رمضان 966	م. ص. ت. م — فرنسا — ج 1 ص 178
رسالة من الغالب الى (ايليزابيت)	جمادى الاولى 977	م. ص. ت. م — انجلترا — ج 1 ص 98
اتفاقية المتوكل مع (ايليزابيت)		مجلة تطوان — العدد 3 و 4 . ص 51
رسالة المعتصم الى (ايليزابيت)	رجب 984	مجلة تطـوان — العدد 9 . ص 32
جواب العلماء المغاربة على رسالة المتوكل	أوائل جمادى 1 986	الافرانى : نزهة الحادي . ص 65
رسالة أحمد المنصور الى فيليب الثانى الاسبانـى	2 رمضان 986	المكتبة الوطنية ، مدريد مخطوط رقم257
من المنصور الى الامير اسماعيل بن المعتصم	منتصف محرم 987	دار الوثائق بالرباط . مخطوط . ك278 ص 37
من رمضان باشا الجزائر الى الامير داود ابن عبد المؤمن	أواخر ربيع 1 988	سيمانكاس باسبانيا رقم 160
من المنصور الى ايليزابيت ملكة انكلترا	20 جمادى 1 988	م. ص. ت م انجلترا . ج 1 — ص 335
رسالتان من السلطان مراد الثالث باشـا الـى المنصور	أوائل رجب عام988	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى مراد الثالث	أواخر عام 989	كنون : رسائل سعدية . ص 18
من المنصور الى حسن باشا الجزائر	مطلع عام 990	دار الوثائق بالرباط . مخطوط . ك 278 ص 24
من المنصور الى علوج على	مطلع عام 990	دار الوثائق بالرباط . مخطـوط ص 68
من المنصـور الى الملك الاسبانى فيليب الثانى	26 رجب 990	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من القائد ابن تميم الى فيليب الثانى	منتصف شعبان 990	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى السفير الاسبانى بالمغرب	30 محرم 991	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
رسالة أخرى منه اليه	17 محرم عام 991	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى القائد احمد الكوش	22 ربيع الاول 991	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى السفير الاسبانى بالمغرب	22 ربيع الاول 991	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى الاسبانى Venegas	15 رجب 991	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى الاسبانى (دوق سيدونية)	23 رجب 991	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى فيليب الثانى	رمضان عام 991	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من القائد ابراهيم بن محمد الى (سيدونية)	مطلع عام 992	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من القائد ابراهيم بن محمد الى فيليب الثانى	مطلع عام 992	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257

من المنصور الى شيخ توات	مطلع عام 992	كنون : رسائل سعدية . ص 105
من القائد ابراهيم بن محمد الى (سيدنية)	رمضان 992	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى السفير الاسباني بالمغرب	6 شوال 992	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى القائد ابراهيم بن محمد	8 شوال 992	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من القائد ابى القاسم بن محمد الى السفير الاسبانـــي	8 شوال 992	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من القائد ابراهيم بن محمد الى (سيدونية)	اواخر شوال 992	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من القائد ابراهيم بن محمد الى فيليب 2	القعدة 992	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى فيليب الثاني	الحجة 992	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى فيليب الثاني	ربيع الاول 994	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى فيليب الثاني	ربيع 1 995	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
من المنصور الى (دون انطونيو) البرتغالي	جمادى الاولى 996 هـ	م. ص. ت. م انجلترا — ج 1 ص 492
من المنصور الى قاضي الجماعة بسوس	مطلع عام 997	كنون : رسائل سعديـــة . ص 150
من المنصور الى اهالي سوس	اوائل ربيع 1 997	كنون : رسائل سعديـــة . ص 160
من المنصور الى اهالي توات وتيكورارين	رجب 997 هـ	كنون : رسائل سعديـــة . ص 169
من المنصور الى اسكيا اسحاق بالسودان	جمادى1 ورجب997	الفشتالي : مناهل الصفا . ص 123
رسالة اخرى منه اليه	شعبان 997	كنون : رسائل سعدية . ص 132
من المنصور الى القائدين الانكليزيـــين (دراكه ونورس)	29 شوال 997	مجلة تطوان . عدد 9 . ص 76
من المنصور الى ايليزابيت	19 شعبان 998	مجلة تطوان . عدد 9 . ص 78
من المنصور الى قاضي تمبوكتو بالسودان	8 شوال عام 998	الفشتالي : مناهل الصفا . ص 131
من المنصورمخبرا بفتح السودان	7 شعبان 999	الفشتالي : مناهل الصفا . ص 143
من المنصور الى خضر باشا الجزائر	اواخر عام 999	دار الوثائق بالرباط ــ مخطوط . ك 278 ص 21
من المنصور الى ايليزابيت	ربيع 2 عام الف هـ	مجلة تطوان . العدد 3 و 4 . ص 55
من المنصور الى باي بن سوري بالسودان	عام 1001 هـ	كنون : رسائل سعدية . ص 116
من المنصور الى داود كانته بالسودان	عام 1002 هـ	كنون : رسائل سعدية . ص 127
من المنصور الى فيليب الثاني	14 صفر 1003 هـ	سيمانكاس باسبانيا . رقم 197
من المنصور الى فيليب الثاني	6 قعدة 1003 هـ	سيمانكاس باسبانيا . رقم 213
من المنصور الى القائد جودر باشـــا بالســـودان	6 حجة 1003 هـ	الفشتالي : مناهل الصفا . ص 183
من المنصور الى القائد منصور باشـــا بالسودان	6 حجة 1003 هـ	كنون : رسائل سعدية . ص 172
من المنصور الى الوزير سنان باشا	اوائل عام 1004 هـ	كنون : رسائل سعدية . ص 96
من المنصور الى السلطان محمد الثالث	منتصف عام 1004 م	دار الوثائق بالرباط . مخطوط ك 278 ص 342
من المنصور الى الباشا الجزائري مصطفى	منتصف عام1004هـ	كنون : رسائل سعدية . ص 254
من المنصور الى العالم المصري (البكري)	ربيع 1 1005 هـ	الفشتالي : مناهل الصفا . ص 189
من المنصور الى ايليزابيت	12 رمضان 1008 هـ	مجلة تطوان . عدد 8 . 79
من المنصور الى ايليزابيت	3 حجة 1008 هـ	مجلة تطوان . عدد 8 . ص 80
من المنصور الى ايليزابيت	23 شعبان 1009	مجلة تطوان . عدد 8 . ص 81
من المنصور الى ايليزابيت	مطلع عام 1010 هـ	دار الوثائق بالرباط . مخطوط . ك 278. ص 195
من المنصور الى ايليزابيت	13 محرم 1011 هـ	مجلة تطوان . عدد 8 . ص 81

من المنصور الى ابنه المامون بفاس	اوائل جمادى 1 1011	الافراني : نزهة الحادي . ص 147
من المنصور الى ابى فارس بمراكش	20 جمادى 1 1011	الافراني : نزهة الحادي . ص 155
من المنصور الى سليمان باشا بالجزائر	جمادى الاولى 1011	الافراني : نزهة الحادي . ص 166
رسالة اخرى منه اليه .	شعبان 1011	الافراني : نزهة الحادي . ص 142
رسالة اخرى منه اليه	اواخر 1011	الافراني : نزهة الحادي . ص 183
آخر رسالة للمنصور من فاس الى ابنه ابى فارس بمراكش	4 ربيع الاول 1012	الافراني : نزهة الحادي . ص 156

ثانيـا : الموضـــوعات الحضارية

الناحية الادارية

ظهير تولية المامون على فاس	في شعبان 986 هـ	دار الوثائق بالرباط. مخطوطك 278 ص 75
ظهير تولية على بن المنصور على سوس		دار الوثائق بالرباط. مخطوط ك278ص76
ظهير تولية على بن المنصور على تادلا		دار الوثائق بالرباط. مخطوط ك278ص82
ظهير تولية ابراهيم الشط على قيـادة الاسطـول		مناهل الصفا للفشتالى . ص 204
رسالتا توصية من المنصور الى فيليـب الثانى فى حق اسبانيين	فى 8 شعبان 899 هـ	دار الوثائق بالرباط . مخطوط ك 278 ص 38 — 40
نص بيعة امير بورنو للمنصور	عام 990 هـ	مناهل الصفا الفشتالى ص 69
نص ولاية عهد المنصور لابنه المامون	عام 993 هـ	مناهل الصفا للفشتالى ص 82
ظهير تولية محمد بن على الهوزالى علـى قضاء سجتانة	22 ربيع 1 عام1011	دار الوثائق بالرباط . مخطوط ك 278 ص 14
نموذج لحروف (شيفرة) المنصور		مجلة هيسبيريس لسنة 1927 . ص 221

الناحية الاقتصادية

ظهير امتياز لتاجر اسبانى	2 شوال 987	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
حذف النائبـة		رسائل سعدية . ص 145
نداء من المامون الى تجار فاس	جمادى 1 1010 هـ	نصيحة المغترين . مخطوط بدار الوثائق بالرباط ك 923 ص 25

الناحيـة الاجتماعيـة

ظهير توقير واحترام	اواخر شعبان 986	م. ص. ت. م بريطانيا ج 1 . ص 67
ظهير توقير واحترام	5 رمضان 1004 هـ	دار الوثائق بالرباط. مخطوطك278 ص42
من المنصور الى شريف مكة	عام 1005 هـ	مناهل الصفا . ص 187
رسالة تهنئة بالشفا من اهالى فاس الى المنصور	15 جمادى2 1010	روضة الآس . ص 96
نداء من المنصور واعظا ومرشدا		رسائل سعدية ص 262
ظهير تولية الوجانى شياخة الركـب الحجازي		دار الوثائق بالرباط. مخطوط ك278ص46
ظهير التقديم لخطبة الجمعة		دارالوثائق بالرباط. مخطوطك 278ص110
عقد تحبيـس		دارالوثائق بالرباط. مخطوط ك278 91

من المنصور الى القاضى ابى على حسن	عام 990 هـ	رسائل سعدية . ص 65
من المنصور الى البكري يطلب اجازتـــه	عام 991 هـ	دار الوثائق بالرباطمخطوطك 278ص58
اجازة البكري للمنصـــور	ربيع الاول 992 هـ	مناهل الصفا ص 269
من المنصور للمؤرخ مصطفى بن حسن	أواخر عام 992 هـ	رسائل سعدية ص 236
من المنصور الى القرافى يطلب اجازته	فى عام 998 هـ	رسائل سعدية ص 123
اجازة القرافى للمنصور	جمادى 1 عام الف هـ	مناهل الصفا ص 272
شكر المنصور للقرافى على اجازته	فى عام 1001 هـ	رسائل سعدية ص 230
من المنصور الى البكري	فى ربيع 1 1005 هـ	مناهل الصفا . ص 189
من المنصور الى الباشا التركى بمصر		رسائل سعدية ص 180



أول رسالة بعثها المنصور الى فيليب الثانى كما نسخها اللونسو القشتالى

ترجمان الملك الاسبانى الخاص

المكتبة الوطنية بمدريد — اسبانيا . مخطوط . رقم 257

النص الاصلى للرسالة التى بعثها رمضان باشا والى الجزائر الى الامير داود بن عبد المومن اثناء ثورته بسوس ضد عمه المنصور

سيمانكاس — اسبانيا — رقم E 160

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

E 492

صحيح ذلك

بعض مراسلات المنصور مع فيليب الثاني كما نسخها (اللونسو القشتالي)
المكتبة الوطنية بمذريد – اسبانيا – مخطوط – رقم 257

بعض مراسلات المنصور مع فيليب الثاني كما نسخها (اللونسو القشتالى)
المكتبة الوطنية بمدريد ــ اسبانيا ــ مخطوط ــ رقم 257

مطبعة النجاح الجديدة
الـدار البيضاء

الإيداع القانوني رقم : 2005/2532